حضارة الإمبراطورية البيزنطية





دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية
عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقاً



حضارة الإمبراطورية البيزنطية










al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

حضارة الإمبراطورية البيزنطية

دكتور
محمود سعيد عمران
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية
عميد كلية الآداب - جامعة بيروت العربية سابقاً
حائزة على جائزة جامعة الإسكندرية
للتميز العلمى عام ١٩٩٩م

2011



عدد الصفحات :- ٤١٦

المؤلف :- محمود سعيد عمران

عنوان الكتاب :- حضارة الامبراطورية البيزنطية

رقم الايداع :-



الاداره :- ٣٦ ش سوتير - الازريطة - أمام كلية الحقوق – جامعة الاسكندرية – جمهورية مصر العربيه
تليفاكس :- ٠٠٢٠٣٤٨٧٠١٦٣
محمول :- ٠٠٢٠١٢١٦٦٦٩١٣
الفرع الثاني :- ٣٨٧ ش قنال السويس – الشاطبي – الاسكندريه
Email: - darelmaarefa@gmail.com ,
d_maarefa@yahoo.com
Web site: - www.darelmaarefa.com

إهــــداء

إلى من أرى القمر على جبينهـــا

والأمــــل فـــى كلـــمـــاتهـــا

والزمـــــن فى خطـــــــواتهـــــا

إلى حفيدتى ياسمينا السعيد محمود عمران

أهدى هذا الكتاب

دكتور محمود سعيد عمران

تقديم:

عاشت الإمبراطورية البيزنطية ما يزيد عن أحد عشر قرناً ونصف من الزمان، كانت في المرحلة الأولى منها وريثة الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وكان لموقع الإمبراطورية المتميز ما جعلها على اتصال دائم بالشرق والغرب على السواء، ثم ما لبثت أن أصبح لها حضارتها الخاصة المختلفة عن الحضارة الشرقية والغربية. وإن كان لموقع الإمبراطورية مزّية الاتصال بالشرق والغرب، فأنه من جهة أخرى جعلها محط أطماع ما جاورها من دول. وظل الشرق من ناحية والغرب من ناحية أخرى يقتطع من أراضيها ما أمكنه حتى تقلصت أراضيها وقلت مواردها فعجزت عن صد الأخطار التي حاقت بها، وسقطت في النهاية على يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م.

والخوض في تفاصيل حضارة الإمبراطورية في كتاب واحد أمر يصعب تنفيذه، لأن مثل هذا العمل يحتاج إلى عدة مجلدات. والحقيقة إن هناك مؤلفات وإن كانت قليلة قيمة قام بها المؤرخون الغربيون، كما قام أيضاً بعض المؤرخين العرب بجهد ممتاز في هذا المضمار رغم ندرته وان اقتصر على ترجمة كتابين فقط، ويمكن متابعتهم في قائمة المراجع الملحقة في هذا الكتاب.

ولما كان الاهتمام بدراسة الحضارة البيزنطية يكاد يكون منعدماً في هذه المرحلة، لأهمية هذه الدراسة لاتصالها بتاريخ المسلمين في الشرق، ودول أوروبا في العصور الوسطى، وما خلفته لنا من حضارة في شتى المجالات، هذا فضلاً عن تدريس تاريخ وحضارة الإمبراطورية في الجامعات العربية، رأى الباحث أن يقدّم هذا الكتاب في حضارة الإمبراطورية البيزنطية، حتى يمكن التعرف على حضارة الإمبراطورية في المجال الداخلي، وفي مجال اتصال الإمبراطورية بالمسلمين بخاصة، والعالم الذي أحاط بها بعامة.

والله ولي التوفيق

الاسكندرية في ٢٠٠٧/١/٢٣

دكتور محمود سعيد عمران

المقدمة

تعريف بمسمّى الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها

يعتبر تاريخ الإمبراطورية البيزنطية كما يراه بعض المؤرخين مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية، ولعل ما دفع هؤلاء إلى الأخذ بهذه الفكرة، هو أن الحكام البيزنطيين كانوا يعتبرون ويسمون أنفسهم أباطرة الرومان، وأنهم خلفاء للقياصرة القدامى، كما أن علاقاتهم بالدول الأخرى كانت تقوم على هذا المفهوم.

ومن هنا نجد أن الإمبراطورية البيزنطية حاولت فرض سيطرتها على الأراضى التى كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية، ولقد كان هذا واضحًا فى بدايات العصور الوسطى فى كل من الشرق والغرب الأوروبى. كما أنه وإن كان هذا المفهوم قد انحسر عن الغرب الأوروبى إلى حد ما، فأنه كان لا يزال يسيطر على الأباطرة فى الجانب الشرقى من الناحية العملية. ومن ذلك ما طلبه الإمبراطور الكسيوس كومنيين Alexius Commenus (١٠٨١-١١١٨م) من قواد الحملة الصليبية الأولى بأن يقسموا له يمين الولاء والطاعة، وعليهم أن يردوا جميع الأراضى التى كانت تابعة للإمبراطورية قبل أن يسمح لهم بالعبور إلى آسيا الصغرى فى طريقهم إلى الشام. كما أن الإمبراطور مانويل الأول Manue I (١١٤٣-١١٨٠م) عندما تحالف مع الصليبيين لغزو مصر عام ١١٦٩م، كان يرى أن مصر كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية وعليها أن تعود مرة أخرى إلى حظيرة الإمبراطورية. والملاحظ أن كتّاب ومؤرخين الإمبراطورية البيزنطية اعتادوا على استعمال لقب الإمبراطور الرومانى لكل من يجلس على عرش

القسطنطينية. ومن ذلك نخلص أن الأباطرة البيزنطيين تمسكوا باستعمال لقب الإمبراطور الروماني، وأن كتابهم ومؤرخيهم استعملوا هذا اللقب لحكام دولتهم.

أما فيما يتعلق بالمؤرخين الغربيين والباباوات، فإن من كتب منهم للفترة السابقة لعام ٨٠٠م - وهو العام الذى حصل فيه شارلمان Charles The Great (٧٦٨-٨١٤م) على اللقب الإمبراطورى فإنه يذكر اللقب الإمبراطورى ويقرنه بالحكام الذين جلسوا على عرش القسطنيطينية، ومن ذلك ما كتبه المؤرخ جريجورى التورى Gregory of Tours وهو من مؤرخى العصور الوسطى المبكرة (ت٥٩٤م)، فقد كان يطلق لقب إمبراطور الرومان على أباطرة الإمبراطورية البيزنطية. كما أن المؤرخ الانجليزى بيده Bede (ت٧٣٥م) عندما تحدث عن قسطنطين الأول (٣٠٥-٣٣٧) يقرنه بلقب الإمبراطور الرومانى. أما البابا هادريان الأول Hadrian (٧٧٢-٧٩٥م) فإنه عندما كتب إلى شارلمان فى عام ٧٨٨م نجده يضفى اللقب الإمبراطورى فى معرض حديثه على حكام الإمبراطورية البيزنطية.

واختلف الحال تماما فى عام ٨٠٠م بعد ما توج شارلمان وحصل على اللقب الامبراطورى، فنجد المؤرخ اينهارد، Einhard (ت٨٤٠م)، عندما يتحدث عن الإمبراطورة ايرين Irene (٧٩٧-٨٠٢م) نجده يقول المزعومة إمبراطورة الرومان أو التى تدعى إمبراطورة الرومان. ومن ذلك يتضح أنه أطلق لقب إمبراطور على شارلمان ولقب المزعوم أو المدعى إمبراطور على الحاكم الذى يجلس على عرش القسطنطينية. ثم تغير الحال تماما عند المؤرخ نفسه عندما تحدث عن الأباطرة اللاحقين للإمبراطورة إيرين، فنجده يستعمل لقب إمبراطور القسطنطينية فقط، عندما يتحدث عن نقفور الأول Nicephorus 1 (٨٠٢-٨١١م) وعن ليو الخامس Leo V (٨١٣-٨٢٠م).

وسار على هذا المنهج معظم المؤرخين الغربيين إن يكن كلهم، فنجد على سبيل المثال أن المؤرخ الصليبى فوشيه أف شارتر Fucher of Charter (ت١١٢٧م) يكتفى بذكر لقب الإمبراطور عند الحديث عن الإمبراطور البيزنطى الكسيوس، أما المؤرخ الفرنسى أدو أف ديلOdo of Deuil الذى أرَّخ للحملة الصليبية الثانية فإنه يتحدث عن الإمبراطور مانويل الأول ويقرنه بلقب إمبراطور اليونان أو إمبراطور القسطنطينية، أو يكتفى بذكر لقب الإمبراطور. ونلاحظ الشيء نفسه في كتابات المؤرخ أوتو أف فريزنج Otto of Freising (ت١١٥٨م) فأطلق على الإمبراطور البيزنطى لقب إمبراطور اليونان، وفى الوقت عينه نجده يطلق على فريدريك بارباروسا Frederic Barbaroussa (١١٥٢-١١٩٠م) لقب الإمبراطور الرومانى بعد ما توّجه البابا هادريان الرابع (١١٥٤-١١٥٩م) فى مدينة آخن Aachen عام ١١٥٥م. ولا يختلف الحال عند المؤرخ الإنجليزى روجر أف وندوفر Roger of Wendover (ت١٢٣٥م)، فإنه عندما يتحدث عن الفترة المبكرة على سبيل المثال فإنه يصفه بالإمبراطور الرومانى، أما عندما يتحدث عن حكام الإمبراطورية البيزنطية فى مطلع القرن الثانى عشر فإنه يذكر لقب الإمبراطور مضافاً إلى إسم الحاكم، ولم يذكر كلمة الرومانى مثلما حدث مع الإمبراطور الكسيوس.

واقتفى أثر هؤلاء مؤرخو العصور الوسطى فإنهم عندما يتكلمون عن الإمبراطور البيزنطى قبل عام ٨٠٠م فإنهم يستعملون لقب الإمبراطور الرومانى للجالسين على عرش القسطنطينية، أما بعد عام ٨٠٠م فإنهم، يضفون اللقب على إمبراطور الغرب الأوروبى مثل فريدريك الأول باربروسا وفريدريك الثانى (١٢١٥-١٢٥٠م)، ومن هؤلاء المؤرخين المؤرخ الفلورنسى جيوفانى فيلانى Giovanni Villani، كما أن المؤرخين

بيزنطية البيزنطية بالإمبراطورية إلتصاقا أكثر يكونوا أن بهم الأحرى وكان قبرصة،
فإنهم ساروا على الدرب نفسه، فعندما يتحدث المؤرخ مخايراس Makhaeras عن مشرع زواج ابنة الإمبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوجوس John V Palaeologus (١٣٧٩-١٣٩١م)، من بطرس الثانى Peter II ملك قبرص (١٣٦٩-١٣٨٢م) فإنه يتحدث عنه بلقب إمبراطور القسطنطينية.

أما المصادر العربية وعلى رأسها القرآن الكريم فقد ورد فى الحديث عن حروب هرقل مع الفرس كلمة الروم "آلم، غلبت الروم، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون". والمتصفح لصفحات المصادر العربية يجد أن المؤرخين العرب درجوا على إطلاق كلمة الروم على الإمبراطورية البيزنطية، ولقب إمبراطور الروم على حاكم هذه الإمبراطورية.

مما سبق نجد أن المصادر البيزنطية تستعمل، بل يمكن القول أنها تمسكت باستعمال لقب الإمبراطور الرومانى لحاكم الدولة أو الإمبراطورية الرومانية على الدولة ذاتها طوال عهدها، وأن المصادر الغربية نجدها تستخدم لقب الإمبراطورية الرومانية والإمبراطور الرومانى حتى عام ٨٠٠م، حيث حصل شارلمان على اللقب الإمبراطورى، ثم لقب إمبراطور اليونان أو إمبراطور القسطنطينية بعد هذا التاريخ. أما المؤرخون العرب فقد استعملوا كلمة الروم. ولا نجد بين سطور هذه المصادر جميعها من بيزنطية أم أوروبية أم عربية من يكتب كلمة الإمبراطور البيزنطى، أو يستخدم تعبير الإمبراطورية البيزنطية. وعلى ذلك فإن هذه التسمية هى من مسميات المؤرخين المحدثين. وهناك تسمية أخرى يفضل بعض المؤرخين المحدثين إستخدامها فى الكتابة عن الإمبراطورية البيزنطية، وهذه التسمية هى الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

والمسميان المستحدثان لهما ما يبررهما، فعبارة الإمبراطورية الرومانية الشرقية مرجعها إلى أن الإمبراطورية الرومانية على عهد الرومان القدامى كانت مساحتها تشمل كل أنحاء أوربا والجزر البريطانية بالإضافة إلى آسيا الصغرى والشام ومصر والساحل الأفريقى حتى المحيط، وكانت عاصمتها مدينة روما. وعندما اعترف الإمبراطور قسطنطين الأول Constantin (٣٠٦-٣٣٧م) بالديانة المسيحية كدين فى الإمبراطورية عام ٣١٣ ونقل العاصمة من روما إلى المدينة الجديدة التى بناها وسميت باسمه وهى القسطنطينية عام ٣٣٠م، بدأت الإمبراطورية تتأثر بالحضارة الشرقية. يضاف إلى ذلك أنه لما تعذر حكم الإمبراطورية مركزيًا من القسطنطينية قسمت الإمبراطورية إدرايا إلى قسمين، القسم الشرقى وعاصمته القسطنطينية والقسم الغربى وعاصمته روما. وعندما انهالت جحافل البرابرة على الجانب الغربى وسقطت روما فى عام ٤٧٦م وتقطعت أوصال هذا الجانب الغربى، بقى الجانب الشرقى على حاله تقريبا حتى الفتح الإسلامى، حيث تم فتح الشام ومصر والساحل الأفريقى، وانضمت هذه الأقاليم للحكومة الإسلامية، وظلت القسطنطينية عاصمة كما هى لبقية الأقاليم الشرقية حتى سقطت على يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م. وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى تسمية الإمبراطورية البيزنطية بالإمبراطورية الرومانية الشرقية.

ومسمى الإمبراطورية البيزنطية هو الأخر من المسميات الحديثة وله ما يبرره، فكلمة بيزنطة مرجعها إلى أن الإمبراطور قسطنطين عندما بنى عاصمته القسطنطينية، بناها على أنقاض مدينة قديمة تدعى بيزنطة أسسها بيزاس Byzas قائد المجموعة اليونانية التى هاجرت إلى هذا الموضع فى القرن السابع قبل الميلاد، وعرفت المدينة باسم بيزنطة نسبة إلى هذا القائد.

وحول هذه المسميات جميعها من قديمها وحديثها نقول: أن إسم الدولة

يجب أن يرتبط أساساً بعنصرير هما: الجغرافية التى تسيطر عليها والشعوب التى تعيش على سطح هذه المساحة وحضارتها.

وإذا طبقنا هذه القاعدة على المسميات المختلفة نقول: إن تسمية الإمبراطورية الرومانية وهى التسمية التى تمسك بها الأباطرة البيزنطيون تسمية غير صحيحة، لأن الشعوب التى عاشت على المساحة الجديدة ليست رومانية، ولذا نترك هذه التسمية جانبا، أما فيما يتعلق بمسمى الإمبراطورية الرومانية الشرقية فهو أيضاً مسمى غير مقبول لأن كلمة رومانية غير صحيحة كما أسلفنا، كما أن استعمال كلمة الشرقية غير مقبولة، لأنه لا يوجد إمبراطورية رومانية غربية تشمل نصف أراضى الإمبراطورية القديمة معاصرة للإمبراطورية الشرقية. حقيقة أنه كان فى أول الأمر إمبراطور فى الغرب الأوروبى، ولكنه لم يكن يحكم الغرب كله بل كان يحكم أقاليم محدودة منه ولا يدين له كافة الحكام فى الغرب بالولاء والطاعة.

وعن ما يسمى بالإمبراطور اليونانى، فهو مرفوض أيضاً لأن الشعب لم يكن كله يونانياً بل كان اليونانيون يمثلون جانباً محدوداً منه. وبخصوص ما ورد من تسمية الإمبراطور البيزنطى بإمبراطور القسطنطينية فهو غير مقبول أيضاً من الناحية التاريخية، لأن مساحة الدولة لم تكن قاصرة على مدينة القسطنطينية، وإن المؤرخين الذين أضفوا هذه التسمية على الإمبراطور البيزنطى أطلقوها عليه من قبل التحقير والتقليل من شأنه، خاصة عندما إشتد العداء الدينى بين الشرق والغرب، وزادوا فى استعماله إبان فترة الحروب الصليبية عندما كان الغرب الأوروبى يُرجع أسباب فشل الحملات الصليبية إلى الإمبراطورية البيزنطية.

والآن ونحن أمام تحديد مسمى معقول وواقعى لهذه الإمبراطورية،

نقول "إمبراطورية" لأنها تحكمت على الأقل فى أقاليم شملت شعوبًا متعددة منها اليونان والبلغار وسكان آسيا الصغرى وإمتد نفوذها إلى الروسيا، أما عن إقران كلمة الرومانية بالإمبراطورية، فسبق أن فندنا هذه التسمية. حقيقية أن الإمبراطورية تمسكت بالتراث الرومانى، ولكن ذلك كان فى أول عهدها، ولكنها ما لبثت أن ابتعدت عنه تدريجيا، ومع مرور الزمن أصبح لها خصائص جديدة وتغلبت عليها الحضارة الهلينستية والشرقية، كما أنها استحدثت اللغة اليونانية بدلاً من اللاتينية، هذا فضلاً عن اعتناقها للديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسى بعكس الغرب الأوروبى الذى دان بالمذهب الكاثوليكى.

وعلى ذلك فإن تسمية الإمبراطورية البيزنطية هى أنسب التسميات لهذه الإمبراطورية. ورغم أن هذه التسمية من المسميات الحديثة إلا أنها تحدد كيان إمبراطورية لها مساحتها الجغرافية وتقاليدها وحضارتها على العكس من المسميات الأخرى التى يتداخل مفهومها مع مفاهيم أخرى.

وإذا كان هناك اختلاف حول مسمى الإمبراطورية البيزنطية، فهناك أيضًا اختلاف حول مفهوم الحضارة، وهى نقطة فى غاية الأهمية لأنها تحدد الموضوعات التى ندرسها تحت هذا المفهوم، فالبعض قال أن الحضارة هى Givilization، وتعنى الحضارة، المدنية أو التمدن، التحضر، أو رفعة فى الذوق أو التفكير. والبعض قال أنها Culture وهى تعنى الحضارة أو الثقافة. ومن هنا جاء الاختلاف فى مفهوم الحضارة عند الكتاب والمؤخين، ويخال لى أن الخلاف يرجع إلى البعض الذين لا تراث لهم، لذلك كانت الحضارة عندهم هى سلوك الأفراد فى المرحلة الحالية. بمعنى أنك إذا دخلت مدينة نظيفة ومرتبة كان لهؤلاء حضارة، أما أذا دخلت مدينة وكانت غير ذلك فلا حضارة عند هؤلاء القوم. والحقيقة أن النظافة والترتيب تحتاج إلى بضع سنين، أما

الحضارة فهى تحتاج إلى مئات سنين.

والحقيقة أن الأمر يختلف تمامًا، فالحضارة عندى هى كافة أنواع الإنتاج البشرى فى مجتمع ما فى فترة معينة، بما فيها نظام الحكم والأحوال الاقتصادية والعلمية والفنية والقانونية والمعمارية وغير ذلك من الجوانب العملية أو الفكرية. ولكل دولة أو مجتمع مراحل تكوينية حضارية تميزه. فالعرب كانت لهم حضارتهم قبل الإسلام، ثم كانت لهم حضارتهم فى صدر الإسلام وعصر الخلفاء الراشدين والدولة الأموية والعباسية وكافة مراحل الحكم الإسلامى حتى إلى ما نسميه حاليًا بالعصور الحديثة. وهى تختلف من مرحلة إلى مرحلة، ومن مكان إلى آخر. ومن كل هذا التراث تتكون حضارة الدولة.

وهناك حقيقة أخرى وهى أى حضارة لا تقوم على فراغ، فكل حضارة تأخذ مما قبلها ومما حولها، ثم ينصهر كل هذا فى المجتمع الجديد فتنشأ حضارة جديدة، لها خصائص جديدة. وإذا كنا بصدد الحضارة البيزنطية، فيمكن القول أن هذه الحضارة أخذت مما سبقها فى الحضارة اليونانية والرومانية والفارسية ثم دخلت عليها المسيحية بمفهومها الشرقى، فنشأت حضارة جديدة هى الحضارة البيزنطية، ثم تأخذ أيضًا من حضارة الدول التى تعاصرها مثل الحضارة الإسلامية والأوروبية، وهكذا نجد أن الحضارة ليست جسمًا جامدًا، ولكنها كائن حى يؤثر ويتأثر بمن سبقه وبما تعايشه وبما تعيش حوله، حتى تتبلو ويصبح لها صفات تختلف كثير أو قليلا عما سبقها أو عاصرها.

والكتاب الذى بين أيدينا يبدأ بالكتابة عن بناء القسطنطينية باعتبارها مدخلاً ماديًا لبناء الامبراطورية البيزنطية وحضارتها، ويليها تمشرق الإمبراطورية، أى أن السمة الشرقية بحضارتها هى التى تغلبت على حياة

المواطنين داخل الإمبراطورية. أما بقية فصول الكتاب فقد تناولت شتى نواحى الحياة تقريبًا داخل الإمبراطورية. وهنا تكمن صعوبة دراسة الجوانب الحضارية فى أى عصر من العصور، لأن من يتصدى لها عليه أن يكون على علم تام بكافة النواحى السياسية للإمبراطورية، وكافة النواحى السياسية والحضارة للمجتمعات التى سبقتها أو عاصرتها. ولكن ذلك لن يكون صعبًا على المتخصصين فى علم التاريخ لأن دراستهم التراكمية تجعلهم مؤهلين تمامًا لفهم هذا الكتاب.

الفصل الأول

بناء القسطنطينية

قامت مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة الإمبراطورية البيزنطية التى أصبحت الديانة المسيحية دينا لها بدلاً من مدينة روما التى كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد دشنت هذه المدينة فى عام ٣٣٠م، لذلك يتطلب الأمر العودة إلى الوراء قليلاً حتى تتضح الظروف التى دعت إلى إنشاء هذه المدينة التى ظلت علامة بارزة فى تاريخ وحضارة الامبراطورية، وفى تاريخ العالم الوسيط أيضا حتى سقطت فى عام ١٤٥٣م على يد الأتراك العثمانيين، ولتكن البداية منذ عهد الإمبراطور دقلديانوس.

دقلديانوس Diocletioan ٢٨٤-٣٠٥م.

ولد دقلديانوس بالقرب من مدينة سالونا Salona فى إقليم دالماشيا عام ٢٤٨م، وقد أطلق إسمه على مدينة صغيرة تقع فى هذا الإقليم، حيث كان مسقط رأس أمه. وكان والداه عبدين فى بيت أنولينوس Anulinus أحد أعضاء مجلس السناتو. وعلى ما يبدو أن والده حصل على حرية الأسرة، وأن دقلديانوس قد حصل على وظيفة كاتب، وهى من الوظائف التى يمكن أن يشغلها أمثال دقلديانوس. وبفضل جهوده ونبوغه وصل إلى مرتبة القنصل، ثم تولى وظيفة قائد حرس القصر الإمبراطورى، وهى من الوظائف الخطيرة، وتجلت كفاءته العسكرية فى حرب فارس. وبعد موت نومريانوس Numerianus (٢٨٣-٢٨٤) أعترف به بأنه أجدر شخص بعرش الإمبراطورية.

ويبدو أن أول ما قام به دقلديانوس هو تعيين مكسيميان Maximian زميلاً له فى الحكم، وبذلك حذا حذو ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius (١٦١-١٨٠م) ومنحه لقب قيصر Caesar فى بداية الأمر، ثم أضفى عليه

لقب أوغسطس Augustus فيما بعد، والواقع أن مكسيميان كان صديقاً لدقلديانوس ورفيقه في السلاح.

قام دقلديانوس ببعض الإصلاحات ليواجه بها الأزمة التي انتابت الإمبراطورية، فأعاد النظر في نظم الإمبراطورية وألغى ما اعتبره فاسداً وأبقى على ما رآه غير ذلك، واستحدث بعض التنظيمات التي رأى أنه يستطيع بها حل مشاكل الإمبراطورية. واستهدفت إصلاحات دقلديانوس تقوية سلطة الإمبراطور، وإقامة جهاز إداري دقيق يمكنه من السيطرة على شؤون الإمبراطورية، والفصل بين السلطة العسكرية والمدنية. وقد رأى دقلديانوس أيضاً أن الإمبراطورية التي يهاجمها البرابرة من كل جانب تتطلب قوة عسكرية كبيرة في كل موضع من المواضع المعرضة لغاراتهم. لذلك كله قسم دقلديانوس الإمبراطور إلى قسمين؛ شرقي وغربي، حكم كل منهما حاكم يحمل لقب أوغسطس، وتولى دقلديانوس القسم الشرقي بينما تولى مكسيميان القسم الغربي. وتم تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام إدارية عرفت باسم Prefecrure؛ الأولى منها هي إيطاليا وعاصمتها ميلان Milan، والثانية غالة وعاصمتها تريف Triev الواقعة على نهر الراين، والثالثة إلليريا Illyricum وعاصمتها سرميوم Sirmium وهي بلغراد الحالية، أما الرابعة منها هي الجانب الشرقي وعاصمتها نيقوميديا الواقعة على الشاطئ الآسيوي للبسفور. هذا وتولى وظيفة القيصرين جاليروس Galerius الذي تبناه دقلديانوس وقسطنطيوس Constantunus الذي تبناه مكسيميان. وألزما كل من القيصرين بطلاق زوجتيهما والتزوج من ابنة متبنية، واقتسم هؤلاء الأربعة الإمبراطورية فيما بينهم، فتولى قسطنطيوس مهمة الدفاع عن غالة وإسبانيا وبريطانيا واتخذ من تريف مقراً له، واعتبرت إيطاليا وشمال أفريقيا في نطاق حكم مكسيميان واتخذ من ميلان مركزاً لحكمه، أما دقلديانوس

فاحتفظ بإقليم تراقية Thrace وآسيا الصغيرى وسوريا ومصر، وحكم جاليروس إلليريا وأقام فى سرميوم الواقعة على نهر الدانوب. وكان كل من الحكام الأربعة سيداً فى نطاق إقليمية، ولكن سلطتهم المتحدة إمتدت على الإمبراطورية بأكملها، وكانت القرارات والأوامر تصدر باسمهم جميعا. ويلاحظ أن هذا التقسيم لم يتم إلا بعد اشتراك مكسيميان فى الحكم لست سنوات.

وكان النظام الرباعى يقضى بأنه عندما يعتزل الأوغسطس الحكم يخلفه القيصر الذى يرقى إلى أوغسطس ويعين لمساعدته قيصراً جديداً وهكذا تباعًا. أما الجيش فكانت قواه موزعة بين شركاء الإمبراطورية الأربعة. ورغم كل هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية فى العالم الرومانى شيئاً فشيئاً، وساد مبدأ التقسيم الذى كان سبباً فى الفصل الدائم بين أجزاء الإمبراطورية فى بضع سنين قليلة. وثمة عيب آخر إلى جانب نزعة التقسيم وهو فداحة تكاليف الإدارة الحكومية الجديدة مما أدى إلى زيادة الضرائب.

وعلى أية حال فإن تجربة دقلديانوس لم تلق النجاح المرجو رغم فكرتها الرائعة، فإلى جانب المشاكل المتأصلة ابتليت الإمبراطورية بعدة نكبات، منها هجمات البرابرة المستمرة على الحدود، وقيام الحرب الأهلية. وهذا بدوره أدى إلى تفشى الطاعون ونقص عدد السكان وضعف التجارة والصناعة. وترتب على ذلك أيضاً زيادة الأسعار بدرجة كبيرة أدت إلى نقص قيمة العملة مما دفع دقلديانوس إلى أصدار القرارات الخاصة بتحديد أسعار السلع والمواد الغذائية، ووضع العقوبات لكل من يخالف ذلك، ولكن دون جدوى. وكان من أكبر المشاكل التى سادت مدة حكم دقلديانوس مشكلة المسيحية التى عارضها الإمبراطور بعنف، حتى أنه صادر أملاك الكنائس ومنع المسيحين من أقامة شعائرهم وألزمهم بعبادة الأوثان. وكان من تعسف

دقلديانوس مع المسيحيين أن أطلق على عصره عصر الشهداء.

وفى عام ٣٠٥م اعتزل دقلديانوس الحكم وعمره تسعة وخمسين عاماً بعد أن أصيب بعلل الشيخوخة المبكرة، وقضى دقلديانوس أعوامه التسعة الأخيرة من عمره معتكفًا عن الحياة العامة. وفى الوقت نفسه اعتزل مكسيميان الحكم فى ميلان وفقاً لاتفاق سابق مع دقلديانوس.

قسطنطين الكبير Constatin the Great (٣٠٥-٣٣٧م) ت

تمثل العيب الأساسى فى نظام الحكم الرباعى فى أنه كان لمكسيميان ابناً هو مكسنتيوس Maxentius، وكان لقسطنطينوس ابناً هو قسطنطين، وتحكم فى كلاهما العطف الأبوى على نظام الانتخاب، وحاول جاليروس أن يفرق بين قسطنطنيوس وابنه، ولكن هذه المحاولات لم تفلح ولحق قسطنطين بأبيه فى الجزر البريطانية. وعندما مات الوالد فى مدينة يورك York نادت الحامية الرومانية بقسطنطين أوغسطساً.

وفى الوقت عينه أقام مكسنتيوس نفسه حاكماً على إيطاليا وشمال أفريقيا. واتسم حكمه بالطغيان فنفرت منه الرعية، وكان فى ذلك فرصة طيبة لقسطنطين الذى زحف بجيشه وتولى إدارة غالة، ثم ما لبث أن غزا ايطاليا وهزم مكسنتيوس وقتله عند جسر ميلفيان Milfian عام ٣١٢م خارج مدينة روما، وأعدم أبناءه ونكل بكل من ينتمى إليه. وتوقع أعوانه أنهم ملاقون نفس المصير. ولكن قسطنطين الذى امتاز بخططه الدفاعية البارعة فى الحرب امتاز أيضاً بالمناورات السياسية فى السلم، فأصدر عفواً عاماً هدأت به الخواطر. وعندما زار مجلس السناتو أكد احترامه لهذا المجلس ووعد بتدعيم مكانته وامتيازاته القديمة، ورد المجلس على هذا بإصدار مرسوماً يقضى

بتعيين قسطنطين فى المكان الأول بين الأباطرة الذين يحملون لقب أوغسطس. وواقع الأمر لم يكن قسطنطين فى حاجة إلى مثل هذا المرسوم لأن المجلس لم تعد له سلطة فعالة، بل كانت السلطة الحقيقية فى يد قسطنطين معتمداً على رجال الجيش وعلى النصر الذى أحرزه على منافسيه.

ويلاحظ أنه فى الفترة الممتدة من ٣٠٥-٣١١م وهى الفترة المضطربة التى تلت اعتزال دقلديانوس ومكسيميان، كان يحكم الإمبراطورية جاليروس بالاشتراك مع قسطنطيوس الأول وسيفريوس الثانى Severus وليسينوس Licinius وقسطنطين الأول ومكسيميان فى فترات مختلفة. ومنذ عام ٣٠٩م كان هناك ستة حكام يحملون لقب أوغسطس، ثم انفرد قسطنطين الأول وليسنيوس بالحكم من ٣١٢-٣٢٤م، وساد هذه الفترة أيضاً الفوضى والاضراب والحروب الأهلية نتيجة لمطامع كل منهما، ونشبت الحرب الأهلية من جديد وانتصر قسطنطين على منافسة عام ٣٢٤م وانفرد بالسيادة على الإمبراطورية بعد معركتى أدرنة Adrianoph وكريسوبوليس Chrysopolis، وانتهى الأمر بموت ليسينوس. وألغى قسطنطين النظام الرباعى وعين حكاماً يساعدونه فى إدارة شؤون الإمبراطورية. ويلاحظ أنه قبيل وفاة قسطنطين تم إعادة تقسيم الإمبراطورية من جديد، وفى هذه المرة قسمها بين أولاده لكى يجنب البلاد النزاع الدموى، ولكن الخلافات ما لبثت أن قامت بين أولاده ونتج عنها الفوضى والاضطراب، ورغم هذا فإن مبدأ تقسيم الإمبراطورية إلى أقاليم أصبح المبدأ السائد فيما بعد لمرحلة ما.

شخصية قسطنطين:

أعطت الطبيعة شخص قسطنطين وعقله أثمن ما لديها، فكان فارع الطول، مهيب الطلعة، محمود السيرة، واحتفظ منذ طفولته حتى آخر أيام

حياته بقوته وصحته بفضل ما التزم به من العفة وضبط النفس، وكان بشوشاً سمحاً يمزح فى تحفظ، ولم يك لقلة تعليمه أثراً على تقديره للعلم والتعليم، ولذلك حظت العلوم والفنون فى عهده بالتشجيع والرعاية. وكان عندما يعمل فهو يعمل دون كلل أو ملل ، وكانت له عزيمة ماضية. فكان يقرأ ويكتب ويفكر ويستقبل السفراء وينظر فى شكاوى مواطنيه. وكان عندما يتبنى مشروعاً فإنه يعمل فيه بكل حواسه ولا يعوقه عنه عائق. وفى ميدان المعركة فقد كان قائداً يقود رجاله فى عزم. وكان طموحاً إلى أبعد الحدود وعرف كيف يضع يده على نبض إمبراطوريته وهى فى محنتها. ويبدو من ذلك أنه قد ملك حواسه منذ اللحظة التى نادت به الحامية الرومانية فى انجلترا أوغسطساً، لأنه كان مدركاً لم تنطو عليه نفسه من مواهب وتطلعه إلى أنه سوف ينجح فى حروبه ضد منافسيه، لتفهمه لروح شعب الإمبراطورية التى قارنت بين حكمته وعدالته وبين الرذائل المتأصلة فى منافسيه، مكسنتيوس وليسينوس. لذلك يمكن القول أن نجاحه ينسب إلى قدراته أكثر مما ينسب إلى حظه.

وواقع الأمر أن الحديث عن الإمبراطور قسطنطين وكيفية توليه العرش الإمبراطورى وعن شخصيته وعهده تضيق بها هذه الصفحات، لذلك فإننا نكتفى بإلقاء الضوء على عملين من أهم أعماله، أولهما: الاعتراف بالديانة المسيحية، وثانيهما بناء مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة جديدة للإمبراطورية.

والمقصود بالاعتراف بالديانة المسيحية هو أن قسطنطين أعلن الاعتراف بالديانة المسيحية كدين داخل الإمبراطورية وليس ديناً رسمياً، والأمر الأخير تم فى وقت لاحق لعهد قسطنطين، أما مسألة اعتناق قسطنطين المسيحية فهو موضوع آخر، وسوف نتناول كل موضوع منهما على حدة.

١- الاعتراف بالمسيحية ديناً داخل الإمبراطورية:

عندما اعتلى قسطنطين العرش البيزنطى، كانت الديانة المسيحية قد تغلغلت فى كيان الإمبراطورية منذ حوالى ثلاثة قرون تقريباً, وقد حاول بعض الأباطرة القضاء على هذه الديانة بالعنف والدم مثل دقلديانوس وجالريوس. فقد كان جالريوس رجلاً دموياً شديد البأس على المسيحيين، ولم تجد قسوته نفعاً بل انتشرت المسيحية أكثر من ذى قبل. وقد وجد جالريوس نفسه بعد سنوات من الاضطهاد أن سياسة العنف هذه سياسة فاشلة، واقتنع آخر الأمر بأن العنف والاستبداد لا يقضيان على شعب بأسره وعلى معتقداته الدينية . ولعل ذلك كان ناتجا عن اعتلال ألمّ بصحته لفترة ليست بقصيرة، فأصدر عن طيب خاطر - لإصلاح ما افسدته يداه - مرسوما عاماً يحمل إسمه وإسم ليسينوس. ومن هذا المرسوم "... لقد اتجهت إرادتنا إلى بسط مزايا رأفتنا المألوفة على هؤلاء الأفراد المسيحيين التعساء، ولذلك نرخص لهم في إعلان آرائهم الخاصة فى حرية تامة، وفى عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف أو إزعاج، شريطة أن يظهروا دوماً الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة، وإنا لنأمل أن يكون تسامحنا دافعاً إلى الصلاة والتضرع إلى الإله الذى يعبدوه من أجل سلامتنا ورخائنا وسلامتهم ورخائهم وسلامة الإمبراطورية ورخائها".

وعلى ما يبدو أن أعوان جالريوس لم ينشروا هذا المرسوم كما هو، وإنما نشروا تعليمات إلى حكام الولايات تحدثوا فيها عن رفق الأباطرة بالمسيحيين وأشاروا فيها على رجالهم بوقف محاكمة المسيحيين وغض الطرف عن الاجتماعات السرية. وأعقب ذلك إطلاق سراح المعتقلين منهم. ولكن ذلك لم يدم طويلاً بسبب حكم جالريوس القصير ٣٠٥-٣٠٦م، وما تبع ذلك من اضطرابات داخل الإمبراطورية.

مرسوم ميلان:

بعد ما انتصر قسطنطين على منافسيه فى موقعة ميليفان عام ٣١٢م أعلن الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلان الشهير الذى أعاد السلام والهدوء إلى الكنيسة المسيحية. وواقع الأمر أن قسطنطين لم ينفرد بإصدار هذا المرسوم بل شاركه فى مسؤوليته شريكه فى الحكم على النظام الدقلديانوسى الأغسطس ليسينوس، وقد استقبل هذا المرسوم على أنه قانون أساسى من قوانين العالم الرومانى، ومن هذا المرسوم:

"عندما تقابلنا نحن، قسطنطين أوغسطس وليسينوس أوغسطس فى ميلان مكلين بالرعاية والعناية، أخذنا نبحث فى جميع الوسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا. ومن هذه المسائل التى تهم الكثيرين وتعود بالنفع عليهم مسألة حرية العقيدة. لذلك قررنا إصدار مرسوم يضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى حرية اختيار وممارسة العقيدة التى يرتضونها، وبذلك نضمن رضاء جميع الآلهة والقوى السماوية علينا، كما نضمن رضاء جميع رعايانا ممن يعيشون فى كنف سلطاتنا. وهكذا قررنا عن ثبات وتعقل ألا يحرم أى فرد كائناً من كان، من اختيار المسيحية ديانة له. ولكل فرد الحرية فى اختيار الدين الذى يناسبه. وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة اللذين تعودناهما منه ... وهذا المرسوم الذى صدر من فيض كرمنا يجب أن يذاع على الجميع ويجب أن يحاط به الجميع علماً وينشر فى كل مكان حتى لا يفوت أحد الأخذ به".

والنص الخاص بالفقرة الأخيرة كما هو منشور باللغة الانجليزية كالآتى:

So that the form of this ordinance and our benevolence

may come to the attantion of all men. If will be convenient for you to promulgate these letters everywhere and bring them to the knowledge of all, so that ordinance of our benevolence may not be hidden.

وعلى ذلك فنحن أمام الحقائق التالية:

١- أن المسيحية ظلت حركة سرية منذ بدايتها حتى إعلان مرسوم ميلان.

٢- تناول بعض الأباطرة المسيحيين بالاضطهاد والتعذيب وغالى بعضهم في ذلك.

٣- لم يكن مرسوم ميلان أول مرسوم بالتسامح مع المسيحيين بل سبقه المرسوم الذى حمل إسم جالريوس وليسينوس.

٤- أن مرسوم جالريوس لم يُعمل به لقصر مدة حكم الإمبراطور.

٥- لعل في العبارة الأخيرة الواردة في مرسوم ميلان ما يؤكد ذلك وأن عبارة Not be hidden ، تشير إلى الخوف من سابقة حدثت تحوم حول ما تنطوى عليه هذه العبارة من معنى ويخشى تكرارها.

٦- إن مرسوم ميلان لم يصدره قسطنطين منفرداً بل صدر منه ومن شريكه في الحكم ليسينوس.

واستكمالا لمحتوى مرسوم ميلان، نقول: إن المرسوم قضى بردّ كل الحقوق الدينية إلى المسيحيين الذين كانوا حرموا منها ظلماً وعدواناً، ونص علـــى أن تعاد للكنيسة كل أماكن عبادتهم والأراضى العامة المصـــادرة دون جدل أو إبطاء أو تكلفة. واقترن هذا الإنذار الصارم بوعد كريم يقضى بأن

يدفع – لمن اشتروا أملاك الكنيسة ودفعوا مبالغ كبيرة – تعويض من خزانة الإمبراطورية.

ومع تتبع قضية الاعتراف بالمسيحية ندخل فى قضية أخرى، وهى متى أصبح قسطنطين مسيحيا؟ لعل النصوص التى تركها المؤرخون المعاصرون لعصر قسطنطين هى التى أوجدت جدلاً حول هذا الموضوع. فنجد أحدهم يسجل أن الإمبراطور اعتنق المسيحية منذ اللحظة الأولى من حكمه، بينما يرى آخر أن إيمان قسطنطين مرجعه إلى شارة الصليب التى ظهرت فى السماء عام ٣١٢م. وموجز هذه الرواية أن قسطنطين عندما كان يعدّ العدة للقاء منافسيه، شاهد فى السماء راية الصليب وعليها طرة نصها "عز نصره"، مكتوبة بأحرف من نور، وأن الإمبراطور اتخذ تلك الطرة شعاراً للوائه فى حروبه. وهناك رواية ثالثة تختلف عن هذه وتلك، ورابعة تقول: إن قسطنطين لم يُعمّد إلا على فراش الموت. وأنه تلقى فى النزع الأخير التعاليم المسيحية حيث وضع الأسقف يده على رأسه وأتم إجراء الطقوس الدينية، ثم ما لبث أن أسلم الإمبراطور الروح. ولعل ما دفع المؤرخين إلى هذا الخلط وتعدد زواياتهم تصرفات قسطنطين نفسه.

الواقع أن هناك تدرج بطئ غير محسوس انتهى بإعلان قسطنطين نفسه حامياً للمسيحية. فلقد كان من الشاق على قسطنطين أن يمحو من ذهنه ما تلقنه من عادات ومعتقدات وثنية، وأن يؤمن بالديانة المسيحية ويعلن ذلك بين يوم وليلة، فلقد علمته أيضا التأملات التى يحتمل أنها شغلت ذهنه أن يسير بخطى حذرة فى تغيير الديانة الوطنية، وهو تغيير له خطره وأهميته.

والخلاصة أن تيار المسيحية تدفق طوال سنى حياته فى حركة هادئة وإن كانت سريعة الخطى. ولكن حذر قسطنطين عوق تارة وانحرف تارة

أخرى بالاتجاه العام للمسيحية. فلقد وازن قسطنطين دائماً بين آمال رعاياه وبين مخاوفهم، ومن ذلك أنه كان يصدر مرسومين فى وقت واحد، الأول ينص على الاهتمام الشديد بيوم الأحد وفى ذلك نصر للمسيحيين، والثانى يحض على استشارة العرافين وفى ذلك نصر للوثنية. ولا شك أن مثل هذه الأمور جعلت المواطنين من مسيحيين ووثنيين يراقبون سلوك إمبراطورهما بنفس القدر من القلق وإن اختلفت مشاعر كل منهما.

واستكمالاً لهذه القضية نضع سؤالاً نقول فيه، ما هى الدوافع التى دفعت قسطنطين إلى الاعتراف بالمسيحية؟ اختلفت الآراء حول هذه الدوافع، البعض يرى أن قسطنطين اعترف بالديانة بالمسيحية عن اقتناع وعن إيمان وحجتهم فى ذلك منبثقة من خلق قسطنطين وتصرفاته إزاء المسيحيين. ومن ذلك مثلاً بناء العديد من الكنائس. والرأى المضاد يعتمد على تصرفات قسطنطين تجاه الوثنية التى لا تقل سخاء عن ما قدمه للمسيحيين. ويرى فريق ثالث أن إيمان قسطنطين بالمسيحية مرجعه الدوافع السياسية وعلى رأس هذه المجموعة المؤرخ هنرى جريجوار Henry Gregoire ، فيقول هنرى فى معرض حديثه عن فترة حكم قسطنطين من كان يريد الشرق، فعليه أن يكون مسيحياً أو صديقاً للمسيحيين. ولم يك قسطنطين يستطع أن يسيطر على الشرق وهو الجزء الغنى من الإمبراطورية برجاله وموارده إلا بمهادنة المسيحيين، خاصة فى الوقت الذى بدأت فيه العناصر الجرمانية تتحرك صوب غرب الإمبراطورية.

وفى نهاية الأمر نستطيع القول أن قسطنطين كان رجلاً على مستوى عالٍ من الذكاء، فلم يك يستطع أن يعلن أنه مسيحى، فيغضب الوثنيين. ولم يكن يستطع أن يعلن أنه باقٍ على وثنيته، وفى هذه الحالة يتطلب الأمر منه أن يتخذ موقفاً من المسيحيين وهذا ما لم يحدث، بل إنه عايش الاثنين معاً وإنه

كان يميل إلى المسيحية شيئا فشيئا حتى أصبح فى آخر الأم مسيحيا.

٢ - بناء القسطنطينية

داب قسطنطين وتبعا لدواعى الحرب والسلم على التحرك فى يقظة تامة على حدود مملكته الشاسعة. وكان دوما على أهبة الاستعداد لملاقاة أى عدو خارجى أو داخلى. وعندما تقدمت به الأيام بدأ يتدبر مشروعا تستقر به قوة العرش الإمبراطورى في مكان أشد ثباتا من روما، وبدأ يفكر فى بناء عاصمة جديدة للإمبراطورية. ولكن موضع القسطنطينية هو الموضع الأخير الذى اختاره قسطنطين فى نهاية الأمر، فقد طرأت على ذهنه عدة أماكن لتكون مقر حكمه الجديد، فنجد أنه نظر إلى مسقط رأسه مدينة نيش Nis الواقعة على نهر مورافا Morava شمال شبه جزيرة البلقان، ومدينة سرديكا Sardica (صوفيا Sofia الحالية) ومدينة نيقوميديا التى اتخذها دقلديانوس من قبل. ولما كان قسطنطين يفضل منطقة الحدود بين أوروبا وآسيا ليتمكن من ضرب البرابرة الذين كانوا يقطنون الدانوب، ويراقب بعين ساهرة تحركات الفرس، فلقد كانت نيقوميديا أنسب المدن لتكون عاصمة الإمبراطورية. ولما كان قسطنطين لا يريد أن يربط مدينته الجديدة بذكرى دقلديانوس، لذلك آثر اختيار موضعا آخر يرقب منه تحركات الفرس والبرابرة، وكان هذا الموضع هو قرية بيزنطيوم التى بنى على أنقاضها مدينة القسطنطينية. بداية من عام ٣٢٤م.

وموقع المدينة الجديدة فى شكل مثلث على خليج البسفور يلتقى طرفه المنفرج الذى يمتد شرقا إلى شواطئ آسيا بأمواج البسفور، وتحدّ الميناء الجزء الشمالى من المدينة، أما الجنوب فتحفه مياه بحر مرمرة، ومن ناحية الغرب، تقع قاعدة المثلث التى تواجه قارة أوروبا. واكتسب ميناء القسطنطينية إسم

القرن الذهبى، لأن الانحناء الذى يرسمه يمكن تشبيهه بقرن الغزال، ولفظ ذهبى يعبر عن الثروة التى تدفقت على المدينة من أقصى الأرض إلى ثغر المدينة الواسع الأمن، لأن الميناء كان واسعا ومناسبا جداً لعملية الشحن والتفريغ حيث يندر حدوث المد والجزر. وكان طول لسان البسفور إلي مصب نهر ليكوس Lycus - الذى يمد المدينة بالماء العذب - إلى الميناء أكثر من سبعة أميال، ويبلغ عرض مدخل الميناء خمسمائة ياردة، ويمكن عند الضرورة وضع سلسلة متينة تحمى الثغر والمدينة من هجوم أى أسطول معاد، كما كان الحال فى مدن العصور الوسطى مثل مدينة دمياط فى مصر.

والعاصمة الجديدة تقع على خط عرض ٤٣ وخط طول ٢٩ وتسيطر المدينة على تلالها السبعة، وهى تتمتع بمناخ صحى معتدل وتربة خصبة، ومدخلها إلى القارة الآسيوية قصير المدى، والدفاع عنه ميسور. كما أن خليجى البسفور والدردنيل يعتبران بوابتين للقسطنطينية ويستطيع من يسيطر عليهما أن يغلقهما فى وجه أى أسطول معاد ويفتحهما فى وجه السفن التجارية، وما يتبع ذلك من تدفق الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال والجنوب عبر البحر الأسود والبحر المتوسط.

لعل فى كل ما سبق مبررا كافيا لاختيار قسطنطين لهذا الموقع، ولكن ثمة مزيج من المعجزة والخرافة كان يعكس فى كل عصر قدراً من العظمة على نشأة المدن الكبرى. ولهذا نرى قسطنطين ينسب اختيار هذا المكان إلى القوة الإلهية، واهتم بأن يسجل في إيجاز بأنه امتثالاً لأوامر الله، وضع الأساس لمدينة القسطنطينية الخالدة، واستطرد خيال الكتاب اللاحقين لعصره وسجلوا أن شبحاً تراءى ليلا لقسطنطين وهو نائم فى رحاب بيزنطة، وقالوا: إن ربة المدينة وحارستها وهي سيدة عجوز تحولت فجأة إلى شابة ظهرت فى أزهى زينتها حين ألبسها الإمبراطور بيديه شارات الإمبراطورية، وأستفاق

قسطنطين من نومه وفسر الفأل السعيد وامتثل لإرادة السماء دون تردد. ووردت أسطورة أخرى تقول: إن الإمبراطور سار على قدميه تتبعه حاشيته كلها، ورسم بحربته الخط الذى يجب بناء التحصينات الجديدة بحذائه، ولما سار غربا على ساحل القرن الذهبى وابتعد عنه ميلين قال له رجاله: "لقد تجاوزنا الحدود التى تتطلبها المدينة" ولكن قسطنطين أجاب: "سأسير فى الطريق حتى يرى الدليل الخفى الذى يسير أمامى أنه من المناسب أن أتوقف".

وحول تفاصيل إنشاء المدينة الخالدة وهى القسطنطينية يقول المؤرخون أن الإمبراطور أقام خيمته اثناء حصار قرية بيزنطة فوق التل الثانى، من تلالها السبعة، الذى يشرف على القرية بأكملها. وتمجيدا لهذا المكان الرائع وقع اختيار قسطنطين عليه ليكون الميدان الرئيس للمدينة، وقد تم تحديده بشكل شبه دائرى، ووضع لهذه الساحة مدخلان متقابلان أقيم عليهما أقواس النصر. ووضع فى وسط هذه الساحة عاموداً على قاعدة من الرخام الأبيض ترتفع عشرين قدما. أما العامود نفسه فقد وصل ارتفاعه مائة وعشرين بما فيه القاعدة. وقد وضع فوق هذا العمود تمثالٌ من البرونز للإله أبولو أوتى به من مدينة أثينا أو أحد المدن الأخرى. أما محيط الميدان فقد امتلأ بالأروقه (البواكى) تجملها مجموعة من التماثيل.

وفيما يتعلق بتمثال أبولو فقد رأى البعض بعد ذلك أنه يمثل الإمبراطور قسطنطين وهو يحمل الصولجان فى يده اليمنى، وشكل للكرة الأرضية فى يده اليسرى. وفى المدينة الجديدة تم وضع بناء لميدان السباق أو السيرك، وكان بناء رائعاً يبلغ طوله حوالى أربعمائة ياردة، وعرضه نحو مائة ياردة، وزين المكان بالتماثيل والمسلات. كما بنى بالمدينة كنيسة آيا صوفيا لتعطى للمكان روحا دينية جديدة.

ومن منصة الإمبراطور حيث كان يجلس لمشاهدة الاحتفالات وألعاب السيرك، كان يوجد سلم غير مستقيم يؤدى إلى القصر الإمبراطورى مباشرة. وكان هذا القصر رائع البناء يزيد فخامة عن قصر الإمبراطور الرومانى فى روما، وكان يوجد بعض الساحات الصغيرة والأروقة على مساحة ليست صغيرة تطل على الجانب الشرقى للمدينة حيث يوجد بحر مرمرة. كما وجدت الحمامات بالأعمدة الرخامية ذات الألوان المتعددة، وما يزيد عن ستين تمثالاً من البرونز.

وإذا حاولنا وصف الأحياء والأبنية داخل المدينة، يمكن القول أن القسطنطينية ضمت بداخلها كل ما يمكن أن يرفع قدر هذه العاصمة الجديدة، ويزيد من عظمتها، ويحقق لسكانها الكثير من المنافع والسرور. وجملة القول أن المدينة بعد اكتمالها كان بها كنيسة آيا صوفيا وسيرك ومدرسة ومسرحان وحوالى ثمانية حمامات عامة للجمهور، وحوالى مائة وثلاثون وخمسون حماما خاصا. وحوالى إثنين وخمسين رواقا، ومخازن للغلال بلغ عددها خمسة، وثمانية خزانات للمياه تحت مستوى سطح الأرض، وبنيت أربع قاعات واسعة لاجتماعات أعضاء مجلس السناتو أو المحاكم، وأربع عشرة كنيسة، وأربعة عشر قصراً، وحوالى أربعة آلاف وأربعمائة منزل جميل البناء، هذا بخلاف مساكن العامة.

وكانت هناك مشكلة شغلت بال الإمبراطور قسطنطين، وهى عملية استقدام السكان إلى العاصمة الجديدة. ومن الصعب أن ينسب نمو المدينة السريع إلى التزايد الطبيعى فى السكان من رجال الأعمال، وما يلحق بهم من عماله.

لذلك يمكن القول والتسليم بما ذكره المؤرخون بأن هذه المدينة الجديدة قد أقيمت ونمت على حساب المدن الكبيرة الأخرى فى الإمبراطورية. ومن المحتمل، وهو أمر مقبول أن قسطنطين قد دعا كثيرا من أعضاء مجلس السناتو وكبار رجال الجيش وبعض الأسر النبيلة من العاصمة القديمة روما وبعض المدن الأخرى إلى الهجرة والإقامة فى القسطنطينية. وقد لبى هذه الدعوة الكثير، خاصة أنه أنعم على المقربين منه بالقصور الفخمة التى بناها بالمدينة، كما أنه ولابد أن يكون قد خصص لهم بعض الأراضى التى تدر عليهم من الأموال ما يحفظ لهم مستوى معيشتهم، وكانت هذه المنح وراثية مقابل الإقامة فى العاصمة الجديدة.

وكان هناك ما يجذب الناس إلى الهجرة إلى العاصمة والأقامة فيها، فحيث توجد العاصمة وبها الإمبراطور وقصره وحاشيته ووزاؤه وأعضاء مجلس السناتو والقضاة وعلية القوم والأغنياء يكون الإنفاق على مستوى عال يتناسب مع هؤلاء من الدخل العام للإمبراطورية، وهذا كفيل بجذب الأغنياء من سكان الولايات الأخرى، وكان هناك طبقة أخرى هى الأكثر عددا وهى طبقة التجار والصناع والعمالة الأخرى التى تتكسب عن طريق احتياجات الطبقة الموسرة. ومن هنا نجد أن القسطنطينية قد أصبحت فى أقل من قرن تنافس العاصمة القديمة روما فى الثراء وأعداد السكان، وقد ترتب على ذلك زيادة أعداد المنازل حتى امتلأت الشوارع وضاقت على الدواب والعربات والزائرين.

ولما كانت القسطنطينية يوم بنائها صغيرة الحجم نسبيا، فأصبحت المساحة غير كافية لاستيعاب الأعداد المتزايدة، لذلك قامت على جانبى المدينة وصولا إلى بحر مرمرة والقرن الذهبى مبانى جديدة كان فى جملتها ما يعتبر

مدينة جديدة.

وعمد الإمبراطور فى عاصمته الجديدة إلى توزيع الخمور والأطعمة والأموال توزيعا منتظما لرفع مكانة العاصمة، وقد دفع ذلك كله بعض المواطنين من داخل الإمبراطورية إلى النزوح إلى القسطنطينية. وهكذا ظل الإمبراطور يحاكى إسراف القياصرة الأوئل فى مدينة روما، ولكن كرمه هذا جلب عليه بعض اللوم، لأن ضريبة الغلال التى فرضت على مصر كانت من أجل بناء العاصمة الجديدة والأنفاق على بعض الكسالى والمقربين إلى الإمبراطور على حساب المزارعين البسطاء. والمهم هنا أن هذه المدينة العظيمة قد قسمت إلى أحياء بلغ عددها أربعة عشر حيا فى بداية الأمر، وأطلق على المجلس العام إسم السناتو أسوة بما هو كان متبعا فى العاصمة القديمة روما.

وكان قسطنطين يراقب بناء العاصمة ويقدم تعليماته من حين لآخر، فقد أقيمت الأسوار المعروفة باسم أسوار قسطنطين، ومع اتساع المدينة خاصة إلى الغرب أقام الاباطرة الاحقين بعض الأسوار الأخرى خلف الأسوار القديمة إلى الغرب لتدخل إلى المدينة المبانى الجديدة مساحات جديدة. ويقال أن هذه الأسوار والقصور والابنية قد بنيت فى بضع سنين، وهناك رواية مستبعده تقول أن البناء تم فى بضعة شهور. وعلى أية حال فان بناء مدينة جديدة يستحق الإعجاب. وربما يرى البعض أن التعجل فى بناء المدينة جعل بعض مبانيها يتصدع بعد وقت قصير.

وعندما جاء موعد حفل الافتتاح وهو الحادى عشر من مايو عام ٣٣٠م، أقيمت الألعاب ووزعت المنح والهبات التى أضافت إلى هذا الاحتفال مزيدا من البهجة. ومع هذا الاحتفال إقيم على عربة من عربات النصر تمثال

للإمبراطور قسطنطين صنع بمه : من الخشب المموه بالذهب، وحوله مواكب الحراس حاملين الشموع البيضاء مرتدين أفخم الثياب، واتجه هذا الموكب العظيم إلى الميدان الكبير الذى يتوسط المدينة حتى أصبح فى مواجهة منصة العرش الذى يجلس عليه الإمبراطور. وهنا نهض الإمبراطور ومجد فى كلمات قليلة ذكرى أسلافه. وقد تم حفر نقش على عامود رخامى يسجل يوم هذا الاحتفال. وأسمى الإمبراطور قسطنطين عاصمته الجديدة باسم "روما الجديدة"، ولكن إسم القسطنطينية غلب على الإسم الجديد، وعرفت بإسم القسطنطينية فى كافة المصادر العربية والأجنبية، وبقيت هذه التسمية طالما بقيت الإمبراطورية حتى عام ١٤٥٣م، وبعدها سميت بإسم إسلام بول، أى مدينة الإسلام، ثم حرفت حتى أصبحت إستامبول أو إسطانبول أو إسطنبول.

الفصل الثانى

الإمبراطورية والفكر الشرقى

قسم الإمبراطور تيودرسيوس الأول Thedosius I (٣٧٨-٣٩٥م) الإمبراطورية بين ولدية فحكم ابنه أركاديوس Arcadius (٣٩٥-٤٠٨م) الجزء الشرقى من الإمبراطورية وتمركز فى القسطنطينية، وظل خلفاؤه من بعده حتى سقطت الإمبراطورية التى عرفت بالبيزنطية على يد الأتراك العثمانيين فى عام ١٤٥٣م، أما الجزء الغربى فقد حكمه ابنه الآخر هونوريوسHonorius (٣٩٥-٤٢٣م) واتخذ من روما مركزا له. وظل خلفاؤه من بعده حتى سقطت روما فى يد أدواكر Odouacar ملك قبائل الهيرول Heruls فى عام ٤٧٦م. وعند هذه المرحلة كان البرابرة الجرمان قد استقروا فى جانب كبير من غرب أوروبا، فقد استقر الفرنجة فى غاله، والقوط الغربيون والوندال والسويفى والآلان فى شبه جزيرة ايبريا (أسبانيا والبرتغال حاليا) والقوط الشرقيون فى إيطاليا. وبذلك أصبح ما تبقى للإمبراطورية هو الجانب الشرقى. وقد اشتمل هذه الجانب على شبه جزيرة البلقان عدا أطرافها الشمالية، وآسيا الصغرى حتى جبال أرمينية، وعلى بلاد الشام التى كانت تعرف باسم سوريا، ومصر وشمال إفريقيا. وقل أهتمام أباطرة الشرق فى القسطنطينية بالجانب الغربى من الإمبراطورية.

وعندما تولى الإمبراطور الشرقى مرقيان Maracian (٤٥٠-٤٥٧م) لم يتشاور مع الإمبراطور الغربى فى شيء، والحال نفسه فى عام ٤٥٧م عندما تولى الإمبراطور الشرقى ليو الأول Leo I (٤٥٧-٤٧٤م). كما أن حكومة القسطنطينية لم تعبأ ولم تقدم شيئا لنجدة العاصمة الغربية روما عندما اجتاحتها عناصر الوندال عام ٤٥٥م، التى أقامت دولتها فى شمال إفريقيا (٤٢٨-٥٣٤م).

كما أن الإمبراطور ليو الأول قد تجنب الدخول فى صراع مع

العناصر الجرمانية فى الغرب وجنح إلى السلم فى علاقاته مع القبائل التى أقامت لها دولا فى غرب أوربا. وقد حاول استرداد شمال إفريقيا من الحكومة الوندالية فى عام ٤٦٨م، ولكنه فشل فاقتنع بالسلم أكثر من ذى قبل. كما أن الإمبراطور الشرقى زينو Zeno (٤٧٤-٤٧٥م) قد أقام سلاما مع الوندال قبل موته بعام.

وطوال هذه المرحلة التى يتعرض فيها الجانب الغربى من الإمبراطورية للتمزق، كان نظام الحكم فى الجانب الشرقى يتطور وأصبح شرقيا وأوغل فيه.

ومن هذا التطور أن تتويج الإمبراطور قد اتخذ صفة دينية، فعندما عُين مرقيان إمبراطوراً تسلم تاجه من يدى أنطوليوس Anatolius بطريرك الإمبراطورية الشرقية فى القسطنطينية (٤٤٩-٤٥٨م) وحمل لقب فسيلفس وأن ظل اللقب الإمبراطورى هو الغالب، والشئ نفسه أتبع مع الإمبراطور ليو الأول، وكان يعاصره البطريرك نفسه، وهنا نجد أن الحق فى الحكم أصبح يتخذ جانباً دينياً كبيراً، يضاف إلى أن اللغة اللاتينية وأن كانت هى اللغة الرسمية للإمبراطورية، إلا أن اللغة اليونانية ظلت هى الأعم، وبدأت تتسلل إلى الدوائر الرسمية فى الحكومة الشرقية، كما عم البلاط مظاهر العظمة الشرقية سواء فى الملابس أو أثاث القصر أو المركبات التى تجرها الخيول.

ومن جوانب هذه العظمة ما رواه بورفيريوس Porphyrius وهو من مواليد مدينة سالونيك فى عام ٣٧٤م، وتعلم فى الشرق وأصبح أسقفا لمدينة غزة فى عام ٤٩٥م، وتوفى فى عام ٤٢٠م، وقد ذكر بورفيريوس أنه اشترك فى حفل تعميد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) وكان ذلك فى عام ٤١٠م. فقد روى عنه أنه عندما دخل قصر الإمبراطور خال له أنه فى

الجنة. كما استرعى ذلك انتباه العديد من رجال الدين.

ومع مرور الزمن أصبح الشرق هو الفلك الذى تدور فيه الإمبراطورية، ومنه تنطلق الحركة الفكرية التى يتولاها رجال الدين الشرقيون، وكان لهم السبق فى كافة أنحاء الفكر الدينى والكنيسة والرهبانية، وحتى أن المجامع الدينية التى عالجت كافة أمور العقيدة المسيحية فى الشرق والغرب عقدت فى المدن الشرقية.

والحقيقة أنه كان يوجد بعض رجال الغرب الذين لعبوا دوراً كبيراً فى الفلسفة المسيحية، ومن هؤلاء ما كانوا على رأس الفكر المسيحى وأثروا كثيراً فيه، ولكن الغلبة كانت لرجال الدين الشرقيين، وكان لمدرسة الاسكندرية وأنطاكيه وبيروت وغزة وقيصرية فلسطين وكبادوكيا بآسيا الصغرى والرها دوراً هاماً، وأثروا كثيراً على فكر الإمبراطورية الشرقية.

وإذا بدأنا بمدرسة الاسكندرية وما كان لها من تأثير على الفكر المسيحى يمكن القول أنه عندما أنتشرت المسيحية وزاد عدد المنضمين إليها، أصبح من الضرورى وضع أسس منهجية للتعليم المسيحى لتعليم الوثنيين أو غيرهم الذين دخلوا فى الديانة المسيحية، ما يؤهلهم لهذا الدين، وهى نقطة هامة تنبهت إليها أوروبا فى هذه المرحلة وأنشأت ما يعرف بمدارس العماد. ومن جهة أخرى كان على رجال الكنيسة العمل على تثقيف المسيحيين ورفع مستواهم العلمى بعيداً عن الثقافة الوثنية التى سادت هذه الفترة، وإعدادهم لفهم الديانة المسيحية، ومن هنا نشأت مدرسة الإسكندرية للتعليم المسيحى.

وهناك أسباب أخرى لقيام هذه المدرسة منها؛ أن العالم الوثنى كان يقف للديانة المسيحية بالمرصاد، وحاول بكل ما لديه من قوة علمية القضاء على الدين الجديد. ولذلك أصبح على المسيحيين فى هذه المرحلة إعداد

الأجيال المسيحية لفهم دينهم، وفي الوقت نفسه للرد على كل ما يوجه إلى الديانة السميحية من نقد أو تحريف أو هدم، وفوق هذا كله التبشير بالدين المسيحي ونشره في كل الآفاق. ويرى بعض المؤرخين أن نواة هذه المدرسة قد وضعت في عهد القديس مرقص الذى تولى إدارتها أنيانوس Anianus الذى صار في مرحلة لاحقة أسقفا للإسكندرية (٧٢-٨٣م)، ولكن شهرة هذه المدرسة لم تظهر في هذه المرحلة، إنما بدأت تأخذ مكانتها في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث. وكان في الإسكندرية في هذه المرحلة عدد كبير من مشاهير العلماء. والحقيقة أن مدرسة الإسكندرية لم تك المدرسة اللاهوتية الوحيدة في العالم، وأنما كانت هناك مدارس أخرى وثنية ومسيحية، ولكن مدرسة الإسكندرية المسيحية تفوقت على ما عداها من المدارس الأخرى. والدليل على ذلك قدوم الطلاب من شتى الأنحاء للدراسة في الإسكندرية التى بلغ أساتذتها درجة كبيرة من الشهرة. ومن الملاحظ أن مدير مدرسة الإسكندرية كان يعتبر الرجل المسيحي الثاني في مصر بعد البطريرك. ولذلك عجب إذا رأينا أن معظم البطاركة كانوا من بين هؤلاء المدراء.

ومن أشهر علماء الإسكندرية في النصف الثاني من القرن الثاني أثناغورس Athengoras الذى كان يعتبر من أعمدة الديانة الوثنية بالإسكندرية، وكان كغيره من الفلاسفة الافلاطونين كثيرالبحث في أمر الديانة المسيحية طمعا في كشف أغلاطها وأظهار فسادها، فأنكب على درسها بإجتهاد عظيم، وكانت النتيجة الطبيعية أنه أعتنق الديانة المسيحية، وقد أستمر بعد ذلك في لبس رداء الفلاسفة ولم يمتنع عن وظيفة التدريس، بيد أنه أصبح من أعظم أنصار المسيحية وأكثر المدافعين عنها.

ومن معاصري أثناغورس في ذلك الوقت بطليموس Ptolemy العالم الجغرافي الشهير، وكان أيضا فلكيا ماهرا تخرج في مدرسة الاسكندرية

ومن تآليفه كتاب فى الألحان الموسيقية، وجدول يحتوى على أرصاد فلكية عن الكسوف والخسوف لمدة ثمانمائة سنة سابقة لعهده. وقد أتم معظم هذه الارصاد في بابل وأكمل باقيها في بابليون المصرية، كما يظهر من أسماء أماكن خطوط الطول والعرض التى ذكرها. ثم أننا فى السنة الأولى أو الثانية من حكم الإمبراطور كومودس Commodis (١٨٠-١٩٢م) الذى خلف ماركوس أوريليوس Marcus Aurellus (١٦١-١٨٠م) على المملكة الرومانية، نرى بانتانيوس Pantaenus متقلدا رئاسة المدرسة اللاهوتيةُ. والظاهر أن بانتانيوس هذا ومعاصره كليمنس السكندرى Clemens الزائع الصيت كانا كلاهما تلميذين لاثناغورس، وكانا كباقى مسيحى مصر الأولين بارزين فى علوم القدماء وحكمتهم كبروزهما فى كل الحقائق والمبادئ المسيحية الصحيحة.

أما بانتانيوس فقد نجح نجاحا كبيرا فى إدارة مدرسة الاسكندرية، وبدأ الراغبون فى التعليم القدوم إلى المدينة من كل مكان، ومنهم من جاء من الهند واستمعوا إليه وأعجبوا به واعتنقوا المسيحية على يديه. ولم يكتف هؤلاء الهنود بذلك بل طلبوا من بانتانيوس أن يرسل إليهم من يبشر بالمسيحية فى أراضيهم، ولما علم بابا الاسكندرية ديمتريوس (١٨٩-٢٣٢م) بذلك، أرسل بانتانيوس عام ١٩٠م إلى الهند مبعوثا من قبله. ولما عاد إلى مصر مرة أخرى حمل معه نسخة من أنجيل القديس متى مكتوبة بخط القديس باللغة العبرية. والفيلسوف بانتانيوس هذا هو الذى هذب اللغة القبطية بأن نقلها من الخط الهيروغليفى إلى شكلها الجديد، كما أنه وضع تفاسير كثيرة للأسفار الإلهية، وللأسف فان جميع مؤلفاته قد فقدت.

وفيما يتعلق بالعلامة كليمنس فقد أضيف إلى أسمه السكندرى ليعرف باسم كليمنس السكندرى تميزا له عن العلامة كليمنس اليونانى. فهو من مواليد

عام ١٦٠م من أبوين وثنيين، وقد تفوق فى علوم الفلسفة. ثم ما لبث أن أعتنق الديانة المسيحية، وقد عُهد إليه بإدارة المدرسة اللاهوتية بعد سفر بانتانيوس الى الهند، وظل يديرها حتى عام ٢٠٢م. ولما قويت حركة الاضطهاد ضد المسيحية فى مصر فى هذه المرحلة، ترك المدرسة وسافر إلى بلاد الشام حيث ظل فى بيت المقدس وأنطاكية. ثم عاد إلى الاسكندرية مرة أخرى عام ٢٢٠م. بعدما عاد السلام إلى مصر.

ومن مؤلفات كليمنس التى ظلت حتى أيامنا هذه، كتاب باسم دعوة للأمم الوثنية إلى عبادة الإله الحق، وكتاب المرشد، فى ثلاثة أجزاء، وموضوعه تثقيف عقول حديثى الايمان بدراسة الانجيل، وكتاب آخر يقع فى ثمان مجلدات، وعنوانه المتفرقات. وهذا الكتاب عبارة عن مجموعة مقالات فلسفية وحقائق إنجيلية، وقد وضع كليمنس مؤلفات أخرى حول عيد الفصح (عيد القيامة) والصوم وغير ذلك.

ولقد هال المدرسة الوثنية ما رأته من سرعة إنتشار الديانة المسيحية، فدبت الغيرة فى عروقها وجدد ذلك روح النشاط عندها. فكانت مكتبة الاسكندرية فى ذلك الوقت تحتوى على نسخ فى جميع مؤلفات اليونايين والمصريين. ومع ذلك كان السعى على قدم وساق فى إكثار مجلداتها وزيادة المؤلفات الجديدة فيها، فخصص قسم من النساخ لكتابة ما يمليه عليهم المؤلفون الأحياء، وإشتغل قسم آخر بنسخ ما أمكن العثور عليه من كتب المؤلفين والفلاسفة الوثنيين السابقيين بقصد تسهيل إنتشارها حتى يطلع الطلاب عليها. وقد بلغ عدد هؤلاء النساخ عدداً كبيراً وكانوا تبعا لحالة وظيفتهم يقسمون إلى قسمين، هما أرباب القلم السريع لكتابة الاملاء، وناسخوا الكتب.

وكان ثلاثة من أعظم مشاهير المؤلفين الوثنيين فى ذلك الحين وهم

أتينيوس، ويوليوس بولوكس، وكيرون. وقد بقى من مؤلفات الأول كتاب واحد عنوانه "محادثات الفلاسفة". وفيه وصف لأحوال الاسكندرية الاجتماعية فى هذه المرحلة من التاريخ.

أما يوليوس بولوكوس فلم يكن إلا من أهل "النقد الشفاهى" ولكن كيرون صنف تاريخا فى ملوك مصر وكهنتها فقد برمته ولم يصلنا شئ منه لسوء الحظ. ومن المؤلفين المعروفين فى عهد الإمبراطور كومودس، لوسيانوس مؤلف كتاب المحاورات، وكان سكرتيرا أو كاتبا للوالى الرومانى حينئذ. ومن الفلاسفة الوثنيين أيضا شلسوس الابيقورى الذى إشتهر برسالة له ضد الديانة المسيحية التى عمت وزاد انتشارها أكثر من الديانة اليهودية والديانة الوثنية الأصلية فى مصر، غير أن رسالته فقدت كغيرها، ولم نعرف رسالته من محتوياتها الا ما جاء فى رد أوريجين Origen عليها. وقد كتبت فى بحر تلك المدة عدة كتب أخرى فى هذا الباب. ولكن من الحقائق المقررة التى لا يشوبها أدنى ريب أن الديانة المسيحية فضلا عن أجتذابها زعماء العلماء فى جميع أنحاء العالم المتمدن حينئذ وإنقياد ثلاثة من أعاظم الرجال - هم ديمتريوس Demetrius ، وتيتينوس، وكليمنس لأوامرها وخدمتها فى مدينة الاسكندرية فقط، فقد كانت آخذه فى التغلب بسرعة غريبة على الأديان الأخرى فى القطر المصرى. ولما كان بطريرك الاسكندرية هو الأسقف الوحيد فى مصر حتى ذلك العهد رأى البطريرك ديمتريوس (١٨٧-٢٣٠م) حينئذ أنه من الضرورى تعيين ثلاثة أساقفة آخرين للأقاليم البعيدة عن مركز البطريركية ليتمكنوا من رعاية المسيحيين.

لم تدم أوقات الهدوء طويلا فى مصر بعد أن تمتعت بها البلاد طوال سبعين عاما. وفى خلال هذه المرحلة انتشرت الديانة المسيحية، فلما تولى الإمبراطور سفيروس Severas Septimius (١٩٣-٢١١م) عرش

الإمبراطورية الرومانية وجه إهتمامه فى بادى الأمر إلى إخضاع الذين قاموا ينافسونه من كل فج فى أنحاء الإمبراطورية. وكان قليل العناية حتى ذلك الوقت بأمور مصر وشؤونها مظهرا الميل والرضى نحو المسيحيين، حتى أنه كان يعين منهم من يلزم للقيام بخدمة ابنه. ولا ندرى ما السبب الذى حمله بعد ذلك على مطاردة واضطهاد الشعب الوحيد الذى كان أميل شعوب مملكته إلى الدعة والسكينة، وذلك عندما أصدر أمرا فى سنة ٢٠٢م يحرم فيه على رعاياه الدخول فى الديانة المسحيه أو فى الدين اليهودى.

وبعد إصدار هذا الأمر قدم الإمبراطور لزيارة بلاد مصر، وتجول فى أنحائها حتى وصل مدينة طيبة جنوبا. والظاهر أن ما شاهده هناك من أنتشار الدين المسيحى وتمدن المسيحيين، جعله يخاف منهم على السلطنة الرومانية نفسها، لذلك إزداد الاضطهاد قسوة وصرامة، ولم يتوقف إلا بعد عودته إلى روما. وكان فى مصر حينئذ والى أسمه ليتوس Laetus بذل غاية جهده فى تنفيذ أوامر مولاه حتى عم الاضطهاد أنحاء البلاد كلها. إلا أن الضربة القاسية أصابت الاسكندرية بنوع خاص، لأنها كانت تعتبر منبع الديانة المسيحية.

ومع أن البطريرك ديمتريوس ظل ساكن الجأش ثابتا فى مركزه، إلا أنه أمر بغلق المدرسة اللاهوتية مؤقتا. وأعقب ذلك أن تشتت شمل الطلاب ولزموا بيوتهم، أما كليمنس السكندرى فقد فر من مصر لكى يخلص نفسه من الاضطهاد. وعاش ديمتريوس مدة بعد ذلك إلا أنه لم يتمكن من نشر مؤلفاته أثناء حياته فنشرت بعد وفاته.

والذى يتصفح قائمة أسماء الشهداء من المصريين يجدها طويلة جدا رغم أنها لم تصل إلينا كاملة، مع أنه فى الاضطهادات الأخرى لا نجد أكثر من واحد أو أثنين من أهم الشهداء. ومن أغرب ما نقله المؤرخون أن النساء

في مثل هذه الاضطهادات كن يعذبن عذابا اليما بخلاف الرجال الذين كانت تقطع رؤوسهم بدون تعذيب. ومن الرجال الذين ذاقوا كاس هذا الاضطهاد كان ليونيدس Leonides الذى ذاعت شهرته لأنه كان أبا لأوريجين. ولا يعرف عنه شيء بخلاف ذلك. ومع أن بعض المؤرخين قالوا أنه كان إسقفا، فإذا صح ذلك فقد يحتمل أنه كان من ضمن الاساقفة الذين عينهم ديمتريوس للاقاليم، إلا أنه كان متزوجا وله سبعة بنين أكبرهم أوريجين الذى كان عمره بين ١٥، ١٦ سنة عندما القى القبض على أبيه. وكان أوريجين هذا قد اشتهر قبلا فى الاسكندرية بأنه من أنجب طلاب مدرستها اللاهوتية وأذكاهم، كما أنه تحلى أيضا بصفات حسن السلوك ومتانة الإيمان.

ولما قبض على أبيه ليونيدس كان أوريجين غائبا عن المنزل، فلما عاد وجد أمه وأخوته الصغار فى يأس وقنوط شديدين. ولما علم أوريجين بذلك أعلن رغبته فى تسليم نفسه للحكومة والالتحاق بأبيه طمعا فى نيل مجد الاستشهاد. ولكن دموع الشفقة والحنان التى كانت تنحدر من عينى الأم وتوسلاتها إليه ليعدل عن عزمه، عاقاه لبعض الوقت عما كان ينويه خصوصا وأن الشمس كانت قد مالت للمغيب.

ولما حل الليل ونام أوريجين دخلت أمه إلى مخدعه خلسة وطوت كل ثيابه وابعدتها عنه، فصار حينئذ كسجين عندها لم تطلقه إلا بعد أن وعدها وعدا مؤكدا بأن لا يتركها إلا إذا دعته الضرورة الشديدة لذلك. وعليه أطاع الابن والدته فأرسل لأبيه المسجون يرجوه أن لا يتأثر لذكراهم ولايفكر فيهم أو فى مصير أمورهم بل عليه أن يهتم بأمره الشخصى. والحقيقة أن المؤرخ يوسبيوس Eusebius (توفى ٣٢٩م) جمع مجموعة تحتوى على نيف ومائة رسالة سطرتها يد أويجين فى مثل هذه الظروف تشجيعا للمضطهدين، ولكن عبثت بها أيدى الضياع كغيرها من المؤلفات الثمينة التى ذهبت طعاما للنار

مع الرسائل والكتب التى حرقت فى مصر وفلسطين.

أما عن ليونيدس والد أوريجين، فآخر خبر عنه أنه قد قطعت رأسه وصودرت أملاكه لصالح الحكومة. ولذا أصبح أوريجين معدما لا سند له وعلى عاتقه أم يعولها وصبية يربيهم. ولكن أرسل الله له سيدة من ربات الثروة واليسار لا يعرف أسمها، بذلت كل ما فى وسعها لتدافع عن المسيحين فى الوقت الذى كانوا فيه يتراوحون بين عاملى الخوف والاضطراب فى الاسكندرية، ويستدل من بقاء اسم هذه السيدة فى طى الكتمان مع ما كانت عليه من الشهرة الواسعة انها لم تكن مسيحية، ولكنها فتحت بيتها للمسيحيين وغير المسيحيين أيضا فى مصر.

وظلت نار الاضطهاد مندلعة فى مصر بضع سنوات لم يصب أوريجين خلالها بسوء. وسبب ذلك أنه كان تحت كنف تلك السيدة المشار إليها. وذلك أنه بعد إستشهاد أبيه لم يبق فى المكان الذى أختبا فيه طويلا، بل خرج منه وذهب وقلبه مملوء بالشجاعة لزيارة المسيحيين الذين ضاقت بهم جدران السجون. وكان يخدم كلا منهم بقدر جهده مشجعا أياهم ليظلوا ثابتين على إيمانهم، فسر البطريرك ديمتريوس من عمل هذا الشاب الباسل الذى إستمر على الدرس والمطالعة, كما أنه أوجد له أيضا طلبة فى أوقات الخطر هذه لتعليهم، وكانت تصرف لهم مرتباتهم من الأموال المخصصة لدار الفقراء والمعوزين، ومع أن هؤلاء التلاميذ لم يمكنهم الالتئام فى المدرسة نفسها مبدئيا، إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى ألتف كل طلابها حول هذا الشاب الذى صار فيما بعد من نوابغ متخرجيها.

وقد يصعب على الباحث المدقق معرفة الحالة التى كان عليها المصريون أثناء هذه الاضطهادات، ولكن يظهر أن أحوالهم لم تكن على

وتيرة واحدة، بل كانت تختلف باختلاف الظروف. ففي بعض الأوقات كان المسيحيون يقشعرون ويتشنجون عندما يلقى القبض فجأة على الرجال والنساء منهم، ويؤخذون على غرة من الأماكن التى يقطنونها، وكثيرون منهم يعذبون عذابا اليما حتى الموت، وبعضهم يتركون فى السجون حتى يصيبهم الضعف، وكانوا أحيانا يعاملون بمنتهى القسوة والصرامه كما يشاء المكلفون بحراستهم، وأحيانا يرفق بهم قليلا فيسمح لهم بمقابلة أصدقائهم والتكلم معهم بما يخفف عنهم ويزيل آلامهم إلى حد ما.

بيد أن مجرى الأعمال الاعتيادية كالبيع والشراء والرياضة وغيرها بقيت على ما هى عليه فى الاسكندرية، وكان المسيحيون يخاطرون ذهابا وإيابا بين جيرانهم الوثنيين واليهود وهم غير عارفين متى يجئى دورهم، أو ما الذى يحل بالمسجونين منهم، ولم يزل الأمر كذلك حتى أختفى خبر الكثيرين، وأصبحت السجون مكتظة بهم، حتى إذا لم يبق فيها مكان أعدم من فيها لايجاد مكان لغيرهم. كل هذا والبطريرك ديمتريوس والشاب المهذب العالم أوريجين وكثيرون غيرهما من أول الشجاعة والإيمان ظلوا يؤدون ما يطلب منهم نحو الآخرين بكل ثبات، وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر مع أنهم كانوا محفوفين بأخطار جمة.

لم يمض وقت حتى ألقى القبض على خمسة من الطلاب الذين كانوا يتلقون الدروس اللاهوتية على يد أوريجين، وبعد أن قضوا أياما مرة - ذاقوا فيها من الاهانة القاسية والسجن الأليم ما تنوء تحته أجسام الرجال - ماتوا لأنهم رفضوا أن ينكروا ايمانهم بأنفه وشهامة. وكان بين هؤلاء الشباب الخمسة بلوتارخوس Plutarch وهو شقيق لتلميذ آخر اسمه هرقل Heraclus. وكان من الذين أمسكوا بطريقة ما، وقدر له أن يعيش حتى يكون رئيسا للمدرسة اللاهوتية ثم بطريركا للاسكندرية ٢٣٠-٢٤٣م.

وكان أوريجين مع بلوتارخوس عندما قبضوا عليه لأنه كان صديقه، فلم يتركه برهة، بل ظل مرافقا له إلى آخر لحظة من حياته، فلما قدم بلوتارخوس للإعدام إندفع أوريجين كالسهم يخترق الجمع المزدحم، وتقدم نحو صديقه بلوتارخوس ليقبله قبلة الوداع الأخيرة، وهو بين السيف والسياف بينما كان الرعاع المتجمهرون هناك يصيحون طالبين القبض عليه أيضا، فرجم بالحجارة ولكنه تمكن من الفرار فلم يقفوا له على أثر.

وبعد مضى سنتين على هذه الحادثة عين البطريرك ديمتريوس الشاب أوريجين رئيسا للمدرسة اللاهوتية التى كانت لا تزال ملتئمة تحت رئاسته منذ الاضطهاد. لذا أصبح أوريجين مبغوضا جدا من عامة الوثنيين الذين كانوا ينظرون إليه شذرا بعين ملؤها الكره والغيظ، فأحس ديمتريوس بذلك، وشعر بمقدار الخطر الذى يحيق بأوريجين. ولذا وضعت حراسة قوية لحمايته من الأذى الذى كان ينتظر أن يصيبه من الذين كانوا يقصدون القبض عليه، لا أن تقبض عليه الحكومة بالطريقة القانونية.

قال المؤرخ يوسيبيوس القيصرى يصف الحالة التى كان فيها أوريجين "أن عوامل الاضطهاد كانت تزداد ضده كل يوم، وحنق القوم عليه أصبح شديداً، حتى أن أهالى الاسكندرية عن بكرة ابيهم حتى أنهم لم يستطيعوا احتماله ولا الصبر على انتقاله من منزل إلى آخر، وجولاته فى كل ناحية مرشدا ومشجعا المسيحيين الذين هداهم إلى الإيمان الصحيح والدين القويم".

ومن الغريب أن هؤلاء الخصوم قد بدأ فيهم شعور الاحترام لهذا الشاب الهمام الذى سحرهم بأعماله، بينما كان يستخف بهم كلهم ليس إزدراء وسخرية بل بفطنة زائدة وطبع دمث وخلق سليم.

قال أحد المؤرخين أنه فى يوم ما أمسك أولئك الأوغاد أوريجين بينما

كان سائرا فى الطريق، وحملوه بين ضجيج القوم إلى هيكل سيرابيس الشاهق واضطروه أضطرارا بأن يضع القلنسوة على رأسه والبسوه الحلة البيضاء التى يلبسها كاهن هيكل سيرابيس، ومن ثم أخرجوه خارج الهيكل وأصعدوه على أعلى السلم. وحينئذ أمروه بأن يوزع سعف النخل على عبده الأوثان الذين كانوا مجتمعين وهم يسخرون منه. فلم يتأخر أوريجين ومد يده وأخذ سعف النخيل وقدمها للشعب المتجمهر وصرخ بصوت كالرعد قائلاً: "هلموا خذوا هذه الأغصان، بإسم يسوع المسيح وليس برسم الأوثان".

والواقع أن أوريجين هذا كان علامة دهرة فى حقائق الديانة المسيحية عندما تقرر تعينه رئيسا للمدرسة اللاهوتية، كما أنه كان فقيها فى العلوم والمعارف التى شب على درسها واستيعابها، والذى أوصله إلى هذه الدرجة من العلم والمعرفة هو أنه قبل الاضطهاد درس كثيرا هو وجماعة من الشبان المسيحيين فى المدرسة اللاهوتية دراسة متعمقة، ثم فى المدرسة الوثنية التى كان يديرها أمونيوس Ammonius الذى كان من أشهر علماء الاسكندرية وكبار أستاتذتها.

قال المؤرخ يوسيبوس القيصرى فى هذا الصدد: "ولما رأى أوريجين أن الطلبة الذين عهد إليه البطريرك ديمتريوس أمر تعليمهم قد أخذوا يزدادون ويتكاثرون، إرتأى أن إستمراره فى تدريس العلوم الطبيعية والأدبية لا يتلاءم مع تدريس العلوم الدينية للطلبة الذين أسند إليه تعليمهم. ولذا لم يلبث أن ترك أفكار مدرسة الفلسفة الوثنية، واعتبرها عديمة الجدوى، وأن دروسها سحابة تحجبت الأنوار الساطعة التى يأخذها من علم اللاهوات.

ولكنه لم يتبع خطة الإفراط والتفريط مرة واحدة بل بقى يطالع ما سطره الأقدمون من العلوم المفيدة بجد متواصل. وفى هذه المدة أخذ يبيع كل

كتبه القديمة وجميع النسخ التى كتبها بيده من مكتبة الاسكندرية، وأتفق مع رجل باعه هذه الكتب الوثنية برمتها على أن يدفع له مبلغا بسيطا يوميا ليقتات به في حياته. وكانت هذه الفكرة بداية لخطة سار عليها أوريجين فى ما بعد، قاعدتها الغيرة الروحية التى دفعته إلى أنكار الذات وتكريس النفس، وهى خطة أتبعها أكثر المصريين المتدينيين فى تلك المرحلة وتطرفوا فيها حتى حرموا من كل بحث وتنقيب فى الأمور الدنيوية.

ولما كان أوريجين قد اشتهر بالحذق والتواضع ورقة الجانب، فلم يصب بتلك المصيبة التى وقع فيها أكثر الاتقياء وهى الالتجاء إلى الصحارى والقفار والابتعاد عن العالم بحجة التبتل والزهد، بل أن ذكاءه ومواهبه السامية جعلته مفيدا أكثر باختلاطه مع الآخرين الذين هم فى حاجة إليه أكثر من إحياج الدير له، الا أنه لم يبق كامل القوى، بمعنى أنه أسلم نفسه لعوامل الضعف وقهر الجسد حتى شعر بخطئه وندم على ما فعله من إذلال جسمه. وود لو أمكنه استرجاع قواه، ولكن لم يفد الندم، ولم ينفع الأسف، فظل ضعيفا منهوكا.

والذى يراجع تاريخه يعجب جدا من الطريقة التى أتبعها، كما أنه يعرف السبب الذى اضعفه وأضناه، فى أنه أجهد نفسه ليتمم كل فرائض الانجيل وأوامره حرفيا حتى إمتنع عن أقتناء ثوبين معا فى وقت واحد، وكان يسير حافيا شتاء وصيفا، وكان يأكل الخبز ويشرب الماء فقط، ويأكل البقول الخضراء غير المطبوخة أسوة بأفقر فلاح مصرى. كل هذا ولم يكن أوريجين إلا شابا فى عنفوان شبابه تقاومه الشهوة الطبيعية، فكان يتغلب عليها بعد عناء يعرفه من يقاوم إرادته البشرية، حتى أنه لما كانت تضطره واجباته فى أيام الاضطهاد إلى الدخول وسط العائلات وإرشادها لطريق السداد، ومناقشة الناس ساعات متوالية كان يتألم ويرتعد خوفا من الوقوع فى تجربة، وقصد أن

يصد نفسه بعزم شديد عن أى عمل يوجب الخجل والارتياب.

ولم يك حتى هذا الوقت قد سُن قانون يُعمل به فى مسألة الرتب الكهنوتية، إلا أن رأى الشعب العام كان له القول الفصل فى هذا الأمر، ولذلك كان كل من وقع عليه الاختيار يعين فى الحال لأى رتبة دينية مهما كانت درجتها. زد على ذلك أن عمل أوريجين هذا خالف كل المخالفة قانون الدولة المدنى الذى إعتبره كقاتل نفس، كما أنه تقرر فى مجمع نيقيه، ٣٢٥م أن كل كاهن يعمل بنفسه هذا العمل أى الزهد الزائد والتنسك المفرط لحد الإضرار بنفسه "يقطع من الكهنوت"، إلا أن غلطة أوريجين هذه تغفر له لأنه اعترف بها اعتراف المقر بذنبه الشاعر بثــقل خطيته.

ويغلب على الظن أن أوريجين زار كنيسة روما وذلك أثناء مدة هذا الأضطهاد. وبعد عودته أو ربما قبل سفره كان قد أشرك معه هرقل زميله فى الدراسة فى تدبير مهام المدرسة اللاهوتية، بينما كان هذا قد رسم كاهنا. وفى هذا الوقت أيضا إنكب أوريجين على تعلم اللغة العبرية ليؤهل نفسه إلى ترجمة التوراة، وهو عمل يعد من أهم الأعمال الخطيرة التى عملها أوريجين فى حياته، ولو أن هذه الترجمة لم تنشر الا بعد وفاته بسنين قليلة.

على أية حال لقد أخذ أوريجين يشعر بخطئه الذى ارتكبه فى قمع جسده وعقله، وهو شعور إزداد معه عندما أخذ على عاتقه أتمام ترجمة التوراة، وهو عمل يحتاج لعقل سليم فى جسم غير سقيم. لذلك عمل على أصلاح غلطته هذه بقدر إستطاعته، ولكن الوسائل لم تعد تجدى نفعا، ولم يكن فى أمكانه استرجاع نضارة شبابه التى أضاعها.

ولم يكتف أوريجين بترجمة التوراه، بل وضع أيضا شرحا طويلا لأسفار التوراة ضاع أكثره، مع أنه كان متداولا فى أيام يوسيبيوس. فهذا هو

أوريجين الذى يعد من الطبقة العليا من علماء المسيحيين بالاسكندرية فى العصور الأولى، حتى لقد ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق، فكان الناس يأتون إليه أفواجا من كل فج عميق وترسل الأمم فى طلبه ليرشدها إلى طريق الخلاص. وكان من أهم أعماله ثلاث أرساليات أنفذت إلى بلاد العرب كل على حدة. وقد ذكرها المؤرخ يوسيبيوس فى تاريخه. وكانت بلاد العرب فى ذلك العصر عبارة عن بلاد واسعة الأرجاء لا يعرف عنها شيئا. أما مدينة بصرى التى كانت بمثابة واحة فى صحراء سورية وهى تسمى الآن حوران على مسيرة أربعة أيام شمالى دمشق.

وأول أرسالية من الارساليات الثلاثة التى قام بها أوريجين كانت بين سنة (٢٠٣-٢٢٥م)، وسبب إرسالها هو أن حاكم بلاد العرب أرسل خطابات إلى بطريرك الاسكندرية يطلب فيها إرسال أوريجين لكى يشرح له تعاليم الديانة المسيحية، ويرشد شعبه إلى طريق الخلاص. وقد يبعد عن الظن كثيرا أن حاكما يرسل لحاكم آخر إرسالية مثل هذه لنشر الدين المسيحى، بينما كان الاضطهاد مستمرا، والغرض منه إبادة هذا الدين واضمحلاله. وكما أن الهدوء لم يدم طويلا للمسيحيين كذلك الاضطهاد أيضا. ففى عام ٢١١م بدأ أهل مصر يشعرون بالراحة خصوصا عند جلوس الإمبراطور كاراكلا Caracalla (٢١١-٢١٧م) الذى كان ميالا للمسيحيين لما شب عليه من حب العلم.

ولم تطل غيبة أوريجين كثيرا عن الديار المصرية، فقد عاد إلى مصر حين تولى بيرولوس Beryllus أسقفية بُصرى، وأن البطريرك ديمتريوس قد عينه رئيسا لهذه البعثة. أما عدم بقاء أوريجين طويلا فى هذه الرحلة، فيرجع لكثرة أشغاله، كما أن البطريرك المصرى لم يسند إليه مهمة رئاسة هذه البعثة لأنها وظيفة لا تعطى إلا للكهنة. ولم يكن أوريجين من هؤلاء رغم ما عرف

عنه. لقد جد أوريجين فى التعليم والتبشير داخل المدرسة وخارجها، واشتهر بالسلوك الطيب والزهد الشديد.

وبعد ما زار أوريجين مدينة روما فى عام ٢١٢م حيث قوبل بكل حفاوة، عاد إلى الاسكندرية، نجح أعداؤه فى إثارة الإمبراطور عليه، فلجأ إلى فلسطين فاستقبله أسقفا بيت المقدس ومدينة قيصرية بالترحاب وسمحا له بصفة خاصة أن يعظ فى كنائسهم؛ لأنه لم يك مسموحا له بالقاء المواعظ باعتباره من غير رجال الكهنوت. ولعل هذا ما دفع البعض إلى القول أن أسقف بيت المقدس قد منح أوريجين درجة الكهنوت، وعلى أية حال فبعد هذه المرحلة عاد مرة أخرى إلى الاسكندرية.

والمهم أن البطريرك ديمتريوس الذى كان ينفذ التعاليم حرفيا قد أستاء من قيام أوريجين بالوعظ فى فلسطين، وعقد لهذا الغرض مجمعا حرم فيه أوريجين من رحمة الكنيسة. لذلك اضطر أوريجين إلى مغادرة مصر واتجه إلى فلسطين مرة أخرى حيث أسس فى مدينة قيصرية مدرسة على غرار مدرسة الاسكندرية. والحقيقة أن صحة حرمان أوريجين من رحمة الكنيسة لا زال موضع جدل بين رجال الدين ولم يتوصلوا فيه إلى رأى قاطع.

وفى مرحلة من مراحل الاضطهاد التى سادت البلاد وكانت فى أواخر حياة أوريجين قبض عليه فى عام ٢٥٠م وسجن وعذب، ولم يفرج عنه إلا بعد أن تدهورت أحواله الصحية، ثم توفى بعد قليل فى عام ٢٥٣م. وأود هنا أن أسجل أن اللغة اللاتينية كانت لغة الإمبراطورية الرسمية وفى دواوين الحكومة فى مصر، أما الكنيسة والشعب المصرى قد تعاملوا باللغة القبطية. وأصبحت اللغة العربية هى الرسمية فى مراحل لاحقة.

أما فى شرق البحر المتوسط فنلاحظ أن الإمبراطورية البيزنطية حين

خلفت روما على بلاد الشام وجدت أن اللغات المحكية فيها لم تتغير كثيرا عما كانت عليه خلال العصر السلوقى. فبالرغم من أن اللاتينية كانت لغة الدولة الرسمية، فقد اقتصر استعمالها على المراسلات مع الحكومة المركزية، وكذلك فى معاهد التعليم العليا ككلية الحقوق فى بيروت: أما اليونانية التى كانت منتشرة خلال العصر السلوقى فى معظم المدن الهلينستية فقد استمر استعمالها بخاصة للأغراض التجارية حيث انتشرت طوال العصر الرومانى فى حوض المتوسط، وزاد الاهتمام بها عندما أصبحت القسطنطينية عاصمة للإمبراطورية. وقد كتب معظم الفلاسفة والمؤرخين السوريين باللغة اليونانية الفصحى. أما سواد الشعب، وبخاصة فى المدن والقرى الداخلية فقد بقى يستعمل اللغة السريانية الآرامية الأصل، كما استمر عرب الصحراء السورية فى استعمال اللغة العربية، وأجبر اليهود على ادخال اللغة اليونانية إلى طقوسهم الدينية فترجمت التوراة إليها من العبرية. وبعد انفصال المونوفيزيين عن الكنيسة الأثونكسية الكاثوليكية، استعملت كنائسهم اللغات المحلية لتميز نفسها، فتبنت الاسكندرية اللغة القبطية واستعملت أرمينيا لغتها، بينما كتب اليعاقبة والنساطرة بالسريانية.

أما لغة التعليم فكانت اللغة اليونانية، ولم يدرس اللاتينية سوى الطلبة الراغبين فى الحصول على وظائف حكومية. وكانت الدروس تستمر طوال فصول الشتاء والربيع من الصباح الباكر وحتى الظهر. أما أشهر الصيف فكانت مخصصة للأنشطة الاجتماعية مثل الحفلات والمهرجانات والأعياد. وقد تولى البلغاء التعليم، فكانوا يعلمون ويخطبون لكى يكونوا مثلا أعلى للطلاب، يحتذون به وينهجون على منواله، وكانت مسئولية حفظ النظام فى المعاهد تقع عليهم. أما أجورهم فكانوا يتقاضونها من بلديات المدن والطلاب، ويعينون من قبل مجالس الشيوخ المحلية.

وأنطلاقا من نظام التعليم هذا، نجد أن أهمية اللغة التى هى أداة البلاغة قد تنامت، فمع اعتراف الدولة بالديانة المسيحية واندثار الوثنية نجد أن آباء الكنيسة قد نهلوا من المعرفة اللغوية اليونانية ليتمكنوا من نصح تلامذتهم، وإعداد أجيال صاعدة يكون بمقدورها متابعة الخدمات الكنسية التى كانت تؤدى باللغة اليونانية، والدفاع عن العقيدة الأرثوذكية أمام مهاجميها من أنصار الفلسفة القديمة وأهل البدع. وسوف نتحدث عن أهم بلغاء هذا العصر من السوريين عند حديثنا عن الفكر الدينى، ولكن قبل أن ننتقل إلى ذلك علينا أن نتحدث عن أشهر بلغاء العصر البيزنطى من مؤيدى الوثنية ألا وهو ليبانوس الأنطاكى.

ويعتبر ليبانوس Libanius (٣١٤-٣٩٣م) أشهر خطباء هذا العصر وأفصحهم، وهو من مواطنى أنطاكية، ويستدل من إسمه أنه قد يكون من أصل لبنانى، ولكن لا يمكننا أن نجزم بذلك. وقد تلقى تعليمه فى أنطاكية ثم فى أثينة، وعلم فى نيقية ونيقوميديا والقسطنطينية قبل أن يعود إلى مدينته سنة ٣٥٤م حيث أمضى بقية حياته فى مصادقة كبار الموظفين والأباطرة، ولايزال قسم كبير من خطبه ورسائله محفوظة حتى يومنا هذا، وقد كُتبت جميعها بلغة يونانية فصحى، وكان هذا البليغ يعتز بها ويزدرى اللاتينية التى رفض أن يتعلمها.

وقد عُرف عن ايبانوس اعتزازه بالديانات الوثنية، واشهر أقواله فى هذا الصدد ما ذكره فى أواخر حياته عندما أصبحت المسيحية دين الدولة الوحيد، وشُرع فى هدم المعابد الوثنية: "إن هدم الهيكل كقلع العين، فالهياكل روح المناطق وأعرق المبانى فيها" . كما هاجم هذا البليغ الديانة المسيحية ورأى فيها عدوة للحضارة والثقافة والتقدم. وقد حزن حزنا شديدا لموت الإمبراطور جوليان المرتد Julian Apostare (٣٦١-٣٦٣م) الذى شهد

عصره ردة وثنية فقال قوله المأثور: "أنى ذاهب إلى الحقول لأتحدث إلى الحجارة" تعبيرا عن عمق تأثره لهذا النبأ. وقد خاب ظن ليبانوس وتأثر تأثيرا شديداً عندما رأى أنجب تلاميذه الذين لقنهم دروس البلاغة يستفيدون من تلك الدروس فى دفاعهم عن الديانة المسيحية التى اعتنقوها على حساب آلهة اليونان، ومن أشهر هؤلاء القديس يوحنا الذهبى الفم John Almsgiver والقديس بازيل الكبير.

وعلى ذلك نرى أن اللغة اليونانية هى اللغة الثقافية التى سادت فى بلاد الشام خلال العصر البيزنطى، وقد نتج عن ذلك استعمالها فى فصول الدراسة، ومن ثم فى الكتابات الدينية، ويعتبر أشهر بلغائها غير المسيحيين ليبانوس الأنطاكى. أما سواد الشعب فقد تحدث اللغة اليونانية الدرجة، بينما برزت السريانية الآرامية الأصل فى الداخل، وشهدت نهضة فكرية مع انفصال الكنائس النسطورية واليعقوبية عن كرسى القسطنطينية وتنامى الشعور العدائى ضد البيزنطيين.

وقد استمرت مدرسة الحقوق فى بيروت التى تاسست خلال عصر الرومان فى أداء رسالتها العلمية خلال العصر البيزنطى. وقد اعتنى أباطرة الشرق بهذا العلم عناية فائقة مما زاد فى أهمية تلك المدرسة. وكانت بيروت إلى جانب كونها مركزا لتلك الكلية ميناءاً تجاريا هاما، فضمت تجارات واسعة وأثرياء زادت أعمالهم فكثرت دعاويهم أمام المحاكم، فاستهوى ذلك كبار المحامين واشهر الأساتذة الذين أموا المدينة فعلموا فيها ودرسوا. ومن أشهر هؤلاء خلال العصر البيزنطى دومنيونوس Dominiunus الذى عاصر ليبانوس وراسله، وإفزكسيوس Ephsecisius وابنه لينتونيوس Leantonius اللذين عاشا فى أواخر القرن الخامس وأوائل السادس. وكذلك اشتهر باتريكيوس Patricius وكيرلس Cyeil صاحب كتاب "التعريفات".

وقد حفظت لنا ترجمة حياة سفيروسSeverus، أسقف أنطاكية اليعقوبى (٥١٢- ٥١٨م) ، تفاصيل بعض جوانب الحياة الجامعية فى تلك الكلية، حيث أنه أمها - قبل أن يدخل سلك الكهنونت - لمتابعة دراسته اللحقوقية. وقد كتب زميله آنذاك زكريا الغزاوى سيرة حياته ونشرت فى باريس سنة ١٩٠٧م مترجمة عن السريانية. ومن خلال تلك الكتابة يمكننا أن نستنتج أن تلاميذ تلك الكلية كانوا ينغمسون بعد المناظرات والدراسة فى حضور سباقات الخيل والمسارح والشرب والمقامرة.

كما جرت العادة أن يصطحب الطلبة الأثرياء بعض عبيدهم معهم لمرافقتهم . وكانت الدراسة فى الكلية تستغرق خمس سنوات، وجرت العادة أن يتعرض الطلبة الجدد لبعض المقالب التى يعدها لهم زملاؤهم بغرض السخرية. إلا أن قانونا صارما صدر فى مطلع عهد الإمبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧-٥٦٥م)، منع تلك العادة ووضع عقوبات صارمة للطلبة الذين اعتادوا عليها وعلى السخرية من الأساتذة، وذلك يشير إلى تمادى البعض فى تلك الاعمال مما كاد يهدد بفقدان الاحترام المتبادل بين الطلبة بعضهم البعض، وبينهم وبين أساتذتهم. وكانت الدروس تعطل بعد ظهر كل السبوت وطيلة ايام الآحاد.

وفى سنة ٥٢٩م اصدر جستنيان مرسوما أعاد بموجبه تنظيم دراسة الحقوق. وكانت قد أقيمت كلية أخرى مناظرة فى القسطنطينية إلا أنها لم تبلغ شهرة كلية بيروت، ولم تجذب نفس العدد من التلاميذ ولا نفس نوعية الأساتذة. وقد استعان هذا الإمبراطور بمصلحى بيروت الحقوقيين فى وضع معظم المؤلفات الحقوقية، وجعل منها القوانين التى سنها. وقد رغب جستنيان فى إيجاد تقارب بين المدرستين الحقوقيتين اللتين تخرجا محامى الدولة. الا أن زلزالا كبيرا حصل فى ١٦ يوليو عام٥٥١م نتج عنه حرائق هائلة دمرت

معظم المدينة وعلى رأسها مدرسة الحقوق فيها، فانتقلت تلك الكلية إلى مدينة صيدا ولكنها لم تعد بنفس الأهمية التى كانت لها، واندثرت مع الزمن.

ويحكى لنا زكريا الغزاوى Zacharias of Gaza أن الطلبة كانوا ينتظمون أحيانا فى جمعيات، فيذكر أنه أسس جمعية مسيحية كانت تجتمع كل ليلة فى الكنيسة لدراسة مؤلفات أشهر المفكرين الدينيين المسيحيين من امثال يوحنا الذهبى الفم والقديس بازيل الكبير وغيرهم من آباء الكنيسة. وقد ترأس تلك الجمعية بين سنتى ٤٨٩ و ٤٩٤م طالب سميساطى أصبح مؤرخا إسمه إفاجريوس Evagrius (٥٣٦-٥٩٤م) الذى انتقل إلى بيروت بعدما جرح خلال أعمال شغب حدثت فى أنطاكية. وقد انضم سفيروس Severus إلى تلك الجمعية فتأثر بأعضائها وما شاهده من زهدهم، فامتنع عن أكل اللحم ومال إلى العلوم الدينية فالتحق بسلك الكهنوت وترقى فيه حتى أصبح بطريرك على أنطاكية. ونلاحظ هنا أن تلك الجمعية كانت تضم المسيحيين اليعاقبة القائلين بمبدأ الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وهو المبدأ المعارض لتعاليم كنيسة القسطنطينية الرسمية. كما يشير هروب رئيسها إيفاجريوس من أنطاكية إلى بيروت واجتماعاتها الليلية إلى أنها قد تكون ذات طابع سرى .

وقد حدثنا زكريا أيضا عن جمعية سرية أخرى قامت بين الطلاب واهتمت بعلوم الغيب. ويبدو أن ليونيتس Leonites، وهو أحد اشهر أساتذة تلك الكلية، كان مرشدا لتلك الجمعية التى ضمت أشخاصا من مصر وأرمينية واليونان وآسيا الصغرى وبلاد الشام. وقد مارس أعضاؤها السحر والشعوذة، إلا أن أمرهم افتضح عندما هرب عبد أسود كانوا يحاولون التضحية به لإرضاء الشياطين فتكف عن مضايقتهم. وقد نبّه هذا العبد السلطات الرسمية بما يحدث داخل تلك الجمعية، فقامت الشرطة بالقبض على أعضائها، ووجدت معهم كتبا مملوءة باسماء الشياطين وصورهم فأحرقتها، وكونت محكمة مؤلفة

من رجال دين وموظفين مدنيين قضت بالحكم على أعضاء تلك الجمعية وحرق كتبهم ومؤلفاتهم.

وهكذا نرى أن بيروت قد شهدت، طوال العصر البيزنطى فى بلاد الشام، وحتى وقوع الزلزال الكبير سنة ٥٥١م، نهضة علمية حقوقية كبرى أثرت القوانين البيزنطية، وبخاصة قوانين جستنيان التى سارت عليها الإمبراطورية فترة طويلةٍ من الزمن. وقد علّم فى تلك الكلية أكبر. وأشهر حقوقيي هذا العصر، كما تتلمذ فيها العديد من مشاهير رجال الفكر. وقد عاش طلابها الذين وفدوا إليها من جميع أنحاء الدولة حياة رفاهية، كما تفاعلوا مع مجتمعهم فأسسوا الجمعيات المختلفة التى كانت تعكس بشكل كبير أفكار عصرهم وحضارته.

وتداخلت الفسلفة والفكر الدينى مع تنصر الدولة البيزنطية، فلم تعد الفسلفة مادة منفصلة عن علوم الدين، حيث درّج المفكرون المسيحيون على استعمالها كوسيلة لاثبات آرائهم وطريقة للجدل. وقد ارتكزت تلك الطرق على الفسلفة الهلينية المتمثلة فى طرق المنطق والاثبات الأفلاطونية والأرسطوطالية، وفى طريقة الإبصار والتأمل فى الافلاطونية الجديدة. وقد ارتبطت الفسلفة بعلوم الدين المسيحية طوال فترة الحكم البيزنطى لبلاد الشام، فحتى المدرسة الفلسفية الوحيدة التى كانت قائمة فى أثينا أغلقها جستنيان وأمر بمنع نشر وتعليم مادة الفلسفة، إن لم تكن لخدمة آراء الكنيسة والدفاع عنها.

وقد تأثرت الفرق الدينية المسيحية بالمناهج الفسلفية التى سار عليها آباؤها ومعلميها فى محاولاتهم لاثبات آرائهم الدينية. ولعل أهم تلك المدرستين هما مدرسة الاسكندرية ومدرسة أنطاكية. أما مدرسة الاسكندرية فيُعتبر القديس أوريجين المؤسس الحقيقى لها، كما يعد أول مؤسس فعلى لعلم

اللاهوت حيث سخر الفسلفة اليونانية ولا سيما الأفلاطونية الجديدة لتشييد بناء فلسفى مسيحى على دعائم من الأسفار المقدسة، لذلك نجد أن تلك المدرسة تجنح أكثر من غيرها إلى التأويل والغموض. أما مدرسة أنطاكية فقد قامت على بساطة عرض الأمور وإيضاحها، كما كانت تؤثر الأخذ بظاهرة النصوص المقدسة لبرهنة آرائها، فكانت بذلك اقرب إلى المنهج الفسلفى الأرسطوطالى، كما سبق أن أوضحنا.

وقد أدت تلك الاختلافات في المنهج الفكرى إلى بروز اختلافات فى العقيدة الدينية، وبخاصة عندما تعلق الأمر بطبيعة السيد المسيح. وقد ساند فى هذا الموضوع معظم أساقفة بلاد الشام أشقاءهم المصريين، ذلك أن المتحكمين بالكرسى الأنطاكى كانوا من الهلنستيين فتميزت عقليتهم من جراء ذلك عن عقلية بقية أهل البلاد. وسوف نستعرض من خلال حديثنا أهم الشخصيات الدينية المسيحية الشامية التى ساهمت فى إثراء الفكر الدينى المسيحى ودمغته بطابعها وسنذكر بعضهم حسب تاريخ وفاتهم.

وأول من نذكر من هؤلاء ديودورس الطرسوسى Diodorus of Tarsus المتوفى سنة ٣٩٢م. وقد ولد ديودورس فى أنطاكية لعائلة ثرية، وتابع دراسته فيها، ثم أرسله ذووه إلى أثينا حيث نهل من العلوم الفلسفية قبل أن يعود إلى موطنه وينضم إلى سلك الكهنوت. وقد خدم فى كنيسة أنطاكية خلال عهد البطريرك مليتيوس Meletius (٣٦٠-٣٧٨م)، فشهد موجة الاضطهاد التى جرت خلال عهد جوليان المرتد. وفى سنة ٣٧٨م رُسم أسقفا على طرسوس، وشارك بتلك الصفة فى أعمال المجمع المسكونى الثانى الذى عقد فى القسطنطينية سنة ٣٨١م. ومن أعمال ديودورس هذا كتبا فى الفلسفة واللاهوت وتفسير الأسفار المقدسة.

أما يوحنا الذهبى الفم فهو أيضا أنطاكى المولد، حيث أبصر النور فى تلك المدينة حوالى سنة ٣٤٥م. وقد تتلمذ على يد أستاذ البلاغة فى ذلك العصر ليبانوس الذى عطف عليه وأولاه عناية خاصة حيث رأى فيه خير خلف له. الا أن والدة يوحنا كانت شديدة التدين فعملت على إقناع ابنها بترك التعاليم الوثنية والايمان بالمسيحية. وقد تعمّد يوحنا على يد البطريرك ميليتوس سنة ٣٧٠م، وانعزل بعد ذلك فى البرية متأملا فى الخالق وخلقه، ومفكرا فى القيم الروحية والبشرية. الا أنه عاد إلى أنطاكية سنة ٣٨٠م بعد أن أصابه المرض. وفى سنة ٣٨١ رسم شماسا، ثم رقى إلى رتبة الكهنوت سنة ٣٨٦م فاشتهر بالتقوى والفصاحة والبلاغة، فذاع صيته فى مختلف أنحاء البلاد حتى وصل إلى العاصمة القسطنطينية.

فلما توفى البطريرك نيقتاريوس Nectarius (٣٨١-٣٩٧م) وقع عليه الاختيار ليخلفه (٣٩٨-٤٠٤م). وقد بالغ يوحنا فى الاهتمام بشئون الفقراء والمساكين، وأخذ ينفق على المعوزين والجياع والمرضى، فأحبه هؤلاء وآثروا الاصغاء إلى عظاته البليغة على الذهاب إلى ميادين الألعاب ودور التسلية . وقد ساعدته بلاغته وطلاقة لسانه وسرعة خاطره وحضور ذهنه على السيطرة على قلوب مستمعيه وعقولهم، ولا تزال عظاته محفوظة حتى يومنا هذا، حيث نجد فيها مختلف أنواع فنون البلاغة والبيان مثل التشابيه والاستعارات والتوريات.

واتبع يوحنا فى مركزه الجديد سياسة إصلاح أخلاقى واجتماعى، فدفع الرهبان إلى العمل المثمر، وحقق فى التهم التى وجهت إلى بعض الأساقفة، فعزل ثلاثة عشر منهم، واستنكر البذخ واللهو، وهاجم الأغنياء الذين حصلوا على ثرواتهم بالعنف والخداع والرشوة والربا الفاحش. كما أنه لم يتردد فى مهاجمة البذخ واللامبالاة بأحوال الشعب، فندد برجال البلاط ونسائهم، ولم تنج

الإمبراطورة يودوكسيا Eudoxia زوجة الإمبراطور أركاديوس من هجومه حين قارنها بهيروديا Herodia، محتجا على إقامة تمثال لها قرب الكنيسة العظيمة.

وقد أدت سياسته هذه إلى معاداة القصر الإمبراطورى له، كما أدت إلى غيرة وحسد بقية البطاركة الذين رأوا فيه خطرا على إمتيازاتهم. فعُقد مجمع بالقرب من خلقدونية سنة ٤٠٣م ترأسه تيوفيلوس Theophilus بطريرك الاسكندرية (٤٠٢-٤٣٠م)، وعُرف بمجمع السنديان Synod of the Oak، حيث حُكم على يوحنا بالحرمان من رحمة الكنيسة والنفى. وقد رفض الشعب الخضوع لهذا القرار، فاضطر الجيش للتدخل لاخراج يوحنا من المدينة. الا أن زلزالا حدث جعل الإمبراطور يعيد النظر فى هذا القرار ويطلب من يوحنا العودة إلى كرسى البطريركية. فعاد ولكنه لم يغير سيرته الأولى، فحُكم عليه بالنفى مرة ثانية سنة ٤٠٤م، وبقى متنقلا من منفى إلى آخر يكتب ويؤلف حتى وافته المنية سنة ٤٠٨م فى بلاد بونطس حيث دفن، إلى أن نُقل جثمانه فى احتفال مهيب إلى القسطنطينية سنة ٤٣٨م.

أما لقبه المعروف به وهو "ذهبى الفم" فقد اكتسبه كونه أعظم واعظ فى الكنيسة الأولى. وأشهر ما كتبه يوحنا فى مطلع حياته الفكرية رسائل عن الكهنوت حيث شرح وجهة نظره حول كرامة الكهنوت ومسئولياته وسمات الكاهن، وكيف يجب أن يكون أفضل من الراهب فى كل شئ. كما هاجم الغنوسيين الذين احتقروا المادة وخاصموا الجسد، حيث أن الكنيسة "كنيسة مؤمنين يعيشون على الأرض بأجسادهم". وله رسائل تتعلق بالحياة الرهبانية، وقد دافع فى رسائله هذه عن تلك الحياة، وعنون بعضها "ضد المعترضين على الحياة الديرية"، كما كتب عن تربية الأطفال، وعن البتولية والترمل، وعن الألم والعناية الإلهية. وله مقالات فى "الدفاع عن العقيدة ضد الوثنيين

واليهود" حيث يؤكد فيها على لاهوت السيد السميح. ونلحظ من خلال كتابات هذا المفكر الدينى الشامى المسيحى منهجه المؤسس على بلاغة الكلمات والتعابير، ولا تزال الصلوات التى كتبها تتلى فى خدمة القداس الالهى فى معظم أيام السنة فى الكنائس الأرثونكسية الملكانية لما تحويه من رفعة الأسلوب والمعنى.

وقد عاصر يوحنا الذهبى الفم مفكر دينى مسيحى آخر هو تيودوروس المبسوستى Theodorus Mopsuestia الذى ولد فى أنطاكية سنة ٣٥٠م وتتلمذ مع يوحنا على يدى ليبانيوس. ولما هجر يوحنا الذهبى الفم أستاذه واعتنق المسيحية أقنع زميله تيودوروس بأن يحذرو حذوه، فكان له ما أراد. وبعد اعتناقه المسيحية تعرف المبسوستى إلى ديودورس الانطاكى فنهل منه بعض المعارف الدينية، وخرج إلى الصحراء ليتنسك. إلا أنه لم يقو على متابعة حياة الزهد فعاد إلى أنطاكية رغبة فى الزواج. عند ذلك تدخل يوحنا الذهبى الفم فبعث إليه برسالة اقنعته بالعودة إلى حياة الرهبنة والزهد، فعاد يدرس على يدى ديودورس الطرسوسى حتى رُسم كاهنا سنة ٣٨٣م ولحق بمعلمه إلى طرطوس. وهناك رُسم أسقفا على مبسوستى حيث عاش حتى وفاته سنة ٤٢٨م. ولتيودوروس مؤلفات كثيرة فى اللاهوت، ويُذكر أن البطريرك نسطور (٤٢٨-٤٣١م) قد تتلمذ على يديه، الا أن معظم مؤلفاته قد فقدت نتيجة لموقف المجمع المسكونى الخامس الذى عُقد فى القسطنطينية سنة ٥٥٣م من تعاليمه، التى اعتُبرت أحد الفصول الثلاثة التى حرمّها جستنيان فى محاولة منه لإرضاء المونوفيزيين.

ومن أشهر المفكرين المسيحيين فى بلاد الشام فى القرن الخامس الميلاد تيودوريت القورشى Theodoret of Cyrus. وقد ولد أيضا فى أنطاكية سنة ٣٩٣م حيث بشر بمولده مقدونيوس الناسك الذى أعلن لذويه الاستعداد لمولودهم الجديد لتكريس نفسه لخدمة المسيح. وقد امتثل أهله لرغبة

هذا الناسك الذى نال احترام معاصريه، فعهدوا بابنهم إلى أحد الأديرة حيث نشأ راهبا. وقد أخذ تيودوريت الكثير عن يوحنا الذهبى الفم عن طريق تلميذ تيودورس المبسوستى، كما تزامل فى سنين الدراسة مع نسطور. وقد رسم أسقفا على قورش سنة ٤٢٣م ووافته المنية سنة ٤٥٧م. وقد أيد هذا المفكر أفكار زميله نسطور، ووضع مؤلفات عديدة لاهوتية وتاريخية أبرزها تكملة لتاريخ يوسابيوس القيصرى Eusebius of Caesarea ، الا أن معظم كتاباته هذه قد فقدت نظرا لتحريمها من قبل المجمع المسكونى الخامس، الذى عقد بالقسطنطينية عام ٥٥٣م.

أما مدينة غزة الفلسطينية فقد أعطت الفكر المسيحى اثنين ممن طبعاه بطابعهما وأثرا على معاصريهما وهما بروكوبيوس الغزاوى Procopius of Gaza وخوريسيوس الغزاوى Choricius of Gaza. وقد عاش هذان المفكران فى مطلع القرن السادس الميلادى وتوليا إدارة مدرسة البلاغة التى اشتهرت خلال عصرهما، فذاع صيتها فى كافة أرجاء الإمبراطورية. وقد ضمت تلك المدرسة عددا من الأساتذة القائلين بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة، الا أن أكثرية هؤلاء دعوا أنفسهم بالسفسطائيين المسيحيين. وقد شملت رسائل بروكوبيوس وخوريسيوس شروحا للتوراة، وهجوما على الهيلينيين والوثنيين، كما تأثرا بمدرسة الاسكندرية، واتصلا بمراكز التعليم فى جنوب بلاد الشام مثل قيصرية فلسطين.

ونختتم حديثنا عن اشهر المفكرين الدينيين المسيحيين فى بلاد الشام خلال العصر البيزنطى بدراسة يعقوب البرادعى Jacob Baradaeus الذى عاش خلال القرن السادس الميلادى (ت ٥٧٨م) ولعب دورا مصيريا فى إرساء قواعد الكنيسة المونوفيزية فى سورية. وقد ولد يعقوب فى تلا Tella سنة ٥٠٠م، وترهب فى دير بسيلتا Pesilta القرب من مسقط رأسه حيث أجاد

السريانية واليونانية. وفى سنة ٥٢٧م انتقل إلى مدينة نصيبين حيث عاش لسنوات عديدة قبل أن ينتقل إلى القسطنطينية حيث انضم إلى العديد من القسس المونوفيزيين الموجودين فى العاصمة. وخلال سنة ٥٤٣م طلب الحارث بن جبلة الغسانى من الإمبراطورة ثيودورا Theodora زوجة الإمبراطور جستنيان مساعدته لتعيين أسقفا مونوفيزيا يرعى شعبه، فطلبت الإمبراطورة من تيودوسيوس السكندرى Theadosius of Alexandria تعيينْ أسقفين مونوفيزيين لرعاية شعوب بلاد الشام، فرسم تيودورس أسقفا على بُصرى ويعقوب البرادعى أسقفا على الرها ومتروبوليتا مسكونيا.

ولم يسكن يعقوب فى مكان معين، بل أمضى حياته متنقلا متنكرا مرشدا مشجعا ومواسيا. وكان وراء ذلك سببيْن رئيسيين، أولهما تجنب ملاحقة السلطات الإمبراطورية التى كانت تسعى لفرض آراء الإمبراطور الدينية، وثانيهما رغبته فى مساعدة الكنائس المونوفيزية على النهوض والاستمرار ومقاومة الاضطهاد. وقد شملت رحلاته جميع بلاد الشام وفارس والعراق وقبرص وبعض مدن مصر وآسيا الصغرى. وقد رسم خلال رحلاته هذه سبعة وعشرين أسقفا وبضعة آلاف من القساوسة والشمامسة. وبالرغم من أنه لم يعتل شخصيا السدة البطريركية فقد اعتُبر بحق باعث المونوفيزية فى بلاد الشام، حيث رسم سرجيوس الأنطاكى Sergios of Antioch بطريركا على أنطاكية وسائر المشرق (٥٤٢-٥٦٢م). وبعد وفاته رسم بولس الأسود (٥٦٢- ٥٨١م). وقد عمل يعقوب طوال حياته على تقريب وجهات النظر بين كنيسته وشقيقتها المونوفيزية فى الاسكندرية، ووافته المنية سنة ٥٧٨م بينما كان فى طريقه، إليها على رأس وقد ضم ثمانية من الأساقفة المونوفيزيين السوريين. وقد دفن فى دير القديس رومانوس على الحدود الفلسطينية - المصرية، ثم نقلت رفاته الى دير بسيلتا سنة ٦٢٢م.

ومن خلال تلك الأمثلة المختلفة للفسلفة البيزنطية وعلاقتها بالفكر الدينى المسيحيى فى بلاد الشام خلال العصر البيزنطى يمكننا أن نستنتج أن الفلسفة البيزنطية خلال تلك الفترة اندمجت إندماجا كليا بالعلوم الدينية وأصبحت وسيلة منهجية تستعمل للأغراض الدينية، ولم تعد مادة قائمة بذاتها كما كانت خلال العصر الهلينستى - الرومانى. ولعل اعتناق الدولة للدين المسيحى وفرضها هذا الدين جعل المعلمين يتجنبون دراستها خارج الإطار الدينى، اذ أن معظم الأسئلة الفلسفية عن أسباب الوجود وعلاقة الانسان بخالقه ومحيطه قد وجدت أجوبة لها فى الدين الجديد. الا أن الخلافات الفلسفية القديمة تحولت مع هذا التزاوج بين الفلسفة والدين، إلى خلافات عقائدية أثرت وتأثرت بالحوادث التاريخية المحيطة بها. وقد ساهمت بلاد الشام فى إثراء الفكر الدينى المسيحى بمختلف فرقه فى ذلك العصر.

وبالاضافة إلى مدرسة الاسكندرية ومدارس بلاد الشام وما ظهر فيهما من نوابغ الفلسفة والفكر المسيحى ظهر فى إقليم كبادوكيه بآسيا الصغرى فى القرن الرابع الميلادى ثلاثة من العظماء عرفوا فيما بعد بإسم الأقمار الثلاثة، وكان لهؤلاء شهرة واسعة فى الشرق والغرب ليس بعدها عظمة، وهم جريجورى النازانيازى Gregory of Nazianzus المعروف باسم جرويجورى الثاولوجوس Theologian أى عالم اللاهوت، وقد ولد جريجورى هذا فى مدينة أريانزوس Arianzus فى عام ٣٢٥م، وكانت أمه مسيحية تدعى نونه Nonna وأبوه غير ذلك، وبتأثير من الزوجة اعتنق الوالد المسيحية وأصبح أسقفا لمدينة نازانيانوس Naziezus. ورغم أن جريجورى ظل وثنيا حتى عام ٣٦٠م، إلا أنه تربى على المبادئ الصالحة. وقد تلقى علومه فى بداية الأمر فى مدينة قيصرية كبادوكيا بآسيا الصغرى، ثم رحل إلى قيصرية فلسطين، ومنها شد الرحال إلى مدينة الاسكندرية حيث كان يتولى القديس أثناسيوس

Athanasius عرش البطريركية (٣٤٤-٣٩٠م) ثم اتخذ طريقه إلى أثينا. ويروى أنه أثناء رحلته البحرية تعرضت سفينته لعاصفة شديدة وواجه ورفاقه شبح الموت فاعتنق الديانة المسيحية ومن معه، وهناك رواية أخرى تقول أنه اعتنق المسيحية فى عام ٣٦٠م.

وفى أثينا تقابل جريجورى مع صديقه القديم القديس بازيل الكبير، حيث تعلم على يد أساتذه كبار، وكان معه أيضا جوليان Julian الذى نصب إمبراطورا (٣٦١-٣٦٣م) وارتد عن المسيحية وعرف باسم جوليان المرتد Apostate. وظل جريجورى يدرس فى أثينا لمدة عشرة سنوات، عاد خلالها القديس بازيل إلى بلاده، وفى هذا الوقت كان قد بلغ الثلاثين من عمره.

عاد جريجورى إلى نزانيانوس حيث كان والداه قد تقدم بهما العمر، وكان أمام جريجورى إما أن يقوم بتدريس البلاغة أو العمل كمحامى، وهى من الأعمال الدنيوية، ولكنه فضل الحياة الدينية، لذلك رسمه والده كاهنا لكنيسه نزانيانوس فى عام ٣٦٢م وظل كذلك حتى رشحه القديس بازل أسقفا على مدينة ساسيمه Sasima، ولكنه فضل ملازمه والده حتى مات الأخير فى عام ٣٧٤م. وفى أوائل عام ٣٧٩م كان الصراع على أشده بين آريوس Arius وأثناسيوس Athanasius، فأرسل إليه أرثوذكى العاصمة لمساعدتهم ضد آريوس فاتجه إليهم وأقام مجلسا فى دار أحد اصدقائه ثم جعلها كنيسة صغيرة سماها كنيسة البعث Anastasia. وفى هذا المكان القى خطبة وعظاته والتف حول الكثير من أتباعه ومن الوثنيين.

وفى عام ٣٨٠م أقر الإمبراطور ثيودوسيوس الأول رئاسته على البطريركية فى الامبراطورية (٣٧٩-٣٨١م)، وفد هذه المرحلة اتجه إليه القديس جيروم St. Jerome وتتلمذ على يديه. وفى عام ٣٨٠م كان

جريجورى قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره، وكانت صحته قد اعتلت ولم يتحمل الحياة فى القسطنطينية وفضل العودة إلى نازانيانوس ليبقى بقية حياته راهبا. وله فى هذه المرحلة قول مأثور حيث يقول"ردونى إلى الاعتزال، ردونى إلى الله". وقد استجاب الإمبراطور ثيودوسيوس إلى طلبه وأعفاه من رئاسة البطريركية فعادا راجعا إلى نازانيانوس حيث قضى بها ما تبقى من حياته، ثم توفى فى عام ٣٩١م عن عمر بلغ ستة وستون عاما.

ومن أهم أعماله اللاهوتية خطبه فى العقائد والأعياد والقديسين وأشعار لاهوتية، وقصيدة طويلة عن حياته، وله عبارات وجمل لاهوتيه تتسم بالبلاغة، وقد تجلت فى جميع أعماله القدرة الفائقة على جودة التعبير والإقناع لذلك عرف بإسم جريجورى اللاهوتى.

وإلى جانب جريجورى النازانيازى نجد قمرين آخرين هما القديس بازيل الكبير وأخيه جريجورى النيسى، وإلى جانبهما تقف اختهما القديسة ماكرينا Macrina. ولن أخوض فى أعمال هذه المجموعة الكبادوكية حيث يكون لنا معهم دراسة فى الفصل الخاص بالرهبانية، ولكنه يمكن القول أن هؤلاء الثلاثة قد تمكنوا من العلوم والكلاسيكية، واجتهدوا كثيرا فى علم اللاهوت، وأنهم استعانوا بالفلسفة وأصروا على تحكيم العقل فى فهم العقيدة المسيحية، ولم يجنحوا فى التأويل مثلما حدث فى مدرسة الاسكندرية، ولم يتخلوا عن تقاليد الكنيسة المسيحية الموروثه، ولهم كتابات عديدة فى العقيدة وهى عبارة عن مجموعة كبيرة من المواعظ والخطب والرسائل الرعوية. وهى تشكل فى حد ذاتها مادة طيبة لتفهم الفكر الدينى فى تلك المرحلة. ويمكن القول أنه لم يأت من كبادوكيا رجال تفوقوا على هذا الثالوث الذى جاد به الزمن فى وقت واحد، كانت العقيدة المسيحية فى أشد الحاجة لمثل هؤلاء.

وإلى جانب هؤلاء المفكرين والفلاسفة فى مصر وبلاد الشام وكبادوكيا كان هناك فى أعالى الفرات مجموعة أخرى فى مدينة الرها Edessa أو أورفا orfa. وأول من ورد ذكره من طلاب هذه المدينة كان لوقيانوس Lucianus ثم يوسيبيوس الرهاوى أسقف مدينة حمص حوالى ٣٥٩م أو بعدها بقليل. وفى مدينة نصيبين كان إفرام الكبير Ephrem the Grear. ولما احتل الفرس هذه المدينة عام ٣٦٣م أواخر عهد الإمبراطور جوليان المرتد طلب الإمبراطور من إفرام مُغادرة المدينة فأنتهى أمره إلى مدينة الرها، فأقام بها وأقام مدرسة ضمت كل زملائه أطلق عليها مدرسة الفرس نسبة إلى الفرس من طلابها النازحين إليها. وأهم ما صنف إفرام أشعاره فى الأسرار الالهية والتوبة والايمان والرهبانية، وتوفى إفرام فى عام ٣٧٩م.

وإلى جانب هؤلاء يظهر فى مدينة الرها إيباس Ibas أو Ihiba أو Hiba، وقد أختير أسقفا لمدينة الرها عام ٤٣٩م خلفا للأسقف رابولاس Rabbulas، وكان له مواقف متشددة تجاه العقيدة المسيحية حتى أن معارضيه عزلوه من منصبه فى مجمع إفسوس الذى عقد فى عام ٤٤١م وهو المجمع المعروف باسم مجمع اللصوص. وكان لهذا الراهب جولات وصولات فى المجامع الدينية وخارجها كما هاجم المذهب النسطورى ومن سانده، ولم يعرف قدر هذا الرجل إلا بعد مائة عام عند ظهرت الفصول الثلاثة التي لعبت دورا كبرا فى العقيدة المسيحية.

وحتى نقدم الحقيقة كاملة نسجل على هذه الصفحات أعظم ما كان من علماء اللاهوت فى غرب أوربا وإفريقيا وهم أمبروز Ambrose والقديس جيروم Jerome، والقديس أوجستين Augustine وأخيرا البابا جريجورى العظيم (٥٩٠-٦٠٤م).

وفيما يتعلق بأمبروز، فقد ولد فى مدينة ترير Trier عام ٣٣٤ أو ٣٤٠م. وكان أبوه الوالى البريتورى لغاله وكانت وفاته عام فى مدينة ميلان عام ٣٩٧م. وكان يعمل محاميا فى البلاط الإمبراطورى. وعندما مات أسقف مدينة ميلان فى عام ٣٧٤م رشحه العامة ليكون أسقفا للمدينة، ولكنه اعترض فى بادئ الأمر لأنه كان لا يزال فى مرحلة التعليم الدينى الذى يسبق عملية التعميد، ثم قبل المنصب مع علمه بأن هذا المنصب له مسئولية كبيرة. وكانت ميلان مدينة لها أهيمتها كمركز هام فى الامبراطورية الرومانية الغربية، وكان عليه كأسقف أن يتعامل مع الجانب السياسى للإمبراطورية. وكان المذهب الأريوسى ينتشر بطريقة سريعة داخل غرب أوربا، كما أن الوثنية لا زالت لها أنصارها. وكانت هذه المشكلة تواجه أمبروز. كما أن بعض أعضاء السناتو حاولوا إدخال تمثال إلهة النصر إلى قصر السناتو فى روما. وهنا تدخل أمبروز وطلب من الإمبراطور الغربى القاصر فالنتيان الثانى Valentinian II (٤٢٥-٤٥٥م) ألا يسمح بذلك. وهنا تدخلت جستينا Justina الوصية على الامبراطور وطلبت منه أن يخصص مكانا ليكون كنيسته للأريوسيين فرفض أمبروز. وفى عام ٣٩٠ قتل العامة حاكم مدينة سالونيك فأمر الامبراطور الشرقى ثيودوسيوس الأول بمعاقبتهم بكل شدة فقامت مذبحة فى المدينة، فكتب أمبروز إلى الامبراطور يطلب منه التكفير عن ذنبه ورضخ الإمبراطور لطلب أمبروز. وكان الأخير يرى أن شأن الإمبراطور لا يعلو عن الكنيسة. وفى عام ٣٨٦م زار أوجستين مدينة ميلان وبعد ستة أشهر عمده أمبروز ثم اصبح فيما بعد القديس أوجستين (توفى ٤٣٠م).

وكان عمل أمبروز فى الكتابة والتعامل مع العامة، وكانت أسقفيته تعج بالناس، فكانت عظاته وقداديسه وخطاباته عظيمة الأهمية فى عصره، وكان أول معلم ناجح للديانة المسيحية فى غرب أوربا، ولازالت بعض كتاباته

محفوظة حتى الآن، وأخيرا كان له الكثير من رواده المعجبيين بفكره، وأطلق عليه معاصروه لقب الفليسوف.

أما القديس جيروم فقد كان أيضا من الفلاسفة الدينيين، وقد ولد فى مدينة ستريدو Strido على ساحل دالماشيا فى عام ٣٤٢م، وكانت وفاته فى مدينة بيت لحم بفلسطين عام ٤٢٠م. وكان من أكثر الآباء لتعليم اللغة اللاتينية، ودرس فى روما لمدة ثمان سنوات ولم يكن اعتنق المسيحية حتى بلغ الثامنة عشر. وفى عام ٣٧٤م ذهب إلى سوريا وظل عدة سنوات يعيش مع الرهبان فى صحراء شرق أنطاكية، وفى هذه المرحلة تعلم اللغة العبرية، ثم اتجه إلى القسطنطينية وتعلم على يدى جريجورى النازانيازى. وفى أنطاكية رسم قسيسا وعاد إلى روما وعمل كاتبا لدى البابا دماسوس الأول Damasus I (٣٦٦-٣٨٤م)، وبإرشاده ترجم جيروم التوراة إلى اللغة اللاتينية، كما تولى جيروم الإشراف على مجموعة من النساك النساء، ولم يكن هذا العمل مرغوبا من البعض، وعندما توفى البابا دماسوس عاد إلى الشرق مرة أخرى بصحبة القديسة بولا Poula وابنتها ستوخيوم Eustochium وآخرون. وقد استقر الجميع فى مدينة بيت لحم، وتقابل مع الفليسوف المصرى أوريجين، وقدم ترجمات للكتب المقدسة انتهى منها حوالى عام ٤٠٤م. وكتب جيروم الكثير عن الديانة المسيحية، كما كان له مواقف عديدة ضد مخالفيه. وفى الجانب الفنى يصور جيروم بصحبته أحد الأسود وهو يرتدى قبعة الكرادله، وذلك بسبب خدمته للبابا داماسوس.

وفيما يتعلق بالبابا جريجورى الكبير، فقد كان البابا والفليسوف، ولد فى مدينة روما حوالى ٥٤٠م ومات فيها عام ٦٠٤م. ويرجع أصله إلى عائلة نبيله، وظل لبعض الوقت يشغل وظيفة والى مدينة روما. وقد خصص جانبا من ثروته لتأسيس دير فى روما، وسته أديرة أخرى فى صقلية. ثم أصبح

راهبا وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره، ومن عام ٥٤٩م إلى ٥٨٥م كان نائبا للبابا فى القسطنطينية، وبعد خمس سنوات عاد إلى الدير مرة أخرى حيث عين بابا منذ عام ٥٩٠ حتى وفاته عام ٦٠٤م، وكان أول راهب يعين فى هذا المنصب. وخلال عمله فى السدة البابوية، هاجم اللمبارد شمال ايطاليا فى عام ٥٩٢م فتفاوض معهم ووقع معاهدة معهم، كما أعاد النظام إلى كنيسة روما، وأنفق الكثير من أمواله لمواجهة ما خلفته الحروب من دمار ومجاعة، وفداء الأسرى. كما ساند استقلال الكنيسة بكل قوة فى مواجهة القوى المدنية، وكان له صلات طيبة مع الفرنجة واللمبارد والقوط الشرقيين، كما ساند الكنيسة فى شمال ايطاليا وفرنسا وأسبانيا، وأعاد المسيحية إلى انجلترا وأرسل أوجستين من قبله ليكون رئيسا لاساقفة كانتربرى Canterbury.

لقد كان جريجورى رجل دولة ودين، ويعد رابع فليسوف للكنيسة، وله العديد من الكتابات الدينية، وله أكثر من ثمانمائة رسالة، والعديد من المراسم، ويقدر الغرب الأوروبى أعمال البابا التبشيرية والاصلاحية، ويعتبروه من أعظم باباوات العصور الوسطى. وكان جريجورى يطلق على نفسه لقب "خادم خدام الله" The Servant of the Servants of gad.

واذا انتقلنا إلى شمال أفريقيا نجد القديس أوجستين، وهو الأسقف والفليسوف، وقد ولد فى مدينة نوميديا Numidia بشمال إفريقيا فى عام ٣٥٤، وتوفى فى المدينة التى أصبح أسقفا لها وهى مدينة Hippo عام ٤٣٠م بالجزائر. وكان والده وثنيا، أما والدته وتدعى مونيكا Monica فكانت مسيحية، وعند بلغ السادسة عشرة أرسل إلى مدينة قرطاج لانهاء تعليمه، وبعد هذه المرحلة من التعليم وجد أوجستين أنه من الصعب عليه أن يجلس ويستقر فى مهنة التعليم، لأنه كان يبحث عن فلسفة الحياة. وبدأ بتدريس تعاليم الديانة المانوية، وهو دين انتشر فى فارس وكان يدعو إلى الإيمان بعقيدة

قوامها الصراع بين النور والظلام . وفى عام ٣٨٣م ذهب إلى روما وحاضر فيها، ثم تلقى دعوة من ميلان ودرس فيها الافلاطونية الحديثة وتعاليم القديس أمبروز. وفى هذه المرحلة اختطلت الأفكار فى رأسه، وكان أمامه العظمة والثروة والزواج فى جانب، أم الطريق إلى الله.

وعندما كان يقرأ رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل روميه، وصل إلى الاصحاح الثالث الأيات ١٢-١٤، واقتنع بما جاء فيها، تعمد فى مساء يوم عيد القيامة عام ٣٨٧م ومعه صديقه البيوس Alipius وابنه أديوداتوس Adeodatus اللذان رافقاه فى قرطاج.

وبعد هذه المرحلة عاد أوجستين إلى شمال أفريقيا وكون نوعان من الديرية الجماعية. وفى عام ٣٩١م أصبح قسيسا ضد رغبته، وبعد خمس سنوات أصبح أسقفا لمدينة هيبو. وقد ظل لمدة أربعة وثلاثين غاما أعظم شخصية دينية بين أساقفة شمال لإفريقيا، واعتبر وزيرا للعدل فى هذه المنطقة. وفى داخل كاتدرائيه المدينة عاش عيشة جماعية مع رجال الدين تحت نظام صام فى حياة يومية كلها عمل أو عباده، وكان يبشر فى أيام الآحاد، ويقوم بعملية تعميد من يرغب من الناس، ومراغاة شئون الكنيسة واحتياجات الفقراء، وإقامة العدل بين الناس، وكثيرا ما كان يكتب الرسائل لأصدقائه أو بعض الرسائل للدفاع عن المسيحية ضد المذهب الدوناتى الذى انتشر فى شمال إفريقيا، وضد المذاهب الأخرى التى اعتبرت هرطقات من وجهة نظره. وهذه الكتابات لازالت باقية حتى الآن، وهى تتضمن مائتين من الرسائل، ومائة وثلاثة عشر كتابا، وخمسمائة من المواعظ. وأهم كتبة، الاعتراف ومدينة الله. وقد عاصر أوجستين سقوط روما فى عام ٤١٠م على يد الاريك Alaric زعيم القوط الغربيين.

وعندما بدأ أفول نجم الإمبراطورية فى الغرب بعامه، تفرغ أوجستين لوضع كتاب، وكان يكتبه وهو على فراش الموت فى عام ٤٣٠م أثناء غزو الوندال لشمال أفريقيا وأصبحوا على أبواب مدينة هيبو حيث كان يعيش، وأهم ما تركه أوجستين إلى جانب مؤلفاته النظم الديرية الخاصة به، وتبناهاالعديد من الاديرة الرجالية والنسائية والتى لازالت تحمل إسمه حتى الآن.

بعد هذا العرض لفلاسفة رجال الدين من الشرق والغرب، يمكن القول أن رجال الدين الشرقيين كانوا على اتصال دائم بالإمبراطورية البيزنطية وحكامه وكنيستها، ولعبوا دورا كبير فى صياغة نظمها وأن الفكر المسيحى الذى قدمه هؤلاء هو الأساس الذى قامت عليه قواعد الإمبراطورية البيزنطية، كما أن مدرسة الحقوق التى قامت فى بيروت قد لعبت دوراً كبيراً بخريجيها فى صياغة قوانين الإمبراطورية التى شكلت القاعدة الأساسية لنظم الحكم والتعامل بين المواطنين.

كما أن اللغة اليونانية وهى لغة الشعب فى معظم بلاد الشرق هى التى سادت فى المنطقة وتغلبت على اللاتينية التى اندثرت بعد مرحلة من الزمن. يضاف إلى ذلك النظم الديرية التى وضعته فى الشرق والتى لازالت باقية حتى الآن. ومن هنا نجد أن الإمبراطورية وقد تشربت بالفسلفة الشرقية وانعكس ذلك على كافة نواحى الحياة حتى أصبحت الإمبراطورية شرقية الطابع.

أما فيما يتعلق بفلاسفة الغرب، فكانوا قلة ولم يؤثروا على مناخ الإمبراطورية فى الشرق. وليس معنى ذلك أننا ننكر فضل فلاسفة الغرب، فقد كان لهم التأثير الواضح على جانب من غرب أوروبا. ورغم هذا كله فقد كان الشرق وفلسفته والأراضى المقدسة مصدر الهام للغرب ايضا. وهنا يمكن القول أن الإمبراطورية البيزنطية قد اصبحت شرقية الطابع أو أنها قد تمشرقت.

الفصل الثالث

نظم الحكم والإدارة

كان من الطبيعى بعد الصراع الطويل والنظم المختلفة التى سبقت عهد قسطنطين أن يتم إنشاء نظام جديد للإدارة المدينة والعسكرية. ومما لا شك فيه أن هذا النظام الجديد قد ألغى تماما ما سبقه من أنظمة، ولكنه بطبيعة الحال كان مزيجا من النظم القديمة وبعض الأفكار الجديدة التى تتناسب مع ما جد من أحداث، وسوف يتم إدخال تعديلات جديدة على النظم الحكومة وقوانينها كلما تطلبت الظروف ذلك.

وسيظل هذا الحال على مدى تاريخ الإمبراطورية خاصة عندما تتعرض الإمبراطورية لأخطار جسام. ومن ذلك أنه بعد الغزوات الجرمانية على غرب أوروبا تقلصت الحدود البيزنطية، وكذلك الأمر بالنسبة للغزوات الأسلامية، والحال نفسه بعد غزو الاتراك السلاجقة لآسيا الصغرى، هذا بالاضافة إلى الحروب التى قامت فى مراحل كثيرة على الحدود الشمالية مثل الحروب البلغارية، والغزوات الروسية إلى غير ذلك.

وعلى أية حال فإنه مع بداية قيام الإمبراطورية البيزنطية، كان الإمبراطور على رأس الحكومة، وكانت واجبات الإمبراطور تستغرق كل أوقاته تقريبا، فما كان يمر يوم دون احتفال يجب على الإمبراطور المشاركة فيه، فكان هناك الأعياد الدينية الوثنية والمسيحية أو استقبال أحد السفراء أو زيارة لميدان السباق. وكان عليه أيضا التباحث مع وزرائه ومعاونيه، وحضور بعض المجالس. وباعتباره قائداً للجيش كان عليه زيارة المعسكرات من وقت لأخر أو يخرج على رأس قواته كلما دعت الحاجة، وبذلك لم يكن لدى الإمبراطور إلا الوقت القليل لحياته الخاصة. وإذ استسلم أحد الاباطرة مثل ميخائيل الثالث Michael III (٨٤٢-٨٦٧م) المعروف بالسكير لنزواته الخاصة يفقد عرشه. وقد ألف بعض الاباطرة عدة كتب مثل ليو السادس Leo

VI (٨٨٦-٩١٢م) المعروف بالحكيم ومن بعده ابنه قسطنطين السابع (٩٤٤-٩٥٩م) بعض الكتب وهما يحكمان الإمبراطورية، فانه بالنسبة للأول فلا نستطيع أن نحدد مدى مشاركة بعض المساعدين فى إعداد هذه المؤلفات. ولم يكن من السهل على الإمبراطور مغادرة العاصمة، وقد نرى بعض النصائح المسجلة فى المصادر التى وجهها البعض للإمبراطور للسفر لتفقد ممتلكاته والوقوف كذلك على أحوال الولايات. ولكن الواقع كان غير ذلك فلم يكن لدى الإمبراطور من الوقت ما يسمح له بذلك، وأنه كان يكتفى بما يصل إليه من تقارير. ولما كانت العاصمة هى مقر الحكم والإدارة وقيادة الجيش فقد أصبح من الخطورة بمكان ترك العاصمة إلا على رأس الجيوش ومعه قادته.

وكان يساعد الإمبراطور فى تدبير شئون الحكومة، واتخاذ القرارات الرئيسة مجلس مصغر. وقد يجتمع هذا المجلس الاستشارى اذا دعت الضرورة مثلما حدث أثناء ثورة نيقه Nika التى وقعت فى عام ٥٣٢م. وفى هذا الاجتماع تدخلت ثيودورا Theodora زوجته الإمبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧-٥٦٥م) والقت خطبتها الشهيرة التى سجلها المؤرخ بروكوبيوس القيصرى Procopius of Ceasarea. بعد محاولة الامبراطور الفرار عن طريق البحر. فقد ذكر أن ثيودرا قالت "وعلى من يلبسون التاج الامبراطورى، لا ينبغى أن يعيشوا بعد أن يفقدوه، وأننى لا أود أن أعيش حتى أرى اليوم الذى لا يهتف فيه الناس بإسمى إمبراطورة لهم" واضافت"إنج بنفسك إن شئت أيها الإمبراطور، فلديك المال والسفن فى انتظارك، والبحر خال من الأعداء، أما أنا فانى باقية هنا، وأن المثل القديم يقول: "إن العباءة الأرجوانية هى خير الاكفان" فتأثر الامبراطور جستنيان بذلك وثبت مكانه وانتصر على الثوار. وفى عام ٨١٢م اجتمع هذا المجلس عندما هاجم البلغار مدينة مسمبريا Mesembria، وقد حضر فى هذا المجلس جمع من الخطباء

ورجال الدين منهم البطريرك نقفور الأول Nicephorus I (٨٠٦-٨١٥م) ومطرانا مدينة نيقيه Nicaea وقزيقوس Cizicus وغيرهم، للنظر فى أمر هذا العدوان وهل يتطلب الأمر إعلان الحرب أو معالجة المسألة بطريقة أخرى.

ومن الوجهة الإدارية كان الإمبراطور على رأس الدولة، وكان يليه الوزراء وكبار رجال الدولة مرتبين ترتيبا دقيقا طبقا لمكانة كل منهم. وكان بالإمبراطورية بعض الألقاب الشرفية تمنح لحامليها أسبقية فى المجتمع البيزنطى ولا تحمله أى واجبات، وكانت بعض هذه الألقاب تمنح مقابل بعض الأموال، كما أنها ليست وراثية. وكانت جميع الوظائف الكبرى بالدولة لها مرتبة معينة، وكانت هذه الرتب تتغير على مر السنين التى عاشتها الإمبراطورية. ومن المصادر المتاحة لنا يمكن استخراج فكرة عامة عن النظام الإدارى للإمبراطورية.

فقد كانت النزعة السائدة على الإدارة البيزنطية فى كل عصورها هى جعل الوظائف الرسمية مناصب شرفية مع إضفاء صبغة الادارة بالنظام البيروقراطى. وهناك ملاحظة أخرى أن الألقاب قد زاد عددها بدرجة كبيرة، فهبط قدرها على مر الزمن، وتطلبت الحاجة وضع القاب جديدة تعلوها قدرا.

ويلاحظ أن أعضاء الأسرة الإمبراطورية الحاكمة لم تك تتقلد مثل هذه الألقاب، لأن هذه الألقاب سوف تحد من نفوذهم الشخصى، وكانوا يمنحون ألقابا أعلى من الألقاب السابقة، كما يمكن أن يكونوا قادة عسكرين. وواقع الحال كان الابن الأكبر للإمبراطور هو ولى العهد، وعاده ما كان يتوج فى حياة أبيه دون إستثناء، وكان يحمل لقب قيصر. وكان الإمبراطور دقلديانوس Diocletion(٢٨٤-٣٠٥م) قد منح اللقب لمساعدى الإمبراطوريين. وكان

هذا القيصر يتوج دون أن يوضع على تاجه صليب في المراحل اللاحقة. وكانت هذه المرتبة لائقة لابن الإمبراطور، كما حمله الأوصياء على العرش أو الوارث المؤقت. وممـا حملـوا هـذا اللقـب الإمبراطـور طيبريـوس الأول Tiberius I (٥٧٨-٥٨٢م) قبل تولية العرش عند كان وصيا على الإمبراطور جستين الثاني Justin II (٥٦٥-٥٧٨م). كما أن الإمبراطور هرقل Heraclius ٦١٠-٦٤١م) والإمبراطور قسطنين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) قد عينا ابنيهما الثاني والثالث في منصب القيصر، ولعل مرجع ذلك أن ولديهما الكبيران كانا معتلا الصحة، فبذلك يضمن الإمبراطور العرش في سلالته من بعده. وقد يكون أحد الاباطرة لا ولد له في مراحل زواجه الأولى، فيمنح لقب القيصر لزوج ابنته مثلما فعل الإمبراطور ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) عندما منح لقب قيصر لـزوج ابنتـه ماريـا Mary وهو الكسيوس موسيل Alexeus Musele حتى يكون وريثا للعرش من بعده. وبذلك أصبح الوارث المؤقت لأن الإمبراطور ثيوفيلوس رزق بولد في عام ٨٢٢م فسقط حق الوارث المؤقت الكسيوس موسيل، وتولى الابن تحت اسم ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م). كما أن هذا الإمبراطور قد خلع لقب قيصر على عمه بارداس Bardas عندما كان وصيا عليه. كما حصل عليه فوقاس والد الإمبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م). وقد تدنى مستوى لقب القيصر في عهد الإمبراطور الكسيوس الأول كومنيتوس (١٠٨١-١١١٨م) وحل محلـه لقب الحاكم الجليل Sebastocrator. وفي عصر آل باليولوجوس Palaeologus (١٢٦١-١٤٥٣م) كان لقب ولي العهد أو الأمير، هو المستبد Despot. وهكذا كانت الألقاب تتغير مسمياتها ودرجاتها على مر العصور.

ومن الألقاب التى دامت طويلا لعدة قرون هو لقب البطريق Patricion، وهو لقب يختلف من لقب بطريرك الذى كان لقبا دينيا خاص بأعلى منصب دينى فى الكنيسة البيزنطية. وكان لهذا البطريق شارة وهى لوحة منقوشه من العاج، وهذا اللقب كان قد أنشأه الإمبراطور قسطنطين ولم يمنح إلا للقليل فى بداية الأمر، ثم زاد أعداد من حملوه شيئا فشيئا. وفى القرن العاشر ظهر لقب أعلى منه وهى لقب الماجستر Magister ويعنى وزير أو كبير، أو رئيس. وكان من علاماته أنه يرتدى قميصاً أبيضا مزينا بالذهب. وهناك القاب أخرى ولكنها اندثرت تدريجيا، وانتهت تقريبا مع الغزو اللاتينى للامبراطورية البيزنطية عام ١٢٠٤م. وكان هناك مشكلة لترتيب الأسبقية فى هذه المناصب لأنها كانت تحتوى فى داخلها على رتب وألقاب.

أما عن الجانب الادارى داخل الإمبراطورية البيزنطية، فمن المعروف أن الامبراطور دقلديانوس قد أقام النظام الرباعى (أى إلى أربع) يحكم كل منها والى بريتورى Praefectus، وفى يده سلطات نائب الامبراطور، وهى سلطة مطلقة فى النواحى القضائية والمالية والادارية والتشريعية لبعض الأمور الصغرى، وهو الذى يعين حكام المقاطعات مع بعض إشراف إمبراطورى في بعض النواحى. ولم يكن له إشراف على الجيش الذى يعسكر فى إقليمه، فقد كان يتولى أمر الجيش قادة عسكريون، وإن كانوا أقل من الوالى درجة.

وبعد تأسيس مدينة القسطنطينية أصبحت هذه المدينة ومدينة روما تحت اشراف والى المدينة. وهو منصب مدنى أقل درجة من الوالى البريتورى وكان والى المدينة مسئولاً عن الأمن بواسطة الشرطة والحفاظ على النظام وتوزيع المؤن المجانية.

وكان هناك مجموعة من الوزراء داخل البلاط الإمبراطوري في العاصمة البيزنطية، وكان منهم الوزير الأعلى للقضاء وكويستر Quastor (المشرف) القصر المقدس، ووزيران للمالية أحدهما يتولى أمر الهبات المقدسة ويتولى أمر المصروفات والايرادات العامة، والآخر يتولى الأملاك الخاصة بالإمبراطور. وفي البلاط وجد الوزير الأكبر وهو وزير الخارجية أيضا ويعمل أيضا رئيسا لديوان الموظفين. وبذلك أصبح هذا الوزير الأكبر مسئولا عن سلك الوظائف المدنية بالإمبراطورية، وعن المخابرات وإدارة مراسم الإمبراطورية، واستقبال السفراء. ونظراً لدقه ومناصب هذا الوزير فقد كان يعاونه عدد أكبر من الموظفين بخلاف الوزراء الآخرين.

وكان يحيط بالإمبراطور عدد من كبار الموظفين يعملون فى الديوان الإمبراطورى، وكان من هؤلاء عدد كبير من الخصيان، وواقع الحال أن عدد الموظفين داخل الإمبراطورية كان يقدر بعشرات الآلاف، فقد كان فى اقليم الليريا Illyria وحده حوالى عشرة آلاف موظف قبل عهد أسرة جستنيان.

واذا كان هذا النظام قد شمل الإمبراطورية عندما كانت تسيطر على جانب كبير من أوربا والساحل الافريقي وبلاد الشام وآسيا الصغرى فانه ما لبث أن تغير مع غزوات البرابرة الجرمان لجانب كبير من أوربا الغربية. يضاف إلى ذلك أن الحكومة قد أصيبت بالفساد خاصة بعدما اصبح حكام المقاطعات يتولون مناصبهم بالانتخاب، وكان فى استطاعته هذا الحاكم أن يشترى أصوات الناخبين بالمال. وبعدها يعوض هذا المال بفرض ضرائب أكبر على المقاطعة، يذهب جانب منه إلى الإمبراطور وآخر إلى الوالى البريتورى. وحاول الإمبراطور جستنيان إعادة تنظيم الإدارة الحكومية، فألغى طريقة الانتخاب، وقرر منح حكام المقاطعات راتبا مرتفعا يستطيع أن يعيش عليه، وتحتم على الحاكم الذى يترك منصبه أن يبقى فى مقاطعته خمسين يوما

لحين فحص أعماله السابقة، وعليه أن يرد على الاسئلة التي توجه إليه. وبالاضافة إلى ذلك عين بالانتخاب موظف يطلق عليه حامى المدينة لمراقبة أعمال هؤلاء الحكام والنظر فى القضايا الصغرى.

كما قسمت الولايات تقسيما جديدا فى عام ٥٣٦م، وتم ربط المقاطعات الغنية ببعض الولايات الفقيرة حتى تسدد الأولى ما على الثانية من التزامات دون مراعاة لأى تنسيق بين هذه الولايات الناشئة. كما يلاحظ وجود بعض النظم الخاصة ببعض الأقاليم مثلما حدث مع العناصر الأرمينية وصدر لها قانون خاص عرف بإسم قانون الأرمن، وهذا القانون ينص على وراثة الابن الأكبر جميع أملاك أبيه مثلما كان القانون الاقطاعى فى أوربا بعد ذلك. ولكن هذا القانون لم يرض عنه الشعب الأرمينى. كما أن بعض الأباطرة الذين حكموا بعد ذلك كانوا يميلون إلى تقسيم الضياع الواسعة، حتى لا تظهر طبقة من كبار الملاك يخشى منها على الإمبراطورية.

ولثبات الأحوال الإجتماعية وسهولة إدارة المواطنين سار جستنيان الأول على سنه دقلديانوس التى تقضى بربط الأولاد بمهنة آبائهم خاصة فيما يتصل بالأعمال الزراعية. وتوفيرا للنفقات ألغى جستنيان منصب القنصلين الذى ورثته الإمبراطورية البيزنطية عن الامبراطورية الرومانية، فقد كان رتبة شرفية يخصص لها الكثير من الأموال لتوزيع الصدقات ودفع نفقات مشاهير أبطال الألعاب الرياضية، فأبطل تعيين القناصل بعد عام ٥٤٢م. وفى الجانب الإدارى المالى وضع دورة ضريبية وهى دورة الخمسة عشر عاما يتم ربط الضرائب فى أولها ثم تتم دراسة الموقف وتحديد الضريبة الجديدة لمدة أخرى. كما أن جستنيان وضع طريقة جديدة للتأريخ وتبدأ بالعام الأول لتعيين الإمبراطور وهكذا مع الإمبراطور الثانى وأن كان ذلك ليس بجديد فقد عرف من قديم الزمان فى دول أخرى. والى جانب ذلك وضع التقويم العالمى

Annus Mundi التى تقول بأن خلق العالم منذ سيدنا آدم يرجع الى عام ٥٥٠٨ق.م).

وقد تغير هذا التنظيم مع مطلع القرن السابع بعد استقرار البرابرة الجرمان على جانب من أراضى الامبراطورية، وبعدما فشل جستنيان وخلفاؤه فى استعادتها. كما أن الحرب مع الإمبراطورية الفارسية وبعدها مع الحكام المسلمين وضياع أراضى واسعة مثل بلاد الشام ومصر وشمال افريقيا، قرب الخطر الاسلامى من آسيا الصغرى التى كانت تعد قلب الإمبراطورية، وأصبحت فى حالة دفاع دائم عن نفسها، وترتب على ذلك إقامة ألويه عسكرية بكاملها للاقامة والدفاع عن هذه المناطق، والحال نفسه فى بلاد اليونان. وكان القائد العسكرى لهذه القوات يمنح سلطات مدنية، ومع الزمن تحولت هذه الأقاليم إلى ثيمات Themes، وصار كل ثيم يسمى بإسم الفرقة العسكرية المقيمة فيه مثل اللواء البوكليرى Bucellarii والأناضولى والأوبسكى Opsikion فى آسيا الصغرى، وثيم نيقوبوليس Nicopolis على الدانوب، وثيم سالونيك، ومقدونيا وتراقيه فى بلاد اليونان. ويلاحظ أن أسماء الثيمات فى بلاد اليونان قد اطلقت عليها أسماء جغرافية.

ومع نهاية القرن التاسع الميلادى كان يوجد خمسة وعشرون لواء أوثيم داخل الإمبراطورية البيزنطية، جانب منها فى الشرق والآخر فى الغرب. وكان لواء خورسون أى شبه جزيرة القرم Crimea تابعا للجانب الغربى، ونظر لخطورة هذه المنطقة وتعاملها مع العناصر التى تقع فى الشمال مثل الروسية وقبائل البجناكيه فقد كان لقائد هذا اللواء مرتبة خاصة.

ويقدم لنا كتاب إدارة الإمبراطورية الذى وضعه الإمبراطور قسطنطين السابع Constantin VII (٩٤٤-٩٥٩م) كيفية التعامل مع هذه

العناصر التى تسيطر على شـواطى نهـرى الـدنبير Dnieper والدينـستر Dniester، وقد وضعت ضوابط صارمة للتعامل مع البجناكيه والروس مـن خلال هذا اللواء. ويلاحظ أن قواد الألوية الشرقية كانوا يتقاضون مرتباتهم من الحكومة المركزية فى العاصمة البيزنطية، أما قواد الألوية الغربيـة فكانـت مرتباتهم تصرف من الضرائب المحلية لهذه الألوية. وكان قائد لواء الأناضول هو الرئيس الأعلى لكل هذه القوات وكان لقبه قائـد أو سـيد الجنـد العـام Magister Militum، وكانت له على الدوام مرتبة وأسبقية خاصة.

وكانت كل فرقه عسكرية تقسم إلى فرق عـسكرية أصـغر تـسمى التورمات Tourmai، ثم إلى كتائب، وكان يساعد قائد اللواء مجموعـة مـن الموظفين تضم حوالى إحدى عشرة طبقة لمـساعدته فـى الـشئون المدنيـة والعسكرية. وكان لقائد هذا اللواء سلطة مطلقة داخل المنطقـة التـى يتـولى حكمها، ويتلقى تعليماته من الحكومة المركزية فى العاصمة.

وبدا من الواضح أن هذه الألوية كانت تحكم بطريقة عسكرية، ورغم هذا فإن الإدارة فى العاصمة ظلت حكومة مدنية. وكانت هذه الإدارة المركزية تحت إدارة القضاة والكتاب وكانت لهما أهمية كبرى فى الإدارة البيزنطية.

وكان والى القسطنطينية أعظم شخـصية فـى هـذه المدينـة بعـد الإمبراطور، وكان ينوب عن الإمبراطور فى حالة غيابه عن العاصمة، وعليه أن يرعى النظام ويطبق القانون داخل المدينة. كما كان يتولى سـلطاته مـن خلال الديوان العام. وهذا الديوان كان ينقسم إلى قسمين، القسم الأول ويرأسه مستشار دار الوالى ويختص بالشئون القضائية والسجون. أما الثـانى وعلـى رأسه ما يسمى بالمحكـم Symponus، ويتولى أمر الإشراف على النقابـات المهنية والحرفية وتنفيذ القوانين واللوائح التجارية ومراقبـة أعمـال سـكان

العاصمة. وكان يساعد والى العاصمة الكويستر أو المشرف وكان له اختصاص قضائى ومدنى، ومن الاختصاصات القضائية أنه كان رئيسا لمحكمة التمييز أى الاستئناف فى القضايا التى ترفع ضد الحكام أو النبلاء. وعلى الجانب الآخر فكان يعتبر الوكيل العام للشعب أى ما يعادل النائب فى مصر حاليا، وعليه حفظ الوصايا والاعلان عنها فى الوقت المناسب والاشراف على إدارة الأملاك الخاصة بالقصر. وكان من أهم أعماله أن يدبر الأعمال للقادرين على العمل حتى لا يكون فى العاصمة عاطل، ومع تنوع أعماله وخطورة مسئوليته كان يساعده عدد كبير من العاملين.

وكان يوجد فى الادارة البيزنطية ما يعرف باسم القاضى، وكانت مهمة هذا القاضى جمع التظلمات التى تصل إليه، بالإضافة إلى الالتماسات التى ترفع للإمبراطور مباشرة لعرضها على الإمبراطور فى الوقت المناسب للنظر فى أمرها. ويلاحظ أنه كان لهذا القاضى ديوان ليتولى أمر مهام منصبه من خلاله، دون أن تكون له محكمة.

وكان يتولى الشئون المالية عدد من وزراء المالية، وغالبا ما يكونوا من الكتاب النابهين. وانقسمت الشئون المالية إلى قسمين؛ هما المال الخاص وهو ما يخص الإمبراطور، والمال العام الخاص بالدولة. ومع القرن السادس كان للدولة سبع خزائن، الأولى منها هى خزانة الصدقات أى الهبات المقدسة. والباقى منها هى خزائن الولاه البريتونيين وكويستر إقليم مواشيا وسوريا، وما تبقى من الخزائن يختص بالمال الإمبراطورى، ثم أضيفت خزائن أخرى على مر الزمن، وهكذا تعددت الدواوين المالية التى وضعت تحت إدارة وزير المالية الأوحد. وكان يعاونه فى هذا العمل الكبير مجموعة من المراجعين والمراقبين. واختص هؤلاء المراقبون بأعمال الضرائب المركزية، وحلبة السباق، وأعطيات الجند، وأراضى ومزارع الإمبراطور. ويأتى بعد ذلك

مجموعة اقل درجة مثل المسئول عن جمع الضرائب فى المقاطعات، ومثلــه بأعمال المناجم، وثالث عن سقايات الماء، ورابع عن أعمال الجمارك.

وكان من أهم المناصب داخل الإمبراطورية منصب مراقــب الخيــل والبريد وهو المدير العام للبريد ويتحمل مسئولية وزارة الخارجية، وكان ايضا هو المسئول عن الخطابات المتبادلة بين الامبراطــور مــع بقيــة الــوزراء الآخرين، ومع مطلع القرن الحادى عشر تحمل مسئولية رئاسة الوزراء.

وكان الخصيان يشغلون الوظائف المتصلة بالإمبراطور، ومن مزايــا وضع الخصيان فى هذه المناصب العليا والأسرار المحيطة بهم يرجع إلى أن ليس لهم أولاد يعملون لمصالحهم. كما كانت الأعراف داخل الإمبراطوريــة تحول دون وصول هؤلاء إلى المنصب الإمبراطورى. وكانت عــادة تعيــين هؤلاء قد بدأت فى أواخر القرن الثالــث المــيلادى أى مــن حــوالى عهــد الإمبراطور دقلديانوس ثم زاد عددهم بعد ذلك بعد أن اطمأن المسئولون إليهم. وكان لكل قصر خصى هو معاون القصر الأعظم، وكانت مهمته إعداد ثيــاب الحفلات والاشراف على محتويات البلاط ، كما كان من هؤلاء الخصيان من يشرف على الموائد الإمبراطورية.

ويلاحظ أن نظام الولايات كان يتغير بتغير حدود الإمبراطورية، ولما كانت الحدود البيزنطية فى تراجع مستمر من جميع الجهات، كانت المنــاطق الجديدة التى أصبحت متاخمة للأعداد ترفع درجتها إلى درجة ألوية، وبالتالى أصبحت هذه الوظائف من الوظائف الهامة، وتضم إلــى جانــب الوظــائف الرئيسة فى الحكومة البيزنطية. واحيانا تسترد الإمبراطورية بعض الأراضى التى تفقدها ولو بعد زمن طويل مثلما حدث مع أنطاكية عــام ٩٦٦-٩٦٧م، لذلك وضعت تحت دوق ليتولى أمر قيادتها وحكمها عسكريا. وقــد تــضطر

الإمبراطورية إلى إعادة تنظيم إحدى الولايات مثلما حدث مع أقليم لمبارديا الواقع فى شمال إيطاليا حتى يسهل إدارته.

ويلاحظ أن لقب الدوق كان يمنح لمن يحكم مساحات أقل من الولاية، ومن ذلك أن فتوحات الأتراك السلاجقة فى آسيا منذ عام ١٠٨٤م وما بعدها قد أنقصت من رقعة أراضى الإمبراطورية فى شمال الشام وآسيا الصغرى، وكان من الضرورى اعادة تنظيم الإمبراطورية على وجه يسمح بالدفاع عن أراضى الإمبراطورية، لذلك لجأ الاباطرة فى عصر آل كومنيين إلى إعادة تشكيل المقاطعات بشكل أصغر حجما مما كانت عليه من قبل، وتولى أمرها أحد الأدواق.

وبعد سقوط القسطنطينية فى يد الصليبيين عام ١٢٠٤ تقلصت أراضى الإمبراطورية كثيرا، وأقيمت الإمبراطورية البيزنطية فى المنفى وعاصمتها نيقية بآسيا الصغرى. وقد حاولت هذه الإمبراطورية المصغرة إقامة حكومة جديدة على نمط النظام القديم. ولما كانت ايرادات الإمبراطورية محدودة للغاية لقلة الضرائب التى تحصل من الأراضى المحدودة التى تحت حكم إمبراطورية نيقية، فكان كل شئ يبدو فى صورة مصغرة.

وعندما استردت الإمبراطورية عافيتها واستعادت جانبا من أراضيها فى الجانب الأوربى عادت عظمة الإمبراطورية بشكل ضئيل، وكان الكثير من الوظائف يترك شاغرا، كما أن المناصب العليا عادت دون أعباء حقيقية. وانحصرت إدارة الدولة فى يد المستشار الأعظم، يساعده قائد القوات البحرية، وقائد القوات البرية.

وواقع الحال أن الإمبراطورية بعد عودتها عام ١٢٦١م لم تك الإمبراطورية بأراضيها السابقة، وانما كانت عودة شكلية من ناحية الاسم،

فكل ما تمكن آل باليولوجوس من استعادته، هو العاصمة القسطنطينية وبعض الأراضى المحيطة بها، وتحكم حكمها مركزيا من العاصمة. كما كان هنـاك مقاطعة سالونيك، وكان يتولى حكمها عضو صغير من الأسرة الحاكمة وكانت له سلطة مطلقة داخل ولايته لانفصالها جغرافيا عن العاصمة، أمـا مقاطعـة الموره فكان شأنها شأن ولاية سالونيك، وكانت الأخيره عرضة مـن وقـت لأخر لهجمات من عناصر مختلفة وأخير تسلط عليها البنادقة فى عام ١٤٢٣م حتى سقطت نهائيا فى يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٣٠م، أما المـورة فقـط سقطت بعد سالونيك فى أيدى الأتراك عام ١٤٦٠م.

والحقيقة أن الجهاز الإدارى الكبير لإمبراطورية واسعة الـذى كـان يتولى إدارة شئون الإمبراطورية البيزنطية كان باهظ التكاليف لكثـرة أعـداد العاملين فيه، واذا وضعت إلى جانب هذا الجهاز ونفقاته نفقات جـيش دائـم يغطى مساحة هذه الإمبراطورية، والنفقات الدبلوماسية الأخرى وشراء رضاء الحكام بالمال فى بعض الدول، أو دفع الجزية فى أحوال أخـرى كمـا كـان يحدث مع الحكام المسلمين، نقول أن هذا كله كان يستلزم ايرادا ضخما للدوله خاصه فى النصف الأول من عمرها عندما كانت حدودها هى حـدود الـدول التى على البحر المتوسط ويزيد. ورغم هذا كله فقد كان هنـاك فـائض فـى بعض الأوقات. ومن ذلك أن الإمبراطور أناستاس ٤٩١- ٥١٨م قد استطاع أن يوفر الكثير على مدى حكمه الذى ظل حوالى سبعة وعشرين عاما، وهذا ما شجع خلفاءه من بعده مثل الإمبراطور جستنيان على الحروب فى جبهـات متعددة وبناء المنشآت الضخمة فى ربوع الإمبراطورية. كما أن الإمبراطورة ثيودورا أرملة الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢م) أثناء وصايتها على ابنها الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) قد وفرت الملايين من العمـلات لابنها من بعدها ليحكم على مدى ربع قرن مهتما بملذاته أكثر مـن أهتمامـه

بالإمبراطورية حتى عرف باسم السكير. كما أن الإمبراطور بازيل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥م) المعروف باسم سفاح البلغار قد خفض من الأعباء المالية للبلاط حتى يواجه ما يهدد الإمبراطورية من أخطار خاصة الجبهة البلغارية، ولذلك ترك خزانة الإمبراطورية عامرة بالأموال.

أما فيما يتعلق بايرادات الإمبراطورية فكانت كثيرة ومتعددة ونبدأها بالضرائب المباشرة على المواطنين. وكانت هذه الضرائب نوعين، الأول وهو الضرائب على الأرض، والثانى هو الضرائب التى تقع على الرؤوس أى على الأفراد. والحقيقة أن ضرائب الأرض كانت هى الضرائب الأساسية باعتبار أن الإمبراطورية لها مساحات واسعة من الأراضى، وهى ثابتة يسهل الوصول إليها والتعامل معها. وكما ذكرنا فهى مربوطة على حساب السنة الضريبية، أى تقدر كل خمس عشر عاماً. ويلاحظ أن كافة الأراضى كانت مكلفة بدفع هذه الضريبة بما فيها ضياع الإمبراطورية وكذلك أراضى الأديرة، وان كانت الأخيرة قد حصلت على بعض الاعفاءات فى عهدى كل من الإمبراطورة أرينى والإمبراطور مانويل الأول Manuel I (١١٤٣-١١٨٠م).

وكان هناك سجلات كاملة فى الديوان المركزى بالقسطنطينية، وسجلات أخرى فى عاصمة كل مقاطعة من المقاطعات. وكانت هذه الضرائب تقدم عينا فى بداية الأمر ثم تحولت وأصبحت تدفع نقدا.

وكانت المشكلة الرئيسة أمام الإدارة الإمبراطورية هى التأكد من عدم تدنى مستوى الايرادات - عن المصروفات - إذا عجز صاحب الأرض أو مستأجرها عن دفع الضرائب، لذلك وضعت الإمبراطورية النظام المعروف باسم الضرائب الجماعية الذى ساد الإمبراطورية لعدة قرون، وهذه الضرائب

الجماعية تعنى أن المجتمع المحلى بأكمله كان مسئولا عن دفـع مـا علـى المنطقة من ضرائب.

وفى عهد الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م) الذى تـولى بعـد حكم الإمبراطورة ايرنى، كانت الإمبراطورية تمر بضائقة مالية بعد ما تحملته من جزية باهظة كانت تدفع للخليفة العباسى فـى بغـداد. وقـد شـعر هـذا الإمبراطور أن العبء على مجتمع القرية قد أصـبح كبيـرا لدرجـة عـدم الاحتمال. لذلك وجد نقفور وهو الوزير المالى السابق للإمبراطورية أن يدخل نظام الالتزام التضامنى، ويقضى هذا النظام أن أغنى منطقة مجاورة عليها أن تتحمل ضرائب ما يجاورها من الأراضى العاجزة عن دفع الضريبة، وبـرغم الظلم الواضح فى هذا النظام إلا أنه يجعل الإمبراطورية تحـصل الايـرادات المطلوبة من كافة الأراضى، ولكن الإمبراطور ميخائيـل العمـورى (٨٢٠-٨٢٩م) قد الغى هذا النظام بعد حوالى عـشرة سـنوات وأعـاد الـضريبة الجماعية.

ولم يستمر الحال على ذلك طويلا لأن الإمبراطـور بازيـل الثـانى Basil II (٩٧٦-١٠٢٥م) أراد أن يوجه ضربة قويـة لأصـحاب الـضياع الكبار اللذين تضخمت ثرواتهم وأصبح يخشى بأسهم، فأعاد نظـام الالتـزام التضامنى. ولكن النظام الأخير لم يستمر طويلاً بعد أن تذمر الاغنياء الـذين يساندون الإمبراطور، فتقرر أخيرا وضع نظام ثابت على المزارع الكبيـرة، كان على صاحبها أن يدفعه حتى إذا قل المحصول أو زاد، أما إذا توفى هـذا المالك الكبير وتوزعت أراضيه على ورثته، توقفت هذه الأراضى عن تنفيـذ هذا النظام، وكانت هناك بعض الرسوم الأخرى التى تقـرر علـى الماشـية والأغنام وبعض الآلات.

أما فيما يتعلق بضريبة الرؤوس التي تفرض على الأفراد ومنــازلهم وأعمالهم التجارية وتحركاتهم فكانت كثيرة ومتعددة وغير واضحة المعــالم، وهل كانت مفروضة باستمرار، أى أنها تفرض فى أوقات وتلغى فى أوقــات أخرى، فالأمر كذلك غير واضح. ومن هذه الضريبة ما كان يفــرض علـــى الأفراد، ويرى البعض أنها كانت تفرض على غير المسيحين من المــواطنين البيزنطين. كما كان هناك ضريبة تعرف باسم المحراب وهى الأخرى يكتنفها الغموض ويسجل المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس أنه فى عهد الإمبراطور نقفــور الأول Nicephorus I (٨٠٢-٨١١م) كانت توجد ضــريبة علـــى المنــازل يدفعها كل فرد داخل المنزل. وحول هذه الضريبة يسجل ابن حوقل النصيبى. الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى وهو أحد التجار الرحالة المثقفين ومــن الذين دخلوا أراضى الإمبراطورية البيزنطية وتعامل معها تجاريا، قد سجل أن عمال الامبراطورية البيزنطية كانوا يأخذون من كل دخان أى من كــل بيــت دينارين من المنازل المتاخمة للحدود الإسلامية. والمقصود بكل دخــان لعلــه يرجع إلى أنه كان لكل بيت مدخنه خاصة بالطهى والتدفئة. هذا بالاضافة إلى العديد من الضرائب الأخرى.

أما الأراضى البيزنطية فى قبرص التى كانــت عرضــة للغــزوات الاسلامية فكان عليهم تقديم ضريبة للدفاع، وهى أعلى فى المدن منهــا فـــى الأماكن الريفية. والحال نفسه مع جزيرة كورفو الواقعة إلى الغرب من بـــلاد اليونان إلى الجنوب، فكان عليها أن تدفع الكثير من الضرائب خاصــة أنهــا كانت لها شهرة واسعة فى صناعة الحرير، وقد تم غزوها من قبل النورمـــان فى عام ١١٤٧م ميلاديه، ولكنها عادت مرة أخــرى ١١٤٩م، ولمــا عـــادت للسيادة البيزنطية مرة أخرى وتحمل أهلها ما عليهم من الضرائب، قـــالوا أن عبء الحكم النورمانى أفضل لهم من عبء الضريبة التى يتحملونها.

وكان هناك ضريبة أخرى لعلها كانت نوعا على ممتلكات الأراضـــي الموجودة بالمدن وكانت تعرف باسم إريكون Aerikon. وتشير إليها المصادر في عهد الامبراطور جستنيان الأول، ومرة أخرى في كتاب المعارك الحربية الذي وضعه الإمبراطور ليو السادس الحكيم. كمـا وجـدت بالإمبراطوريـة ضريبة الأيلولة، أي ضريبة التركات المباشرة، والى جانبها ضريبة التركـات غير المباشرة. والأخيرة تعنى الميراث الذي يصل إلى فرد ليس من العصب، وقد الغيت هذه الضريبة الأخيرة وانضمت إلى ضريبة التركـات المباشـرة. ويسجل لنا المؤرخ ثيوفانيس في بداية عهد الإمبراطور نقفـور الأول عـشر أنواع من الضريبة يضيق المجال هنا عن مناقشتها، ولكنني أذكـر مـا ورد تحت البند السادس منها وهو أن الأشخاص الذين ظهرت عليهم فجأة علامات الثراء، كان يتم مراجعة ذمتهم المالية، وتحصل منهم ضريبة على كل ما دخل في ثروتهم بطريقة غير طبيعية، واعتبر الإمبراطور أن للحكومة نصيب فـي هذه الأموال الدخيلة.

وإلى جانب الضرائب كانت هناك بعض الرسوم. وأود أن أوضح هنا الفرق بين الضرائب والرسوم، فالضرائب تقرر على الجميع مثل ما يحـصل من ضريبة على مرتبات العاملين بالدولة بنسبه كل مرتب، أما الرسوم فهـي مبالغ تحصل مقابل تأدية الجهاز الاداري لخدمة معينة مثلما يـسدد الطالـب الرسوم الدراسية أو رسوم مقابل الحصول على شهادة دراسية أو شهادة ميلاد أو ما شابه ذلك. وربما تسمى في بعض الأحيان الضرائب غير المباشرة لدى بعض المؤرخين. وكان في الإمبراطورية البيزنطية جانبا من هذه الرسوم مثل الجمارك والأسواق ورسم التمغة على الإيصالات.

وكان يوجد رسوم للتصدير والاستيراد؛ والأولى كانت تحصل داخـل العاصمة البيزنطية، أما الثانية وهي رسوم الاستيراد فكانت تحصل في مدينة

أبيدوس Abydus وهى مدينة فى غرب آسيا الصغرى على مدخل مضيق الدردنيل. ولما كانت تجارة الرقيق تلعب دورا هاما فى ميزانية الإمبراطورية، فقد سجل المؤرخ ثيوفانيس تعريفه جمركية على كل عبد يباع غرب ميناء أبيدوس، كما سجل أيضا رسوما على الخمور المعتقة التى مضى عليها اثنى عشر عاما باعتبارها أصنافا ممتازة من الخمور. وفى بعض الأوقات كانت تفرض رسوم مؤقتة مثل التى فرضها الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى Leo III ٧١٧-٧٤١م لإصلاح أسوار القسطنطينية بعد أن هاجمها المسلمون فى عام ٩٨هـ/ ٧١٧م، أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م). يضاف إلى هذه الضرائب والرسوم ما كان يدر على الدولة من أموال من مصانع الإمبراطورية واحتكار صناعة الحرير وبيع الألقاب، وتجارة القمح. ويلاحظ أن العاملين بالإمبراطورية كانوا يتعمدون رفع قيمة هذه الضرائب والرسوم أحيانا من أجل رفع النسبة التى يحصلون عليها مما يحصلون.

والحقيقة أن هذا النظام الضريبى الشديد الوطأة على المواطنين قد قدم للإمبراطورية أموالا ضخمة وملأ خزائنها بالكثير من المال الذى مكنها من دفع ما عليها من التزامات تجاه العدد الكبير من العاملين، والاحتفاظ بجيش وأسطول ضخم لمواجهة الأخطار من كافة الاتجاهات، وقد وضع هذا كله الإمبراطور البيزنطى فى مركز أقوى من أى حاكم فى غرب أوربا. ويلاحظ أن هذه الضرائب والرسوم المرتفعة قد أدت إلى تذمر المواطنين، كما أنهم لم يكونوا من الثراء لمواجهة التجار المنافسين الأجانب عندما تداخلت التجارة والصناعة ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى.

أما فيما يتعلق بايرادات الإمبراطورية فكانت كثيرة ومتعددة ونبـدأها بالضرائب المباشرة على المواطنين. وكانت هذه الضرائب نوعين، الأول وهو الضرائب على الأرض، والثانى هو الضرائب التى تقع على الرؤوس أى على الأفراد. والحقيقة أن ضرائب الأرض كانت هى الضرائب الأساسية باعتبـار أن الإمبراطورية لها مساحات واسعة من الأراضـى، وهـى ثابتـة يسـهل الوصول إليها والتعامل معها. وكما ذكرنا فهى مربوطة على حـساب الـسنة الضريبية، أى تقدر كل خمس عشر عاما. ويلاحظ أن كافة الأراضى كانـت مكلفة بدفع هذه الضريبة بما فيها ضياع الإمبراطورية وكذلك أراضى الأديرة، وان كانت الأخيرة قد حصلت على بعض الاعفاءات فى عهـدى كـل مـن الإمبراطـورة أرينـى والإمبراطـور مانويـل الأول Manuel I (١١٤٣-١١٨٠م).

وكان هناك سجلات كاملة فـى الـديوان المركـزى بالقـسطنطينية، وسجلات أخرى فى عاصمة كل مقاطعة من المقاطعات. وكانت هذه الضرائب تقدم عينا فى بداية الأمر ثم تحولت وأصبحت تدفع نقدا.

وكانت المشكلة الرئيسة أمام الإدارة الإمبراطورية هى التأكد من عدم تدنى مستوى الايرادات – عن المصروفات – إذا عجز صـاحب الأرض أو مستأجرها عن دفع الضرائب، لذلك وضعت الإمبراطورية النظام المعـروف باسم الضرائب الجماعية الذى ساد الإمبراطورية لعدة قرون، وهذه الضرائب الجماعية تعنى أن المجتمع المحلى بأكمله كان مسئولا عن دفـع مـا علـى المنطقة من ضرائب.

وفى عهد الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢-٨١١م) الذى تـولى بعـد حكم الإمبراطورة إيرنى، كانت الإمبراطورية تمر بضائقة مالية بعد ما تحملته

من جزية باهظة كانت تدفع للخليفة العباسي في بغداد. وقد شعر هذا الإمبراطور ان العبء على مجتمع القرية قد أصبح كبيرا لدرجة عدم الاحتمال. لذلك وجد نقفور وهو الوزير المالى السابق للإمبراطورية أن يدخل نظام الالتزام التضامني، ويقضي هذا النظام أن أغنى منطقة مجاورة عليها أن تتحمل ضرائب ما يجاورها من الأراضي العاجزة عن دفع الضريبة، وبرغم الظلم الواضح فى هذا النظام إلا أنه يجعل الإمبراطورية تحصل الايرادات المطلوبة من كافة الأراضي، ولكن الإمبراطورُ ميخائيل العموري (٨٢٠-٨٢٩م) قد الغى هذا النظام بعد حوالى عشرة سنوات وأعاد الضريبة الجماعية.

ولم يستمر الحال على ذلك طويلا لأن الإمبراطور بازيل الثانى Basil II (٩٧٦-١٠٢٥م) أراد أن يوجه ضربة قوية لأصحاب الضياع الكبار اللذين تضخمت ثرواتهم وأصبح يخشى بأسهم، فأعاد نظام الالتزام التضامنى. ولكن النظام الأخير لم يستمر طويلا بعد أن تذمر الاغنياء الذين يساندون الإمبراطور، فتقرر أخيرا وضع نظام ثابت على المزارع الكبيرة، كان على صاحبها أن يدفعه حتى إذا قل المحصول أو زاد، أما إذا توفى هذا المالك الكبير وتوزعت أراضيه على ورثته، توقفت هذه الأراضي عن تنفيذ هذا النظام، وكانت هناك بعض الرسوم الأخرى التى تقرر على الماشية والأغنام وبعض الآلات.

أما فيما يتعلق بضريبة الرؤوس التى تفرض على الأفراد ومنازلهم وأعمالهم التجارية وتحركاتهم فكانت كثيرة ومتعددة وغير واضحة المعالم، وهل كانت مفروضة باستمرار، أى أنها تفرض فى أوقات وتلغى فى أوقات أخرى، فالأمر كذلك غير واضح. ومن هذه الضريبة ما كان يفرض على الأفراد، ويرى البعض أنها كانت تفرض على غير المسيحين من المواطنين

البيزنطين. كما كان هناك ضريبة تعرف باسم المحراب وهى الأخرى يكتنفها الغموض ويسجل المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس أنه فى عهد الإمبراطور نقفور الأول Nicephorus I (٨٠٢-٨١١م) كانت توجد ضريبة على المنازل يدفعها كل فرد داخل المنزل. وحول هذه الضريبة يسجل ابن حوقل النصبى. الذى عاش فى القرن العاشر الميلادي وهو أحد التجار الرحالة المثقفين ومن الذين دخلوا أراضي الإمبراطورية البيزنطية وتعامل معها تجاريا، قد سجل أن عمال الامبراطورية البيزنطية كانوا يأخذون من كل دخان أى من كل بيت دينارين من المنازل المتاخمة للحدود الإسلامية. والمقصود بكل دخان لعله يرجع إلى أنه كان لكل بيت مدخنه خاصة بالطهى والتدفئة. هذا بالاضافة إلى العديد من الضرائب الأخرى.

أما الأراضى البيزنطية فى قبرص التى كانت عرضة للغزوات الاسلامية فكان عليهم تقديم ضريبة للدفاع وهى أعلى فى المدن منها فى الأماكن الريفية. والحال نفسه مع جزيرة كورفو الواقعة إلى الغرب من بلاد اليونان إلى الجنوب، فكان عليها أن تدفع الكثير من الضرائب خاصة أنها كانت لها شهرة واسعة فى صناعة الحرير، وقد تم غزوها من قبل النورمان فى عام ١١٤٧م ميلاديه، ولكنها عادت مرة أخرى ١١٤٩م، ولما عادت للسيادة البيزنطية مرة أخرى وتحمل أهلها ما عليهم من الضرائب، قالوا أن عبء الحكم النورمانى أفضل لهم من عبء الضريبة التى يتحملونها.

وكان هناك ضريبة أخرى لعلها كانت نوعا على ممتلكات الأراضى الموجودة بالمدن وكانت تعرف باسم إريكون Aerikon. وتشير إليها المصادر فى عهد الامبراطور جستنيان الأول، ومرة أخرى فى كتاب المعارك الحربية الذى وضعه الإمبراطور ليو السادس الحكيم. كما وجدت بالإمبراطورية

ضريبة الأيلولة، أى ضريبة التركات المباشرة، والى جانبها ضريبة التركات غير المباشرة. والأخيرة تعني الميراث الذى يصل إلى فرد ليس من العصب، وقد الغيت هذه الضريبة الأخيرة وانضمت إلى ضريبة التركات المباشرة. ويسجل لنا المؤرخ ثيوفانيس فى بداية عهد الإمبراطور نقفور الأول عشر أنواع من الضريبة يضيق المجال هنا عن مناقشتها، ولكننى أذكر ما ورد تحت البند السادس منها وهو أن الأشخاص الذين ظهرت عليهم فجأة علامات الثراء، كان يتم مراجعة ذمتهم المالية، وتحصل منهم ضريبة على كل ما دخل فى ثروتهم بطريقة غير طبيعية، واعتبر الإمبراطور أن للحكومة نصيب فى هذه الأموال الدخيلة.

وإلى جانب الضرائب كانت هناك بعض الرسوم. وأود أن أوضح هنا الفرق بين الضرائب والرسوم، فالضرائب تقرر على الجميع مثل ما يحصل من ضريبة على مرتبات العاملين بالدولة بنسبه كل مرتب، أما الرسوم فهى مبالغ تحصل مقابل تأدية الجهاز الادارى لخدمة معينة مثلما يسدد الطالب الرسوم الدراسية أو رسوم مقابل الحصول على شهادة دراسية أو شهادة ميلاد أو ما شابه ذلك. وربما تسمى فى بعض الأحيان الضرائب غير المباشرة لدى بعض المؤرخين. وكان فى الإمبراطورية البيزنطية جانبا من هذه الرسوم مثل الجمارك والأسواق ورسم التمغة على الإيصالات.

وكان يوجد رسوم للتصدير والاستيراد؛ والأولى كانت تحصل داخل العاصمة البيزنطية، أما الثانية وهى رسوم الاستيراد فكانت تحصل فى مدينة أبيدوس Abydus وهى مدينة فى غرب آسيا الصغرى على مدخل مضيق الدردنيل. ولما كانت تجارة الرقيق تلعب دورا هاما فى ميزانية الإمبراطورية، فقد سجل المؤرخ ثيوفانيس تعريفه جمركية على كل عبد يباع غرب ميناء أبيدوس، كما سجل أيضا رسوما على الخمور المعتقة التى مضى عليها اثنى

عشر عاما باعتبارها أصنافا ممتازة من الخمور. وفى بعض الأوقات كانت تفرض رسوم مؤقتة مثل التى فرضها الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى Leo III ٧١٧-٧٤١م لإصلاح أسوار القسطنطينية بعد أن هاجمها المسلمون فى عام ٩٨هـ/ ٧١٧م، أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م). يضاف إلى هذه الضرائب والرسوم ما كان يدر على الدولة من أموال من مصانع الإمبراطورية واحتكار صناعة الحرير وبيع الألقاب، وتجارة القمح. ويلاحظ أن العاملين بالإمبراطورية كانوا يتعمدون رفع قيمة هذه الضرائب والرسوم أحيانا من أجل رفع النسبة التى يحصلون عليها مما يحصلون.

والحقيقة أن هذا النظام الضريبى الشديد الوطأة على المواطنين قد قدم للإمبراطورية أموالا ضخمة وملأ خزائنها بالكثير من المال الذى مكنها من دفع ما عليها من التزامات تجاه العدد الكبير من العاملين، والاحتفاظ بجيش وأسطول ضخم لمواجهة الأخطار من كافة الاتجاهات، وقد وضع هذا كله الإمبراطور البيزنطى فى مركز أقوى من أى حاكم فى غرب أوربا. ويلاحظ أن هذه الضرائب والرسوم المرتفعة قد أدت إلى تذمر المواطنين، كما أنهم لم يكونوا من الثراء لمواجهة التجار المنافسين الأجانب عندما تداخلت التجارة والصناعة ابتداء من القرن الحادى عشر الميلادى.

أما فيما يتعلق بالنفقات، فليس لدينا ما كانت تتحمله خزانة الدولة للخدمة المدنية ونفقات القوات المسلحة. ويقدم لنا كتاب الامبراطور قسطنطين السابع الذى سجله عن المراسم جانبا من نفقات القوات المسلحة، ويذكر أن قادة ألوية الأناضول والارميناك وتراقيه يخصص لهم مبلغا كبيرا يساوى أربعين رطلا من الذهب سنويا، وأن قادة بعض الألوية الأخرى يخصص لهم

حوالى ثلاثين رطلا من الذهب. أما قواد الثغور فيتقاضون أقل من ذلك لأنهم يحصلون على مبالغ أخرى من رسوم الحدود، كما كانت تصرف مرتبات لحملة الألقاب، ففى منتصف القرن العاشر كان يوجد من حملة لقب الماجستير حوالى أربعة وعشرين رجلا، وكان كل واحدمنهم يتقاضى حوالى ثلث رطل من الذهب سنويا، ويحصل على نصف هذه القيمة ما يحمل لقب بطريق. أما عميد كلية الحقوق فكان يصرف له فى القرن الحادى عشر حوالى أربعة أرطال من الذهب سنويا وبعض البدلات الأخرى.

ولما كانت تفاصيل حياة كل مواطن بالامبراطورية من اختصاص الحكومة، كان الجهاز الادارى يتطلب نفقات كثيرة. وقد تتحمل الامبراطور كل هذه النفقات طالما كانت ميزانية الامبراطور تتحمل هذه التكلفة. ومن الأعمال التفصيلية التى كانت ترعاها الدولة نجد أن من واجبات والى القسطنطينية الأشراف على جميع أنواع النشاط التجارى، وعليه النظر فى الأسعار وتحديد أثمان كل سلعة، وأجور العمال وتحديد ساعات العمل، والترخيص بمزاولة الأعمال وفتح المحلات ومراقبة تنفيذ القوانين. وعليه أيضا مراعاة تقديس المواطنين ليوم الأحد والأعياد الدينية والرسمية. ومن مهماته أيضا تزويد العاصمة بالمواد الغذائية اللازمة، ومساعدة الناس خلال المجاعات والكوارث خاصة فى المناطق الريفية.

وكانت الأسس القوية التى قامت عليها الامبراطورية تنحصر فى ثلاثة جوانب. ويمكن أن تحدد الأولى منها بانه كان لابد لكل فرد داخل الامبراطورية أن يكون مواطنا صالحا بمعنى الكلمة، والثانية هى دين الدولة يعتنقه الجميع ويحميه، والثالثة هى القانون الذى قامت عليه الدولة. ومما لا شك فيه أن التمسك بالدين وقيمه، كان عصب كل هذه العوامل وهو الذى حفظ الامبراطورية لمدة إحدى عشر قرنا من الزمان.

واذا كان ذلك هو القاعدة فانه كان هناك من خرج على هذه القاعدة من بينهم بعض الاباطرة والاستقراطية المالكه للأرض، ومن الأباطرة من قل أن نسى واجباته تجاه الإمبراطورية وفضل عليها مصالحه الشخصية ولكن لبعض الوقت، ولكنهم كانوا دائما تقريبا يضعون مصالح الامبراطورية فوق مصالحهم الشخصية إلى حد كبير.

أما الاستقراطية المالكة للأرض فقد شكلت على الدوام جنوحا عن هذه القاعدة. ولعل هذه المتاعب تعود إلى الأخطار التى هددت الامبراطورية فى الغرب على يد الغارات الجرمانية، وفى الشرق من الغزوات الاسلامية، وهذا ما أدى إلى عدم استقرار هذه الأراضى، فقد مزقتها وقضت على قيمة الأرض المالية، وهذا ما أثر كثيرا على الضراب التى كانت تجمعها الحكومة من هذه الضياع، وهذا أمر لم يك لأصحاب الأراضى دخلا فيه. ولكن المشكلة الكبيرة بدت عندما ساد الهدوء الحدود الشرقية والغربية منذ منتصف القرن التاسع، وأصبحت الأضى الزراعية أكبر أنواع الأعمال ربحا، لذلك نشأت طبقة جديدة من طبقة الملاك أو نمت الضياع القديمة، وكلاهما استمد ثروته من الضياع الواسعة التى عمدوا دائما إلى اتساع رقعتها. وهنا ضاع المالك الصغير للأرض واصبح مستأجرا أو ترك الزراعة إلى أعمال أخرى. وقد أدى هذا إلى إنقلاب الأوضاع رأسا على عقب فى عدة جوانب: أولا؛ الاخلال بالنظم الضريبية، وثانيا: ارتباط الابناء بالأرض، وثالثا؛ نظام التجنيد فى قوات الامبراطورية.

وقد ترتب على هذا كله ما هدد كيان الامبراطورية وأمنها، فقد كان لدى الأثرياء حاشيات كبيرة من الخدم والاتباع والعاملين فى أرضه، وكان يسلحهم، فتفاقم أمرهم وأصبحوا لهم خطرا كبيراً على مراكز الأباطرة أنفسهم. وقد انشغل الأباطرة طوال القرن العاشر أى منذ عهد الامبراطور ليو السادس

(٨٨٦-٩١٢م) وحتى عهد بازيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م) بوضع القوانين التى تعمل على تقليص نفوذ هؤلاء الأعيان والحد من سلطانهم بوقف شراء الأراضى الزراعية من الفقراء. ولأن الامبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) قد خرج على هذه السياسة لأنه كان من أسرة تمتلك أراضى كثيرة.

ومع منتصف القرن الحادى عشر الميلادى أى مع بدايات حكم أسرة دوكاس أصبح لدى ملاك الأراضى من القوة ما جعلهم يتحكمون فى منصب الامبراطور بعد الفوضى التى اجتاحت الامبراطورية من الشرق بفعل غزوات الاتراك السلاجقة، ومنذ هذا الوقت أصبحت الاستقراطية الزراعية هى التى تتحكم فى إدارة الامبراطورية، وأصبح الحصول على درجة عالية فى الادارة الامبراطورية تعتمد على مكانة الأسرة وعلو شأنها لا على الكفاءة أو الجدارة. يضاف إلى ذلك أن تدخل الغزو السلجوقى إلى آسيا الصغرى لم يعط أى مجال لقيام أرستقراطية جديدة، ولكن الخطورة هنا أن هذه المقاطعات أخذت تتجه إلى الاستقلال حتى إذا قدمت الحملة الصليبية الرابعة فى عام ١٢٠٤ فأكمل هذا الاستقلال وتمزقت الامبراطورية إلى كيانات عديدة بعضها فى يد قواد الحملة وبعضها فى المنفى مثل امبراطورية نيقية. ومن هنا تحول رجال الارستقراطية إلى موظفين مدنيين، وكان لهم قيمة كبيرة لدى الحكومات الجديدة. ورغم هذا كله فقد كان الجهاز الإدارى داخل أراضى الامبراطورية بدرجة عالية من الكفاءة لم تعرفه أوربا كلها فى العصور الوسطى.

وقد لعب القضاء دورا كبيرا فى الامبراطورية البيزنطية، وقد ساعد على ذلك الإحترام الكبير الذى يكنه المواطنون للقانون الذى ورثوه عن الامبراطورية الرومانية، حتى ظلت روح القانون الرومانى هى السائدة خلال حكم الامبراطورية البيزنطية، فأخذ الناس بالعدالة وتمسكوا بها واحترموها.

والحقيقة أن الامبراطور كان هو القاضى الأعلى داخل بلاده، وكثيرا ما رفعت اليه قضايا الاستئناف، وكان الاباطرة مثل جستنيان الأول يفضل أن يستمع إلى شكاوى الناس بنفسه، ولكن ما كان متبعا فى قضايا الاستئناف أن يتلقى وزير التظلمان الالتماسات لعرضها على الامبراطور. أما فى الولايات فكان لكل منها قضاة يفصلون فى القضايا المحلية، أما القضايا الكبرى فكانت تحول إلى العاصمة وتعرض على محكمة مكونة من اثنى عشر قاضيا. ولتسهيل الأمر على المواطنين لرفع قضاياهم فى العاصمة أقام بعض الأباطرة الاتقياء مثل رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩-٩٤٤م) دورا للضيافه لاقامة واستقبال المتقاضين.

أما فى القضايا التى كان أحد أطرافها رجال الدين فكانت تفصل فيها محاكم كنيسته مستقلة، وإن كانت الكنيسة هيئة من هيئات الإمبراطورية، وكان لهذه المحاكم الكنسية أيضا أن تنظر فى القضايا التى كان أطرافها من غير رجال الدين إذا رغب الطرفان فى ذلك. ولكن الإمبراطور الكسيوس كومنين قضى على هذا الاستقلال وبسط سلطته عليها، واصبح لهذه المحاكم الكنسية أن تنظر فى القضايا المتعلقة بالاسرة خاصة ما يتعلق بالزواج وما يقدمها الخيريون لأوجه البر. ومنذ عصر آل باليولوجس Paleologus لعب رجال الدين دوراً كبيراً فى إدارة الامبراطورية، واتسع سلطان محاكم الكنيسة وظل كذلك حتى أواخر أيام الامبراطورية البيزنطية.

وفيما يتعلق بالعقوبات فقد اقتصر حكم الإعدام على جرائم الخيانة والالتحاق بصفوف الأعداء أو القتل، وهى حالات قليلة على مدى التاريخ البيزنطى، أما العقوبات الأخرى فتبدأ من توقيع الغرامات، أو مصادرة الأموال والأملاك، أو بتر أحد الأعضاء. أما الأحكام بالسجن فقد وجدت الامبراطورية أن لا فائدة منها بل يكلف الحكومة أموالا كثيرة، ولم تستخدم

السجون إلا لحجز المجرمين الذين تحت المحاكمة. ومما عمل على تخفيف العقوبات في كثير من الاحيان حق الالتجاء إلى الكنائس، حتى القاتل كان له أن يفلت من العقوبة اذا دخل أحد الأديرة واعتزل فيها. وفي هذه الحالة الأخيرة تنقل نصف أملاك القاتل إلى ورثة المقتول والنصف الآخر لورثة القاتل، ويجوز أن ينقل بعضها إلى أحد الأديرة.

ومن الصعب على المؤرخين أن يقدروا إلى أى مدى كان انتشار الرشوة داخل الإدارة البيزنطية، ولكن من النصوص المتاحة لنا يمكن القول أن الامبراطور ليو الثالث قد سجل في الإيكولوجا Ecloge وهى التى تعرف باسم المختارات القانونية التى أصدرها عام ٧٢٦م مجموعة من القوانين، وهى مقسمة إلى ثمانية عشر فصلا منها القوانين الجزئية والمدنية، وكانت تعتبر من أفضل مراجع للقضاء يمكن الرجوع إليها، خاصة ما يتعلق بالأسرة والزواج والميراث والوصاية على الأطفال، حتى يقال عنها انها كانت قانونا للغنى والفقير، ولعل فى وضوح القوانين ما قلل من الرشوة والفساد حتى أصبح يقال أنه لم يعد إلا القليل من الشكاوى بعد إقامة العدالة. والحق يقال أن المواطن البيزنطى كان أفضل من معاصريه داخل أوربا.

الفصل الرابع

الحيـــاة العامـة

تقدم لنا المصادر التاريخية معلومات طيبة عن حياة البلاط الامبراطورى وحياة الأمراء والنبلاء وعليه القدم، كما تقدم لنا هذه المصادر أيضا صورة مناسبة عن الحياة فى المدن خاصة العاصمة البيزنطية والمدن الكبرى. أما حياة طبقات التجار والفلاحين والعمال من سكان القرى، فإننا لا نجد فى المصادر البيزنطية إلا قدرا ضئيلا من المعلومات، وعلينا أن نقتفى أثرهم فى تراجم بعض القديسيين، والمراسيم القانونية التى تضم القواعد العامة من الناحية القانونية، أو الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث ورعايته الأطفال.

ومن ناحية أخرى فان الحياة فى الإمبراطورية التى دامت حوالى إحدى عشر قرنا، لم تسر فيها على وتيرة واحدة، فقد تغيرت الأحوال فيها عدة مرات. ورغم هذا كله فقد ظل المواطن البيزنطى يشعر شعورا قويا بأنه أفضل أنواع الجنس البشرى حضارة، ويشعر أيضا بأنه رومانى أصيل، وأنه صاحب المذهب الدينى المسيحى الصحيح، ويعتبر نفسه بأنه الوريث الشرعى لكافة الحضارة اليونانية والهلينية والرومانية ويتكلم اللاتينية بطلاقة. ولم يكن هناك فرق يذكر فى عقلية المواطن من عقلية القوم الذى يرتدى الملابس اليونانية فى بدايات عصر الامبراطورية البيزنطية مع من عاش فى نهاية عصر الامبراطورية الذى أطلق لحيته ووضع على رأسه العمامة وارتدى سترة من الديباج الموشى وتكلم اللغة اليونانية.

وفى واقع الأمر كان سكان الامبراطورية فى بداية عهدها يشكلون أخلاط الناس من سكان سوريا ومصر وشمال أفريقيا، بالإضافة إلى كل سكان أوربا بامتداد الشرق فى آسيا الصغرى حتى الحدود الفارسية. وتمثل ذلك كله فى العاصمة البيزنطية التي كانت عاصمة عالمية Cosmopolitan ويرتادها

أجناس العالم المتحضر بأكمله. وكانت فكرة القومية البيزنطية غير موجـــودة داخل المجتمع اليزنطى. ولكن المواطنه عندهم هى التمسك بالعقيدة المسيحية الصحيحة خاصة بعد القرن الخامس الميلادى واللغة اليونانيـــة فـــى القـــرن السابع.

واذا كان ذلك هو شعور المواطن البيزنطى، فاننا لا نستطيع الإنكـــار بأن الامبراطورية ضمت أجناسا مختلطة من السلالات البشرية، فواقع الحـــال أن نسبة اليونانيين داخل الامبراطورية كانت قليلة، فقد عاش فى الإمبراطورية عناصر جرمانية وأوربية ورومانية وأرمينية وآسيوية وسورية وافريقية وغيـــر ذلك. فقبل تحول الإمبراطورية الرومانية إلى الامبراطور البيزنطة تزواجـــت هذه العناصر من بعضها البعض فى جميع طبقات المجتمع من أعـــلاه إلـــى أدناه، وكان الامبراطـــور البيزنطـــى فيليبكـــوس باردانـــاس Philippicus Bardanas (٧١١-٧١٣م) من أصل عربى، وأن الامبراطـــور أركـــاديوس Arcadius (٣٩٥-٤٠٨م) أسبانى الأصل وتزوج مـــن يودكيـــا Eudocia القوطية الأصل، وأن ابنهما ثيودرســـيوس الثـــانى Theodosius II (٤٠٨-٤٥٠م) كانت زوجته يونانية، والحقيقة أن سكان القسطنطينية وهى العاصـــمة البيزنطية كان ينتمون إلى اجناس مختلفة، ولكنهم كانوا يدعون جميعا أنهم من أصول رومانية.

واذا كانت الفتوحات الإسلامية قد أعادت مصر وسوريا وشمال أفريقيا من أراضى الامبراطورية، وقل امتزاج هذه العناصر بأهـــل الامبراطوريـــة البيزنطية، فإن هناك أخلاطا أخرى من الشعوب بـــدأت تتغلـــل فـــى نـــسيج الامبراطور خاصة العناصر الأرمينية والصقالية، والأخيرة هـــى العناصـــر السلافية.

وقد بدأت غزوات الصقاليه مع بداية القرن السادس الميلادى خاصة فى بلاد البلقان فى بداية الأمر، وعندما ساد الاستقرار بعد الغزوات الجرمانية زادت نسبة الامتزاج بين الاجناس الأصلية والوافدة، فكنا نرى قادة عسكريين وبعض من يتولون مناصب كبيرة فى الامبراطورية من عناصر غير يونانية أو رومانية، حتى أن بعضا منهم قد طالب بالعرش ورفع راية العصيان ضد الامبراطور. ومن هؤلاء توماس Thomas ويعرف باسم توماس الصقلى الذى قاد ثورة ضد الامبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠-٨٢٩م) طوال أكثر من عام بداية من ديسمبر ٨٢١م وحتى أعدمه الامبراطور فى ربيع عام ٨٢٣م، وتزوجت الأميرة ماريا ليكابينوس Maria Lecaponus من بطرس قيصر البلغار (٩٢٧-٩٦٩م) وبذلك زادت الاستقراطية اختلاطا بالمصاهرة إلى الأسرة المالكة البلغارية، ومع نهاية القرن الحادى عشر ذاب الصقالية فيمن حولهم من السكان.

أما فيما يتعلق بالعناصر الأرمينية فإنهم لم يتركوا بلادهم الأصلية إلا تحت الهجمات العسكرية مثلما هاجروا من بلاد الأرمن الأصلية وهى أرمينيا الكبرى، وكانت عاصمتها مدينة آنى، تحت ضغط هجمات الاتراك السلاجقة وسقوط هذه العاصمة فى عام ١٠٦٤م، فهاجروا إلى إقليم قيليقية فى الجنوب الشرقى لآسيا الصغرى، كما انهم كانوا يرحلون جماعات أو فرادى بسبب فقر الأراضى التى عاشوا فيها. وكان من العناصر الأرمنية القائد العظيم نارسيس Narses فى عهد الامبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧-٥٦٥م)، وأن الإمبراطور ليون الخامس Leo V (٨١٣-٨٢٠م) كان أرمينيا، كما كان الامبراطور بازيل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) من أسرة أرمينية، وكان الإمبراطور يوحنا الأول تزيمسكيس Hohn I Tzimisces نبيلا أرمينيا. وفى مرحلة أخرى نجد قمة الوظائف العليا فى يد عناصر أرمينية من أسرة واحدة،

ومن ذلك الامبراطور رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapenus (٩٢٠-٩٤٤م) وابنه ثيوفيلاكت Theophyloct ينبوأ مركز بطريرك الإمبراطورية (٩٣٣-٩٥٦م)، يضاف إليهم ايضا من العناصر الأرمينية قاد الجيش يوحنا كوركواس John Corcuas, وهكذا بدت الامبراطورية كلها فى أيد عناصر أرمينية. وهكذا وعلى طول التاريخ البيزنطى نسمع عن أميرات أو كبار الموظفين من أصل أرمينى.

كما انتشر فى داخل المدن البيزنطية كثير من الصناع والتجار الأرمن، وحتى يشق الأرمينى طريقه داخل الامبراطور فكان عليه أولا أن يتخلى عن مذهبه الأرمينى ويعتنق المذهب الخلقدونى. يضاف إلى ذلك أنه كان من الأرمن نسبة كبيرة من خيرة العقول التى تعمل بالتجارة. وكان لهم أثرا عظيما فى الفن البيزنطى. والحقيقة أن الأرمن كانوا أكثر الاجناس هجرة داخل الامبراطورية.

يضاف إلى الصقالبة والأرمن أن التاريخ البيزنطى يسجل كثرة من المهاجرين الذين وفدوا إلى أراضى الامبراطورية من الشرق والغرب التماسا للعمل والثراء.

وفى الشرق كانت الحدود مع العام الاسلامى تشهد الكثير من القادمين والمغادرين، ومما يقال أن والد Digenis Akritas بطل الملحمة الشهيرة كان أميرا عربيا مسلما ثم اعتنق المسيحية، وكان المهاجرون إلى الامبراطورية من الشمال الأووبى وغربه فى القرون المتأخرة يفضلون العودة إلى بلادهم بعدما جمعوا من ثروات، ومن هؤلاء الفارنجيين سكان إسكاندنافيا (السويد والنرويج والدنمرك)، وانجلترا وبلاد الفلاندرز فى شمال فرنسا. وربما فضل بعضهم الاستقرار فى مهجره وكونوا أسرا فيها.

وقد ساعد ذلك أن البيزنطى لم يكن متعصبا ضد أى أجنبى يعتنق المذهب البيزنطى الخلقدونى ويتكلم باللغة اليونانية، أما ما كان يلفظه البيزنطى هو الشخص الذى يعتنق غير مذهبه، فقد اعتبره كافرا، وبذلك أصبح بوسع أى مهاجر يعتنق المذهب الخلقدونى أى يتزوج من أمرأة بيزنطية مهما كان شأنها، وكثيا ما نقرأ عن سيدات بيزنطيات من عائلات كبيرة يتزوجن من مغامرين. ولكن الهجمات العسكرية من غرب أوربا على أراضى الامبراطورية مثلما حدث فى الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م جعلت البيزنطيين يكرهون الأجانب باعتبارهم معتدين، ويصبون اللعنات على الحضارة الغربية لا على المواطنين.

وهناك حقيقة هامة نود الاشارة إليها، وهى أن العنصر البشرى الوحيد الذى استقر داخل الامبراطورية دون امتزاج بمن حوله من العناصر هو العنصر اليهودى رغم أنه كان قليل العدد، وتجمع بخاصة فى مستعمرات فى آسيا الصغرى وتحدثوا اللغة اليونانية، ومع تقدم الزمن انتشر هؤلاء اليهود فى معظم المدن البيزنطية على حد ما كتبه الرحاله اليهودى بنيامين التطيلى، وأن كان ما ذكره فيه كثير من المبالغة. وقد اشتغل هؤلاء بالأعمال التجارية، وإن كانوا أقل خبرة من الأرمن، ويسجل البعض أنهم كانوا يقدمون ضرائب إضافية مع التعرض للاضطهاد من وقت لآخر. ومع الزمن اعتنق بعضهم المسيحية على المذهب الخلقدوفى وانضموا إلى الطبقات العليا، ويشير المؤرخ ثيوفانيس أنه فى ربيع عام٦٢٩م غادر الامبراطور هرقل القسطنطينية واتجه إلى مدينة بيت المقدس لإحضار الصليب المقدس، وعندما وصل إلى مدينة طبرية قال له أهل المدينة أن رجلاً من هذه المدينة يدعى بنيامين وهو يهودى ثرى قد اعتنق الديانة المسيحية، وقد دار جدل بين الامبراطور وبنيامين وانتهى الأمر بتعميد بنيامين ودخوله فى الديانة المسيحية فى بيت يوستاثيوس

النبوبوليتانى Eustathios The Neapolilan، وهو شخصيه كبيره استقبلت الامبراطور هرقل.

أما فيما يتعلق بمركز العاصمة البيزنطية وهـو القـسطنطينية، فقـد أصبحت هذه المدينة مركزا دينيا واقتصاديا وإداريا منذ نشأتها، فقـد تمركـز فيها كل أجهزة الامبراطورية، وبحكم موقعها كانت مدخلا ومخرجا لقـارتى آسيا وأوربا، وعلى اتصال بالبحر الأسود شمالا وبحر إيجه والمتوسط جنوبا، ومن هنا صعد نجم هذه العاصمة منذ نشأتها. فقد قلت أهمية رومـا وميلانـو وقرطاجنه، أما مدينة الاسكندرية وهي مقر القديس مرقص فقد كـان علـى البطريرك المصرى مسئولية نشر المسيحية فى سائر إفريقية، أما وأنطاكيـة المنسوب إليها القديس بولس فقد كانت مسئولة عن نشر المسيحية فى أنحـاء آسيا فكانت حتى الفتح الاسلامى لا تقل شأنا عن القسطنطينية إلا قليلا. ومـع اضطراب أحوال أوربا بسبب الغزوات الجرمانية، تحولت التجارة القادمة من الشرق البعيد إلى آسيا الصغرى.

ومع ازدهار مدينة القسطنطينية زاد عدد سكانها حتى بلـغ حـوالى مليون نسمة بدون الضواحي، وظلت على هذا الحال حتى سـقطت فـى يـد الصليبيين على يد الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م، فاضمحل عددها إلى حوالى مائة ألف، ثم بدأ فى النقصان حتى سقطت فى يد الأتراك العثمانين عام ١٤٥٣م.

وواقع الحال أن موقع المدينة وحصانتها قد أهـلها لهذه المكانة البارزة فى التاريخ، فهى مدينة مثلثة يحد الضلع الشمالى فيها القرن الذهبى وهو مرفأ هام لدخول وخروج التجارة، والضلع الشرقى يواجه بحر مرمه أما الغربـى منها فهو يواجه الجانب البرى من إقليم تراقيا، وقد حصن بثلاثة أسوار فـى

غاية الحصانة، وكانت المدينة كلها محاطة بالأسوار بها حوالى اثنتا عشر بوابه منها بوابات عسكرية وأخرى مدنية، وداخل هذه المدينة نجد الكنائش والقصور والبساتين.

وكان التجار أو المسافرون القادمون من خليج البسفور فى الشمال أو خليج الدردنيل من الجنوب يجد إلى الغرب قباب القصر الكبير وكنيسة آيا صوفيا وحولهما الحدائق، وإلى جوارها الهبدروم وهو ميدان السباق ومقر الاحتفالات وتتويج الامبراطور، هذا بالاضافة إلى كنيستى القديس سرجيوس وباكوس والأبراج التى تعلو الأسوار. وفى خلف المدينة أى الجانب الغربى كان نهر ليكوس الذى يمد العاصمة بالمياه، وخزانات المياه التى تحفظ فيها المياه لاستخدامها فى أيام الصيف.

وخارج أسوار المدينة كانت المنازل على امتداد الساحل، أما داخل المدينة فيقع الشارع الأوسط، وهو شارع واسع وضع على جانبيه العقود أى البواكى، وهو يخترق سوقين، وهما عباره عن ساحة واسعة تزينها التماثيل، وأحد هذه الأسواق يسمى سوق قسطنطين والآخر يسمى سوق ثيودسيوس. وعلى جانبى الشارع الأوسط كانت تقع أجمل وأهم حوانيت المدينة، وهى مصنفه فى مجموعات طبقا لما تبيعه من السلع، فكنت ترى صاغة الذهب ثم صاغه الفضه، ثم محلات الأقمشة والثياب وهكذا، وكذلك المركز التجارى لسوق الحرير الفاخر وكان يعرف بدار الأنوار، لأن أنواره كانت تضاء ليلاً.

ولم يكن بداخل العاصمة البيزنطية حى خاص لسكنى كبار القوم، فكانت القصور والمنازل تتداخل مع بعضها البعض. ويلاحظ أن منازل الاثرياء كان تبنى من طابقين على الطريقة الرومانية القديمة، وكانت نوافذها تطل على صحن داخلى توضع فيه فسقية، وتارة يكون بسقف أو بدون. أما

منازل الفقراء فكان لها شرفات تطل على الشارع. وقد تدخلت إدارة الامبراطورية لتنظيم المباني بعد أن عمها الفوضى، وضاقت الشوارع أو اتسعت حسب الأحوال. فقد أصدر الامبراطور زينون Zeno (٤٧٥-٤٩١م عدا عامى ٤٧٥-٤٧٦) قانونا نظم به المبانى، وقد نص هذا القانون على الا يقل عرض الشارع عن ثلاثة أمتار ونصف أى حوالى إثنى عشر قدما، ولا يجوز أن تخرج الشرفات عن حدود المبنى الأصلى كثيرا، وقدره البعض بحوالى قدم واحد، ولا يجوز تعلية المبنى لأكثر من خمسة عشر قدما عن سطح الأرض أى بمعدل دور واحد. أما فيما يتعلق بأنابيب الصرف الصحى فكانت تتجه جميعها لتتسرب إلى البحر، وكان لا يوجد بالمدن مدافن للأفراد، وقد وضع كل هذا فى منظومة واحدة يرعاها ويشرف عليها الأطباء والعاملون فى كل ولاية.

أما الحدائق والبساتين فكانت تنتشر داخل المدن، وكان الزائر للمدن البيزنطية يرى فى كل شارع كنيسه، كما ألحقت الأديرة بالكنائس الكبرى. كما وجدت بالمدن أيضا المستشفيات ودور الضيافة وملاجئ للايتام، وفى العاصمة كانت مبانى الجامعات وصهاريج المياه والحمامات العامة. ويلاحظ أن شوارع القسطنطينية الهامة والاسواق وميدان السباق كانت مملوءة بالتماثيل البديعة الصنع، وقد ظلت موزعة داخل الشوارع لتضيف على المدينة عزة وبهاء حتى سرقها أو دمرها الصليبيون فى عام ١٢٠٤م، ومن ذلك تماثيل الخيول الأربعة البرنزية التى سرقها البنادقه عند فتحهم للمدينة، وقد استولى نابليون على هذه التماثيل عندما غزا البندقية ونقلها إلى باريس، ولكن ايطاليا استعادتها مرة أخرى وهى موجودة الآن بالبندقية داخل كاترتية القديس مرقص.

وكانت الضواحى تقع حول العاصمة مثل ضاحية جلاتا Galat التى تقع شمال القرن الذهبى، وقد نمت هذه الضاحية بعد ما انتقلت إلى يد

الايطاليين، وكان بها تجارة رائعة، وكان هناك منتجعات يتوافد عليها الاثرياء في الصيف.

وكان المنظر الخارجي للقسطنطينية في غاية الجمال، فكانت القباب والكرانيش والعقود الملونة والصور والتماثيل التي صنعها الفنان البيزنطي بكل عناية، وكانت ملابس الأغنياء حتى القرن الخامس الميلادي تشبه الملابس الرومانية، ثم تحولت مع مرور الزمن إلى سترات طويلة من الديباج الموشى، ثم ازدادت الملابس إتقانا، وصار الرجال يضعون على رؤسهم العمائم ويطلقون لحاهم، أما النساء فلبسن القبعات، وظهرت أدوات التجميل التي تزين النساء والمراهقات. وفيما يتعلق بالاسواق وما فيها من سلع فقد تدخلت الحكومة وأوجدت نظاما لساعات العمل والأسعار والأرباح، وقد تولى هذا الأمر والي المدينة، كما حددت الكنيسة أيام الأعياد والصيام.

وفيما يتعلق بحياة الامبراطور اليومية، فكانت تنظمها قواعد معينة من التنظيمات والمراسيم، فعلاوة على أعماله الادارية والسياسية وغير ذلك من أعباء الحكم داخل القصر الامبراطوري، كان عليه حضور الاحتفالات الكثيرة على مدار السنة، وفي هذه الاحتفالات كان يتلقى من الاحترام ما يليق به، كما كان يشارك ويحضر بنفسه الألعاب التي تقام في ميدان السباق. كما كان عليه ايضا أن يغير ثيابه بما يليق مع كل مناسبة، وأن يسير في مواكب طويلة وسط جمهور المواطنين. كما كان عليه قيادة الجيوش إذا لزم الأمر. واذا كان لديه بعض الوقت، فله أن يستريح في الصيف في أحد قصوره. ولم يجد الاباطرة إلا القليل من الوقت الذي يشبعون به هواياتهم، أو تأليف بعض الكتب. أما اذا ترك الاباطرة هذه الأعمال لغيرهم من كبار رجال القصر فانهم لم يمكثوا على عروشهم إلا وقتا قصيرا، إلا إذا كان رجال القصر هؤلاء من الثقة والخبرة والولاء بما يضمن لهم حكما مستقرا.

أما فيما يتعلق بالقصر الامبراطورى الذى يحكم منه الامبراطور، فقد ظل القصر الكبير Bucoleon مقرا للإمبراطور حتى القرن الثانى عشر، وقد سمى بهذا الاسم نسبه إلى مرفأ القصر الذى حمل الإسم نفسه، وفى هذا المكان كان يوجد تمثال لثور ضخم يصارع أسدا.

وقد ضم هذا القصر أجنحة للإقامة وقاعات محاضرات واجتماعات. وفى هذا القصر بنى الامبراطور ثيوفيلوس Theophilus (٨٢٩-٨٤٢م) قاعة رائعة للاستقبال، وأضاف الامبراطور بازيل الأول Basil I (٨٧٦-٨٨٦م) بعض الاضافات، كما أنشأ الامبراطور نقفور الثانى فوكاس Nicephorus II Phocas، الذى اعتصب العرش بصفه دائمة حتى قتل فيه، جناحا عند شاطئ البحر، أما أباطرة أسره كومنين Comnenus بداية من حكم مؤسسها الامبراطور الكسيوس الأول Alexius (١٠٨١-١١١٨م) ويوحنا الأول John I (١١١٨-١١٤٣م) ومانويل الأول Manuel (١١٤٣-١١٨٠م)، كانوا يفضلون الإقامة فى قصر بلاخرناى Blacherae. ويروى عن الأخير أنه كان شديد الولع بالصيد، ولذلك فضل الإقامة بصفة دائمة فى هذا القصر الذى يقع فى الركن الشمالى الغربى للمدينة على شاطئ القرن الذهبى حتى يكون قريبا من مناطق الصيد فى الأقاليم المجاورة للقصر. وقد أصاب القصور تخريبا كبيرا على يد الصليبيين فى عام ١٢٠٤، وقد أخذ ترميم جانبا منها وقتا طويلا بعد ذلك.

وكان ما بداخل هذه القصور من تحف وتماثيل ورسوم على الجدران قد أذهل رجال الحملة الصليبية الرابعة، وقد سجل أحد المؤرخين وهو فلهاردوين Villehardouin بعض أشكال عظمة هذه المدنية، لقد اندهش بما رآه داخل قصر بلاخرناى من ألوان الرخام والفسيفساء والصور الجصية التى

ازدانت بها جدران القصر، والجواهر والسبائك الذهبية وتماثيل الأسود التـــى تزأر، والطيور التى تغرد، بالاضافة إلى مجموعة من آثار القديـــسين التـــى جمعت من أنحاء العالم المسيحى. وكان بالقصر تل شيدت عليه مناره لارشاد السفن إلى داخل مضيق البسفور الواقع إلى الشمال من المدينـــة، وبجوارهـــا كنيسه باسم السيدة مريم العذراء، وكان بها متحف ضم ذخائر للقديسين لا تقدر بثمن، وقد وزعت هذه الكنوز على الصليبيين فى عام ١٢٠٤م.

ولما كانت تجارة الحرير احتكارا للامبراطورية، فكان القــصر مقــر إدارة هذه التجارة، وكانت أنوال نسيج الحرير موجودة داخل الجانب الخـــاص بالنساء، وعلى هذه الأنوال صنعت أثمن أنواع الحراير التى كانت صـــناعتها سراً من أسرار الامبراطرية. وفى هذا القصر أيضا كانت مكاتـــب الحكومـــة والوزراء وكافة الدواوين. وكان فى هـــذا القـــصر كـــذلك أجنحـــة خاصـــة بالامبراطورة وحاشيتها، وكانت هذه الأجنحة تحت ســـلطان الامبراطـــورة لا يسمح بالدخول إليها إلا باذن منها.

وكان لها أن تغادر هذا الجناح لتقابل الامبراطور فى جناحه وتتنـــازل معه الطعام. وكان للامبراطورة إذا كانت وصية على إمبراطـــور قاصـــر أن تستقبل رجال الدولة. وواقع الحال أن الامبراطورة كانت فى بعض الأحيـــان داخل هذا القصر أقوى من الامبراطور.

واذا تطلب الأمر اختيار عروسة لامبراطور، فكان المبعوثون حـــسب التقاليد يجولون داخل المدن ليختاروا من بيوت الأمراء والنبلاء أجمل البنات، وغالبا ما كان يتم الاختيار طبقا لأسباب عاطفية أو سياسية، وفى هذه الحالـــة يستغنى عن الطريقة التقليدية، وفى أحيان أخرى كانت الأم هى التـــى تختـــار العروس بنفسها كما حدث أيام الامبراطورة إيرين التى اختارت العروس لابنها

قسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م). وقد يتم زواج الاميرات البيزنطيات، وهو أمر نادر الحدوث، ومن أمراء أو ملوك أجانب مثلما حدث مع الأميرة ثيافانو Theophano ابنه الامبراطور رومانوس الثاني Romanus II (٩٥٩-٩٦٣م) من الأمير الألمانى أوتو Otto في عام ٩٧٢م الذى تولى عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة (٩٧٣-٩٨٣م).

ومن مظاهر الحياة العامة فى العاصمة البيزنطية ألعاب السيرك، وسباق العربات بين الفرق المختلفة التى اتخذت ألوانا مختلفة لملابس أبطال هذا السباق مثل الأبيض والأحمر والازرق والاخضر. وكان هذا المكان يعرف باسم الهيدروم Hippidrome أو الملعب الكبير وكان هذا الملعب يوجد بالقرب من القصر الكبير وكنيسة آياصوفيا. وقد بنى هذا المكان على شاطئ بروبونتس Propontis بالقرب من البوابة الذهبية، وفى هذا المكان كان يتم استعراض القوات العسكرية. وقد زين هذا المكان بوجود بعض الكنائس، ومن ذلك كنيسة النبى صمويل Samuel التى ضمت بعض مخلفاته، وكذلك كنيسة القديس يوحنا المعمدان John Baptisr (وهو النبى يحى) التى أقامها الامبراطور ثيودوسيوس الأول، وقد أعدت هذه الكنيسة لتوضع بها رأس يوحنا المعمدان. وقد نقل ثيودوسيوس الكبير Theadosius I (٣٧٩-٣٩٥م) مسلة الملك تحوتمس الثالث ووضعها فى منتصف هذا المكان ولا زالت باقية حتى يومنا هذا، وقد تم توسعة هذا المكان فى عهد الامبراطور جستنيان الأول Justinian I (٥٢٧-٥٦٥م). وفيه كان يتم تتويج الأباطرة منذ عهد فالنز Valens (٣٤٦-٣٧٨م) إلى أيام زينون Zemo (٤٧٤-٤٧٥م). وفى هذا المكان أيضا تجمع الثوار فيما يعرف باسم ثورة نيقا Nika عام ٥٣٢م ضد الامبراطور جستنيان الأول.

وكان على الامبراطور وزوجته أن يحضرا مثل هذه الألعاب ومشاركة الشعب فيما يتم من احتفالات، وكان من الممكن الوصول إلى المقصورة الامبراطورية المقامة داخل السيرك من القصر مباشرة. وكان ميدان هذا السيرك مكانا واسعا يستطيع أن يحتوى على أماكن لحوالى أربعين ألف متفرج. وكان حول هذا المكان بعض المبانى المتواضعة للعاملين فى خدمة السيرك بالإضافة إلى بعض اصطبلات الخيول. وكان الدخول إلى هذا السيرك أو ميدان السباق مجانا, وتتحمل الحكومة ما يتحمله الاحتفال من أموال. والحقيقة أن هذه الاحتفالات كانت أهم الاحتفالات التى يقبل عليها الجمهور.

وفى هذا المكان كان يتم إقامة المهرجانات الخاصة بسباق العربات المتنافسة، أو الصراع بين الحيوانات. وكان لهذه المهرجات مراسم خاصة تنفذ بكل دقة وكان لها نظام خاص يحدد طريقة السباق وقيمة الجوائز التى تمنح الفائزين. وكان يوجد فى ألعاب سباق العربات نجوم لهم شهرتهم وأصبحوا نجوما فى هذا المجال, ومن هؤلاء بورفيريوس Porphyrius الذى ذاع صيته فى عهد الامبراطور أناستاسيوس الأول Anastasius I (٤٩١-٥١٨م)

ولكن هذا الحال تغير فى القرن التاسع الميلادى، فقد تراجع سباق العربات وبدأ يسترعى انتباه الناس رياضية الفروسية. وزاد من أهمية هذه الرياضة الامبراطور مانويل الأول الذى مال إلى الحضارة الأوروبية فأدخل الفروسية كرياضة أقيمت فى هذا المكان، ولكن ما حاط بالامبراطور من مشاكل وهزائم فى مراحل لاحقة جعل الناس لا يهتمون كثيرا بهذا الرياضة.

وكان الاحتفال بالأعياد من المظاهر الهامة داخل العاصمة البيزنطية فكان الامبراطور يستقبل فى قصره كبار الزوار ويمرون أمامه صفا واحد،

كما مرت النساء أمام الامبراطـورة. كمـا تـشبه الأمـراء وعليـة القـوم بالامبراطور واستقبلوا فى مقر إقامتهم كبار الـزوار وبعـض الاتبـاع مـن الشعراء وغيرهم وتشبهوا بالبلاط الامبراطورى.

أما فيما يتعلق بملكية القصور والمباني، فقد كان جميع الأمراء يملكون قصورا أو منازل فسيحة بالعاصمة، لأن هؤلاء وهم من علية القـوم كـانوا يشغلون بحكم العادة مناصب هامة فى الحكومة الامبراطورية، وهم يمثلـون حاشية الامبراطور، لذلك كان الأمر يتطلب إقامة شبه دائمة داخل العاصـمة. وفضلا عن ذلك كانوا يملكون بعض المنازل فى الريف لقضاء جانبا من فصل الصيف، وتعتبر هذه المنتجعات الريفة ملاذا لهم اذا ما غضب علـى أحـدهم الامبراطور ونفاه خارج العاصمة.

وفيما يتعلق بملكية الأراضى التى كانت العائلات الكبيرة تستمد قوتها من دخلها، فقد فقدت بعض العائلات الكبيرة – التى كانت تعيش على الحدود الشرقية للامبراطورية – أراضيها وثرواتها وسلطانها أثناء غزوات المسلمين أو حملاتهم على شرق آسيا الصغرى، وبذلك أصبح امتلاك الأراضى حتـى القرن التاسع الميلادى تقريبا جانبا لا يؤتمن له. أما من كان لهـم ممتلكـات داخل العاصمة البيزنطية لا نجد منهم فـى المـصادر التاريخيـة إلا عائلـة مليسنيوس Melissenus ويظهر منها الثائر نقفور فى عـام ١٠٨٠م الـذى طالب بعرش الامبراطورية، وقد انتقلت هذه العائلة بعد ذلك لتعيش فى إقلـيم تساليا Thessaly ، هذا بالاضافة إلى ستيفن Stephen الذى حكم حتى عـام ١٣٣٣م.

ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادى وهدوء الجبهة الشرقية بعد نهاية الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وتحول الصراع أيـام بنـى أميـه مـع

الامبراطورية البيزنطى من صراع وجود إلى صراع حدود أيام بنى العباسى، أخذت تظهر بعض العائلات الكبيرة مثل عائلة آل فوقاس Phocao وعائلة دوكاس Ducas وعائلة سكيليروس Sclerus وعائلة أرجيروس Argyrus ، وعائلة كومنيين Comnenus ، والحال نفسه على الحدود الغربية للامبراطورية فبعد الغزوات البلغارية وهدوء هذه المنطقة بدأت بعض العائلات الكبرى مثل عائلة كانتاكوزين Cantacuzenus ، وعائلة برينوس Bryennius وعائلة تورنيكس Tornices. وكل هذه العائلات ظهر منها أباطرة أو قادة عظام، أو ثائرون ضد الأباطرة. ولعبوا دورا كبيرا فى تاريخ الامبراطورية على مدى قرون طويلة. ويلاحظ أن هذه العائلات كانت تضع إلى جوار أسماء الأولاد لقب عائلات أمهاتهم، وعلى امتداد التاريخ البيزنطى نجد نماذج كثيرة لهذه الحالات، ومن ذلك أسرتا دوكاس وكومنين اللتان حكمتا الامبراطورية من ١٠٥٧ حتى ١١٨٥م.

ويلاحظ أن هذه الأسر الكبيرة كانت تعيش مع بعضها البعض وتتقوى برجالها ضد منافسيها وضد أية أخطار أخرى، وسجلت المؤرخة أنا كومنينا Ann Comnena وهى سليلة عائلات كومنيين كيف كانت أمها دالاسينا Ann Dalassena كانت تجمع أفراد هذه الأسرة، وأنهم كانوا يأتمرون بأمرها، وأنهم كانوا وحدة واحدة يدافعون عن مصالحهم بكل قوة، وانها ساندت بكل قوة ابنها الكسيوس Alexius Comnenes وهو القائدة العسكرى الناجح حتى تولى عرش الامبراطورية (١٠٨١-١١١٨م).

وكانت السبل مفتوحة للأشخاص للوصول إلى طبقة الاستقراطين أو علية القوم، فكان بوسع أى مستثمر للأراضى وهو إستثمار آمن وناجح أن يجمع قدرا كبيرا من المال ويؤسس أسره نبيلة، وقد يستطيع أن يشترى لقبا

شريفا يصبح بموجبه أو أولاده في حياته أو من بعده أن يكونوا أحد اعضاء مجلس الشيوخ. ومن الطرق الأخرى أن ينضم إلى سلك الجندية ويبلى بلاء حسنا فى المعارك العسكرية فيكافئه الامبراطور بمنحة تكون أرضا واسعة يقام عليها مزارع ضخمة مثلما حدث لأسرة فوكاس. وربما يهتم الامبراطور بأحد أبناء رجال السياسة المقربين إليه. مثلما حدث مع المؤرخ ثيوفانيس Theophanes الذى أصبح تحت حماية الأمبراطور، ليو السادس الحكيم Leo VI the wise (٨٨٦-٩١٢م) لأن والد ثيوفانيس زاع صيته كحاكم عسكرى فى جزر بحر ايجه، ولو شاء هذا المؤرخ أن ينعم بالضياع وخيراتها لفعل ولكنه لم يرد. ومن ذلك ثيوفلاكت Theophylact الذى أنقذ حياة الامبراطور بازيل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) مرتين، فاهتم هذا الامبراطور بابن ثيوفلاكت وهو الذى أصبح القائد العسكرى الشهير رومانوس ليكابينوس Romanus Lecapenus الذى تولى عرش الامبراطورية البيزنطية (٩١٩-٩٤٤م). أما عميد أسرة كومنيين فقد كان يؤمن بأن الحفلات المنزلية واستضافة علية القوم لم تكن من الصواب فى شئ، لأنه كان يرى أن هؤلاء الضيوف ليس لديهم إلا أن ينتقدوا المكان الذى ضيفوا فيه.

ولم تكن مثل هذه الحفلات تقام فى القصور الريفية، عدا بعض الحالات النادرة وهو أن يمر بالمكان الريفى أحد السفراء أو الوزراء أو الامبراطور نفسه. ومن ذلك أن فيلاريتوس Philaretuo استضاف أحدى البعثات التى تبحث عن عروس للامبراطور قسطنطين السادس Constantin (٧٨٠-٧٩٧م) . ولم تكن مثل هذه الحفلات تمر بسلام فقد استقبل يوستاسيوس مالينوس Eustathius Maleinus ، القائد السابق فى جيش بارداس فوكاس Bardus Phocas الامبراطور بازيل الثانى Basil II

(٩٧٦-١٠٢٥م) المعروف باسم سفاح البلغار عند عودته من حملة عسكرية وقعت في بلاد الشام. وقد استلفت نظر الامبراطور الثراء الفاحش الذى يتمتع به يوستاسيوس، وأن ما حوله من رجال بلغ عدة آلاف، وعندما عاد بازيل إلى العاصمة دعا يوستاسيوس لزيارته وأبقاه لديه أسيرا معززا مكرما وصادر كل أملاكه لصالح الامبراطورية.

وكانت قصور الأمراء تشابه قصر الامبراطور فى التصرفات وليس فى الحجم، فقد كان بها أجنحة للنساء وإن كانت فى صوره مصغره، وكانت ربة الأسرة تشارك الرجال حياتهم، أما الفتيات غير المتزوجات فقد كن يعشن فى حالة اعتزال إلى حد كبير حتى يتزوجن، وعند هذه الحالة تصبح ربة الأسرة. وكان بعض المشاهير متواضعا ويتناول طعامه فى داره ولا نجد معه إلا فرد واحد، يعد له ولزوجته الطعام. ولكن هذا الرجل كان لا يقترب من المائدة إلا بعد حضور والدته. وقد دام هذا التقليد الخاص باحترام سيدة القصر حتى آخر يوم فى حياة الامبراطورية، فقد كانت أرملة الامبراطور مانويل الثانى (١٣٩١-١٤٢٥م) هيلينا دراجس Helena Drags ، وهى تنتمى إلى أسرة حربية الأصل، وهى التى تسيطر على الموقف داخل القصر، وعلى ابنها الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر آخر الأباطرة البيزنطين (١٤٤٨-١٣٥٣م).

وكما شاركت المرأة فى جميع الانشطة السياسية والاجتماعية والدينية نجدها أيضا تشارك فى المؤمرات الكبرى التى تؤيد حق الامبراطور فى العرش أو تعارضه. ومن ذلك أن أنا دالاسينا والدة الامبراطور الكسيوس كومنيين كانت تسيطر عليه كثيرا، وانها تصرفت فى كل الأمور عندما كان ابنها يحارب فى البلقان ضد الأمير النورمانى روبرت جويسكارد Robart

. Guiscard

وقد تآمرت أنا دالاسينا على ابنها الآخر وهو الامبراطور يوحنا كومنيين (١١١٨-١٣٤٢م) حتى لا يتولى عرش الامبراطورية، وتعاطفت مع ابنتها المؤرخة أنا كومنينا ليتولى زوج الأخيرة نقفور برينيوس Nicephor Bryennius، عرش الامبراطورية ولكن يوحنا اكتشف الأمر فنفاهما إلى أحد الأديرة. وفى هذا المكان ألفت أنا كومنينا كتاب الالكسياد Alexiad الذى سجلت فيه حياة أبيها الكسيوس، وأصبحت من أعظم مؤرخى الامبراطورية البيزنطية.

وكانت حياة الفقراء الذين نسميهم الفقراء الأحرار داخل الامبراطورية مثل أى مكان آخر فى العالم تقريبا، فحياتهم تتطلب منهم البحث عن لقمة العيش، وكانوا يعيشون فى مساكن قذرة بجوار قصور الأغنياء، وكان الخبز يوزع عليهم بالمجان ولكن الامبراطور هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١م) أوقف هذه المنحة، وكانت تسليتهم الوحيدة هو دخول السيرك بالمجان لهم ولغيرهم. وكانت الدولة تجمع مثل هؤلاء الفقراء أو العاطلين عن العمل وتشغلهم فى صيانة الحدائق وسقايات المياه أو العمل فى مخابز الدولة. وكان يتولى هذا الأمر موظف حكومى يسمى الكويستر Quastor أى المراقب أو المشرف، حتى لا يكون فى العاصمة عاطلون، ولتأكيد هذه الفكرة لم يكن يسمح بدخول العاصمة من أهالى الريف إلا بتصريح للعمل.

وكان يوجد بالامبراطورية ديار للصدقات ومستشفيات للعجزة وكبار السن وذوى الأمراض المستعصية يؤسسها الأباطرة وتتولى الحكومة الانفاق والاشراف عليها، وكانت هذه المؤسسات تلحق بأحد أديرة الرجال أو النساء

ويتولى الدير إدارتها. كما كان هناك دُور للأطفال الفقراء واليتامى، وكان يتولى إدارة هذه الديار موظف كبير هو مدير ملاجئ الاطفال يسمى Orphanotropus، وتقدم له الأموال اللازمة للصرف على هذه الديار. وفى مرحلة تحطيم الصور فى عصر الأسرة الأيسورية ٧١٧-٨٠٢م، وإغلاق معظم الأديرة التى عارضت هذه الفكره، تولت الكنائس إدارة هذه الملاجئ لفترة طويلة. وفى عهد الأسرة المقدونية بداية من عام ٨٦٧م وضعت هذه الملاجئ تحت أشراف السلطة المحلية أو البلديات. وكان أكبر هذه الملاجئ مقام بالقرب من القصر الكبير، وعندما أصابه الخراب والتدمير بفعل أحد الزلازل أثناء حكم الامبراطور رومانوس الثالث أرجيروس Romanus III Argyrus ١٠٢٨-١٠٣٤م أعيد تعميره فى عهد الامبراطور الكسيوس الأول الذى كانت ترتاح نفسه خلال زيارته لهذا الدير.

وإلى جانب هؤلاء الفقراء الأحرار كان يعيش على أراضى الامبراطورية عدد كبير من العبيد، وكانوا من كافة الاجناس والأديان فى أول الأمر ولكن رجال الدين المسيحيين أفتوا بأن استرقاق المسيحيين أمر لا يجوز.

وكان العبيد من المسلمين وابناء الوثنيين من شعوب شمال أوربا يعملون فى الخدمات العامة والمناجم. وكان هؤلاء العبيد من أسرى المسلمين أو قادمين على أيدى تجار العبيد من بلاد الشمال . وكان الروس يبيعون أسراهم فى أسواق العاصمة البيزنطية. ورويدا رويدا بدأ الشعور يتزايد ضد الرق، فقد حظر رجل الدين الكبير ثيودور الاستديومى Theodor The Studite الذى لعب دورا كبيرا فى مجمع نقية الذى عقد فى عام ٧٨٧م، استخدام الرق داخل الأديرة، وأصدر الامبراطور الكسيوس كومنين تشريعا يتيح لهم الزواج بكل حرية.

ورغم هذا كله فقد كان بعض رجال الدين يمتلك العديد من العبيد مثلما كان الحال مع يوستاسيوس Eustathus أسقف مدينة سالونيك، الذى سجل أحداث الغزو النورمانى على المدينة عام ١١٨٥م، ولكنه عدل عن ذلك فى آخر أيام حياته، وأمر بإعتاقهم بعد وفاته لأنه أمر مزموم. ويلاحظ أن أثمان هؤلاء العبيد كان يرتفع كلما زاد الطلب عليهم خاصة فى المدن والمزارع. ويمكن القول أن استجلاب وبيع الرقيق ظل حتى القرن الرابع عشر الميلادى. ويلاحظ أن الأرقاء الذين كانوا يخدمون داخل المنازل كانوا أفضل حالا من الأرقاء الذين تستخدمهم الحكومة.

وبين طبقة النبلاء والفقراء كانت توجد الطبقة الوسطى، وقد حاول الامبراطور دقلديانوس أن يجعل الإبن يتعلم حرفة أبيه، وقد نجح فى ذلك إلى حد ما. ولكن حركة المجتمع لم تتقبل هذا الأمر بارتياح، فربما اتخذ الإبن الأكبر غالبا حرفة أبيه، أما الباقى من الأخوة فكان لهم أن يلتحقوا بالكنيسة أو الدير أو الجندية أو الخدمة العامة، وبذلك تكون العائلة قد شاركت فى كل مناحى الحياة. وقد ينجح أحدهم ويصبح من كبار رجال الأعمال فيرتقى بالإسرة كلها وتصبح من ملاك الأراضى. وبذلك تنشأ أسر جديدة من الأشراف. ويروى لنا المؤرخ ميخائيل بسلوس Michael Psellus كيف وصل الامبراطور ميخائيل السادس ١٠٥٦-١٠٥٧م إلى عرش الامبراطورية، فيذكر أن مدير الملاجئ الخصى يوحنا قدّم للامبراطورة زوى Zoe أخاه ميخائيل وهو ابن فلاح فى أقليم بفلاجونيا Paphlagonia، وقد وقعت الامبراطورة فى حب هذا الشاب الوسيم وتزوجته وأصبح إمبراطورا رغم فارق السن الكبير.

ولعب الجمال دورا كبيرا فى تغيير حياة الأسره، فكثيرا ما يأخذ جمال الفتاة الأسرة بأكملها من مرتبة دنيا إلى مرتبة عليا. ومن ذلك أن ثيودوا

Theodora الممثلة التى ولدت فى السيرك وأصبحت سليلة الحانات رفعها جمالها وتزوجت من الامبراطور الأشهر جستنيان، وقد ساندته عندما ثار عليه الشعب، كما أن ثيوفانو Theophanpo، وهى ابنة رجل من العامة يمتلك أحد المحلات قد تزوجت من الامبراطور رومانوس الثانى Romanus II (٩٥٩-٩٦٢م)، ولكنها تآمرت عليه ومكنت غريمه وقائده نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م)، من القضاء عليه ثم تزوجته. وبناء على هذا التصاهر يبدأ الاصهار فى الدخول إلى القصر، وبذلك يرتفع مستواهم إلى الطبقة العليا.

والحقيقة أن الطموح كان صفة عامة اتصف بها البيزنطيون، لذا حاول الآباء والأمهات من أبناء الطبقة الوسطى قدر جهدهم والعمل على تشجيع النابغين من أبنائهم ليرتقوا إلى درجات أعلى. ومن هؤلاء ثيودوتى Theodoty والدة المؤرخ الشهير ميخائيل بسلوس، وكانت هذه الأسرة غير ميسورة الحال، وقد قامت هذه الأم بتعليم ابنها القراءة والكتابة، وكان زوجها تاجراً كثير التنقل، فاشغلت هذا الفراغ فى تثقيف نفسها. ولما شعرت بما يتمتع به ابنها ، كانت تدفعه إلى التعليم، فكان يعمل ويتعلم وتنقل فى عدة مدن ليدرس على أيدى أبرع الاساتذة، وكان بداخل الأم نوازع لتوجيه ابنها إلى السلك الكنسى، ولكن إتصاله بأبناء الأباطرة والطبقة العليا فى جامعة القسطنطينية، رفعه إلى درجة عالية داخل قصر الامبراطور قسطنطين دوكاس الذى تولى العرش تحت اسم قسطنطين العاشر (١٠٥٩-١٠٦٧م).

وفى المجتمع البيزنطى ظهرت طبقة من الخصيان، وحتى تضمن العائلة نجاح أحد ابنائها كان من الحكمة خصاؤه، لذلك عرفت بيزنطة بأنها جنة الخصيان. ولم تكن عملية الإخصاء قاصرة على طبقة بعينها بل أن العائلات النبيلة كانت تقدم أحد ابنائها لهذه العملية لتساعدهم على التقدم، ولم يكن هناك إحساس بأى مهانة أو مذلة ولامساس بالشرف أو الكرامة، وكانت

قوة هذه الجماعة تكمن من أن الخصى لا يستطيع أن يصل إلى درجة الامبراطور، وهنا تطمئن الاسرة الحاكمة اليه، كما أن الجميع يطمئن إليه فيدخل ويخرج إلى جميع الأماكن حتى أديرة النساء. كما أنه لا ينجب فليس هناك طمع في أرثه.

وعلى ذلك سارت الحياة، ومنها أن ميخائيل الأول (٨١١- ٨١٣م) عندما مات ثم خصى ابنه نيكتاس Nicetas, حتى لا يطالب بالعرش بعد ذلك، أو يتآمر ليسترد عرش أبيه، كما أن الامبراطور رومانوس الأول أخصى ولده غير الشرعي بازيل Basil الذى شغل منصب كبير الأمناء سنوات طويلة. كما أنه أخص ولده الأصغر ثيوفلاكت Theophylact الذى أراد له أن يتولى منصب بطريرك الامبراطورية, وكان له ما أردا وتولى هذا المنصب في حياة أبيه منذ ٩٣٣ حتى ٩٥٦م. وكان هناك نسبة كبيرة من الخصيان قد تولوا هذا المنصب، وكان هؤلاء الخصيان يجدون تشجيعا كبيراً للعمل في الخدمة المدنية. وكان يفضل عند اللزوم عن زملائه الذين يحملون نفس درجته الوظيفية.

كما كان معظم قادة الجيش والاسطول من هذه الطبقة أيضا حتى يطمئن الامبراطور إلى جانبهم، ومن هذه الامثلة نارسيس Narsis القائد الشهير في عهد الامبراطور جستنيان. وتذكر المؤرخة أنا كومنيا أن في عهد والدها الامبراطور الكسيوس كان يوستاثيوس كيمنيانوس Eustathius Kymineianus من الخصيان. وكانت بعض المناصب غير متاحة لهؤلاء الخصيان مثل منصب والى المدينة. وكان خصيان الطبقات الدنيا أقل من الطبقة العليا، وكان خصيان الطبقة الدنيا هؤلاء يعملون كممرضين، فقد كان يساعد الأطباء هؤلاء الخصيان الذين يستطيعون الدخول إلى أديرة

النساء ومستشفياتهم، وإن كان البعض يفضل الطبيبات من النساء دون غيرهم.

ويلاحظ أن المجتمع البيزنطى كان يعيش عيشة مختلطة، وقد ساعد على هذا الاختلاط الاشتغال بالتجارة. وبداية من العاصمة كان القصر الامبراطور أعظم دار للتجارة وإدارة الأعمال حيث كان الامبراطور يحتكر صناعة الحرير، كما كان بعض الاباطرة يتاجرون بالقمح، وجنى من ذلك أرباحاً طائلة، كما أن الامبراطور يوحنا الثالث دوكاس فاتاتزيس Jhon III Ducas Vatatzes (١٢٢٢-١٢٥٤م) عندما كانت الامبراطورية فى المنفى بعد السقوط فى عام ١٢٠٤، قد جمع ثروة طائلة من تربية الدواجن. كما اشتغلت الكنيسة فى بعض الأحيان بالشئون المصرفية، وهى التى أمدت الامبراطور هرقل بالمال اللازم فى حروبه ضد الفرس. كذلك الأديرة، فقد جمعت الكثير من الثروات من جراء صنع وبيع الأيقونات.

ورغم أن الإمبراطورية وحكومتها الرسمية كانت لا تفضل تنقل الأفراد داخل أراضى الامبراطورية، إلا أن ذلك لم يمنع أعداداً كبيرة من العناصر الأرمينية من الهجرة إلى القسطنطينية والعمل بها وإقامة المصانع وفتح الحوانيت. والحقيقة أن الهجرة إلى العاصمة كانت هدفاً لكل طموح، فقد كانت الامبراطورية مركز العالم التجارى، ولم يكن ينازعها غير مدينة سالونيك التى كانت تتجه إليها فى ختام القرن التاسع الميلادى كل التجارة البلغارية. وقد لمع نجم هذه المدينة بخاصة فى أيام حكم أسره باليولوجس Palaeologus وهى الأسرة الأخيرة فى حكم الأمبراطورية، هذا بالاضافة إلى مركزها الفكرى الدينى. فقد كان سوق القديس ديمتريوس حامى المدينة يمتلأ بالتجار الذين يفدون عليها من كل أنحاء العالم.

وفى بدايات الامبراطورية البيزنطية كانت هناك موانى فى الإسكندرية وأنطاكية، ولكن الفتح الإسلامى حرم بيزنطة من هذه الموانى. أما فى آسيا الصغرى فقد كان معظم مدنها حصينة لحمايتها من الغزوات، ولم يكن يوجد من نشاط داخل آسيا الصغرى إلا فى بعض الموانى مثل أزمير، ولكن شأنها أخذ فى الأفول بعد تحول التجارة إلى البسفور، يضاف إلى مدينة طرابيزون Trebizond التى تقع على البحر الأسود لأقاليم أرمينية وبلاد فارس والشرق. أما مدينة نيقيه فقد كان لها ماضى مقدس وشهرتها بانعقاد مجمع نيقيه عام ٣٢٥م، واتخاذها عاصمة للامبراطورية فى المنفى بعد عام ١٢٠٤م، فقد ظلت تحظى بالثراء كعاصمة بديلة للقسطنطينية. وفى مدينة بروسه Brusa التى كانت تقع فى إقليم بثينا Bithynia فكانت تجذب الناس بمياهها المعدنية. وهو المنتجع الكبير لدى البيزنطين، ولازال للمدينة شهرتها حتى الآن ويفد إليها السياح من كل مكان.

أما عن الحياة فى المناطق الريفية الواسعة داخل الامبراطورية فكانت تختلف من مكان لآخر، ففى المناطق الأوربية الواقعة إلى الغرب من الإمبراطورية نجد الصقالبة أى السلاف والأفلاق وهم أهل ولاشيا، والألبانيين، وكل هؤلاء كانوا يعيشون عيشة الرعاة مثلما كان الحال فى عاداتهم القبلية داخل وخارج المزارع الكبيرة التى امتلكها نبلاء العائلات الكبيرة من الأغريق والرومان، التى كانت موجودة قبل وجود الامبراطورية. وكان فى آسيا الصغرى فى أماكن متفرقة بعض الجاليات الصغيرة من أهل بلاد الشام وربما بعض البلغار.

وفى جملة هذه المناطق الريفية عاش نوعان من الأرقاء العبيد، أى الاقنان Serfdom، والفلاحون الأحرار. وكان هؤلاء الاقنان مرتبطين بالأرض، ويتولى مالك هذه الأرض أخذ ثمار هذه الأرض ويتولى أمر دفع

الضريبة الواجبة عليها، وكان أولاد هؤلاء الأقنان أقنان مثله، ولكن كان لهم مغادره الأرض بموافقة مالكها ليلتحقوا بأعمال أخرى أو بالكنائس أو الاديره.

وإلى جانب هؤلاء كان يوجد مزارعون أحرار، وكان هؤلاء يمتلكون بعض الأراضى أو يستأجرونها ويدفعون إيجارها إما نقدا أو عينا، وكان هؤلاء مرتبطين بالأرض، ومن الصعب عليهم أن يبدلوا حياتم إلى أفضل من ذلك، لأن حكومة الامبرطورية كانت تعارض هجران الأراضى الزراعية بأى حال من الأحوال، وذلك لثبات الإنتاج الزراعى وتزويد العاصمة بالطعام خاصة القمح الذى كانت الحاجة إليه تزداد يوما بعد آخر، خاصة بعد خروج مصر من تحت سلطان الامبراطورية. وكان الفلاح الحر يؤدى ضرائب معينة على ما يملكه وينسحب ذلك على أولاده من بعده، واستحدثت الظروف نظاما جديدا زاد من ارتباطه بالأرض، ذلك أن الضرائب فرضت على القرية بأكملها كوحده متكاملة، ويعنى ذلك أنه اذا خرج البعض من هذا المجتمع القروى إلى عمل زاد العب عن إخوانه الذين يعملون بالقرية، لذلك أصبح من مصلحة الجميع الاحتفاظ ببعضهم البعض داخل القرية.

ويلاحظ أن قرى العبيد كانت أكثر شيوعا طالما كان هناك ملاكا كبارا للأراضى، وكان ذلك فى بداية عصر الامبراطورية البيزنطية. ولكن الهجرات الجرمانية والفتوحات الإسلامية وضياع الكثير من الأراضى البيزنطية تطلب إعادة تنظيم هذه الأراضى. ومن ذلك أن الحكومة البيزنطية كان تدفع أعطيات للجند مقابل بعض الأراضى بشرط أداء الخدمة العسكرية خاصة فى مناطق الحدود داخل الامبراطورية.

ومن هنا وجدت طبقة أخرى من صغار الملاك الوارثين لهؤلاء الجند، وشيئا فشيئا ظهرت طبقة أخرى من كبار الملاك، وعلى قاعدة أن

القرية وحدة واحدة تحمل كبار الملاك ما يقع على كاهل الفقير من التزامات، فكان يدفع هذا الغنى الضرائب مقابل استيلائه على أرض الفقير، وبذلك يفقد الفلاح الصغير أرضه وربما حريته. كما أن رجال الدين والكنيسة كانوا مثل النبلاء وكبار الملاك يحاولون استثمار أموالهم فى الأراضى الزراعية ، وبذلك ظهر ملاك جدد من العلمانيين ورجال الدين. وقد زاد ثراء هؤلاء بدرجة حتى أصبحت خطرا على الامبراطورية وكان تدخلهم بنفوذهم يفسد نظام الضرائب.

وقد التفت الامبراطور رومانوس إلى هذا الخطر، وخطط على مستوى القصر والكنيسة ليكوّن أسرة حاكمة، كما أنه قد خطط أيضاً على المستوى الاجتماعى لدعم نفوذه ونفوذ أولاده من بعده. وبدأ يعمل على حماية الامبراطورية من خلال القوانين التى سنها لحماية صغار ملاك الأراضى الزراعية وضرب الأرستقراطية الزراعية التى تشكل قوة بالغة الخطورة على مركزه وعلى مركز أولاده من بعده. ومن جانب آخر فقد كان رومانوس ابن فلاح بسيط، ولعل ما تعرضت له أسرته وأمثالها من جور الإقطاعيين الزراعيين هو الذى جعله يقاوم نفوذ هذه الطبقة، ويعمل على إضعافها. هذا بالإضافة إلى أن الامبراطورية كانت تواجه فى هذه المرحلة مشكلة بالغة الخطورة امتد أثرها إلى مركز الامبراطور فيما بعد، وهى مشكلة شراء الأغنياء لأراضى الفقراء الذين ينزلون إلى مرتبة الاتباع للأرستقراطية الاقطاعية. ولم يقتصر أثر هذه المشكلة على زيادة نفوذ الاقطاعيين فحسب بل إلى موارد الامبراطورية وقوتها العسكرية، لأن الامبراطورية كانت تعتمد اقتصاديا وعسكريا على الملاك الصغار وعلى الأراضى التى تمنح للجنود، فالملاك الصغار يؤدون الضريبة للدولة، كما تمنح الأراضى للجنود فى مقابل الخدمة العسكرية، ومعنى ذلك أن أمتصاص الأغنياء للملكيات الصغيرة يؤدى

بالتالى إلى ضعف الامبراطورية اقتصاديًا وعسكريًا وسيطرة الأرستقراطية الزراعية.

والتفت رومانوس إلى هذا الخطر الذى يهدد مركزه ومركز أولاده من بعده، وكانت خطوته فى هذا السبيل إصداره لمجموعة قوانين جديدة Novels فى عام ٩٢٢م، ونصت هذه المجموعة على إعادة حق الجيران فى التملك بالشفعة، وهى قوانين كان ليو السادس قد أرسى قواعدها. وحول موضوع انتقال أراضى صغار الملاك سواء بالبيع أو الايجار فإن القانون الجديد جعلها خمس طبقات يكون لها الحق بالترتيب فى التملك أو الإيجار ليصعب انتقالها إلى أيدى كبار الملاك. فالطبقة الأولى هى الأقارب الذين يمتلكون أراضى مجاورة للأرض المراد بيعها أو تأجيرها، والثانية هى الملاك المجاورون من غير الأقارب، والثالثة هى أصحاب الأراضى التى تتداخل مع الأراضى المراد بيعها أو ايجارها. أما الرابعة فهى ملاك الأراضى الذين يدفعون ضرائب مماثلة. أما الخامسة والأخيرة فهى طبقة الملاك الآخرين من أصحاب الأراضى المجاورة، واشترط القانون عدم انتقال الأرض بالبيع أو الايجار إلا بعد عرضها على الطبقات الخمس أولاً حسب ترتيبها.

والواضح أن الغرض من هذا القانون هو حماية صغار الملاك ومنع استمرار ذوبان الملكيات الصغيرة، لذلك كان الخارج على هذا القانون يرغم على إعادة الأراضى غير التابعة للجند إلى أصحابها دون تعويض، فضلاً عن تقديم غرامة مالية إلى خزانة الامبراطورية. أما الملكيات التابعة للجند فكان على من اشتراها إعادتها إلى أصحابها دون تعويض ولا يدفع غرامة مالية.

ورغم وجاهة هذا القانون من الناحية النظرية، إلا أنه لم ينفذ كما ينبغى لعدة عوامل، منها أن شتاء عام ٩٢٧-٩٢٨م كان قاسى البرودة وطويلا

على غير العادة، وتسبب ذلك فى انتشار المجاعة والوباء لقلة المحصول، وترتب على ذلك أن قدم الفلاحون الجائعون أراضيهم بثمن بخس لكبار الملاك، يضاف إلى ذلك أن الطبقات الخمس التى أصبح لها الحق فى الشراء قبل طبقة الاقطاعيين، كانت طبقات فقيرة وليس بوسعها الإيجار أو الشراء، ومعنى ذلك أن القانون كان تجميداً للبيع أو الإيجار، ولكنه اهتز أمام أزمة اقتصادية حلت بالبلاد.

ويبدو أن كل هذه الأسباب لم تكن خافية على الامبراطور رومانوس، لذلك اكتفى بتوجيه اللوم إلى الأغنياء لأنانيتهم وإن كان فى اللوم قسوة ومرارة، وأصدر متجددات أخرى فى عام ٩٣٤م، أى بعد المجاعة بست سنوات وزوال أثرها. وأعلن فى المتجددات الأخيرة عدم شرعية كل ما أخذه الأغنياء من صغار الملاك، وخفف من صرامة قانون عام ٩٢٢م وأمر برد جميع الأراضى التى دُفع فى شرائها مبلغاً يقل عن نصف ثمنها الحقيقى إلى أصحابها دون تعويض، أما إذا كان ما دفع للأرض ثمناً عادلاً، فتعاد الأرض إلى صاحبها الذى عليه رد ما دفع فيها خلال ثلاث سنوات. وورد فى المتجددات عدم جواز امتلاك الأغنياء لأراضى صغار الفلاحين مستقبلاً وإلاّ ألزموا بإعادتها مع دفع غرامة لخزانة الدولة.

ورغم هذا كله، فإن الفلاحين الصغار لم يتجاوبوا مع حكومة الامبراطورية لوقوعهم تحت وطأة الضرائب الباهظة، واختاروا التبعية لكبار الملاك بمحض إرادتهم ليهربوا من تعسف جامعى الضرائب ويكونوا فى أمن وحماية الملاك الكبار. وقد سبب ذلك إزعاجاً شديداً للامبراطور رومانوس وعمل بكل قوة على تنفيذ القانون، حتى لا تتأثر إيرادات الامبراطورية التى كانت فى أشد الحاجة إليها لمواجهة الأخطار الخارجية التى أحاطت بالجبهات

الغربية والشرقية والشمالية.

وإن كانت هذه هى السياسة التى سار عليها الامبراطور رومـانوس، فإن الامبراطور قسطنطين السابع عندما سيطر على مقاليد السلطة وعاد إليـه حقه الشرعى عام ٩٤٤م، سار على نفس سياسة رومانوس، وأصدر فى عـام ٩٤٧م قانوناً يقضى بعودة الأراضى التى انتقلت إلى كبار الملاك منذ توليتـه دون تعويض. ويبدو أن الأمر لم ينفذ كما ينبغى، لذلك أصـدر سلـسلة مـن القوانين تلى بعضها البعض، وكلها تعمل على الحد من نفوذ كبـار المـلاك والاحتفاظ بالملكيات الصغيرة لأصحابها سواء من الفلاحين أم الجند، حتى لا تتأثر خزانة الامبراطورية وتتمكن من تعبئة الجند لمواجهة مشاكلها الخارجية.

ويقدم لنا قانون الفلاح الذى صدر فى القرن الثامن الميلادى جانبا من صور حياة المجتمع البيزنطى، ومن ذلك أنه كان يحـيط بالقريـة البـساتين والحدائق خاصة الكروم وكانت تحاط بالسياج، وبعدها كانـت تقـع الحقـول المزروعة بالاصناف الأخرى كالبقول والخضروات ولم تكن محاطة بـسياج، وبطبيعة الحال كانت هذه الحقول تابعة لملاك من الأفراد أو مستأجرة. وكـان يقع خلف هذا النطاق كله المراعى وهى مشاعة للجميـع، واذا قـام الـبعض بتطهير جانب من هذا النطاق مما به من أعشاب وشوائب كان له أن يمتلكهـا ويتولى زراعتها أو تأجيرها. ومعنى ذلك أنه كان هناك مبدأ يقول أن الأرض لمن يستصلحها.

وكانت هناك عقوبات مشددة لكل من يلحق الضرر عن عمد أو إهمال بممتلكات الفلاحين، فقد كانت الأجراس تعلق فى رقاب الأغنام والماشية حتى يستدل عليها صاحبها إذا شردت وحل الظلام بالمكان، وهى طريقة لا زالـت متبعة حتى وقتنا هذا، فاذا سرق أحد هذه الأجراس يعد مسئولا عما يقع مـن

ضرر بتلك الحيوانات. كما أن من يسرق الكلب الذى يحرس الأغنام والماشية يعد مسئولا عن القطيع بأكمله. وأن كل من يسمح لدوابه وماشيته بالدخول إلى الأماكن المحصود غلاتها قبل وضعها فى المخازن يعرض نفسه لدفع غرامة تتناسب مع ما أكلته الحيوانات من غلات. والحقيقة أن الاحساس بمشاعر الجيران وملكياتهم كان قويا، كما كان التضامن بين هؤلا الفلاحين واضحا بصورة جلية، فاذا وقع أحدهم فى شدة مد الجميع له يد العون. واذا اضطر كبير القرية أن يقيم مأدبة لبعثة امبراطورية تكاتف معه الجميع.

ويلاحظ أن هذه المجتمعات الفردية التى كانت تعتمد على الأيدى العاملة كانت تعانى من الخدمة العسكرية على الحدود التى كانت معرضة للغزو أو الغارات من وقت لآخر، لأن الأمر يتطلب جمع بعض القوات الخاصة، للوقوف فى وجهه المعتدين الذين غالبا ما يدمرون المزروعات أو يستولون على المحاصيل والدواب.

وكان أشد ما يضايق هذا المجتمع الضرائب العامة، ورغم هذا فإن المسئول عن جمع الضرائب كان كثيرا ما يمد القرية بالطعام فى حالات الشدة ويعاملهم معاملة كلها مودة وأخاء. وكان ما يطمئن هذا المجتمع القروى المحافظة على النظام وضبط الأمن، فقد كان هناك الشرطة لمقاومة الخارجين على القانون. وفى مناطق الثغور التى كانت الامبراطورية تفضل الكثافة السكانية فيها، لم يكن يسمح للأفراد بالخروج منها إلا بتصريح خاص.

كما أن السفر بعامة داخل أراضى الامبراطورية لم يكن محببا لدى الحكومة الامبراطورية، وتفسير ذلك أن المجتمعات المستقرة كان من السهل السيطرة عليها وتحديد ما يفرض عليها من التزامات وضرائب. ومع ذلك فإن الحكومة نفسها كانت تتولى تهجير ضياع بأكملها إلى أماكن أخرى وهو ما

يعرف بإسم الهجرة الجبرية، ومن ذلك تهجير الأرمن من شرق الامبراطورية إلى غربها فى أوربا، أو نقل بعض العناصر السلافية من أوربا إلى آسيا بغرض عزل بعض العناصر غير المرغوب فيها.

كما كانت السلطات البيزنطية تسمح للنابهين من المواطنين بالتجوال داخل الامبراطورية للقاء العلماء ، كما أن بعض المغامرين كانوا يتمكنون من شق طريقهم إلى العاصمة البيزنطية. وكانت السلطات تسمح لمن يريد زيارة الأراضى المقدسة بالسفر لقضاء فريضة الحج إلى القدس والتمتع بزيارة الأماكن المسيحية الشهيرة مثل بيت لحم والناصرة وغيرها. وأن كان بعض هؤلاء غير قادرين على السفر إلى بلاد الشام وفلسطين فكان يسمح لهم بزيارة العاصمة البيزنطية لمشاهدة ما بها من آثار القديسيين والكنائس الكبرى.

أما فيما يتعلق بطرق المواصلات داخل الامبراطور، فقد كان هناك سواحل كثيرة على البحر الأسود وآسيا الصغرى وبحر إيجه، فكانت السفن تنقل المسافرين على طول هذه السواحل، كما أن البضائع بإمكانها أن تصل إلى موانى هذه السواحل، ومنها إلى الداخل إذا لزم الأمر. أما فيما يتعلق بالطرق البرية، فقد كان هناك شبكة كبيرة من الطرق. وكلها تتصل بالعاصمة البيزنطية، وكانت الدولة تهتم بصيانتها لأهميتها العسكرية والمدنية، وكان يوجد على هذه الطرق بوابات يدفع لها رسوم عند العبور، وكان يخصص جزء منها لصيانة هذه الطرق، ولم يك يعفى من هذه الرسوم إلا موظفو الحكومة والسفراء وبعض النبلاء. ويلاحظ أن هذه الطرق كانت تخلى من المارة عند مرور بعض القوات البيزنطية وكان يوجد فى آسيا الصغرى طريقان يبدأن من العاصمة البيزنطية وينتهيا إلى مداخل شمال بلاد الشام. وكان أحدهما يتجه من العاصمة إلى مدينة ضروليوم حتى يصل إلى نهر

هاليس Halys الذى يصب فى البحر الأسود، وهنا يتفرع إلى طريقين أحدهما يتجه إلى مدينة سبسطيه ثم إلى أرمينيا الكبرى شرق البحـــر الأســود ، أمـــا الطريق الأخر فكان يتجه جنوبا إلى مدينة قيصرية إلى بوابات قيليقيه ثم إلـــى بلاد الشام. وكان هناك طريق آخر وهو طريق الحجاج إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين . وكان يبدأ من العاصمة ثم إلى مدينة أنقره ثم إلى مدينة الطوانه ويلاحظ أن هذا الطريق كان وعرا، ويتطلب مشقة للسير فيه.

أما الطريق من أوربا إلى العاصمة فكان يوجد طريق واحـــد وهـــو الطريق الرومانى القديم المعروف بإسم طريق إجناتيا Ignatia الذى يبدأ من مدينة دراخيوم Dyrrachium التى تقع على ساحل البحر الادرياتيكى ثم يتجه عربا إلى مدينة سالونيك ومنها إلى العاصمة البيزنطية. أما الطريق الذى يبدأ من مدينة بلغراد الواقعة على نهر الدانوب ثم إلى سرديكا Sardika صـــوفيا حاليا، وبعدها إلى أدريـــانبول Adrionpole (أدرنـــه)، فقلـــيلا مـــا كانـــت للامبراطورية سيطرة عليه.

وإذا انتقلنا إلى الخصائص القومية البيزنطية، فيجب مراعاة ما كـــان عليه الشعب البيزنطى من أختلاف فى الأجناس وصلة الدم وسبل المعيـــشة، ولذلك أصبح من الصعب أن تحدد له خصائص قومية، ومن هنا جاءت تسميه الامبراطورية تسميه صحيحة لا الدولة البيزنطية. ورغم هذا فقد كان هنـــاك رابط بين كل هذه الأجناس هو الرباط الدينى، فقد عاشت الامبراطورية فـــى مرحلة من التاريخ هى مرحلة العصور الوسطى وتعرف بإسم عصر الإيمان. ولكن الرابطة الدينية فى العالم البيزنطى كانت أشد ارتباطا وتختلف عن العالم الغربى الأوربى الكاثوليكى، فقد كانت الامبراطورية وطريقة حكمها ومعيشتها ذات طابع دينى. وكان الهدف من فخامة البلاط البيزنطى وروعته، هو رفـــع

مكانة الإمبراطور الذى يعتبر وكيل الله على أرض الامبراطورية، وكانت هذه الرفعه جزء من العبادات كالصلاة والصوم. وأن كانت بعض الحفلات تقام من آن لآخر داخل القصر، فانها كانت أمورا عارضة لادخال الفرح والسرور على الامبراطور والشعب، وإن كل هذا لم يطغى على الأساس الدينى لدى الناس جميعا.

كما أن الشعراء البيزنطيين قد عبروا عما بداخلهم فى التراتيل الدينية والانشاد بصفات جلال الله وعظمته، كما أن الكُتاب منهم وإن نزعوا إلى الجانب الدنيوى مثل المؤرخ بسلسوس فكانوا يدركون تماما أن الدين شئ لا جدال فيه، ويعتبرون أن الحياة على الأرض زائلة. وكان الأصل فى حياة البيزنطيين فيما يحيط بهم من مباهج الحياة هو شكر لله على هذه العطيه وعليهم أن يقدموا الخشوع له.

وكان مما يثير أعجاب البيزنطيين إلى حد كبير، البعد عن الحياة وملذاتها وإعداد النفس للحياة الأبدية. ومن هنا أقبل الكثير من الرجال والنساء على الرهبانية. فقد كان الناس بعد أن يعيشون حياتهم الدنيوية التى تشبعت بالهموم وتدبير شئون حياتهم، وبعد أن امتلأت قلوبهم بحلاوة الحياة ومرها، كانوا يفضلون فى ختام حياتهم أن تمتلأ أنفسهم بالمسرة والدعة والسلام. ولهذا كله لجأوا فى أواخر حياتهم إلى ابتغاء السكينة فى أحد الأديرة، بعد ما يهبوا كل ما لديهم إليه ان لم يكن لهم وريث. ويلاحظ أن الحياة الديرية لم تكن كلها صارمة، فقد كان الرهبان يتلقون كل الاحترام والتبجيل من عامة الشعب، وكان التقرب إليهم علامة من علامات رضا الله على الانسان. كما أن الاباطرة أنفسهم كانوا يتقربون إلى بعض الرهبان. وتروى لنا المؤرخة أنا كومنينا أن والدها الامبراطور الكسيوس كان كلما ذهب إلى الحرب اصطحب

معه أحد الرهبان. وكان أشد الرهبان احتراما هم الذين عاشوا داخل الكهوف أو على الأعمدة، ولا زالت التراجم المحفوظة عن هؤلاء القديسيين الذين أنكروا أنفسهم توضح لنا المكانة العليا والسلطان الذى كانوا يتمتعون به.

والباحثون فى التاريخ البيزنطى يستطيعوا أن يعرفوا أن القديس لوقا الصغير Luke the Younger كاد يكون هو صاحب السلطة العليا فى بلاد اليونان فى القرن العاشر، فقد كان حاكم الإقليم كثيرا ما يزوره فى كهفه لإلتماس النصح، كما كان للقديس نيقون Nikon نفوذا كبيرا فى إقليم البلبونيز. وأن القديس نيلوس الروسانى Nilus of Rossano (٩١٠-١٠٠٤م) قد تسلط على إقليم كالابريا فى ايطاليا، وهو الذى أقام لنفسه ديرا فى مونت كازينو ولحق به الرهبان وتوفى فى عام ١٠٠٥م. كما أن القديس نقفور المليطى Nikephoros of Miletue طلب من الامبراطور نقفور الثانى فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) أى يلغى ضريبة الزيت المفروضة على الكنيسة.

وكان الناس أشد إعجابا بالرهبان العموديين، بداية من سيمون العمورى (توفى ٤٥٩م)، ودانيال العمودى (٤٠٩-٤٩٣م) الذى عاش أربعة وثمانين عاما، وعاش على عمودة بالعاصمة البيزنطية. وكان الامبراطور ثيودوسيوس الثانى Theodosius II (٤٠٨-٤٥٠م) يقلق عليه أيام الشتاء خاصة فى حالة هبوب العواصف، وكان يرسل رجاله للإطمئنان عليه. والقديس سمعان الصغير ٥٢١-٥٩٧م الذى عاش قرب أنطاكية، والقديس البيوس Alybios، والقديس لازاروس الجاليسى Lazarus of Galesion الذى مات فى عام ١٠٥٣م وكان يحكم ديره من أعلى عامودة والأمثلة على ذلك كثيرا.

ويلاحظ أن النساك العموديين قد قلوا وأصبحوا من الندرة بعد القرن العاشر الميلادى، والحقيقة التى لا لبس فيها أن افئده الناس كانت تواقه إلى الأديره حتى أن بعض الأميرات من آل كومنيين كثيراً ما عبرن عن رغبتهن فى الالتحاق بالأديرة، كما أن بعض الأرامل كن يجدن الراحة اذا إنسحبوا إلى الأديرة. وكان البعض من الناس ينذرون أن يقيموا جانبا من حياتهم داخل الأديره أو زاهدين فى منازلهم، وكان الامبراطور نقفور الثانى فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) لا يأكل اللحم وبذلك أصبح موضع إعجاب للجميع، كما أنه كان لا يغير ملابسه إلا نادرا وبذلك كان أقرب من حياة الزاهدين، وعندما كسر هذه القاعدة يوم زفافه إلى الامبراطورة ثيوفانو أرمله الامبراطور رومانوس الثانى Romanus II (٩٥٩-٩٦٢م) طامعا فى العرش الامبراطورى، تدنى مقامه بين الناس.

وكان البيزنطيون يحبون الأباطرة الذين يهتمون بالأديرة والرهبان، وكانت المجادلات الدينية كثيرا ما تدور داخل القصر الإمبراطورى، وعندما كان المؤرخ يوحنا كيناموس يتباحث مع بعض الاساقفة حول هذا الموضوع طلب الامبراطور أندرنيق الأول كومنين Andronicos I Comnenus (١١٨٣-١١٨٥م) أن يتحولا إلى موضوع آخر، ولذلك رأى البعض أنه يستحق المصير الذى لحق به بعد قليل حيث مزق جسده داخل شوارع القسطنطينية.

وكانت الخرافات والخزعبلات ذات أثر فى حياة البيزنطيين بالاضافة إلى بعض المفاسد والمؤمرات، وأبلغ شاهد على ذلك قلة الاباطرة الذين ماتوا على عروشهم، فقد نجد البعض وقد اضطر للانسحاب إلى أحد الأديرة بعد تنازله عن العرش، أو سملت عينيه وأبعد عن عرشه أو قتل. والحقيقة أن الطموح الشخصى قد لعب دروا كبيرا فى حياة علية القوم.

وقد نجد المتآمرين فى بعض الاحيان أقل وحشية، وكثيرا ما كان الوصول إلى المناصب على أشلاء القتلى. وكانت السلطات تنزل العقوبات بالأعداء، وقليلا ما لجأت إلى الإعدام، وما كان هو المألوف بتر أحد الأعضاء أو سمل العيون أو جدع الانف أو قطع اللسان.

ورغم هذا كله فقد كان البيزنطيون يتصفون بصفات حسنه، فقد كانوا شديدي الفخر بامبراطوريتهم وما وصلت إليه من رقى وحضارة. كما كانوا يحبون الجمال والسلم. والحقيقة أن التعليم والقدرة الشخصية كانت جواز المرور إلى الوظائف العليا لا المولد والأصل، وهذه ميزه تحسب للامبراطورية. وكان البيزنطيون يتذوقون الآداب ويحترمون كل ما له درب فيها، وكثيرا ما اقتبسوا من علوم المسلمين ومن الغرب أفراحه ولهوه. ومن إفراط حب البيزنطيين يروى المؤرخ البيزنطى ثيوفانيس روايه لها طرافتها، فيقول أنه عندما لقى الامبراطور قنسطانز الثانى Constans II (٦٤٢-٦٦٨م) لقى مصرعه فى جزيرة صقليه فان البعض قد رشح ميزيزيوس Mizizion وهو أرمينى الأصل وقائد شجاع ليتولى عرش الامبراطورية لأنه وسيم وفى عز شبابه، كما أن الشعب البيزنطى قد أحب الامبراطورة زوى لحسن جمالها رغم بلوغها الستين من عمرها، كما أن ملابسها البيضاء البسيطة كانت محط إعجاب البيزنطيين على حد قول المؤرخ ميخائيل بسلسوس.

وأحب البيزنطيون المناظر الجميلة، فأحبوا الحدائق والبساتين والزهور، حتى انهم كانوا يبنون أديرتهم فى المواقع التى تطل على المناظر الجميلة مثلما حدث مع القديس الكبير بازيل. كما أن المبانى والملابس وحتى الزخرفة التى زينت بها الكتب تشهد على ذلك. وهناك ملاحظة هامة حول هذا الجمال فلم يكن هذا الجمال مرتبطا بالدنيا ولكنه كان جانبا من النزعة الدينية التى ترى فى هذا الجمال مجداً لله فى السماء.

وكانت الحياة الدنيا عندهم عديمة القيمة، فقد كان القائم بالصلاة في رحاب كنيسة آيا صوفيا، أو الناسك المقيم في جبل آثوس Athus الواقع بالقرب من مدينة سالونيك الذى كان يضم العديد من الرهبان، موضع تقدير كل الأباطرة، فإن هذا المصلى وذاك الناسك كانا يران في الفن المعماري البشري في الكنيسة، والدير الذى صورته يد الانسان مقارنة بالفن المعماري الإلهى الذى خلق الجبل الذى يقع عليه الدير والحجارة التي صنعت منها جدران الكنيسة، كان يرتفع بالانسان من هذا العالم الدنيوى إلى العالم الآخر ومقربة من الله، ومن هنا كان الجمال عند البيزنطيين مقرونا بالدين، لذلك كان يعود على الإنسان بأفضل الحسنات.

ولعل هذا الإحساس مرجعه إلى أن البيزنطيين عاشوا في عالم تحيط به الأخطار من كل جانب، فالغزوات الإسلامية على الحدود الشرقية حيناً، والاخطار القادمة من الغرب على يد الهجرات الجرمانية حيناً آخر، وهجمات النورمان أهل صقلية وجنوب ايطاليا وأهل البندقية من الجنوب والبحر. وقد وصلت هذه الأخطار جميعها حتى أسوار العاصمة البيزنطية. وكان على المواطنين أن يحتفظوا بما يكفيهم من مؤن لمدد طويلة من كثرة هذه الأخطار. ومن هنا كان الخوف يتملك البيزنطيين، ولذلك لم يجد البيزنطى ملاذا للراحة إلا اللجوء إلى الله حيث لديه الأمل في حياة هادئة. ورغم هذا كله ظلت القسطنطينية صامدة أمام كل هذه الضربات، وظلت قرونا عديدة رمزا للقوة الخالدة. ولكن البيزنطيين كانوا يعلمون ويشعرون أن النهاية قادمة وأن المدينة ستسقط في نهاية الأمر، فقد كانت النبوءات المكتوبة في كل أنحاء العاصمة على الأعمدة أو مسطرة في الكتب أو تتناولها الناس شفاهة، كانت كلها تتحدث عن هذا السقوط، وكان الناس يخافون من اليوم الذى لم يعد به أباطرة عظام يدافعون عن عاصمتهم الخالدة التي هوت في عام ١٣٥٤م على يد الأتراك العثمانيين.

الفصل الخامس

الرهبانية وعبادة الأيقونات

لما أصبحت الكنيسة منظمة تحكم الكثير من المسيحيين، ولم تعد كما كانت جماعة من المتعبدين الخاشعين، أخذت تنظر إلى أخطاء الإنسان وما فيه من ضعف نظرة أكثر عطفاً من نظرتها السابقة، ولا ترى ضيراً من أن يستمتع الناس بملاذ الحياة الدنيا، وأن تشاركهم أحياناً فى هذا الإستمتاع، غير أن أقلية من المسيحيين كانت ترى فى النزول إلى هذا الدرك خيانة للسيد المسيح، واعتزمت أن تجد لها مكانها فى السماء عن طريق الزهد، والعفة، والصلاة، فاعتزلت العالم اعتزالاً تاماً، ولربما كان مبشرو أشوكا Ashoka (حوالى ٢٥٠ ق.م) قد جاءوا إلى الشرق الأدنى بنظم الرهبانية كما جاءوا إليه بنظرية البوذية وقوانينها الأخلاقية، ولربما كان النساك الذين وجدوا فى العالم قبل المسيحية أمثال سرابيس Serapis فى مصر أو جماعات الأرسينيين اليهود، وهم ينتمون إلى طائفة دينية صغيرة بين اليهود القدامى، وكان أفرادهمايعيشون فى تقشف وعزله ويقتسمون فيما بينهم كل شئ يملكونه أو يصل إليهم، ولعلهم نقلوا إلى القديس أنطونيوس Antonius (٢٥١-٣٥٦م) والقديس وباخوميوس st. Pachomius أو باخوم (٢٩٠-٣٤٦م) المثل الأعلى للحياة الدينية الصارمة وأساليب هذه الحياة، وكان الكثيرون من الناس يرون فى الرهبانية ملاذاً من الفوضى والحرب اللذين أعقبا غارات المتبربرين الجرمان، فلم يكن فى الدير ولا فى الصومعة الصحراوية ضرائب، أو خدمة عسكرية، أو منازعات حربية، ولم يكن يطلب من الراهب ما يطلب من القسيس من مراسم قبل رسامته، وكان يوقن أنه سوف يحظى بالسعادة الأبدية بعد سنين قليلة من حياة السلام.

وأول ظهور للرهبانية المسيحية كان فى مصر لأن مناخ مصر يكاد أن يغرى الناس بحياة الأديرة، ولهذا غصت بالرهبان النساك الفرادى والمجتمعين فى الأديرة، يعيشون فى عزلة كما كان يعيش أنطونيوس أو

جماعات كما كان يعيش باخوميوس فى ديره، وأنشئت الأديرة للرجال والنساء على طول ضفتى النيل، وكان بعضهما يحتوى على نحو ثلاثمائة من الرهبان أو الراهبات، وكان أنطونيوس أشهر النساك الفرادى، وقد أخذ ينتقل من عزلة إلى عزلة حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطئ البحر الأحمر، وقد عرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه فى تعبده ونسكه وبنوا صوامعهم فى أقرب مكان منه سمح لهم به؛ حتى امتلأت الصحراء قبل موته بأبنائه الروحيين، وقلما كان يغتسل، وطالت حياته حتى بلغ مائة وخمساً من السنين، ورفض دعوة وجهها إليه الامبراطور قسطنطين العظيم Constantine the Great (٣٠٦-٣٣٧م) ، ولكنه سافر إلى الإسكندرية فى سن التسعين ليؤيد أثناسيوس Athanasius ضد أتباع أريوس Arius، وكان يليه فى شهرته باخوميوس الذى أنشأ فى عام ٣٢٥م تسعة أديرة للرجال وديراً واحداً للنساء، وكان سبعة آلاف من أتباعه الرهبان يجتمعون أحياناً ليحتفلوا بيوم من الأيام المقدسة، وكان أولئك الرهبان المجتمعون يعملون ويصلون، ويركبون القوارب فى النيل من حين إلى حين ليذهبوا إلى الإسكندرية حيث يبيعون ما لديهم من البضائع ويشترون حاجياتهم ويشتركون فى المعارك الكنسية والسياسية.

ونشأت بين النساك الفرادى منافسة قوية فى بطولة النسك، يتحدث عنها الأب دوشين Abbe Duchesne بقوله، إن مكاريوس السكندرى Macarius the Alexandrian لم يكن يسمع بعمل من أعمال الزهد إلا حاول أن يأتى بأعظم منه، فإذا إمتنع غيره من الرهبان عن أكل الطعام المطبوخ فى الصوم الكبير إمتنع هو عن أكله سبع سنين، وإذا عاقب بعضهم أنفسهم بالامتناع عن النوم شوهد مكاريوس وهو يبذل جهد المستميت لكى يظل مستيقظاً عشرين ليلة متتابعة، وحدث مرة فى صوم كبير أن ظل واقفاً

طوال هذا الصوم ليلاً ونهاراً لا يذوق الطعام إلا مرة واحدة فى الأسبوع، ولم يكن طعامه هذا اكثر من بعض أوراق الكرنب، ولم ينقطع خلال هذه المدة عن ممارسة صناعته التى أختص بها وهى صناعة السلال، ولبث ستة أشهر ينام فى مستنقع ويعرض جسمه العريان للذباب. ومن الرهبان من أوفوا على الغاية فى أعمال العزلة، ومن ذلك سرابيون Serapion الذى كان يعيش فى كهف فى قاع هاوية لم يجرؤ على النزول إليها إلا عدد قليل من الحجاج، ولما وصل القديس جيروم Jerome st. إلى صومعته هذه وجد فيها رجلاً لا يكاد يكون جسمه إلا بضعة عظام، وليس عليه إلا خرقه تستر حقويه، ويغطى الشعر وجهه وكتفيه، ولا تكاد صومعته تتسع لفراشه المكون من لوح من الخشب وبعض أوراق الشجر. ومن النساك من كانوا لا يرقدون قط أثناء نومهم، ومنهم من كان يداوم على ذلك أربعين عاماً مثل بساريون Bessarion، أو خمسين عاما مثل باخوميوس، ومنهم من تخصصوا فى الصمت وظلوا عدداً كبيراً من السنين لا تنفرج شفاهم عن كلمة واحدة، ومنهم من كانوا يحملون معهم أوزاناً ثقيلة أينما ذهبوا، ومنهم من كانوا يشدون أعضائهم بأطواق أو قيود أو سلاسل، ومنهم من كانوا يفخرون بعدد السنين التى لم ينظروا فيها إلى وجه امرأة.

وكان جميع النساك المنفردين تقريباً يعيشون على قدر قليل من الطعام، ومنهم من عمروا طويلاً، ويحدثنا القديس جيروم عن رهبان لم يطعموا شيئاً غير التين وخبز الشعير، ولما مرض مكاريوس جاءه بعضهم بعنب فلم تطاوعه نفسه على التمتع بهذا الترف، وبعث به إلى ناسك آخر، وأرسله هذاإلى ثالث حتى طاف العنب جميع الصحراء على حد قول روفينس Rufinus، وعاد مرة أخرى كاملاً إلى مكاريوس. وكان الحجاج الذى جاءوا من جميع أنحاء العالم المسيحى ليشاهدوا رهبان الشرق يعزون إلى أولئك

الرهبان معجزات لا تقل فى غرابتها عن معجزات السيد المسيح، فكانوا – كما يقولون – يشفون الأمراض ويطردون الشياطين باللمس أو بالنطق بكلمة، وكانوا يروضون الأفاعى أو الأسود بنظرة أو دعوة، ويعبرون النيل على ظهور التماسيح. وقد أصبحت مخلفات النساك أثمن ما تمتلكه الكنائس المسيحية، ولا تزال مدخرة فيها حتى اليوم.

وكان رئيس الدير يطلب من الرهبان أن يطيعوه طاعة عمياء، ويمتحن الرهبان الجدد بأوامر مستحيلة التنفيذ يلقيها عليهم. وتقول إحدى الروايات أن واحداً من أولئك الرؤساء أمر راهباً جديداً أن يقفز فى نار مضطرمة فصدع الراهب الجديد بالأمر، فانشقت النار حتى خرج منها بسلام. وأمر راهب جديد آخر أن يغرس عصا بطولها فى الأرض ويسقيها حتى تخرج فروعا، فلبث الراهب سنتين يذهب إلى نهر النيل على بعد ميلين من الدير يحمل منه الماء ليصبه على العصا حتى رحمه الله فى السنة الثالثة فأزهرت. ويقول جيروم أن الرهبان كانوا يؤمرون بالعمل لئلا تضلهم الأوهام الخطرة، فمنهم من كان يحرث الأرض ومنهم من كان يهتم بالحدائق، أو ينسج الحصر أو السلال، أو يصنع قباقيب من الخشب أو ينسخ المخطوطات. وقد حفظت لنا أقلامهم كثيراً من الكتب القديمة. على أن كثيرين من الرهبان المصريين كانوا أميين يحتقرون العلوم الدنيوية ويرون أنها غرور باطل. ومنهم من كان يرى أن النظافة لا تتفق مع الإيمان وقد أبت العذراء سلفيا st. Silvia أن تغسل أى جزء من جسدها عدا أصابعها، وكان فى أحد الأديرة النسائية مائة وثلاثون راهبة لم تستحم واحدة منهن قط أو تغسل قدميها، لكن الرهبان أنسوا إلى الماء حوالى أواخر القرن الرابع، وسخر الأب اسكندر من هذا الانحطاط، فأخذ يحن إلى تلك الأيام التى لم يكن فيها الرهبان يغسلون وجوهم قط.

وكان الشرق الأدنى ينافس مصر فى عدد رهبانها وراهباتها وعجائب أعمالهم، فكانت أنطاكية وبيت المقدس خليتين مليئتين بالصوامع وبالرهبان والرهبات. وكانت صحراء الشام غاصة بالنساك، ومنهم من كان يشد نفسه بالسلاسل إلى صخرة ثابتة لا تتحرك كما يفعل فقراء الهنود، ومنهم من كان يحتقر هذا النوع المستقر من المساكن، فيقضى حياته فى الطواف فوق الجبال يطعم العشب البرى. ويروى لنا المؤخون أن سمعان العمودى Simeon Stylites (٣٩٠-٤٥٩م) كان لا يذوق الطعام طوال الصوم الكبير الذى يدوم أربعين يوماً. وقد أصر فى عام من الأعوام أثناء هذا الصوم كله على أن يوضع فى حظيرة وليس معه إلا القليل من الخبز والماء. وأخرج من بين الجدران فى يوم عيد القيامة فوجد أنه لم يمس الخبز أو الماء. وبنى سمعان لنفسه فى عام ٤٢٢م عموداً عند قلعة سمعان فى شمالى الشام وعاش فوقه. ثم رأى أن هذا إعتدال فى الحياة يكلله العار، فأخذ يزيد من ارتفاع العامود الذى يعيش فوقه حتى جعل مسكنه الدائم فوق عامود يبلغ ارتفاعه ستين قدماً.

ولم ترض الكنيسة عن هذا الافراط فى التقشف ولعلها كانت تحس بشئ من التصرف الوحشى فى هذا الاذلال النفسى، وبشئ من الشراهة الروحية فى هذا الإنكار الذاتى، وبشئ من الشهوانية الخفية فى هذا الفرار من الناس، ومن العالم كله. وسجلات أولئك الزهاد حافلة بالرؤى والإحلام وصوامعهم تتردد فيها اصداء أنينهم وهم يقاومون المغريات الخيالية والأفكار الغريبة. وكانوا يعتقدون أن الهواء الذى يحيط بهم غاص بالشياطين التى تهاجمهم. ويبدو أن الرهبان قد وجدوا أن حياة الفضيلة فى العزلة أشق منها لو أنهم عاشوا بين جميع مغريات الحياة. وكثيراً ما كان الناسك تختل موازين عقله فيها. ويحدثنا روفينوس عن راهب شاب دخلت عليه فى صومعته امرأة جميلة فلم يستطع أن يقاوم سحر جمالها، ثم اختفت من فورها فى الهواء كما

ظن هو، فما كان من الراهب إلا أن خرج هائما على وجهه، إلى أقرب قرية له، وقفز فى الماء ليطفئ النار المستعرة فى جسمه. وتروى قصة أخرى عن فتاة أستأذنت فى الدخول إلى صومعة راهب مدعية أن الوحوش تطاردها، فرضى أن يؤويها وقتا قصيرا، ولكن حدث فى تلك الساعة أن مست جسمه مصادفة، فاشتعلت نار الشهوة فيه كأن سنى التقشف الطوال التى مرت به قد انقضت دون أن تحدث فيها أقل أثر. وحاول الراهب أن يمسك بها، ولكنها اختفت من ذراعيه وعن عينيه. ويقول الرواة أن جماعة من الشياطين أخذت تغنى وتهلل طربا وتضحك من سقطته. ويقول روفينوس أن الراهب لم يطق حياة الرهبنة بعد تلك الساعة.

ولم يكن للكنيسة النظامية سلطة ما على الرهبان فى أول الأمر، وقلما كان أولئك الرهبان يحصلون على أية رتبة كهنونية، غير أنها مع ذلك كانت تحس بأن تبعة إفراطهم هذا واقعة عليها، فقد كان لها نصيب من المجد الذى ينالونه بأعمالهم، ولم يك فى وسع الكنيسة أن ترضى كل الرضا عن المثل العليا للرهبانية. نعم أنها كانت تمتدح العزوبية، والبكورية، والفقر، ولكن لم يكن فى وسعها أن تعد الزواج، أو الأبوة، أو الملكية من الخطايا، بل لقد أصبح الآن من مصلحتها أن يدوم الجنس البشرى ويتناسل ويكثر. وكان بعض الرهبان يغادرون الأديرة باختيارهم، ويضايقون الناس بالسؤال. ومنهم من كانوا يتنقلون من بلدة إلى بلدة، يدعون إلى الزهد ويبيعون مخلفات حقيقية أو زائفة، ويرهبون المجامع الدينية المقدسة، ويحرضون ذوى الطبائع الحامية من الناس على تدمير الهياكل أو التماثيل الوثنية، أو يدعونهم فى بعض الأحيان إلى قتل امرأة من طراز هيباشيا Hypatia، ولم تكن الكنيسة راضية عن هذه الأعمال التى يأتيها هؤلاء الرهبان من تلقاء أنفسهم. وقد قرر مجمع خلقدونية (٤٥١م) أن تفرض رقابة شديدة على من يدخلون الأديرة، وعلى الذين يهبون

أنفسهم لها، ولا يجوز لهم أن يخرجوا بعدئذ منها، وألا يسمح لإنسان بأن ينشئ ديراً أو يغادره إلا إذا أذن له بذلك أسقف الأبرشية.

لقد نالت المسيحية في الوقت الذى نتحدث عنه نصراً فى بلاد الشرق يكاد أن يكون تاماً, ففى مصر أصبح المسيحيون المحليون أو القبط هم أغلبية السكان، وكانوا يمدون بالمال مئات من الكناس والأديرة. وأعترف تسعون أسقفا مصريا بسلطة بطريرك الإسكندرية، وهى سلطة تكاد تضارع سلطة الفراعنة والبطالمة. وكان بعض هؤلاء البطاركة ساسة من رجال الدين ومن طراز غير محبوب أمثال توفليس Theophilus بطريرك الإسكندرية (٤٠٢-٤٢٠م) الذى حرق هيكل سرابيس الوثنى ومكتبته عام ٣٨٩م. وكان خيراً منه وأحب إلى النفوس سينسيوس Synesius أسقف بطوليماس Ptolemis المتواضع، وكان مولده فى قورينى (حوالى عام ٣٦٥م)، وقد درس علوم الرياضة والفلسفة فى الإسكندرية على أيدى هيباشيا، وظل إلى آخر أيام حياته صديقها الوفى وكان يسميها: "الشارحة الحقة للفسلفة الحقة". ثم زار مدينة أثينا، وفيها قويت عقيدته الوثنية, ولكنه تزوج بامرأة مسيحية فى عام ٤٠٣م، واعتنق على أثر ذلك الدين المسيحى، ووجد ان المجاملة البسيطة لزوجته أن يحول ثالوث الأفلاطونية الحديثة المكون من الواحد، والفكر، والنفس، إلى الأب، والروح، والابن. وكتب كثيراً من الرسائل البديعة، وبعض الكتب الفلسفية القليلة الشأن التى لا توجد بينها شئ ذو قيمة للقارئ فى هذه الأيام، وفى عام ٤١٠م عرض عليه توفيلس أسقفية بطوليماس، وكان وقتئذ من أغنياء الريف وممن كان لهم أكثر من مطامعهم، فقال أنه غير أهل لهذا المنصب وأنه لا يؤمن ببعث الجسم، كما تتطلب ذلك عقائد مؤتمر نيقية، وأنه متزوج، ولا يريد أن يهجر زوجته، ولكن العقائد المقررة كانت فى نظر توفيلس مجرد آلات، فغض النظر عن هذه المخالفات، وعين سينسيوس أسقفا

قبل أن يُفصل فى أمره. ومن الحوادث الطريفة التى تتفق مع ما عرف عن هذا الأسقف أن آخر رسالة كتبها كانت موجهة إلى هيباشيا وأن آخر صلاة له كانت للمسيح.

وعوملت الهياكل الوثنية فى الشام بالطريقة التى تتفق مع طباع توفيلس، فقد صدر أمر امبراطورى يقضي باغلاقها، وقاومت البقية الباقية من الوثنيين أمره هذا، ولكنهم استسلموا أخيراً للهزيمة حين رأوا آلهتهم ترضى بتخريب هياكلها دون مبالاه. وكان للمسيحية فى آسيا زعماء أعظم حكماً من زعمائها فى مصر، فمن هؤلاء بازل العظيم Basil the Great الذى تعلم فى حياته القصيرة التى لا تزيد على خمسين عاماً (٣٢٩؟-٣٧٩) البلاغة على يدى ليبانيوس Libanius فى أنطاكية ودرس الفلسفة فى أثينا وزار النساك فى مصر والشام ولم يوافق على زهدهم وانطوائهم على أنفسهم، ثم صار أسقفا لقيصرية فى كبدوكيا، ونظم شئون المسيحية فى بلاده، فأعاد النظر فى شعائرهم، وأدخل فيها نظام رهبانية الأديرة التى تنتج كل ما يحتاجه المقيمون فيها، ووضع قانوناً للأديرة لا يزال هو السائد فى جميع الأديرة فى العالم اليونانى. وقد نصح أتباعه بأن يتجنبوا ما يأتيه النساك المصريون من أعمال القسوة المفرطة، وأن يستعيضوا عنها بخدمة الله وخدمة صحتهم وعقولهم بالعمل النافع. وهو يرى أن حرث الأرض من خير أنواع العبادة، ولا يزال الشرق المسيحى حتى الآن يعترف بماله فى المسيحية من أثر لا يضارعه أثر أحد غيره.

أما القسطنطينية فلم يكد يبقى فيها أثر للعبادات الوثنية، بيد أن المسيحية نفسها قد تفرقت شيعاً بسبب النزاع الدائم بين أهلها، فقد كانت الأريوسيه لا تزال قوية، وكانت بدع دينية خارجية على الدين لا تنقطع عن الظهور، حتى ليكاد يكون لكل رجل فيها آراؤه الخاصة فى الدين، وفى ذلك

يقول جريجورى النيسى Gregory of Nyssa أخو القديس بازل: " هذه المدينة ملأى بالصناع والعبيد، وكلهم من المتفقهين فى الدين الذين يعظون الناس فى الشوارع والحوانيت، فإذا طلبت من أحدهم أن يبدل لك قطعة نقود فضية، أخذ يحدثك عن الفوارق بين الإبن والأب، وإذا سألت عن ثمن رغيف، قيل هل أن الإبن أقل منزلة من الأب، وإذا سألت هل أعد لك الحمام، كان الجواب أن الإبن قد خلق من لا شئ".

وكان أول دير أنشئ فى القسطنطينية الجديدة هو الذى أنشاه إسحق الراهب Isaac The Mank فى أيام ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩- ٣٩٥م)، وسرعان ما تضاعف عدد الأديرة فيها حتى إذا جاء عام ٤٠٠م، كان الرهبان طائفة ذات قوة وبأس تنشر الرعب فى المدينة، وكان لهم شأن صاخب فى النزاع القائم بين هذا البطريرك وذاك، وبين البطريرك والإمبراطور.

ومن الملاحظ أن السلام والرخاء فى الامبراطورية البيزنطية أدى إلى وجود نوعين مختلفين من المسيحيين، وهم العاديون والنساك، وكانت ممارسة الديانة تتم بطريقة حرة لترضى ضمائر الكثيرين، فالأمير أو الحاكم، والجندى أو التاجر، كانوا جميعاً يوفقون بين حماسهم المتقد وعقيدتهم الثابتة وبين ممارسة مهنتهم، والسعى وراء مصلحتهم وإشباع أهوائهم، غير أن النساك الذين أطاعوا التعاليم الصارمة، امتلأت نفوسهم بالحماس العنيف، ونبذوا فى جدية شواغل الحياة المدنيه، وترفعوا عن شرب الخمر وأكل اللحم والزواج، وعذبوا أجسادهم، وكبحوا مشاعر الحب فى نفوسهم، وتقبلوا حياة التقشف، ثمناً للسعادة الأبدية. وفى عهد الإمبراطور - قسطنطين الكبير وبعد الاعتراف بالديانة المسيحيه ديناً فى الدولة فر المتقشفون من العالم الفاسد إلى العزلة الدائمة أو المجتمع الدينى، وعلى منوال المسيحيين الأوائل فى القدس،

تخلوا عن إستخدام أو إمتلاك متاع الدنيا، وكانوا جماعات مترابطة تتألف من اصحاب الميول الواحدة، رجالاً أو نساءً، واتخذوا لأنفسهم أسماء النساك والرهبان والزاهدين الأوائل، تعبيراً عن عزلتهم فى أماكن منعزلة أو صحراء طبيعية، وسرعان ما اكتسبوا إحترام العالم الذى نبذوه واحتقروه، وأصبحت هذه الفسلفة موضع الإستحسان، لأنها فاقت، دون عون من العلم أو العقل، تلك الفضائل التى حققتها مدارس الفكر اليونانية بالعمل المضنى. وواقع الحال أن الرهبان أصبحوا ينافسون بعض الفلاسفة فى احتقار الثراء والألم والموت. غير أن أنصار هذه الفلسفة السماوية تطلعوا إلى تقليد نموذج إعتبروه أنقى وأكثر كمالاً، فحذوا حذو الانبياء الذين انسحبوا إلى الصحراء، واسترجعوا حياة التعبد والتأمل التى وضع أساسها الرهبان الأوائل فى فلسطين ومصر وأماكن أخرى داخل الإمبراطورية.

وقد شاهد العالم الرومانى بلينى Pliny فى دهشة قوما يعيشون فى عزلة بين أشجار النخيل إلى القرب من البحر الميت، وكانوا لا يمتلكون مالاً، ويتكاثرون بانضمام أعداد من التائبين والساخطين على الحياة، الذين كانوا ينضمون إليهم طواعية بصورة مستمرة.

وكانت مصر، وهى الأم الولود للرهبانية قد ضربت للعالم أول مثل لحياة الرهبنة، وإنا لنسمع عن رجل فى مصر إسمه أنطونيوس (٢٥١-٣٥٦م) وهو شاب أمى من أنحاء طيبة السفلى، وزع أملاكه الموروثه وهجر أسرته ووطنه واعتنق الرهبانية فى تعصب أصيل جرئ، وبعد أن قضى فترة طويلة شاقة فى إعداد نفسه للرهبانية بين القبور وفى برج خرب مهجور، تغلغل فى جرأة داخل الصحراء الشرقية فى رحلة مدتها ثلاثة ايام إلى الشرق من نهر النيل ، حتى اكتشف بقعة منعزلة يتوفر فيها الظل والماء بالقرب من البحر الأحمر فوق جبل القلزم، ولا يزال هناك دير قديم يحمل إسم القديس

وذكراه، ولحقه بعض المسيحيين إلى الصحراء واتبعوا خطاه، وأحيانـا كـان يضطر إلى الظهور أمام الناس فى الإسكندرية فى بعض الأوقات، واكتسب صداقه القديس أثناسيوس الذى راقت له عقيدته، وقـد اعتـذر هـذا الفـلاح المصرى فى احترام عن دعوة جليله أرسلها إليـه الامبراطـور قـسطنطين. وشاهد أنطونيوس الذى بلغ الخامسة بعد المائة من عمره سلالة كثيرة العـدد من أولئك الذين نشأوا على هديه، وساروا على النظم الرهبانية التى وضعها، كما تضاعف عدد الصوامع الزاخرة بالرهبان بسرعة كبيـرة فـوق رمـال صحراء ليبيا، وعلى صخور مدينة طيبة، وفى مدن وادى النيل.

وإلى الجنوب من الإسكندرية استوطن خمسة الاف من النـساك فـى وادى النطرون Nitria والصحراء المجاورة، ولا يزال فى مقدور الجائل أن يطالع خرائب خمسين ديراً أقامها تلاميذ أنطونيوس فى تلك التربة الجرداء.

وفى طيبة العليا إستقر باخوميوس وألف وأربعمائة من الأخـوة فـى جزيرة تابن Tabenne المهجورة، وأسس هذا الراهب المقدس على التـوالى تسعة أديرة للرجال وديراً للنساء، وفى بعض الأحيان كان يجتمع فـى عيـد الفصح خمسون ألفاً من رجال الدين الذين يتبعون قواعد نظامه الملائكى، كما أن مدينة اكسيريوخوس Oxyrhyuchus (البهنسا) الواسعة الآهلة بالـسكان، وهى مركز المسيحية الأرثوذكسية، خصصت معابدها، ومبانيها العامة، بـل واستحكاماتها لأغراض البر والتعبد، وقد قدر البعض عدد الراهبات والرهبان بعشرة الآف من النساء وعشرين ألفاً من الرجال. وكان المصريون يفخـرون بهذه الثروة العجيبة، ويحدوهم الأمل، بل ويعتقدون أن عـدد الرهبـان كـان مساوياً لبقية السكان.

وأدخل أثناسيوس فكرة الرهبانية وممارستها في روما، حيث أنشأ تلاميذه مدرسة لهذه الرهبانية الجديدة، حين رافقوا مطرانهم إلى أعتاب مدينة روما المقدسة، وأثار المظهر الغريب لهؤلاء المصريين في أول الأمر فزع الناس، ولكنه دفعهم في النهاية إلى استحسانه والتحمس لتقليده، وحوّل أعضاء السناتور، والسيدات الثريات بنوع خاص، قصورهم إلى نُزل دينيه. وسجلت المصادر أخبار عن شاب سورى إسمه هيلاريون Hilarion، تحمس للمثل الذى ضربه أنطونيوس، فأقام له مأوى موحشا على شاطئ رملى بين البحر وأحد المستنقعات على بعد سبعة أميال من مدينة غزة، وأشاعت هذه الصرامة التى ثابر عليها ذلك الرجل القديس ثمان وأربعين سنة حماساً مماثلاً، فكان كلمّا ذهب لزيارة الأديرة الكثيرة فى فلسطين سار وراءه ألفان أو ثلاثة الآف من الزهاد.

وكذلك اكتسب القديس بازل العظيم (٣٢٩-٣٧٩م) شهرة خالدة في تاريخ الرهبنة الشرقية، فقد تذوق عقله علم أثينا وبلاغتها، وكان طموحه أكثر من أن يشبعه منصب رئيس أساقفة قيصرية، فانسحب إلى إقليم بنطس Ponts على ساحل البحر الأسود حيث عاش فى عزلة موحشة، وفى فترة من الوقت رأى من المناسب أن يسن القوانين للأديرة الروحية التى نشرها بكثرة على طول شاطئ البحر الأسود.

وفى الغرب كان هناك القديس مارتن Martin (٣١٥-٣٩٧م) أسقف مدينة تور، وهو جندى، وناسك، وأسقف، وقديس، وهو الذى أسس أديرة الغال، وعندما مات شيعه إلى قبره ألفان من تلاميذه، ولهذا نرى مؤرخه الفصيح جريجورى التورى Gregory of Tour يتحدى صحراوات مصر أن تجود ببطل فى مثل فضيلته رغم أن مناخها أكثر ملائمة.

ولم يكن تطور الرهبانية أقل سرعة أو شمولاً من تطـور المسيحية نفسها، فامتلأت كل ولاية من ولايات الإمبراطورية، بل وكـل مدينـة علـى الأقل، بجماهيرهم المتزايده، ووقع إختيار الزهاد على الجزائر الكئيبة الجرداء المتناثرة فى البحر التسكانى شرق إيطاليا، من جزيرة لـرنس Lerins إلـى جزيرة ليبارى Lipari لتكون موطن منفاهم الإختيارى، وكان هناك إتـصال دائم سهل بين مناطق العالم البيزنطى عن طريق البحر وعن طريـق البـر، وتدل حياة هيلاريون على السهولة التى إستطاع بها ناسك فقير من فلسطين أن يتجه إلى مصر، ويركب البحر إلى صقلية، ويفـر إلـى أبيـروس Epirus، ويستقر أخيراً فى جزيرة قبرص.

وقد اعتنق المسيحيون اللاتين أنظمة روما الدينية، كمـا أن الحجـاج الذين زاروا القدس كانوا ينقلون النموذج الصادق لحياة الرهبنة إلى أبعد أرجاء الأرض، وانتشر تلاميذ أنطونيوس فيما وراء المـدار فـذهبوا إلـى القـرن الأفريقى حيث إمبراطورية أثيوبيا المسيحية، كما أن دير بانكو فـى مقاطعـة فلنتشر Flintshire غرب بريطانيا الذى كان يضم أكثر من ألفين من الأخوة، نشر مستعمرة كبيرة العدد من متبربرى إيرلندا، وكذلك امتلأت جزيرة إيونـا Iona، وهى جزيرة زرعها الرهبان الايرلنديون، واشعت هذه الجزيـرة فـى الأرجاء الشمالية شعاعاً كبيراً عن الرهبانية.

إن هؤلاء الرهبان الذين اعتزلوا الحياة الدنيا كانوا مدفوعين إلى حياة الرهبانية بدافع من الحماسة الشديدة، وكان عزمهم المشترك يستند إلى المثـل الذى ضربه الآلاف من الجنسين، من كل عمر، ومن كل مرتبة، وكـان كـل فرد من الداخلين إلى أسوار الدير مقتنعا بأنه عبر الطريق الشائك الوعر إلـى السعادة الأبدية، غير أن هذه الدوافع الدينية كان يحددها بصور مختلفة خلـق الناس ووضعهم، فالعقل قد يُقهر أثرها، والعاطفة قد تُوقف ذلك الأثر، غير أن

هذه الدوافع الدينية كان لها الأثر الكبير على النساء والأطفال، وكانت قوتها تزداد بفعل الندم على خطيئة خفية أو محنة طارئة، ومن الجائز أنها كانت تستمد بعض العون من بعض الاعتبارات الدنيوية، كاعتبارات الغرور أو المصلحه. وكان من الطبيعي أن يسود الاعتقاد بأن الرهبان الأتقياء المتواضعين، الذين نبذوا العالم لكي يعملوا على خلاص أنفسهم، هم أجدر الناس بأن يتولوا حكم المسيحين حكما روحيا. وكان الناسك ينتزع من صومعته على غير رغبة منه ليتولى العرش الأسقفي وسط تهاليل الناس. وكانت أديرة مصر وبلاد الغال والشرق موردا منتظما يجئ منه القديسون والأساقفة، وسرعان ما اكتشفت الأطماع ذلك الطريق السرى الذى يؤدى إلى الحصول على الثروة والوصول إلى المناصب، ومن ثم فإن الرهبان ذوى الصيت الذائع، الذين ارتبطت سمعتهم بشهرة طائفتهم ونجاحها، عملوا جاهدين على مضاعفة عدد أتباعهم، فكانوا يتقربون إلى الأسر النبيلة الغنية، ويستخدمون كل فنون الإغراء لجذب أولئك الاثرياء الذين يمكن أن يغدقوا على الأديرة من ثرائهم ويضيفوا عليها من مكانتهم، كما كانت العذراء الساذجة يجذبها الغرور ويدفعها إلى خرق قوانين الطبيعة، وكذلك كانت السيده الثرية تتطلع إلى الكمال الروحى حين تنبذ ترف الحياة العائلية. وعلى هذا النحو أذعنت الأرملة المرموقة بولا Pola إلى إغراء القديس جيروم وفصاحته، واستمالها أن تصبح إبنتها يوستوخيوم Eustochium عروس الله، فكرست ابنتها هذه للرهبانية، وغادرت بولا مدينة روما، تاركة إبنها الوليد، بناء على مشورة مرشدها الروحى جيروم، فذهبت فى صحبته إلى قرية بيت لحم المقدسة، وهناك أسست مستشفى وأربعة أديرة، وحصلت، بإحساناتها وكفاءاتها، على مكانة رفيعة مرموقة فى الكنيسة.

ولا شك فى أن هذه القلة النادرة من أمثال هؤلاء التائبين ضربوا مثلا لعصرهم، وكانوا عنوانا لمجده وعظمته، غير أن الأديرة كانت مليئة بالرهبان الذين كانوا قد يربحون فى أديرتهم أكثر بكثير مما ضحوا به فى دنياهم، فكان الفلاحون يهربون من الفاقة والإزدراء إلى مهنة شريفة يخفف من محنتها الظاهرة إستحسان الناس، والتراخى الخفى فى النظام الديرى، كما أن سكان روما الذين تعرضت ثرواتهم واشخاصهم لضرائب باهظة كانوا يهربون من ظلم الحكومة الامبراطورية، أما الشبان الجبناء فقد كانوا يفضلون حياة الرهبانية علي أخطار الحياة العسكرية، وكذلك كان سكان الولايات من كل مرتبه، هم الذين تملكهم الذعر، وعمدوا إلى الفرار أمام الغزوات الجرمانية، كان كل هؤلاء يجدون فى الأديرة مأوى وغذاء، وهكذا غصت هذه الأماكن الدينية بفرق كاملة من هؤلاء الناس، وأصبحت الأداة التى أنقذت الأفراد من محنتهم سببا من الأسباب التى أضعفت قوة الامبراطورية وأنزلت من قدرها.

وكانت الرهبانية عملاً إختيارياً من أعمال العبادة، وكان الراهب المتقلب فى حماسه الدينى مهدداً بانتقام الله الأبدى إذا تخلى عن عبادته، كما أن أبواب الدير كانت تبقى مفتوحة للجميع للندم والتوبه، ومن ثم فإن الرهبان الذين كان ضميرهم يستمد القوة من عقولهم أو عواطفهم، كان فى مقدورهن التحلل من الرهبانية والعودة إلى الحياة الدنيوية، بل إن الراهبات، كان فى مقدوهن العدول أيضاً وتقبل الغراميات المشروعة من محب دنيوى، كما أن الرجل الذى يعَد للرهبانية يوضع تحت التجربة لفترة كافية، ثم يدعم ولاءه بأن ينذر نفسه نذراً رسمياً أبدياً، وكانت قوانين الكنيسة والدولة تقر ارتباطه الذى لا رجعة فيه، فإذا هرب واحد من هؤلاء، أقتفى أثره، واعتقل، وأعيد إلى الدير، كما أن تدخل الحاكم فى مثل هذه الحالات قضى على الحرية والميزة اللتين كانتا من قبل تخففان من نظام الرهبانية، وكانت أعمال الراهب وكلماته،

وحتى أفكاره، تحددها قواعد صارمة، أو يحددها رئيس الدير، وإذا ارتكب أتفه الذنوب عوقب بالتشهير المشين، أو الحبس أو الصيام غير العادى، أو الجلد القاسى، أما العصيان، أو التضجر، أو المماطلة، فإنها كانت تعتبر فى عداد الخطايا الرهيبة الممقوته. وكانت قاعدة القديس كولومبا St. Columba، السائدة فى الغرب، تقضى بتوقيع عقوبة مائة جلده كقصاص للذنوب التافهة، وقبل عصر شارلمان كان رؤساء الأديرة يقطعون أطراف الرهبان ويسملون عيونهم، وهى عقوبة أقل قسوة بكثير من السجون أو القبور المشيّدة تحت سطح الأرض.

ولا شك فى أن عادات الخضوع هذه قد حطمت حرية العقل وهى منبع كل إحساس كريم عاقل، وكان الراهب يذعن فى ورع إلى النظم الرهبانية، ومن ثم فإن جمهوراً كبيراً من المتعصبين الذين لا يعرفون الخوف، أو التعقل، قد طغت أعمالهم على سلام الكنيسة الشرقيه، واعترفت القوات الامبراطورية، دون خجل، أنها كانت لا تخشى مقابلة أشد الجنود ضراوة مثلما تخشى هؤلاء الرهبان.

وكثيراً ما كانت الخرافة تشكل الأردية الغريبة التى يلبسها الرهبان، وتكسبها قدسيه، غير أن شذوذهم الواضح كان مبعثه فى بعض الأحيان تمسكهم جميعاً وبصورة واحدة بنموذج بدائى بسيط أصبح فى نظر كافة الناس مثاراً للسخرية بفعل التطورات التى حصلت فى موضوع الملبس.

وانك لنرى القديس بندكت St. Bendict (٥٤٣-٥٨٠م) مؤسس الرهبانية البندكتيه فى مونت كاسينو Monte Cassino بإيطاليا، ينادى صراحة بكل فكرة عن حرية الراهب فى إختيار ملبسه، أو ميزة ذلك الملبس،

ويخص تلاميذه فى جديته على ارتداء الملابس العادية المريحة التى يلبسها أهل البلاد التى يقطنونها.

وكانت عادات الرهبان الأقدمين فى الملبس تختلف بأختلاف المناخ وطريقة المعيشة، فكان لا يهمهم أن يرتدوا جلود الأغنام التى يلبسها رهبان مصر، أو العباءة التى يرتديها فلاسفة الإغريق، وفى مصر كانوا يستخدمون الكتان لأنه رخيص الثمن ومصنوع فى البلاد، ولكنهم فى الغرب كانوا ينبذون مثل هذه السلعة الغالية التى تعتبر ترفاً أجنبياً ولا تدفئهم فى الشتاء، وكان من عادة الرهبان أن يقصوا شعورهم أو يحلقوها، ويغطوا رؤوسهم ووجوههم حتى لا يشاهدوا أشياء مدنسة، أما أقدامهم وأرجلهم فكانت عارية إلا فى برد الشتاء القارص، وكانوا يتوكأون على عصا طويلة تشد من خطواتهم البطيئة الضعيفة.

كما أن المبدأ الملائكى فى جزيرة تابن Tabenne كان يدين عادة غسل الأطراف بالماء ومسحها بالزيت، وكان الرهبان الأشد صرامة يفترشون الأرض على حصيرة خشنة أو غطاء خشن، ويستخدمون حزمة من سعف النخيل يجلسون عليها نهاراً، ويسندون إليها رؤوسهم ليلاً، أما صوامعهم فقد كانت أكواخا بسيطة، وموزعة بالشوارع بصورة منتظمة تشكل فى مجموعها قرية تضم داخل أسوارها المشترك كنيسة، ومستشفى. وربما مكتبة، وبعض المرافق الضرورية، وحديقة، وبئر ماء أو مستودعا للماء العذب ، وكان كل ثلاثين أو أربعين من الأخوة يكونون أسرة لها نظامها وغذاؤها المستقل، أما الأديرة الكبيرة فى مصر فقد كات تتألف من ثلاثين أو أربعين أسرة.

وقد اكتشف الرهبان بالتجربة أن الغذاء القليل والصيام الصارم هو وقاية تحمى الإنسان من شهوات الجسد، ولم تكن قواعد الصيام، التى

فرضوها أو مارسوها دائمة أو من نوع واحد، فكان الإحتفال المرح بعيد العنصرة Whitsunday يعوض عن التقشف غير العادى الذى يمارسونه فى الصيام الكبير، غير أن حماس الأديرة الجديدة تراخى شيئاً فشيئاً، ولم يستطع رهبان أوربا أن يقلدوا فضيلة الصبر والإعتدال التى اتسم بها رهبان مصر، فتلاميذ أنطونيوس وباخوميوس كانوا يقنعون بوجبة يومية قوامها القليل من الخبز يقسمونه على أكلتين بسيطتين، إحداهما بعد الظهر والثانية فى المساء، وكان يعتبر فضلاً، بل واجباً، أن يتعفف الراهب عن الخضروات المُسلوقة التى تقدم فى قاعة الأكل، غير أن رئيس الدير كان فى بعض الأحيان يظهر كرماً فائقاً ويجود عليهم بالكماليات كالجبن، والفاكهة، والسلاطة، وأسماك النيل الصغيرة المجففة، وبالتدريج زادت كمية الأسماك المسموح بها للرهبان أو التى يجوز السماح بها، غير أن أكل اللحم ظل فترة طويلة مقصوراً على المرضى والمسافرين، وعندما ساد أكل اللحم بالتدريج فى أديرة أوروبا الأقل صرامة، سمح بلحم الطيور البرية أو الأليفة فقط، كأن لحمها أقل دنساً من لحم الماشية.

وكان الماء هو الشراب النقى البرئ لدى البدائيين، ثم النبيذ لدى البعض فى وقت لاحق، كالقديس بندكت مؤسس الرهبانية البندكتيه، وكانت كروم إيطاليا تيسر عليه أخذ نصف لتر من النبيذ يومياً، وعندما عبر بعض الرهبان البندكتيين جبال الألب ونهر الراين وبحر البلطيق كانوا يطلبون بدلاً من النبيذ قدراً مناسباً من البيرة أو خمر عصير التفاح.

وكان طالب الرهبانية يتطلع إلى فضيلة الفقر التى يحض عليها الإنجيل، وعليه أن يتخلى بمجرد إنضمامه إلى جماعة رهبانية منظمة، فكرة إمتلاك أى شخص يختص به أو ينفرد به دون غيره، وكان الرهبان يعتمدون على عملهم اليدوى، فالعمل فى شريعتهم واجب يحضون عليه بكل قوة، على

إعتبار أنه كفارة وتدريب، وعلى أساس أنه أكرم وسيلة للحصول على غذائهم، وكانوا يزرعون بأنفسهم الحدائق والحقول بعد تهذيب الغابات وردم المستنقعات، وكان الرهبان يؤدون طواعية كل الحرف التي لا بد منها للحصول على الملبس والمأوى.

وفيما يتعلق بالتعليم فإن ما إتسم به بعض علماء الرهبانية من حب المعرفة هو الذى هذب العلوم الدينية، بل والعلوم الدنيوية، ولا بد أن نعترف بأن أقلام هؤلاء الرهبان هى التى دأبت دون كلل على حفظ علوم اليونان والرومان والعرب، وضاعفتها، غير أن الرهبان الذين لم يرتفع عملهم إلى هذا المستوى، كانوا يقومون بأعمال صامته يؤدونها وهم جالسون، فيصنعون النعال الخشبية، أو السلال والحصائر من أوراق النخيل المضفورة، وكان الفائض لديهم مما يستخدمونه فى الأغراض المحليه يباع. وكانت السفن المحملة بإنتاج الرهبان تسير فى الإنهار، وفى الأسواق المسيحية، وكانت ترتفع القيمة الأساسية للمصنوعات بفضل قدسية صانعيها.

وفى مراحل لاحقة تخلى الرهبان عن ضرورة العمل اليدوى، وكان الراهب الذى يؤهل للرهبانية يستمال إلى منح ثروته للدير الذى إعتزم أن يقضى بقية حياته فيه، وسمح له أن يتسلم أية أموال تؤول إليه فى المستقبل عن طريق الهبات أو الميراث، ثم يخصصها لهؤلاء القديسين، ومع مرور الزمن تضاعفت أملاك الأديرة المعروفة، وانتشرت هذه الأديرة فى القرى والمدن المجاورة، وقد لاحظ المؤرخ البيزنطى الوثنى زوسيموس Zosimos أن الرهبان، من أجل خدمة الفقراء، قد هبطوا بجزء كبير من الناس إلى حالة التسول ، ومع ذلك فإنهم طالما كانوا محتفظين بكرامتهم، فقد اعتبروا أنفسهم أمناء على الصدقات التى يؤتمنون عليها، ولكن الرخاء أفسد نظامهم، فاتخذوا لأنفسهم بالتدريج مظهر الكبرياء الذى يبعثه الثراء، وفى نهاية الأمر انغمسوا

فى ترف سعة العيش، وقد تكوّن منها فخامة العبادة الدينية، والدوافع النبيلة التى دفعتهم إلى بناء أديرة قوية متينه لمجتمعهم الخالد. والواقع أن المجتمع الكنسى إتهم إباحية الرهبان المنحلين بأنهم لم يعودوا يتمسكون بالهدف فى نظام الرهبانية، وانغمسوا فى ملذات الدنيا الباطلة التى كانوا قد نبذوها، وأساءوا بصورة واضحة استخدام الثروات التى حصل عليها مؤسسو الرهبانية بفضائلهم القوية الصارمة.

وكان الرهبان فى بداية التحاقهم بالدير يقضون حياتهم فى التوبة والعزلة، لا تزعجهم مختلف الأعمال التى تشغل وقت الكادحين من بنى البشر، وكلما كان يؤذن لهم بمجاوزة نطاق الدير، كان يسمح لزميلين بالخروج، على أن يكون الواحد منهما حارسا على زميله ورقيبا على أعماله بدافع من الغيرة المتبادلة، وبعد عودتهما كان يفرض عليهما أن يتناسيا، أو على الأقل يكتما فى صدريهما كل ما شاهداه أو سمعاه فى العالم خارج الدير.

وكان الرهبان أنفسهم يقضون حياتهم دون إتصالات شخصية، بين جمهور جمعته الصدفه، وأصبح حبيس الدير نفسه، بحكم الإضطرار أو الهوى، ولم يك لدى الرهبان الكثير من الأفكار أو الأحاسيس ينقلونها إلى غيرهم، كما أن رئيس الدير هو الذى يمنحهم تصريحا خاصا يحدد فيه وقت زياراتهم العادية وفترة دوامهم، وكانوا يتناولون طعامهم صامتين، ويغطون رؤوسهم بحيث لا يشاهد بعضهم بعضا، والدراسة هى الملاذ الوحيد للإنسان فى عزلته، غير أن الصناع والفلاحين الذين امتلأت بهم مجتمعات الأديرة لم يتلقوا من التعليم ما يؤهلهم لأية دراسات حرة، ومن الجائز أنهم كانوا يلجأون إلى العمل اليذوى، غير أن غرورهم بكمالهم الروحى كان يغريهم على إحتقار ممارسة هذا العمل، ومما لا شك فيه أن العمل الذى لا يهواه صاحبه لا بد أن يكون عملاً هزيلاً.

وكان الرهبان يقضون النهار فى صوامعهم، ويستغلونه، حسب إيمانهم، فى صلوات يتلونها بصوت مسموع أو غير مسموع، ثم يجتمعون فى المساء، ويستيقظون فى الليل للعبادة التى تقام بالدير، والتى تحدد لحظتها الدقيقة نجوم الليل، وكان يسمع صوت نفير أو بوق يدعو إلى الصلاة، ويخرق سكون المنطقة مرتين كل ليلة، وحتى النوم، وهو آخر ملاذ لهؤلاء الرهبان.

وسوف نركز فى الصفحات التالية على بعض الشخصيات التى لعبت دوراً كبيراً فى النظم الرهبانية فى آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام، ومن هؤلاء القديس بازيل وأخته ماكرينا، وما كان لهما من تأثير على الحياة الرهبانية الرجالية والنسائية الجماعية، والقديس سمعان العمودى الذى ابتكر نظام الرهبانية العمودية. ولتكن البداية مع القديس بازيل:

القديس بازيل

ينحدر القديس بازيل من أسرة مسيحية، ضمت بعض الشهداء، كان جده لأمه من كبار ملاك الأراضى فى بلاد بنطس Pontus، وكانت جدته لأبيه هى القديسة ماكرينا Macrina، وقد قاسى هذان الأهوال خلال الاضطهاد الذى أثاره الامبراطور مكسيميان Maximian شريك الامبراطور – دقلديانوس Diocletian (٢٨٤-٣٠٥م) ، وظلا يهيمان على وجههما هربا فى الغابات والجبال حوالى سبع سنوات ضاع فيها معظم أملاكهما كما يخبرنا بذلك عالم اللاهوت القديس جريجورى Gregory، وقد بقى من أولادهما إثنان هما جريجورى وبازيل، وقد صار الأول أسقفا على إحدى أبرشيات كبادوكيا، والثانى أبو القديس بازيل، ويدعى أيضا بازيل، وكانت له شهرة عالية فى كل بلاد بنطس كمحام عن الفضيلة ومعلم للبلاغة، كما كانت شخصيته محترمة جداً فى الكنيسة نظراً لإستقامته وتقواه، تزوج هذا بامرأة

فاضلة يتيمة تدعى إماليا Emmelia، كان أبوها قد احتمل العذاب والموت في سبيل المسيحية، وكانت هي الأخرى مثالا للمرأة المسيحية الفضلة.

هذه التقوى الثابتة نتج عنها زواج بازيل الأب وإماليا وانتج هذا الزواج الموفق عشرة أطفال خمسة بنين وخمس بنات، ويبدو أن أحد هؤلاء الأبناء مات وهو طفل، وكان أكبر التسعة الأحياء إبنة تدعى ماكرينا على إسم جدتها. أما أكبر الذكور فكان القديس بازيل والثاني نقراطيوسNaucratius والثالث جريجوري، أما الأصغر ويدعى بطرس فقد ولد قبيل وفاة والده بزمن قصير، ومن بين هذه المجموعة الممتازة نذكر الأخت الكبرى وهي القديسة ماكرينا التي دوّن في حياتها سيرتها شقيقها جريجوري المعروف باسم جريجوري النيسي، كما مات نقراطيوس في شبابه المبكر، أما الثلاثة الباقون فقد رسموا أساقفة، إذ اصبح بازيل أسقفا على قيصريه، أما جريجوري قد اعتلى اسقفية نيسا Nyssa، كما تولى بطرس أسقفية سبسطيه، وكل هذه الأسقفيات تقع في بلاد آسيا الصغرى.

ولد القديس بازيل في عام ٣٢٩م تقريبا أي بعد صدور مرسوم ميلان ٣١٣م وهو الذي أباح اعتناق المسيحية والاعتراف بها دينا في الدولة، وبعد أن انتهى المجمع المسكوني الأول في نيقية عام ٣٢٥م من وضع الصيغة الرسمية للمعتقدات الإيمانية الأساسية للديانة السميحية، وهي الفترة التي كانت فيها للشرق الأهمية الكنيسة واللاهوتيه أكثر من الغرب، وهكذا ولد بازيل في فترة هامة وخطيرة في تاريخ الكنيسة، فهو سليل أسرة إجتمع لها اصالة الإيمان والتقوى والجاه والشرف والثراء، تقدست بدم شهدائها وتدعمت بتقوى أفرادها من شهداء وأساقفة ورهبان وراهبات.

كانت حياة بازيل المبكرة فى قرية قـرب قيـصرية الجديـدة بآسـيا الصغرى حيث تربى على يد جدته ماكرينا، وقد كان للأسرة بعض الممتلكات فى تلك المنطقه التى أقام فيها بعد ذلك وهى نيسا على نهـر الإيـرس Eris، وكانت خلوة بازيل فيما بعد على الضفة المقابلة لذلك النهـر، ذات المنـاظر الطبيعية، وفى نيسا شيدت أمه إماليا هيكلاً على إسم الاربعين شـهيداً الـذين استشهدوا فى سبسطيه، ونقلت إليه مخلفاتهم المقدسة، ويحتمل أن يكون بازيل قد حضر صلوات التدشين التى استمرت طوال اليوم، وفى ذلك المكان تلقـى مبادئ الدين عن جدته ووالده، وفيه عُمد أيضا ، ويروى أن الفضل الأول فى توجهه هذا كان لجدته كما كان أيضا لأخته الكبيرة ماكرينا.

أرسل بازيل فى سن مبكرة إلى المدرسة فى قيصرة كبادوكيا، وتعرف هناك بأشخاص من بينهم جريجورى نازانيانى Nazianzus، كمـا أعجـب كثيراً برئيس الأساقفة ديانيوس Dianius، ويروى لنا جريجورى أنه حتى فى تلك الفترة المبكرة حاز بازيل شهرة واسعة لرجاحة عقله، فضلاً عن شخصيته التقية، فكان فيلسوفاً وخطيباً، حتى قبل أن يدرس هذين الفرعين مـن العلـوم دراسة منتظمة، وعلاوة على ذلك كان كاهناً بين المسيحين قبل أن ينال مرتبة الكهنوت، وهكذا لفتت شخصيته الأنظار منذ صغره.

إنتقل بازيل من قيصرية إلى القسطنطينية حيث درس البيان والفلـسفة بنجاح، ولكن معلوماتنا عنه فى سنى إقامته الخمس فى القسطنطينية ضـئيلة، وقد ارتحل بازيل إلى أثينا سنة ٣٥١م طبقاً لما كان متبعا آنذاك بالنسبة للذين يريدون أن يتموا دراساتهم العليا، إذ كانت آثينا من أشهر المدن الجامعية فـى العالم ، فقد كانت بصيتها الذائع القديم وتقاليدها التاريخية من ناحية، وأساتذتها الممتازين فى الفلسفة والبلاغة من ناحية أخرى، ما تزال تجذب إليها الطلاب من كل أنحاء العالم.

أمضى بازيل حوالى خمسة أعوام فى أثينا، ولدينا قدر وفير من المعلومات عن حياته هناك مما كتبه صديقه جريجورى النازانيانى الذى كان قد سبقه إليها، يقول جريجورى أن شهرة بازيل كانت قد سبقته إلى أثينا ، فانتظره كثير من الشباب وتنافسوا على صداقته، وقد عملت كل الظروف على توطيد أواصر الصداقة بين كل من بازيل وجريجورى، فقد جمعتهما أهداف روحية مسيحية، حتى قيل عنهما أنهما كانا روحا واحدة فى جسدين، وغدت صداقتهما مثالاً رائعاً فى تاريخ القديسين، وهكذا لم يكن للشعر والفصاحة - والحالة هذه - قدرة على إضعاف ميولهما الروحية وحياتهما الدينية، لقد عاشا سويا، وساعد كل صديقه للاستفادة من كل فرص التعلم، وقد امتنع الشابان تماما عن كل الملذات التى تتفشى عادة بين الشباب. وفى ذلك يقول جريجورى: "عرفنا شارعين فى المدينة : الأول هو الأحسن كان يؤدى إلى الكنائس، والآخر كان يؤدى إلى المدارس العامة ومعلمى العلوم، أما الشوارع التى تؤدى إلى المسارح والملاعب والأماكن غير المقدسة فقد تركناها لغيرنا".

وواقع الحال أن الإقامة فى أثينا وقتذاك والأنشغال بالدراسات الكلاسيكية - بالنسبة إلى الشباب غير المتمكن من دينه - كانت فرصته مليئة بالتجارب، وكان من السهل أن تشغله الحماسة للوثنية، وإن كانت قد فقدت حيويتها. ولدينا مثل واضح على ذلك، فقد لازمهما فى الدراسة فى أثينا الأمير جوليان إبن عم الامبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧١ - ٣٦١م)، وكان الأمير الشاب يرتبط بالقديس بازيل بصداقة قديمة، وقد اعتاد أن يدرس معه الكتاب المقدس ويعدد المقارنات بين تعاليم الكتاب السامية ودروس أساتذته الوثنيين، ومع كل هذا فإن جوليان تأثر تأثرا عميقا بالوثنيه، حتى أنه حينما صار إمبراطورا فيما بعد ارتد عن المسيحية وصار يعرف فى التاريخ باسم جوليان المرتد Apostate.

ظهرت وتجلت عبقرية بازيل الدراسية في أثينا، ويخبرنا جريجورى بأن إجتهاد صديقه وتكيزه ومثابرته كانت عظيمة، وكان بارعا في جميع فروع العلم وخاصة الفصاحة والبيان والفسلفة والفلك والهندسة والطب.

وأخيرا حان الوقت لتنفيذ ما عقد عليه الصديقان العزم من ممارسة حياة الرهبانية بعد عودتهما إلى وطنهما، وعندما حل يوم الرحيل، حاول أصدقاؤه أن يثنوه عن عزمه، ولكن القديس بازيل تمسك بعودته إلى وطنه، أما جريجورى فقد تخلف لبعض الوقت، وهكذا عاد بازيل بمفرده إلى وطنه سنة ٣٥٦م، فوجد أن والده وجدته ماكرينا قد توفيا أثناء غيبته، وإن أمه إماليا قد استقرت في نيسا، المكان المحبب إليه وهو صغير.

رحبت مدينة قيصرية كبادوكيا بالقديس بازل كأحد أبنائها الممتازين، وكانت شهرته في أثينا قد سبقته إلى كبادوكيا، وقد عمل مدرسا لعلم البيان بقيصرية لمدة عامين تقريبا بنجاح عظيم، وخلال السنتين القصيرتين في التديس أحرز بازيل شهرة عالية حتى أن قيصرية الجديدة أرسلت وفدا يلتمس منه الاشتغال بالتدريس في مدينتهم ولكنه رفض بسبب حماسته إلى حياة الرهبانية، وفي تلك المرحلة من حياة بازيل تدخلت أخته التقية ماكرينا التي أزعجها أن ترى أخاها بازيل منهمكا بالإهتمام بالعلوم الطبيعية والبشرية، فحثته على طلب العلوم الدينية التي تغرس التقوى في القلوب، وشرعت تذكر له بطلان أمجاد العالم، ونجحت أخيرا في إقتناعه كموسى جديد يفضل العبرانيين على خزائن مصر، كما يخبرنا بذلك القديس غريجورى أسقف نيسي، وفي هذه الفترة سنة (٣٥٣م) تعمد بازيل، وبعدها بقليل رسم أغنسطسا (قارئا) بيد أسقف قيصريه.

هكذا استيقظ بازيل على صوت أخته ماكرينا، وكرس حياته لله، بل أكثر من هذا، أنه اختار لذاته طريق الوحدة، طريق الكمال المسيحى، الأمر الذى كان قد اتفق عليه مع صديقه جريجورى.

وفى حوالى سنة ٣٥٨م، عندما كان بازيل دون الثلاثين من عمره، ترك مدينة قيصرية ليبحث عن النساك المشهورين فى مصر وفلسطين وسوريا وما بين النهرين، وقد أثار إعجابه شدة زهد وتقشف هؤلاء النساك الذين قابلهم، خاصة فى مصر وفلسطين، وأثار دهشته فيهم ضبط النفس وإحتمال الرهبان ومقدرتهم على الصوم والسهر، واحتمال البرد، والطريقة الخارقة للعادة التى يعاملون بها أجسادهم كأنها مأوى غريب يقمون به لفترة ما، وقد ظل بازيل يدرس لمدة سنتين تقريباً التقاليد الرهبانية المثالية التى ترجع إلى القديس أنطونيوس الكبير فى مصر، وكان ما رآه فى حياة الرهبان خلال رحلاته حاثاً له على الإسراع فى حياة الرهبانية، ولما عاد إلى وطنه باع ما يخصه من أملاك ومقتنيات ووزعها على الفقراء والمحتاجين، وبدأ يفكر فى أنسب الإماكن لإقامة دير يصلح للرهبانية التى جالت فى خاطره. وانتهى به الأمر أن إختار بقعة فى إقليم بنطس تسمى إيبورا على نهر الأيرس، لما تمتاز به عن جمال طبيعى، وربما فعل هذا حتى يستميل صديقه جريجورى إلى التوحد معه فى هذا المكان، الذى كان على مقربة من الدير الذى تعيش فيه أمه إماليا وأخته ماكرينا مع بعض الراهبات.

وكتب إلى صديقه جريجورى يقول : " لقد أرشدنى الله إلى منطقة تتفق تماماً وطريقتى فى الحياة، إنها حقاً مكاناً نتوق إليه، فهو يقع على جبل عال تكسوه غابة كثيفة، ترويها فى الشمال جداول جاريه، وعند سفح الجبل يمتد سهل فسيح كثير الثمار، أما الغابة المحيطه حيث تتنوع الأشجار، فهى تعزلنى عن العالم، والبريه محاطة بواديين ضيقين عميقين، على أحد جانبيهما

ينحدر مجرى الماء بقوة من الجبل مكونا حاجزا من الصعب عبوره، وعلى الجانب الأخر حافة فسيحة تجعل الاقتراب منه أمرا صعبا، ويقع الكوخ على القمة وبذا أشرف على السهل الفسيح وعلى طريق الأيرس.."

هذه الصورة الخيالية تشير إلى أن تلك الحياة الرهبانية كان لها جانبها المثالى والشاعرى بالنسبة إلى العقول المثقفة، بل أنها تعكس لنا إحساس بازيل المرهف وتذوقه للفن وجمال الطبيعة، متمشيا فى ذلك مع المسيحية التى ترى فى الطبيعة وما فيها من جمال كتابا مفتوحا تقرأ فيه عن قدرة الخالق وحكمته وإنعامه.

والحق أن القديس بازيل كان يعشق الطبيعة، وله تأملات كثيرة فى السماء والنجوم والطيور وأجناسها، والأسماك، والحيوان، والنبات، وغيرها، وكان يصفها وصف عالم عاكف على دراستها، وكان يرى حكمة الله وراء جميعها.

وفى تلك البقعة الهادئة اعتقد القديس بازيل أنه قد تحرر من كل إهتمامات الحياة الدنيوية، وأنه يستطيع أن يخدم الله بطريقة مثلى، وبدأ القديس بازيل فى خلوته فى إقليم البنطس نظاما رهبانيا شديدا، فلم يك يتناول فى طعامه أكثر مما كان ضروريا ليسد رمقه، وفى بعض الأحيان لم يكن ذلك الطعام شيئا سوى الخبز والماء وبعض اللحم، كما كان يملك ثوبا خارجيا وآخر داخليا فقط، وكان يرتدى فى الليل لباسا من الشعر ينام به، ولم يك يرتديه بالنهار حتى يبدو متظاهرا بالرهبانية، ولم يك ينام إلا قليلا.

وسرعان ما عُرف بازيل فى حياته الجديدة وذاع صيته فأصبح مركزا تجمع حوله رهبان البنطس وكبادوكيا، ولم يك هو أول من أدخل الحياة

الرهبانية إلى البنطس، فقد سبقه إلى ذلك القديس جستنيان من مدينة سبسطية الذى سجل القديس بازيل إعجابه بشخصيته الرهبانية.

والحقيقة أن نظام الجماعات الرهبانية فى تلك الأصقاع كان جديداً، ويعزى إلى القديس بازيل فضل إظهاره، ويعتبر هو المؤسس له هناك دون شك، وما لبث أن انتشر مثاله، فتأسست جماعات من الرهبان من الجنسين فى جميع أنجاء إقليم بنطس، وكان كل منها مركزاً فعالاًفى التبشير بآراء مجمع نيقية المقدس والدفاع ضد الأريوسية.

وقد نجح القديس بازيل فى جذب صديقه جريجورى إليه، وواظبا معاً على الصلاة والدراسة والعمل اليدوى، وجمعا مختارات من كتابات أوريجين وأخذ من كتاباته مادة لتدعيم الإيمان الحقيقى ضد الأريوسية.

وحتى ذلك الوقت لم يلاحظ أن القديس بازيل اشترك فى نشاط عام، بل كان قابعاً فى خلوته فى البنطس، وبعد ذلك أقنعه جريجورى النزنيازى بالذهاب إلى قيصرية لمعاونة يوسيبوس أسقف المدينة، فذهب إلى هناك ورُسِمَ قساً بيد يوسيبوس سنة ٣٦٤م بعد تمنع شديد نتيجة لشعوره بعدم الأهلية لتلك الرتبة السامية، وصار بازيل الشخصية ذات الأثر الأكبر فى كل المنطقة، وكان هذا عاملاً على إظهار ضعف شخصية يوسيبوس، الأمر الذى أدى إلى فتور العلاقات بين الاثنين، وسرعان ما زاد هذا الفتور حتى انتهى إلى القطيعة، فعاد بازيل إلى ديره بصحبة صديقه جريجورى، وهناك أمضى الصديقان ثلاث سنوات فى الوحدة، عكفا خلالها على الكتابة ضد الامبراطور جوليان (٣٦١-٣٦٣م) الذى ارتد عن المسيحية.

ولما ارتقى العرش الامبراطور فالنز الأريوسى Valens (٣٦٤-٣٧٨م) حاول بكل قوة أن ينشر المذهب الأريوسى، وفى هذه الأزمة

طالب الشعب بعودة بازيل إلى قيصرية، فحاول يوسيبوس أن يستميل جريجورى إلى جانبه، ولكن هذا الأخير رفض العودة بدون بازيل.

وأخيراً، بفضل مجهودات جريجورى تم التوفيق بينهما وعاد بازيل إلى قيصرية للتعاون بكل إخلاص مع يوسيبوس مستخدماً كل فصاحته وعلمه لإحباط هجمات الأريوسيين، وقد نظم المقاومة الأرثوذكسية ضد الأريوسيين الذين كانوا جادين فى نشر معتقدهم فى كل آسيا الصغرى ، وكرس جهوده فى تنمية قوة الأبرشيه مؤيداً سلطة يوسيبوس رئيس الاساقفة معاملاً إياه بما يليق بمركزه وسنه من إكرام، وأثبت بازيل بذلك أنه – على حد تعبير جريجورى – غدا عكاز يوسيبوس، ودعامة الإيمان الأرثوذكسى، وأكثر أصدقائه وفاء، وأكثر الخدام كفاءة.

ولم تكن الاحتياجات اللاهوتية وخدمة الكنيسة فى زمن بازيل لتمنعه من تكريس جزء كبير من طاقته لأعمال الرحمة، فمن المحتمل أن المؤسسة الديرية العظيمة التى أقامها فى ضواحى قيصرية لعلاج المرضى وإراحة المسافرين والفقراء، وقد وضع تصميمها فى أواخر سنى قسيسته، وقد عرفت هذه المؤسسة أخيراً باسم باسيلياد Basiliad، وكانت بمثابة المؤسسة الأم، وسرعان ما قامت مؤسسات أخرى مشابهة فى المناطق القروية القريبة.

ومن أبرز الحوادث فى تلك الفترة المجاعات التى اجتاحت كل الإقليم سنة ٣٦٨م، وفى خلالها كان بازيل مثال الخادم الذى يضع نفسه من أجل مخدوميه، فلم يكتف بحث الأغنياء والتجار على الرحمة وإنما باع ممتلكاته التى كانت قد آلت إليه مؤخراً بعد وفاة والدته ووزعها على المحتاجين، وخدم بشخصه كل المتألمين، وكان الخدم يحضرون إليه أكواماً من الأطعمة وهو يوزعها بيديه بينما يعزى بكلماته المتضايقين ويشجع المعذبين.

وفى نحو منتصف سنة ٣٧٠م توفى يوسيبوس ئيس أساقفة قيصرية، وأصبح كرسى الأسقفة خاليا، وصار الأمل معقودا عليه ليشغل هذا المنصب الكبير. وكانت مدينة قيصرية منقسمة إلى معسكرين: كان جميع الناس الأخيار مع الكهنة والرهبان يؤيدون إنتخاب بازيل بحماسه كبيرة، أما معارضوه فكانوا يتألفون من الأساقفة الأريوسيين، وبعض ذوى الغنى والمراكز ممن كانوا يعيبون عليه رهبانيته أو إنكار ذاته وزهده، وبعض الأشرار والفجار لمقاومته لهم وتوبيخه اياهم. أما بالنسبة إلى شعب قيصرية فقد كان بازيل هو الرجل الروحانى ذا المقدرة العظيمة الذى يستطيع صد تيارات الهرطقة، وقد استطاع بازيل بنفوذه أن يتغلب على كل الصعاب، وانتهى الأمر بتوليه منصب رئيس أساقفة كبادوكيا.

كان لتعيين بازيل رنة فرح فى كل العالم الارثوذكسى، حتى أن البابا أثناسيوس، فى مصر أرسل من الإسكندرية مهنئا كبادوكيا بهذا التوفيق، أما فى القسطنطينية فقد قوبلت رسامته بمشاعر مختلفة، إذ شعر الامبراطور فالنز أنها صدمة خطيره له وللأريوسيه، لأن بازل لم يك خصما يستهان به، فهو – فضلا عن قوة شخصيته – كان نفوذه كرئيس أساقفة قيصرية يمتد إلى ما واء حدود المدينة ذاتها، فكان رئيسا على أساقفة كبادوكيا كلها، وله نفوذ فى بلاط بنطس، وفى أكثر من نصف آسيا الصغرى، وكانت تنضوى تحت لوائه نحو إحدى عشرة مقاطعة، وكانت مدينة أنقرة وقيصرية الجديدة والطوانه وأسقفيات أخرى تعتبره الرئيس الكنسى لها.

ومن المشاكل التى واجهته أنه كان هناك فريق من الاساقفة قد رفضوا الاشتراك فى تنصيبه، وهؤلاء تحولوا من العداء المكشوف إلى المقاومة السرية، وكانوا يعاملونه باستخفاف، مظهرين رغبتهم التامة فى مشاركته فى كل خططه، وكان هذا المسلك غير المخلص من جانبهم سببا فى إزدياد

مرضه، لكنه تمكن على أى حال من التغلب على معارضيه فى سنوات قليلة بالحزم الممتزج بالعطف.

صممت حكومة الإمبراطور على تقسيم كبادوكيا إلى إقليمين، وكان المقصود من ذلك أضعاف مدينة قيصرية ، أو بالأحرى إضعاف القديس بازيل، وقد اختيرت مدينة الطوانه لتكون العاصمة الجديدة للإقليم الثانى. فطالب أنثيموس Anthimus أسقف مدينة الطوانه بتقسيم كنسى يتبع التقسيم الإدارى، وبأن تتمتع الطوانة بامتيازات المدينة العاصمة، كما تتمتع قيصرية، أما القديس بازيل فقد قاوم ذلك المطلب، لذلك حدث نزاع بينه وبين أنثيموس، ولكى يقوى موقفه عين بعض المقربين أساقفة على بعض المدن فى آسيا الصغرى.

لم يمض على القديس بازيل اكثر من إثنى عشر شهرا فى أسقفيته حتى دخل فى صدام علنى مع الامبراطور فالنز الذى كان يعبر آسيا الصغرى مصمما على ضرب العقيدة الارثوذوكسية وإحلال الأريوسية محلها، وكان مصمما على إخضاع القديس بازيل بطل الارثوذوكسية فى تلك الجهات. وكان تقدمه مظهراً من مظاهر انتصاره، فقد ضعف أمامه كثيرون، وقاومت منطقة بيثينيا، فصارت مسرحاً لمآس مرعبة لذلك إستسلمت بعض الأماكن دون مقاومة، وكان مصير كبادوكيا يتوقف على بازيل، وهنا نصحه البعض أن ينحنى أمام العاصفة، ويهدئ من روع الامبراطور بخضوع وقتى، ولكنه رفض مشورتهم بإباء تشوبه الغيرة المقدسة.

دخلت حاشية الامبراطور على القديس بازيل بتهديدات شديدة، وكان أشدهم وقاحة كبير طهاة الامبراطور الذى هدده بالسكين فقابل القديس تهديداته بشجاعة هادئة. ثم تلاه رسول آخر أرسله فالنز إلى بازيل يخيِّره بين أمرين:

إما العزل وإما إعتناق المذهب الأريوسى، فاستدعاه الرسول وطالبه بالخضوع، فرفض القديس الأمر فهدده الرسول بمصادرة أملاكه والنفى والتعذيب والموت، فكان رد القديس على هذه الاهانة أن لا شئ من هذه التهديدات يرهبه، فليس له شئ يُصادر سوى قليل من الخرق وبعض الكتب، أما النفى فلا يمكن أن يبعث به إلى ما وراء أراضى الله، لأن الأرض عنده دار غربه، أما التعذيب لا يخيف جسما مات بالفعل، أما الموت فإنه يكون كصديق يأتى ليصحبه فى آخر رحلة إلى الوطن الحقيقى وينقله فى الحال إلى الله الذى يحيا له. وما أن سمع الرسول هذه الإجابة حتى صاح فى دهشة ممزوجة بكبرياء معلنا أن أسقفا لم يكلمه قط بمثل هذا الكلام، فأجابه بازيل فى هدوء: " ذلك لأنك لم تقابل أسقفا حقيقيا". ولما لم يفلح الرسول فى تهديده، أخذ يعده بامتيازات وبصداقة الإمبراطور وبتحقيق كل مطالبه، لكن شيئا من كل ذلك لم يلن عزيمة بازيل القويه، فأسرع الرسول ورفع تقريره إلى الامبراطور.

وزار فالنز كنيسة قيصرية وأصغى باحترام إلى عظة القديس بازيل، وبعد نهاية الاحتفال ناقشه القديس فى الإيمان الأرثوذوكسى، وبدا أنه مال ليكون صديقا للقديس بازل، ومنحه بعض الاراضى لنشاطه الخيرى. وفى الحقيقة فإن هذا الوفاق كان ظاهريا بين فالنز وبازيل، فالقديس لن يسمح للأريوسيين بالاشتراك معه فى القداس، والامبراطور لن يطيق الرفض، وحينما ظل القديس مصمما على رفض قبول الأريوسيين، أقنع هؤلاء فالنز أن نفى بازيل أصبح ضروريا للسلام، فاستسلم الامبراطور للمشورة وأمر بنفى بازيل، وأعد القديس عدته للرحيل، ورتب أن يكون ذلك ليلا تجنبا لأخطار الاضطرابات الشعبيه، وكانت المركبة بانتظاره على الباب، وإذا بأمر النفى يتوقف! لقد مرض جلاتوس Galatus ابن الإمبراطور الوحيد مرضا مفاجئا

وخطيراً، وعزت أمه دوميليكا Domilica مرضه إلى الأمر بنفي القديس، فأرسل الامبراطور رسولين إلى القديس لكي يصلي للطفل المريض الذي لم يكن قد تعمد بعد، فاشترط القديس قبل ذهابه أن يعمد الطفل - بعد شفائه - على يد كاهن أرثوذكسي، ولكن الامبراطور حنث بوعده وعمد الطفل على يد أسقف أريوسي، فساءت حالة الطفل ومات في تلك الليلة، فازداد نفوذ القديس جداً بسبب ذلك، حتى أن الناس كانوا يأتون من مسافات بعيده طالبين بركته.

وفي حوالي سنه ٣٧٦م استعرت الحرب بين الفرس والبيزنطيين، وبينهم وبين القبائل الجرمانيه من قوط وجرمان، وبدت الامبراطورية تتفكك وينحسر سلطانها الذي عم الأرض، ثم اشتدت المنازعة بين تريانوس وفالنز، وفي آخر الأمر، لما أحسن فالنز بأن زمام الأمور يفلت من يده أخذ في مهادنة المسيحية فسمح للأرثوذكسيين باسترجاع كنائسهم وأملاكهم، وأمر فإعادة الأساقفة إلى كراسيهم الأسقفية، فعم السلام في الكنيسه، وخف طغيان الأريوسيه، وشاهد بازيل وهو في غروب الحياة أن السلام قد استقر في الكنائس جمعاء، فبطرس خلف أثناسيوس العظيم في كرسي الإسكندرية، وجريجوري أسقف نازيانزيوس Nazianzus تبوأ كرسي القسطنطينية، واستمر ملانيوس في كرسي أنطاكية.

وفي هذه الأثناء كان بازيل يصارع الموت، وكان قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره فقط، لكن صحته كانت قد اعتلت، فالأشغال كثيرة وهموم الكنائس والصوم والمضايقات والأحزان عجلت كلها على تقويض بنيان جسده، ورغم هذا استمر بازيل في تنظيم الأمور وإسداء النصح وتوجيه الإرشاد حتى يتابع المسؤولون عمله الذي بدأه ولم يكمله، وما زال المرض يفتك به رغم

الاعتناء البالغ والصلاة لأجله من الجموع المحتشدة حول كرسى المطرانيــه، حتى توفى فى الأول من يناير ٣٧٩م.

وكان موته انتصارا له، فقد زحف الشعب كله لوداع أسقف كان له أبا ومعلما وسندا، وامتلأت الشوارع حتى داس بعضهم بعضاً ومــات كثيــرون، واشترك فى هذا المأتم اليهود والوثنيون وكل شعب قيصريه وإقليم كبادوكيــا، وترأس الصلاة شقيق القديس جريجورى أسقف نيسا، وأبَّنه فى هذه المناسبة، كما أبَّنه سنة ٣٨١م القديس جريجورى النزانيازى وآخرون، وهذه المراثــى والتآبين هى المصدر الاساسى لحياة القديس بازيل.

وارتفع صوت الشعب أن بازيل قديس، وأقرت الكنيسة بذلك، وأخذت تعيِّد له بعد سنين قليلة من وفاته، فى الأول من يناير، وبعد القرن التاسع نقلت الكنيسة الغربية عيده إلى الرابع عشر من يونيه من كل عام.

القديسة ماكرينا

لم تكن القديسة ماكرينا Macrina (٣٣٠-٣٧٩م) هى الوحيدة بــين النساء فى الامبراطورية البيزنطية التى اعتنقت الرهبانية، ولكنها كانــت فــى مقدمة هؤلاء الراهبات اللائى تزخر بهن المصادر البيزنطية، كما أن هنــاك بعض المراجع المتخصصة فى الرهبانية النسائية قد تكلمت عــن الراهبــات، نذكر منهن القديسة مارى المصرية (٣٤٤-٤٢١م)، والقديــسة ماترونــا أف برج St. Matrona of Perge التى توفيــت بــين عــامى (٥١٠-٥١٥م)، والقديسة مارى ، وهى القديسة التى كانت تلبس زى الرهبــان مــن الرجــال وسميت بإسم مــارينوس Marinos، وقــد ســجلت ســيرتها فــى أواخــر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع الميلادى، والقديــسة ثيــودورا أف

ســالونيك St. Theodora of Thessalonike (٨١٢– ٨٩٢م)، والقديسة أثناسيا أف إيجينا St. Athanasia of Aegina التى عاشت فى القرن التاسع الميلادى، وأخيرا وليس آخرا مارى الصغيرة التى توفيت فى عام ٩٠٣م.

والحقيقة أن حياة القديسة ماكرينا قد سجلها شقيقها جريجورى النيسى (٣٣٥–٣٩٥ تقريبا)، وهو من كبار رجال الكنيسة ومن الذين كتبوا عن تاريخ الكنيسة، وتاريخ شخصيات دينية أخرى، وقد سجل جريجورى حياة أخته ماكرينا تحت مجموعة من العناوين بدأها بالحديث عن والديها، وميلاد ماكرينا وطفولتها، وخطبتها إلى أحد الشبان ثم موت هذا الخطيب قبل الزواج، وتصميم ماكرينا على عدم البعد عن والدتها، وعودة أخيها القديس بازيل بعد غياب طويل بسبب دراسته فى أثينا، ثم تحدث عن قصة أخيه نوقراطيس Noucratius، وموته بطريقة مأساوية، ومساعدة ماكرينا لوالدتها، وكيف أصبحت الوالده وابنتها ماكرينا تتجه نحو حياة الرهبانية، كما تكلم عن الأخ الأصغر لهما وهو بطرس، كما تكلم عن موت الأم، ثم موت القديس بازيل الكبير بعد حياة حافلة بالأمجاد الدينية. وحنين جريجورى إلى أخته ماكرينا والرحيل لزيارتها فى الدير، وأن جريجورى عندما وصل إلى الدير وجد أخته ماكرينا على فراش الموت والحديث الذى دار بينهما، وكيف أن ماكرينا طلبت من أخيها أن يطلب الراحة لنفسه. ويعود جريجورى مرة أخرى ويحدثنا عن طفولة أخته ماكرينا، وعن أيام ماكرينا الأخيرة، وصلواتها وهى على فراش الموت، وحُزن الراهبات على ماكرينا القديسة ورئيسة الدير، وقدوم سيده فاضلة تدعى فستيانا Vestiana لمساعدة جريجورى فى دفن ماكرينا وإتمام مراحل الدفن، وقدوم العديد لوداع ماكرينا والاستعداد للجنازة، ثم الوصول إلى الكنيسة، ومراسم الدفن، وحزن الأسرة على وفاة ماكرينا، وانتهاء مراسم الدفن ، وعودة جريجورى إلى منزله، وأخيرا قصة الجندى وشفاء العيون.

ومن المعلومات التى قدمها المؤرخ الكنسى جريجورى النيسى وغيره من المصادر نستطيع أن نقدم معلومات طيبة عن القديسة ماكرينا، ولكن الصفحات القليلة فى هذا الكتاب لا تسمح لنا بتقديم كل التفاصيل عن حياة هذه القديسة، وبذلك نوجزها ونقول: أن القديسة ماكرينا ولدت فى قرية صغيرة بالقرب من مدينة قيصرية كبادوكيا عام ٣٣٠ وتوفيت عام ٣٧٩م، وكان والدها يدعى بازيل وأمها تدعى إميليا Emmelia، وجدتها لأمها هى القديسة ماكرينا الكبيرة، وكان لها أربعة أخوة وخمس أخوات. وقد تزوجت الأخوات وعشن حياتهن العادية، أما الأخوة الرجال فهم القديس بازيل الكبير الذى سبق الحديث عنه، وكان يليه نوقراطيس Naucratius وقد مات فى حادث صيد فى بنطس، أما الأخ الثالث فهو جريجورى اسقف نيسا والرابع هو بطرس اسقف مدينة سبسطيه Sebaste ومن ذلك يتضح أنها تنحدر من أسرة دينية عريقة قلما نجد مثلها فى تاريخ الكنيسة، ويحتفل بعيدها فى التاسع عشر من يوليو كل عام.

وواقع الحال أن ما قدمه جريجورى النيسى عن أخته ماكرينا كان عبارة عن خطاب كتبه جريجورى إلى أحد الرهبان ويدعى أوليمبوس Olympius كان معه فى مجمع أنطاكية الذى عقد فى عام ٣٧٩م فى شكل مديح وإطراء للقديسة ماكرينا. وفى بداية هذا الخطاب يشير جريجورى النيسى إلى أن مصر هى أرض الرهبانية، وأشار إلى القديس أنطونيوس Antony (٢٩٠ - ٣٤٦م) ورهبانيته فى وادى النطرون. أما عن فتره حمل الأم للجنين، فقد كانت ترى أحلاما طيبة، وانها كانت ترغب فى تسميه المولد باسم تكلا Thecla تيمنا بالقديس تكلا ورفيقه بولص، وبعد الولادة سميت الطفلة بإسم جدتها ماكرينا، أما إسم تكلا فقد ظل داخل الأسرة فقط، أما بعد مرحلة الطفولة والدخول فى مرحلة الصبا، فقد كانت والدتها هى معلمتها فى

الشئون الدنيوية وقراءه بعض الأشعار، والشئون المنزليـــة بالاضـــافة إلـــى الشئون الدينية. فقرأت مزامير داود ودرست حكمه سيدنا سليمان، وكانت تتلو المزامير عندما تنهض من الفراش أو أثناء انشغالها بالأعمال المنزلية.

وعندما أصبحت ماكرينا فى الثانية عشر من عمرها ظهرت أنوثتهـــا، وكانت الصبية تتمتع بقسط كبير من الجمال فتمت خطبتها إلى محام شاب من عائلة فاضلة، ولكن هذا الشاب مات فجأة، وهنا قررت ماكرينا عدم الـــزواج. وعند هذه المرحلة قرر أخيها القديس بازيل - بعد وفاة والدها الترحال، فأخذ أمه واخته ماكرينا إلى ضيعة للأسرة تقع على نهر إيـــرس Iris فـــى أقلـــيم بنطس. ورحل بازيل للدراسة فى عام ٣٥١ إلى جامعتـــه أثينـــا وبقيـــت الأم والإبنة ماكرينا. وفى هذا المكان الذى يوجد فيه الأم والابنة وبعـــض الخـــدم وجماعة أخرى قررا الابتعاد عن الحياة الدنيوية وكرسا نفسيهما لخدمة الله.

واجتمع فى هذا المكان مجموعة أخرى نذكر منهم القديس جريجورى النازازيانى، ويوستاسيوس Eustathius أسقف سبسطيه فيما بعد، وتفقه هؤلاء جميعا فى الدين المسيحى.

وبعد هذه المرحلة عاد القديس بازيل بعد خمس سنوات (٣٥٦م) منهيا دراسته فى علم البلاغة بجامعة أثنيا، وهنا طلبت ماكرينا من والـــدتها تـــرك الحياة الدنيا والاتجاه إلى الرهبانية، وساعدها على ذلك كل من أخويها القديس بازيل والأخ الأصغر بطرس، وتلى ذلك موت الأم فتولت ماكرينا رئاسة الدير الذى أزدهر كثيرا فى أيامها. مات القديس بازيل فى عام ٣٧٦م وبعد ثـــلاث سنوات سافر جريجورى النيسى إلى أنطاكية فى عام ٣٧٩م ليحضر مـــؤتمرا كنسيا، ولما عاد اتجه لزيارة أخته فوجدها على فراش الموت، وقد لاحظ ذلك لأنه عندما وصل إلى الدير لم يجد أخته بين المصلين، وقد قاده أحد الرجـــال

إلى الحجرة التى ترقد فيها أختِه وبعد ما فتح الباب لم يجد أخته، على السرير أو على الأريكه بل وجدها على الأرض فأسرع إليها وبعد محادثـــة قــصيرة أسلمت الروح فى عام ٣٧٦م.

الرهبانية العمورية

هى نوع من الرهبانية الانفرادية قامت فى بلاد الشرق، وقـــد اختـــار أصحاب هذه الرهبانية الحياة على تاج عامود أقاموه فى أماكن ليــست بعيـــده عن الناس ليرى الناس زهدهم فى الحياة الدنيا، كما أن المعيشة فى زهد فوق العامود يجعلهم أقرب إلى السماء عن الذين يعيشون فوق الأرض، وكلما زاد ارتفاع العامود كلما كان قربهم من الخالق أكثر. وقد أخذ هـــذا النـــوع مـــن الرهبانية مكانه فى الجزء الأخير من القرن الرابع الميلادى. وقد تحدث عـــن هذه الرهبانية بعض المؤرخين الكنسيين والدنيويين.

ومن الذين كتبوا عن هؤلاء القديس جريجورى النازانيازى Gregory of Nazanzian (توفى عام ٣٨٥ أو ٣٨٦م)، وهو يخبرنا عن بعض الرهبان العموديين الذين عاشوا معا لمدة سنين دون أن يــستلقوا علـــى ظهـــورهم أو جنوبهم. كما أن بلاديوس Palledius (٣٦٨-٤٣١م)، وهو مؤرخ من إقلـــيم جالاتا Galata شمال القرن الذهبى يحدثنا عن بعض الرهبان الذين عاشوا فى كهوف على قمة الجبال أكثر من خمسة وعشرين عاما وهم يولون وجـــوههم نحو الغرب. كما سجل المؤرخ ثيودورت القورســـى Theodoret of Cyrus صاحب الفصول الثلاثه (ولد حوالى ٣٩٣ ومات ٤٥٧م)، يؤكد أنـــه شـــاهد بنفسه راهبا ظل داخل أنبوب عشره أعوام، كما تكلم عـــن القـــديس ســـمعان العمودى. وأخيرا نذكر المؤرخ ايفاجريوس Evagrius (٥٣٦-٥٩٤م) وخاصـــة عن القديس سمعان العمودى فى أحداث عام ٤٤٠م، ويذكر أن الامبراطـــور

البيزنطى ثيودوسيوس الثانى Thieodosius II (٤٠٨- ٤٥٠م) استمع إلى نصائحه والتمس منه البركه.

ويزيد إيفاجريوس أن القديس سمعان قضى من عمره سته وخمسين عاما راهبا. قضى عشرة منها فى الدير، وسبع وأربعين فى ركن منعزل فى غرفه صغيره Mandara أو على عامود قصير فى بداية الأمر كان طوله حوالى سبعة أقدام، ثم ثلاثين عاما على رأس عامود لا تزيد مساحته عن أربعين قدما بالقرب من أنطاكية. وكان الأهالى من البلاد المجاورة يجتمعون حوله يلتمسون البركة. كما ذكر ثيودورت أن الحجاج المسيحيين كانوا يأتون لزيارته من بلاد فارس والحبشة وأسبانيا وبريطانيا، وأن القديس سمعان كان يلف جسده بسلسلة حديدية، وأنه كان ينحنى أثناء الصلاة حتى يصل جبينه إلى قدميه. ومن هذه المصادر وغيرها وبعض المراجع المتخصصة استقى الكاتب المادة التاريخية عن القديس سمعان العامودى.

القديس سمعان العمودى

بهذا الإسم عرف القديس لتمييزه عن قديسين آخرين حملوا الإسم نفسه، ولد القديس سمعان بين عامى ٤٨٩-٣٩٠م فى قرية سيس Sise الواقعة بين نهرى سيحان وجيحان على الحدود بين شمال سوريا وقيليقيه، وكان تلك الأرض أرض مقدسة، وقد رزق أبوا سمعان بعدة أولاد فلم يعش سواه وصبى آخر وأسمه شمس صار هو أيضاً راهبا ومات قبله بوقت طويل. وكان والداه مسيحيين صالحين، فقدماه للعماد وهو طفل صغير فى المهد، وقد علماه رعاية المواشى دون أن يعلماه شيئاً من القراءة والكتابة، وتكلم السريانيه، وهى لغة وطنه ولهجة من اللغة الآراميه لغة السيد المسيح، وألم باليونانية لما دخل الرهبانية.

كتب المؤرخ ثيودورت تعلم أول " الأمر رعاية المواشي، لكي يكـون على مثال الرجال العظام. وذات يوم تساقط الثلج غزيراً، فاضطرت الخراف إلى البقاء في أماكنها مما جعله ينتهز هذا الوقت من الفراغ ليمضي مع أبويه إلى الكنيسه، وقد سمعته يروي الخبر بلسانه الطاهر، قال إنه سمع بعض آيات من الانجيل جاء فيها : "طوبى للـذين يبكـون ويحزنـون، والويـل للـذين يضحكون"، وسمع أيضاً "إن أصحاب النفوس الطـاهرة أهـل لأن يغـبطهم الناس"، فسأل بعض الحضور ماذا يجب عليه أن يفعله فأشارو عليه بالحيـاة الرهبانية وبينوا له سمو الحكمة. لهذا السبب ولغيره ذهب سيمون إلى جماعة من النساك القريبين منه وانضم إليهم وأقـام معهـم عـامين (٤٠١-٤٠٢م)، وكانت الحياة الرهبانية قد ازدهرت في تلك الناحية، وزارها المؤرخ ثيودورت في العام ٤٢٥ فوجد في الدير وما في حوله مائة وخمسين راهباً، وفي ديـر برج السبع، على بعد كيلومترات منه، ثمانين راهباً، وليست هذه الكثرة بالأمر العجيب، فقد كان الإيمان المسيحي حياً في قلوب أهل الشرق بحيث كانت كل أسرة ترسل إلى الدير ولداً واحداً على الأقل من أولادها، وإذا فقـد الرجـل زوجته دخل الرهبانية ودخلها معه أولاده، وكان جميـع أهـل الـبلاد مـن المسيحين، ويضيف ثيودورت ويقول: كـان الراهبـان العظيمـان مانويـل وتوسيبيوس قد اتخذا لهما مكاناً للرهبانية عند تلعاده، ولكن سمعان لم يـذهب إليهما بل إلى دير آخر هو فرع له يدعى (دير برج السبع).

فقضى سمعان في هذا البرج عشرة أعوام (من ٤٠٢ أو ٤٠٣) إلـى ٤١٢ أو ٤١٣م)، وكان معه ثمانون من الرهبان، فكان يتميز عليهم جميعـاً، فقد كان هؤلاء يتناولون الطعام بعد انقضاء يومين، وأما هـو فكـان يبقـى الأسبوع كله من غير أن يأكل شيئاً، فاستاء منه الرؤساء، ولـم يكفـوا عـن مضايقته وهم يقولون أن تصرفه مخالف للنظام، بل إن سمعان قـام بأعمـال

أخرى اكثر منهم صرامه، فدعوه إلى مغادرة الدير لئلا يكون سبباً فى هلاك الرهبان.

ذهب سمعان إلى الأماكن المقفرة من الجبل، فوجد جُبًا لا ماء فيه، وليس بكثير العمق نزل فيه ورفع ترانيمه لله، وبعد خمسة أيام ندم من بالدير على ما فعلوه، فأرسلوا إثنين للبحث عنه والعودة به، فجالا فى الجبل حتى عثرا عليه، ثم أتيا بحبلٍ وأصعداه بعد مشقه.

أقام سمعان عشر سنوات فى برج السبع، ثم إتجه عام ٤١٣م إلى "تل النساء" الذى أصبح دير سمعان إكراماً لإسم سمعان الذى أقام به ثلاث سنوات قبل أن يصعد إلى حيث عاش معظم حياته فى مكان قريب يقال له فى أيامنا هذه "قلعة سمعان".

ويقول ثيودورت: لقد وجد سمعان هناك كوخاً صغيراً فقضى فيه ثلاث سنوات وهو حبيس، وطمع فى أن يزيد رصيده من الفضيلة، فرغب فى البقاء أربعين يوماً من غير طعام، أسوة برجُلى الله موسى وإيليا. وكان باسوس Basus العظيم الشأن يسير فى تلك المرحلة فى المنطقة ليتفقد الكهنة، فحاول سمعان إقناعه ألا يترك شيئاً عنده، وأن يطلى باب بيته بالطين، فنبهه باسوس إلى صعوبة ذلك العمل، وقال له أن الإنتحار لا يعد فضيلة، فهو أكبر الآثام وأعظمها، فقال "إذاً، يا أبتِ ضع لى أنت هاهنا عشرة أرغفة وإبريق ماء، فإذا رأيت أن جسمى يحتاج إلى طعام، فسوف أتناولها"، فكان له ما أراد، فوضع الطعام والشراب وطلى الباب بالطين، ولما انقضت الأيام الأربعون عاد باسوس وأزال الطين واجتاز الباب إلى الداخل، فوجد الأرغفة كما هى، ووجد الابريق وبه الماء، وأما سمعان فوجده ملقى على الأرض لا يقوى على التنفس ولا الحديث ولا الحركة، فطلب باسوس إسفنجة فبلل بها فم سمعان

وغسله وقرأ بعض الترانيم، فاستعاد بها قواه ونهض قائماً، وتناول شيئاً من الهندباء وبعض البقول، وهو يمضغها على مهل ثم يبتلعها، فدهش باسوس كثيراً، وغاد إلى الرهبان وروى هذه الأعجوبة العظيمة.

قضى سمعان في ذلك الكوخ الصغير ثلاثة أعوام ثم جاء فسكن قمة الجبل وأمر بأن يقام سياج مستدير، وأعد سلسلة من الحديد طولها عشرون ذاعاً، فربط طرفها الأول بكتلة كبيرة، والطرف الآخر برجله اليمنى حتى يحميه من الخروج من محيطه، وصرف وقته كله وهو في الداخل لا ينفك يسمو بمخيلته إلى السماء ويتأمل الأمور السماوية العلوية.

ذاع إسم سمعان في كل مكان، وأقبل عليه الناس، لا أهل الأماكن المجاورة فحسب، بل من الشام ومن أوروبا، فأتوا بالمقعدين، وطلب آخرون الشفاء للمرضى والتمس غيرهم الإنجاب، وأصبح سمعان مشهوراً جداً في مدينة روما العظمى، على ما قيل، حتى أن صوراً صغيرة نصبت على عامود في مدخل جميع الحوانيت، لينالوا به هناك حراسة لهم ووقاية.

ولما كان عدد القادمين لا يحصى، وكانوا يحاولون أن يلمسوه وأن يحصلوا على بركة من ملابسه المصنوعة من الجلد، رأى في ذلك إفراط في التكريم غير المعقول، فضلاً عن أن ذلك التصرف سبب له إزعاجاً لا يطاق، فخطر له أن يقف على عمود، فطلب في أول الأمر، أن يُقطع له عموداً طوله ستة آذرع، وبعد حين اثنتا عشرة ذراعاً ثم اثنتان وعشرون، حتى أصبح ست وثلاثون أو أكثر، وكأنه يطير نحو السماء ويغادر هذا المسكن الأرضي، ونسب إليه المؤرخون الكثير من المعجزات منها إشفاء المرضى، كما نسبوا إليه كثيراً من النبوءات وتحدثوا عن صلاته وصبره، وارشاداته إلى الشعب، وإقامة العدل، واهتمامه بشؤن الكنيسة.

توفى سمعان يوم الأحد السادس والعشرين من يوليو عام ٤٥٩م وهو فى الإحدى والسبعين من عمره بعدما قضى أكثر من نصف حياته فوق العامود، ومثلت حياته طوال هذه المدة معجزة تغلب الروح على الجسد فى سبيل حب الله. ولما علم الناس بخبر وفاته احتشد حول العمود جمع عظيم وهم يحملون الطيوب والشموع والمشاعل وسط صراخ وعويل على القديس الذى كان بمثابة الأب والمرشد والواعظ والمعلم والقاضى وطبيب الأجساد والأرواح، فكان عندهم الشمعة التى أنارت ظلام الجهل على مدار سبعة وعشرين عاماً، وكان من ضمن الجموع المحتشدة النساء اللواتى أنجبن بفضل بركاته ودعواته، وكذلك، ذلك القعيد الذى مشى بأمره كما مشى القعيد فى كفر ناحوم بأمر السيد المسيح. لقد شفى سمعان المرضى فى حين أنه ذاق الأمرين من القروح التى تفشت فى جميع جوانب جسده، وتقبل هو فى نفسه وجسده ما سأل الله أن يزيله عن غيره.

وضع جثمان القديس سمعان على مذبح من الرخام تجاه العامود وقبله جميع الأساقفة، ثم ساروا به إلى قرية يقال لها اليوم "شيخ الدير" فى سفح الجبل، ثم وضعوا التابوت على مركبة، وانطلق الموكب المهيب والمشيعون يحملون المشاعل ويحرقون البخور ويرتلون المزامير وينشدون الأناشيد، فتوافد أهل القرى التى على الطريق، فإذا بسيل من البشر يدفع بعضه بعضاً زاحفاً إلى المدينة العظيمة أنطاكية، مدينة القديسين بطرس وبولس الأولى قبل روما، ومدينة يوحنا الذهبى الفم قبل القسطنطينية، واجتاز الموكب خمسين كيلومترا سيراً على الأقدام، وهو يتوقف حيناً بعد حين، ليتمكن الناس من تكريم جثمان القديس والتبرك به، ولم يصل إلى أنطاكية إلا فى آخر الأسبوع.

خرج أهل المدينة لاستقبال الموكب فانضموا إليه وهم يرتدون ثيابا بيضاء ويحملون فى أيديهم الشموع والمشاعل، ثم وضع الجثمان فى كنيسة قاسيانيوس، ثم نقل بعد شهر إلى كبرى كنائس المدينة.

وروى كاتب السيرة أن الإمبراطور ليو الأول Leo I (٤٥٧-٤٧٤م) طلب نقل الجثمان إلى القسطنطينية، لأنه فى رأيه كنز ثمين، فتوسل إليه أهل أنطاكية ألا يحرمهم إياه، وقالوا " لم يبق لمدينتنا أسوار، وقد جئنا به إليها ليقوم مقام الأسوار، ولكى يحمينا بصلواته"، فتخلى الإمبراطور آخر الأمر عما أراده. وفى آخر القرن الخامس طلب أول العموديين بعد سمعان الكبير، واسمه القديس دانيال، من الإمبراطور نقل جثمان القديس سمعان إلى القسطنطينية، فنقل فى حفل عظيم رأسه بطريرك القسطنطينية وحضرها الإمبراطور وجمع لا يحصى من الناس.

تحطيم الصور والتماثيل الدينية.

كان حب البيزنطيين لما لديهم من آثار مقدسة شاهد على النزعة الدينية لديهم، وكانوا يتفاخرون بما فى العاصمة البيزنطية من آثار مقدسة. وقد بدأت هذه الفكره منذ عهد الامبراطور قسطنطين الكبير حيث قامت أمه هيلنا بجمع بعض الآثار المقدسة فى مدينة القسطنطينية، وأضاف إلى ذلك الامبراطور هرقل Heraclius (٦٤٠-٦٤١م) مجموعة ضمت أدوات صلب السيد المسيح بعد أن نقلها من مدينة بيت المقدس، وهى على ما يقال خشب صليب الصلبوت وتاج الشوك الذى توج به السيد المسيح فى نهاية حياته والحربة المقدسة التى طعن بها السيد المسيح فى جنبه، ورداء الصلب والمسامير. كما أحضرت بعض رفات القديسيين إلى العاصمة أيضا فى عهد الامبراطور قنسطانز الأول Constans I (٣٣٧-٣٥٠م). وفى عهد

الامبراطور أركاديوس Arcadius (٣٨٠ - ٣٩٥م) ثم نقل رفات القديس صموئيل، وغير ذلك. ومن هنا توافد الحجاج المسيحيون في كل أنحاء الأرض لزيارة هذه المخلفات والتبرك بها. يضاف إلى ذلك الصور المقدسة والأيقونات التى تحمل صور القديسيين والشهداء حتى أصبحت محببه جدا إلى قلوب البيزنطين.

وانتهى الأمر بأن أصبحت الأماكن المسيحية المقدسة تتمتع بنفس الاهتمام الذى كانت تتمتع به المعابد الوثنية، وبدا الناس يتزاحمون على كنيستى القديس داميان Damian والقديس قوزماس Kosmas باعتبارها من الأطباء المشهورين، وكانت كاتدارئية مدينة خونية Chonae ملجأ للعلاج والشفاء وغير ذلك. كما أن المدن البيزنطية قد وضعت نفسها تحت رعاية أحد القديسات أو القديسين.

فقد كانت مدينة القسطنطينية تحت رعاية السيدة مريم العذراء، كما وضعت مدينة سالونيك تحت رعاية القديس ديمتريوس، أما مدينة الرها فقد عاشت فى سلام وأمان فترة طويلة اعتمادا على قول السيد السميح بأنها لن تقع فى أيدى أعدائها. ورويدا رويدا بدأت ظاهرة عبادة الايقونات أو الصور داخل الامبراطورية البيزنطية.

وقد تصدى لظاهرة عبادة الصور الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى Leo III (٧١٧- ٧٤٢م) ويذكر المؤرخ ثيوفانس Theophanes (توفى حوالى ٨١٨م) أن هذا الامبراطور ولد فى إقليم ايسوريا Isauria فى إقليم قيليقة بآسيا الصغرى من عائلة أرمينيه، ثم انتقل والده إلى إقليم تراقيه غرب القسطنطينية واخذ يرعى الضأن، وأرسل منها خمسمائه رأس مع ابنه ليو إلى الامبراطور جستنيان الثانى Justinian II (٦٨٥ - ٦٩٥م). ودخل ليو فى

خدمة الامبراطور وأصبح جنديا فى الحرس الامبراطورى ثم قائداً لقوات إقليم الأناضول وظهرت كفاءته العسكرية فاختاره الجيش امبراطوراً لانقاذ الامبراطورية من الخطر الإسلامى الذى هدد مدينة القسطنطينية. واشتهر ليو بقوة الإرادة والمثابرة، كما أنه كان صبوراً وسياسيا محنكا، أعاد للامبراطورية الأمن والاستقرار، وأصلح نظام الضرائب وطبق العداله وأعاد حكم الامبراطورية على أساس قوى.[١٠٠]

وعندما كان ليو فى آسيا الصغرى، قد سرت إلى نفسه فكره عبادة الأيقونات وموقف الاسلام واليهودية منها، ورأى اهتمام البيزنطين بعبادة الصور. والحقيقة أن الكنيسة فى أول أمرها كانت تكره إقامة التماثيل وتعتبرها من بقايا الوثنية، ولكن موقف الامبراطور قسطنطين من المسيحية والاعتراف بها دينا داخل الامبراطور، ثم الاعتراف بها دينا رسميا للامبراطورية فى عهد الامبراطور ثيودوسيوس، وما كان للبيئه والتقاليد والتماثيل اليونانية قد خفف من حدة مقاومة هذه الفكرة.

ومع كثرة عدد القديسيين والشهداء نشأت الحاجة إلى التعرف عليهم وتذكرهم، فظهر الكثير من الصور وعظموها وأصبح لها قوة سحرية، وأطلق البيزنطيون العنان لفطرتهم فحولوا الصور والآثار والتماثيل المقدسة إلى معبودات سجدوا لها وأحرقوا البخور أمامها، وانتشرت هذه الصور والأيقونات والتماثيل في كل مكان داخل الأديرة والمنازل والمحلات والتجارية وأثاث المنزل وعلى الملابس والمجوهرات، واعتمد الناس عليها فى دفع الأخطار التى تهددهم.

غضب الامبراطور من هذا التحول الخطير، وبدا له أن الوثنية قد عادت مرة أخرى وسادت الامبراطورية. ولكى يتغلب على هذه الظاهرة

الخطيرة التى يؤيدها رجال الدين رأى إضعاف نفوذ رجال الكنيسة والرهبان الذين يصنعون هذه الصور والتماثيل فى أديرتهم نظراً لما تدر عليهم من دخل كبير. وبدأ الامبراطور بالحصول على تأييد بعض المذاهب الدينية المسيحية المعارضة لعبادة الأيقونات مثل النساطرة واليعاقبة، وعقد مجلسا من الأساقفة وأعضاء مجلس الشيوخ وأعلن بموافقتهم فى عام ٧٢٦م مرسوما طالبا فيه إزالة الصور والتماثيل من داخل الكنائس، وحرم تصوير السيد المسيح والسيده العذراء، يضاف إلى ذلك أنه أمر أن تغطى بالجص جميع الصور الموجودة على جدران الكنائس.

لم ينته الأمر عند هذا الحد فإن بعض الرهبان وشباب ورجال الكنيسه احتجوا على هذا المرسوم، ورغم ذلك بدأ الجنود البيزنطيون فى تنفيذ تعليمات الإمبراطور، فثارت جموع الناس واشتبكت مع الجنود فى الشوارع وداخل الكنائس والأديرة، ونادى العامة بخلع الإمبراطور وتولية آخر. وزاد الأمر سوءاً عندما سيرت بلاد اليونان بعض السفن لتستولى على القسطنطينية، ولكن الامبراطور ليو دمر هذه السفن وقبض على المعارضين وأودعهم السجون.

تطور الأمر وانتشر داخل الامبراطورية حتى غرب أوربا، فقامت بعض المدن الايطالية وعلى رأسها روما والبندقية ورافنا بطرد موظفى الامبراطورية، ودعا البابا جريجورى الثانى ٧١٥-٧٣١م إلى إجتماع لأساقفة أوربا، وقد أنزل هذا الاجتماع اللعنة على محطمي الصور والتماثيل دون ذكر إسم الامبراطور، ويلاحظ هنا أن الامبراطور البيزنطى هو الذى كان يعين بابا روما حتى هذه المرحلة وبعدها بقليل.

عمت الثورة البلاد وانضم البطريرك البيزنطى انسطاسيوس Anastasius (٧٢٩-٧٥٢م) إلى الثوار، واستغل هذه الفرصة وعمل على

استقلال الكنيسة البيزنطية عن الامبراطور، والخروج من عباءة الامبراطور الذى يعين البطريرك فى منصبه، واشتد الامبراطور ليو فى معاملة البطريرك فخلعه من منصبه، ولكن الأخير لم يزعن للأمر وتمسك به.

وفى خضم هذه الحداث الجسام مات الامبراطور ليو وخلفه ابنه قسطنطين الخامس (٧٤١-٧٧٥م) فواجهه المشاكل بنفس سياسة أبيه. وللخروج من هذا لمأزق جمع الإمبراطور مجلسا من جميع أساقفة الشرق، واتفق فى هذا المجلس علٰى تحريم عبادة الصور والتماثيل، فأمر الامبراطور بازالة وتدمير جميع الصور والتماثيل الموجودة فى الكنائس وأية أماكن أخرى، وتعامل مع كل من عارضوه بالشدة، فسجن الرهبان وأنزل بهم ألوان العذاب، فسملت أعينهم وجدعت أنوفهم. ويروى المؤرخ ثيوفانيس أنه عذب القديس ستيفن Stephen رئيس دير جبل أوكسنتيوس Auxentius فى آسيا الصغرى الذى تزعم الثورة ضد الامبراطور، رافضا الإنصياع لأوامر الامبراطور، وتخليه عن الثوره رغم محاولات الامبراطور. وفى نوفمبر من عام ٧٦٥م مات شهيداً ى شوارع القسطنطينية بعد أن قطع جسده الحانقين عليه. وتجاوز الامبراطور كل هذا فأمر بغلق أديرة الرجال والنساء وصادر أموالها وحول المبانى إلى أغراض دنيوية، ووزع أراضيها على مسانديه. كما قام حاكم مدينة إفسوس Ephesus بعد موافقة الامبراطور بجمع الرهبان والراهبات وخيرهم على الزواج من بعضهم أو القتل، ودام الحال على هذا المنوال خمس سنين.

ومات الامبراطور قسطنطين الخامس وتولى بعده ابنه ليو الرابع Leo IV (٧٧٥-٧٨٠م) بعد ما حمله مسئولية سياسية تحطيم الصور والتماثيل واجتزاز معارضيه، ولكن ليو الرابع كان معتل الصحة ولم يعش طويلا، وتولى بعده ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م)، وكان فى العاشره من

عمره فتولت أمه الامبراطوره إيرين Irene الوصاية عليه. وكانت الامبراطوره تتعاطف مع مشاعر الشعب الدينية ومع بنات جنسها من الراهبات، فأوقفت فى هدوء تنفيذ المرسوم الخاص بتحطيم الصور والتماثيل وأعادت الرهبان إلى أديرتم ودعت فى عام ٧٨٧م إلى مجمع دينى فى مدينة نيقية أعاد حوالى ثلاثمائة وخمسين من الاساقفة إلى كنائسهم، وقد أقر هذا المجمع تعظيم الصور المقدسة لا عبادتها، ورأى أن فى هذه العبارة تعبير مشروع عن التقوى والإيمان.

الفصل السادس

الدستـور والقانون

إن بقاء الامبراطورية البيزنطية منذ مطلع القرن الرابع الميلادى حتى نهايتها فى عام ١٣٥٤م إنما يعود بالدرجة الأولى إلى التمسك بالدين، والنظام الإدارى، والقانون. والحقيقة أن كل ذلك قد نـُظم بطريقة متوافقة حسب كل مرحلة من مراحل الأمبراطورية بطريقة تحول دون بقاء السلطة فى أيدى عديمى الكفاءة. وواقع الحال أن كل ذلك كان ميراثا انتقل من الامبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية. ولم يكن من عمل فرد أو أكثر إنما جاء ثمرة تعامل كل مؤسسات الدولة مع بعضها البعض.

وبداية وقبل الدخول فى القانون البيزنطى، نقول أن لكل مجتمع نظام قانونى يحميه، ويأتى الدستور على قمة القواعد القانونية التى تنظم الحياة فى كل دولة، ويمكن تعريف الدستور بأنه مجموعة القواعد الأساسية التى تبين شكل الدولة. ويبين الدستور نظام الحكم وتوزيع السلطات والهيئات التى تتولى هذه السلطات، وعلاقة كل هذه السلطات بالأخرى، كما يبين الدستور حقوق الفرد فى الدولة، فالدستور يعتبر المصدر الرئيسى والأسمى للقواعد القانونية فى الدول بما يتضمنه من مبادئ وأحكام أسياسية تتعلق بتنظيم السلطات العامة فى الدول وتحديد اختصاصاتها، وبحقوق الأفراد وبيان الاتجاهات السياسية والاجتماعية لنظم الحكم. وتأتى أهمية الدستور من خلال أسلوب التكوين، والمرتبة، والنطاق، والثبات، والاستقرار.

أولاً: أسلوب التكوين:

إذا كان القانون (التشريع) يصدر عادة من طريق السلطة التشريعية (المجلس النيابى) فإن الدستور بالنظر إلى أهميته لابد أن يصدر عن طريق الشعب. وهذا الأسلوب هو المتبع حاليا بتكوين جمعية تأسيسية لوضع الدستور أو بالجمع بينهما. ولكن الحال كان مختلفا في الامبراطورية البيزنطية، فكان

التشريع بأكمله يصدر من الإمبراطور كمنحة منه للشعب. وربما كان الأباطره محاطين ببعض المستشارين، ولكن الكلمة الأخيرة تكون للإمبراطور.

ثانياً: المرتبـــة:

يأتي الدستور على قمة النظام القانوني لكل دولة، فالدستور يعلو على كافة القوانين والقرارات واللوائح، ولابد أن تصدر كافة القوانين والقرارات الوزارية وغيرها متفقه مع نصوص الدستور، وإذا صدرت أية قوانين أو قرارات أو لوائح مخالفة لمبادئ ونصوص الدستور، فأنه يحكم بعدم دستوريتها.

ثالثاً: النطـــاق:

والدستور شامل، فهو ينظم ويتناول المبادئ العامة التى تحكم الدولة، واختصاصات السلطات العامة (التشريعية - القضائية - التنفيذية) والعلاقات فيما بينهما. يضاف إلى ذلك أن الدستور ينص على حقوق وحريات والتزامات الأفراد. وتختلف الدساتير فيما بينهما حول هذه المسألة وفقا للنظام المتبع داخل الدولة.

رابعاً: الثبـــات والاستقرار:

يتطلب الأمر ثبات التشريعات واستقرارها، فإذا كانت التشريعات تتغير من وقت لآخر، وفى أوقات متقاربة، فأن هذا يؤدى إلى عدم الثبات والاستقرار. ولذلك لا يعاد النظر فى الدستور إلا بإجراءات منصوص عليها فى الدستور ذاته، ويكون ذلك بأغلبية أصوات المجلس النيابى، واشتراط أغلبية الثلثين من الأعضاء فى المجلس النيابى، يضاف إلى ذلك استفتاء

الشعب في بعض الأحيان، والمقصود بذلك تعقيد الإجراءات حتى لا تتلاعب أقلية فى الدولة بالشعب.

بعد هذه المقدمة الإيضاحية حول الدستور وأهميته بالنسبة لكل دولة، نقول أنه لا يمكن تطبيق هذه القواعد فى مجتمعات العصور الوسطى ومنها الإمبراطورية البيزنطية. وليس لنا فى هذه الصفحات أن تتعرض للدستور أو القوانين داخل الإمبراطورية والوقوف على كل التفاصيل، فهذه دراسات يختص بها رجال القانون وتاريخ القانون، إنما يمكن القول أننى سوف أقوم بوضع هذا الأمر بصورة مبسطه يسهل على دارسى التاريخ أو غيره من غير المتخصصين فى القانون الوقوف على ملامح الدستور والقوانين التى سادت الإمبراطورية، مع إعطاء بعض الأمثلة.

والحقيقة أن نظام الحكم داخل الإمبراطورية كان أوتوقراطياً Autocracy أى حكم الفرد. ومنذ أيام الإمبراطور دقلديانوس Diocletian (٢٨٤ - ٣٠٥م) كان الإمبراطور يحكم الإمبراطورية بمفرده، فكان هو أعلى سلطة فى الإمبراطورية، وهو الذى يعين جميع الوزراء وعزلهم إذا شاء، وكان له أيضاً مطلق التصرف فى الشئون المالية، وأن كان هناك وزيرا للمالية، كما كان بيده التشريع وله أصدار القوانين أو تعديل بعض القوانين السائدة أو إلغائها، وكان هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، وأخير فقد كان الرأس الأعلى لكنيسة رغم وجود بطريرك للإمبراطورية مقره العاصمة البيزنطية.

ومعنى ذلك إن إرادة هذا الإمبراطور هى التى تحرك الدولة، وتقرر مصير الملايين من المواطنين. وقد ظل هذا الحاكم يحمل لقب إمبراطور أو لقب أوجستا Augasta. وقد ظل اللقب الأخير ملازما لحكام الإمبراطورية

حتى نهايتها في عام ١٤٥٣م. ويلاحظ أن لقب إمبراطور كان له مدلول عسكري ثم اصطبغ هذا اللقب بالطابع الشرقي فتحول إلى لقب Autocrator الذي يعني التحكم المطلق. ونلاحظ أن لقب باسيليوس Basileus أخذ يطلق على الإمبراطور هرقل لأول مرة في عام ٦٢٩م بعد هزيمة للقوات الفارسية، وعندما دخل العاصمة البيزنطية ظافراً، فقد حياه الناس هاتفين له بأنه سكبيو الجديد New Scipio، وليس الإسكندر الجديد New Alexander وقابلوه بالمشاعل وأغصان الزيتون.

وفى واقع الأمر لم تكن هناك حدود لسلطة الإمبراطور، ورغم ذلك كانت هناك حدوداً لا يتخطاها. وهذه الحدود هو أنه يشعر ويعترف دائماً بأن عليه أن يحترم القوانين الرئيسة للشعب، وإن كان هو الذى يضعها. وإلى جانب ذلك فقد كان لدى الإمبراطور والشعب فكرة فى أعماق الناس جميعاً بأن السيادة للشعب، وأن الشعب فوض سلطته للإمبراطور. ويحدثنا التاريخ عن واقعة توضح أن للسيادة للشعب وأن على الإمبراطور أن يلجأ إليها إذا لزم الأمر، ومن ذلك أن المؤرخ ثيوفانيس يحدثنا أن الإمبراطور ستوراكيوس Stauracius (٨١١م) عندما كان يحتضر من جراء الجروح التى أصيب بها فى حروبه مع البلغار، ظهرت الخلافات بين زوجته ثيوفانو Theophano وأخته بروكوبيا Procopia، وهنا هدد الإمبراطور بأنه سوف يلجأ إلى الشعب لاختار من يشاء لمنصب الإمبراطور.

وإلى جانب القوانين والأعراف التى تقول بأن العرش فى المقام الأول يقوم على الانتخاب، فقد كان إلى جانب ذلك خاصة فى أوقات الأزمات ما أسماه أحد المؤرخين باسم "الحق الشرعى فى الثورة". ورغم أن حق الانتخاب كان للسناتو والشعب والجيش، فقد كان على الإمبراطور الذى يتم انتخابه أن يتم تتويجه بمراسم معينة. وبذلك يصير هو الحاكم الأوحد، فإذا ظهر عجز

هذا الإمبراطور لسبب عكسرى أو مرضى أو لأى سبب آخر، جاز لأى واحده أو أثنين من السلطات الثلاث أن تعلن عن إمبراطور آخر، والحقيقة أن الذى كان دائماً ما يأخذ بزمام المبادرة هو الجيش.

ومن ذلك يحدثنا المؤرخ ثيوفانيس عن الاخطار التى واجهت الإمبراطورية فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث (٧١٦ - ٧١٧م) وقيام المسلمين بمهاجمة القسطنطينية بقيادة مسلمه بن عبد الملك فى عام ٧١٧م وأن الإمبراطور ثيودوسيوس عجز عن مواجهة هذه الاخطار فإن البطريرك جرمانوس الأول Germanus I (٧١٥ - ٧٣٠م) قد تشاور مع السناتو والإمبراطور نفسه، وتم الاتفاق على أن يتولى عرش الإمبراطورية ليو الثالث Leo III (٧١٧ - ٧٤١م). والحالة نفسها نجدها مع الإمبراطور ليو الخامس الأرمينى (٨١٣ - ٨٢٠م)، ويحدثنا المؤرخ ثيوفانيس أيضاً عن هذه الأحداث، فيذكر أن البطريق ليو القائد الأعلى لقوات الأناضول، كان رجلاً تقياً وأنه استحق ثقة الجيش، فقد كان الخطر البلغارى لازال قائماً بعد موت الإمبراطور ستوراكيوس، وأثناء حكم الإمبراطور ميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣م) وكان لابد من وقف هذا الخطر. فقد تصدى ليو للقوات البلغارية ونجح فى إبعاد خطرها عن العاصمة، ثم تبعهم وهزمهم هزيمة نكراء. ويرجع السبب الرئيس إلى تعين ليو أن الإمبراطور ميخائيل ترك قواته فى مواجهة البلغار وهرب إلى العاصمة، وهنا اجتمعت القوات العسكرية ونادت بقائدهم ليو إمبراطوراً عليهم. وكان على الإمبراطور الذى تولى العرش على هذا النحو أن يُحمل شعب العاصمة والسناتو على قبوله إمبراطورا عليهم، وبذلك يصبح إمبراطورا شرعيا وأن كان فى الأصل مغتصبا للعرش.

وقد يتم تعين أحد الأباطرة جراء مؤمراة تحدث فى البلاط، وكان على الإمبراطور الجديد أن ينال ثقة وموافقة القوات المسلحة ومجلس السناتو حتى

ينادى به إمبراطور فى أسرع وقت ممكن. ومن ذلك ما حدث مع نقفور الأول (٨٠٢ – ٨١١م) الذى كان يعمل وزيرا للمالية فى عهد الإمبراطورة إيرين Irene (٧٩٧ – ٨٠٢). ومع اشتداد الأزمات فى عهدها داخليا وخارجيا تم القبض عليها فى هدوء وأرسلت إلى أحد الأديرة فى جزيرة الأمراء ببحر مرمره ثم إلى جزيرة لسبوس Lesbos.

أما إذا خلا عرش الإمبراطور فى زمن السلم فإن مجلس السناتو هو الذى كان يأخذ زمام المبادرة ويقوم بترشيح من يراه صالحا للجلوس على العرش الإمبراطورى. وواقع الحال أن مجلس السناتو كثيرا ما يكون واقعا تأثير أحد القواد العسكريين أو الاحزاب المدنية. ومن ذلك أنه عند موت الإمبراطور مارقيان (٤٥٠ – ٤٥٧م)، كان بالامكان أن يتولى العرش أسبار Aspar أحد القادة العسكرين المشهورين فى غرب أوربا، ولكنه كان من العناصر البربرية وليس بيزنطيا، يضاف إلى ذلك أنه كان أريوسى المذهب فلم يكن باستطاعته تولى عرش الإمبراطورية، لذلك رشح أسبار ليو الذى عرف بالأول (٤٥٧ – ٤٧٤م) ليكون إمبراطورا على عرش الإمبراطورية خلفا للإمبراطور مارقيان. ولم يكن بوسع السناتو أن يرفض طلب أسبار، فوافق على ذلك وتوج ليو فى الميدان الكبير (الهبدروم) فى السابع من فبراير عام ٤٥٧م.

وفى مناسبات أخرى كان الشعب نفسه هو الذى يرشح الإمبراطور، ومثال ذلك أن رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapenus تزوج من والدة الإمبراطور القاصر قسطنطين السابع وبذلك أصبح على رأس الأمبراطورية (٩١٩ – ٩٤٤م) ولكنه كان ضحية أولاده فقد مات كريستوفر Christopher فى عام ٩٤١م، وعندما شعر ولديه الآخرين ستيفن وقسطنطين أن السن قد تقدمت بوالديهما، قلقا على مستقبلهما وأدركا أن بوفاته

يؤول العرش إلى قسطنطين السابع فقبضا على أبيهما ونفياه إلى جريرة بروت Prote. والحقيقة أن ولدى رومانوس لم يحسنا التقدير، فقد انتهز قسطنطين السابع الفرصة، ووجد العون من الشعب الذى وقف بجانبه واعترف بحقه الشرعى فى وراثة العرش، فتسلم عرشه فى عام ٩٤٤م حتى وفاته عام ٩٥٩م.

ويحدثنا المؤرخ ميخائيل بسلوس أن الشعب أجبر الأميرة ثيودوا فى عام ١٠٤٢م على الانسحاب من الدير والعودة إلى القصر الإمبراطورى لتحكم إلى جانب أختها زوى Zoe (١٠٥٤ - ١٠٥٦م). كما أن الشعب لعب دوراً كبيراً فى خلع الإمبراطور أندرونيقوس الأول كومنيين Andronicus I Comnenus (١١٨٣ - ١١٨٥م). فعندما عجز هذا الإمبراطور عن الدفاع عن مدينة سالونيك عندما هاجمها الأسطول النورمانى من صقلية فى عام ١١٨٥م، واتخذ طريقه إلى القسطنطينية، هب الشعب فى الثانى عشر من سبتمبر من العام نفسه، وهاجم القصر الإمبراطورى وسحب الإمبراطور إلى شوارع العاصمة وقطعه أربا، ولم يستطع أحد أن يوقف هذه الثورة العارمة، ثم أقامت بعده اسحق الثانى انجيلوس Issac II Angelus (١١٨٥ - ١١٩٥م).

ورغم أن حق الانتخاب كان هو المبدأ السائد فى الإمبراطورية، فإن هذا المبدأ كان يخضع لتدخل من جانب الإمبراطور المعين. فقد كان من حق الإمبراطور أن يؤمن عرشه حتى لا تتعرض الإمبراطورية لهزات وقت الشدائد إن وجدت، فقد كان بوسع الإمبراطور المعين أن يختار أو يضم إلى جانبه أباطرة آخرين ويصبحون شركاء له دون سلطات. وفى هذه الحالة كان الأمر يتطلب موافقة الناخبين على هذا الإجراء. وإذا تصفحنا التاريخ البيزنطى نجد أن معظم الأباطرة قد توجوا فى حياة أسلافهم.

ولم يكن هناك من قانون يحدد عدد الأباطرة المشاركين، فقد يكون واحداً أو أكثر. ففى عهد الإمبراطور رومانوس الأول ليكابينوس نجد أربعة من الأباطرة المشاركين، فقد كان قسطنطين السابع ولياً للعهد، وعندما توج الإمبراطور رومانوس أبنه كريستوفر من زوجته الأولى فى عام ٩٢١م تباعد مركز قسطنطين السابع ليكون الثانى، ثم قام الإمبراطور نفسه بتتويج ولديه ستيفن وقسطنطين من زوجته الأولى أيضا فى عام ٩٢٤م، تباعد مركز قسطنطين السابع ليكون الرابع. أما الأبن الرابع من زوجته الأولى أيضاً ويدعى ثيوفلاكت Theophlact فقد إنخرط فى السلك الكنسى منذ طفولته، فتولى عرش البطريركيه (٩٣٣ - ٩٥٦م) رغم حداثة سنه إذا كان يبلغ من العمر سته عشر عاماً عند تعينه. ويلاحظ أنه فى حالة وجود وريث للعرش أو خلف للإمبراطور، فإن السلطة تتم بصورة آليه إلى من يليه فى الأسبقية. وبذلك يضمن الإمبراطور فى توطيد قدم الأسرة الحاكمة التى يتوقف دوامها على كفاءة من يتولى السلطة بعده

وكان على الإمبراطور أن يتوج رسميا ليصبح إمبراطور، وهى شعيره حرص البيزنطيون على أدائها. فقد كان هذا التتويج يضفى على سلطته إقرارا دينيا، وأنه أصبح من حقه أن يؤدى عمله بوصفه نائب الله على الأرض. والحقيقة أن فكرة التتويج هذه فكرة شرقية نقلوها البيزنطيون عن الفرس حيث كان كبير الكهنه يتوج الحاكم الفارسي، وأصبح بطريرك الإمبراطورية هو الذى يتوج الإمبراطور، وإن انعدم ذلك فى حالات قليلة. ويلاحظ أن البطريرك أصبح بعد مرحلة ما، يقوم بتتويج الإمبراطور بصفته أبرز مواطنا فى الإمبراطورية لا بصفته رجل دين.

وفيما يتعلق بعملية التتويج فقد كان الإمبراطور الأصلى يقوم بتتويج الإمبراطور المشارك، وفى هذه الحالة يحضر بطريرك الإمبراطورية حفل

التتويج خاصة إذا كان الإمبراطور الأصلى لم يصل بعد إلى سن الرشد. وربما يقوم الإمبراطور بهذه المناسبة بمنح بعض الامتيازات للبطريرك. وربما يطالب رجال الدين قبل عملية التتويج أن يشاركوا فيها ببعض الضوابط التى تتعلق بالكنيسة. ومن ذلك أن البطريرك كان يشك فى عقيدة الإمبراطور أنستاس الأول Anastasius I (٤٩١ - ٥١٨م)، فطالبه بالمحافظة على النظم المعمول بها بالكنائس البيزنطية، والا ينزل أى عقاب بأعدائه السابقين. وفى المرحلة الأخيرة من عصر الإمبراطورية خاصة فى عصر أسرة باليولوجس كان هناك قسم عند تتويج الإمبراطور، فكان عليه أن يراعى ما تقرره المجالس الكنسية العامة، والحافظ على شعائر الكنيسة، وأن يحكم بالعدل ويعارض ما تعارضه الكنيسة.

وكانت عملية التتويج تتم في الهبدروم حتى إذا كان القرن السابع كان التتويج يتم فى كنيسة آيا صوفيا. ويسجل لنا المؤرخ ثيوفانيس كيف قام الإمبراطور ليو الرابع Leo IV (٧٧٥ - ٧٨٠م) بتتويج ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧م) فيما بعد. فقد كتب ثيوفانيس أنه فى يوم الجمعة الحزينه لعام ٧٧٦ (يوافق ٢٢ أبريل) تم الاستعداد لعملية تتويج ابنه قسطنطين، واستغل ما فى خزانة الدولة من أموال خلفها له والده ووزعها بسخاء على الجيش وشعب القسطنطينية، وبدا للبعض أنه رجل ورع وأنه قريب من الله والرهبان، وقام بتعيين العديد من رجال الدين والرهبان، واستدعى الكثير من قوات الولايات لتقوية الحرس الإمبراطورى، وقد دخل قادة هذه الألوية إلى العاصمة وطلبوا من الإمبراطور ليو الرابع أن يعين ابنه فى مركز شريك للإمبراطور. وقال ليو: أنه أبنى الوحيد وأننى أخشى أن تحل بى كارثة وأن هذا الأبن صغير السن، وربما يقتل ويختار غيره ليكون إمبراطورا، ولكن القادة أقسموا له أنه سيصبح هو الإمبراطور طالما بقى حيا.

ولما كان هذا الجمع موجوداً في الهبدروم في الفترة من أحد الزعف حتى يوم الثلاثاء الذي يليه، فقد طلب من كل الحاضرين وهم أعضاء السناتو وقادة الألوية والحرس الإمبراطوري وبطريرك الإمبراطورية أن يقسموا له على ذلك. وفي يوم السبت (٢٣ أبريل) اتجه الإمبراطور وابنه القاصر قسطنطين إلى كنيسة آيا صوفيا كما هو متبع في مثل هذه المناسبات وبدل ملابسه وصعد منبر الكنيسة ومعه ابنه والبطريرك، وقال ليو لقد وفيت بما وعدت وأنني أقدم لكم أبني ليكون إمبراطوراً، وتقبل ليو ابنه من الكنيسة كما لو تقبله من يد السيد المسيح. وهنا صاح الجميع بصوت عال، لقد رضينا بابنك قسطنطين إمبراطوراً وسوف ندافع عنه حتى الموت. وفي اليوم الثاني وكان يوافق يوم عيد القيامة المجيد الموافق الرابع والعشرين من أبريل ٧٧٦م، ومع بزوغ فجر هذا اليوم ذهب البطريرك إلى الهبدروم حيث كان يجتمع الناس، فأقيمت مراسم التتويج بعد الصلاة. قد سجل الإمبراطور قسطنطين السابع هذه الإجراءات في كتابه المراسم، وهي التي ظلت متبعه حتى نهاية عصر الإمبراطورية، وربما أضيف إليها تعديلات بسيطة مثل مسح رأس الإمبراطور بالزيت.

ومع هذه المراسم كان الشعب البيزنطي يشعر بأن عملية التتويج هذه تمنح الإمبراطور مكانة علوية مثل الله، وتجعل منه نائباً له. ورغم أن البطريرك هو الذي كان يتوج الإمبراطور في كثير من الأحيان إلا أن الإمبراطور كان يشعر بأنه على رأس الكنيسة البيزنطية.

ولم تكن رئاسة الإمبراطور للبطريرك مسألة شرفيه، فقد مارس الإمبراطور هذا الحق، كما أن الأباطره البيزنطيين هم الذين كانوا يعينون البطريرك في منصبه، يضاف إلى ذلك البابا في روما ظل يحصل على موافقة الإمبراطور الغربي أو نائب الإمبراطور في مدينة رافنا Ravena حتى يصبح

بابا. ومن ذلك أن الإمبراطور ليو الأبسورى كان يرى أنه إمبراطور وكاهن وأنه نائب الله على الأرض المأمور أن يطعم الرعية كما أطعم القديس بطرس الرسول قطيعة. وإمعانا فى ذلك كان يقص أو يحلق شعر ولى العهد، كأن يراد به أن يكون أحد رجال الدين.

ورغم هذا كله والمكانة السامية والدينية التى يتبوأها الإمبراطور فإن الشعب كان لا يزال صاحب الكلمة العليا في انتخاب الإمبراطور وعزله إذا تطلب الأمر، لذلك كان على الإمبراطور أن يحافظ على مكانته. فكان من مراسم مقابلة الإمبراطور أن ينبطح الزائر أمامه بما فيهم السفراء الأجانب، يضاف إلى ذلك أن التعامل مع الإمبراطور كان يتم من خلال مراسم معقدة لتزيد من هيبة ومكانة الإمبراطور. وكان الإمبراطور يشرف بنفسه على هذه المراسم بصفته رئيساً للإمبراطورية والكنيسة. وكان عليه أيضا أن يكون فى أتم صحة ونشاط.

ومن هذه الصفات الجسمانية، كان لا يجوز أن يعين الخصيان فى منصب الإمبراطور، كما يجب على الإمبراطور أن يكون مكتمل الحواس فلا يجوز للضرير أن يتولى هذا المنصب، وكثيراً ما تم سمل أعين البعض حتى لا يصلوا إلى هذا المنصب أو يعودوا إليه أن كانوا أباطرة سابقين. ومن هذه الحالات ما حدث مع الإمبراطور قسطنطين السادس بعد ما سملت والدته إيرين عينيه ليظل على هامش الحياة. وربما يكون الإمبراطور قاصرا، وفى هذه الحالة يعين عليه مجلس وصاية أو وصى واحد مثلما حدث مع الإمبراطور قسطنطين السابع.

وفيما يتعلق بتولى المرأة عرش الإمبراطورية، فلم يكن هناك مانع دستورى يحول دون ذلك. ولكن الشعب البيزنطى كان يرى أن مثل هذا

المنصب فوق إحتمال النساء، خاصة أن المرأة لا تستطيع أن تكون قائدا أعلى للقوات المسلحة، أو تكون فى منصب البطريرك. ورغم هذا فقد كان بعض النساء قد تولين السلطة كاملة مثلما حدث مع الإمبراطورة إيرين بعد أن خلا لها العرش بعد سمل عينى ولدها ونفيه، وبذلك تقرر مبدأ أن الإمبراطور ليست بالضرورة أن تكون زوجة الإمبراطور.

أما زوجات الأباطرة فقد كان الأمر يتطلب تتويجهن فى القصر وليس فى الكنيسة ما لم تتوج مع الإمبراطور فى حفل تتويجه. ومن المبادئ التى سادت الإمبراطورية أن تصبح زوجة الإمبراطور، إمبراطورة. كما يجوز للإمبراطور أن يتوج أخته كما فعل الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى عندما توج بولكريا Pulcheria فى عام ٤١٤م. كما أن الإمبراطور الكسيوس الأول كومنيين (١٠٨١ - ١١١٨م) قد توجه والدته إمبراطورة.

وكان تتويج الإمبراطورة سواء مع زوجها عند تعينه، أو بعد ذلك عند زواجها فأن هذا التتويج قد يعطى لها جانبا فى الولاية والسيادة. ومن ذلك أن الإمبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور جستنيان الأول كانت تحضر بعض مجالس الدولة، وكان لها موقف شهير مع زوجها عندما حاول الفرار هربا من ثورة نيقه. وتتضح سلطة الإمبراطورة بوضوح إذا ما أصبحت وصية على ولدها إن كان قاصرا، ففى هذه الحالة يكون للإمبراطورة الوالدة كافة الولاية والسيادة والإدارة، وهناك حالات أخرى أصبحت فيها الإمبراطورة الزوجة هى صاحبة الكلمة العليا، ومن ذلك أن الإمبراطورة صوفيا Sofia زوجة الإمبراطور جستين الثانى (٥٦٥ - ٥٧٨م) قد قامت بتصريف أمور الدولة عندما أصيب الإمبراطور بلوثة عقلية، وقد عاونها طيبريوس Tiberius قائد الحرس الإمبراطورى وابن جستين بالتبنى، وقد منح لقب قيصر وظل حتى مات الإمبراطور جستين فأصبح هو إمبراطورا (٥٧٨ - ٥٨٢م).

والدارس لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية يرى أن الإمبراطورة الأم كانت لها الوصاية – كاملة أو جزء منها إن شاركها مجلس وصاية – مدى حياتها على ابنها القاصر. وفى بعض الأحيان لم يكن على العرش إمبراطورا، ولم تختار الأم أحدا، ومن ذلك أن أيرين ظلت تحكم بمفردها بعد أن خلعت أبنها من عرش الإمبراطورية وسملت عينيه، ورغم أن هذا الحدث كان بدعه، إلا أن هذا التصرف لم يلق أية معارضة دستورية، وسجلت الوثائق الرسمية "إيرين الإمبراطور" بالتذكير لا بالتأنيث.

وكانت السلطات الدستورية التى لها حق انتخاب الإمبراطور، وهى السناتو والجيش والشعب تلعب دوراً هاماً بشكل أو بآخر عند انتخاب الإمبراطور، فقد كان للجيش بالضرورة دور فعال إلى حد كبير، كما كان للسناتو حقوقاً قديمه وأن كانت من الوجهه النظرية، لذلك كان له وجود من وقت لآخر، أما الشعب فقد كان يخشى بأسه وكان له صدى معلوم. وفوق هؤلاء يأتى القانون الذى كان على الجميع احترامه.

أما فيما يتعلق بمجلس السناتو فى العاصمة البيزنطية، فلم يكن له فى يوم ما كان لقوة مجلس السناتو الذى كان فى روما، وليس معنى ذلك أنه أصبح غير فعال بل أنه بلغ أوج ازدهاره فى القرنين السادس والسابع. وكان مجلس سناتو الإمبراطورية البيزنطية أقل احتراماً فى نفوس الشعب البيزنطي. وكان هذا المجلس يتكون من جميع من هم فى مستوى عال من أرباب الوظائف والرتب الحاليين والسابقين أو أولادهم. وفيما يتعلق بسلطات هذا المجلس، فلم تكن محددة، وكانوا يمنحون بعض المزايا والحقوق. والحقيقة أن هذا المجلس كان عبارة عن هيئة شبه دستورية تعبر عن آراء علية القوم. وقد تتجلى سلطة هذا المجلس إن كان مركز الإمبراطور ضعيفاً مثلما كان الحال مع الإمبراطور جستين الثانى عندما أصيب بالجنون. وعندما يكون لمجلس

السناتو دوراً فى تعين إمبراطور تكون له الكلمة العليا، وعلى الإمبراطور الذى جاء من خلاله أن يعامله باحترام.

وفى عام ٦١٤م اتجهت بعثة إمبراطورية إلى الإمبراطور الفارسى باسم السناتو حتى تكون مكانتها أعلى من البعثة التى يرسلها الإمبراطور، ويحدثنا المؤرخ ثيوفانيس، أنه فى عام ٦١٤م استولى الفرس على مدينة دمشق وأخذوا العديد من الأسرى، فأرسلت بعثه بيزنطية إلي الملك الفارسى لوقف سفك الدماء، وأن تدفع الإمبراطورية البيزنطية الجزية ويتم توقيع معاهدة للسلام، ولكن الإمبراطور الفارسى أعاد السفراء دون أن يحقق رغبتهم لأنه قد عقد الأمل على هزيمة الإمبراطورية البيزنطية.

ويسجل لنا المؤرخ ثيوفانيس أيضاً أنه فى عام ٦٤٣م أن الإمبراطور قنسطانز الثانى Constans II (٦٤٢ - ٦٦٨م) شكر مجلس السناتو على مساندته له ضد زوجة جدة هرقل، وكانت تدعى مارتينا Martina، وطلب من المجلس إمداده بالنصائح لصالح الرعيه، ثم وزع عليهم الهدايا العديدة.

وإذا كان مجلس السناتو كانت له كلمة فى هذه المرحلة، فأنه فى مراحل أخرى نراه وقد انخفض صوته أو ربما انعدم. ومن ذلك أن الإمبراطور جستنيان قد عامله بقسوه، كما أن ليو الأيسورى كان لا يسمح بتدخل مجلس السناتو فى شئونه، أما ليو السادس فقد أصدر مجموعة من التشريعات، وبذلك عطل الحقوق القديمة لمجلس السناتو. ورغم ذلك ظل مجلس السناتو قائماً كهيئة، يمكن للإمبراطور استدعاءها إذا لزم الأمر. ولكن أهميته السياسية لم ترتفع مرة أخرى، لأن الارستقراطية العسكرية هى التى توصلت فى القرن الحادى عشر إلى سدة الحكم، وكانت تعتمد على الجيش أكثر من أية جهه أخرى.

أما فيما يتعلق بالشعب ودوره فى الجانب الدستورى، فالأمر هنا ينصب على شعب القسطنطينية، وواقع الحال أن العاصمة كانت تنقسم إلى أربعة أحياء تسمى ديماس Demas. وكان لكل من الأحياء لون يميزه عن الآخرين. فكان يوجد اللون الأزرق والأخضر والأبيض والأحمر. ثم تحولت إلى أحزاب، ويرجع ذلك إلى رياضة سباق الخيل الذى كان يقام فى الهبدروم، وفى هذا المكان أهتم سكان العاصمة بالسباق وتحمسوا له. وكان سائقو العربات يرتدون لون الحى الذى يشجعهم، فأنقسم المشجعون إلى أربعة أقسام وأصبح شعار كل قسم أو حزب اللون الذى يشجعه. وقد قام كل حزب بجمع التبرعات والاشتراكات للعناية بالفرسان وشراء الجياد. ومع مرور الوقت انقلب التضامن الرياضى إلى تضامن اجتماعى، وانضم البيض إلى الخضر، كما انضم الحمر إلى الزرق، وأصبح فى العاصمة حزبان كبيران هما الخضر والزرق. ثم انقلب هذا التضامن إلى الناحية الدينية فساند حزب الزرق المذهب الأرثوذكسى، كما ساند حزب الخضر القول بالطبيعة الواحدة.

لقد أصبحت هذه الأقسام التى تحولت إلى أحزاب هى الهيئات التى تعبر عن رأى المدينة، وقد وصلت من القوة لدرجة معارضة الأباطرة وتهديد أمن الدولة. ومن حظ الحظ أن الخضر والزرق كانا لهما آراء متباينه، ومن أجل ذلك كان من الأيسر على الأباطرة الانحياز لفريق ضد الآخر: وفى عهد الإمبراطور أناستاس Anastasius (٤٩١ - ٥١٨م) حل بالزرق اضطهاد شديد لأن هذا الإمبراطور كان يميل إلى القول بالطبيعة الواحدة. وعند هذه المرحلة اتجه الزرق إلى الهبدروم ونادوا بسقوط الإمبراطور، ولكن الهبدروم الإمبراطور عالج الأمر بكل حكمه.

وفى عام ٥٣٢م قام الإمبراطور جستنيان الأول بفرض ضرائب فادحة فاتحد الجميع عليه وقامت ثورة نيفا، وعولج الأمر بالقوة العسكرية.

وعندما اعتلى الايسوريون العرش أى مع بداية عصر الإمبراطور ليو الثالث صارت هذه الأحزاب أسماء فقط تستخدم فى تمثيل أحياء القسطنطينية فى الحفلات الرسمية، ومع إضمحلال هذه الأحياء فقد أهل القسطنطينية سلطتهم الدستورية.

وبعد السناتو وشعب القسطنطينية يأتى القانون، فبعد أن تم السيطرة على مجلس السناتو ووضعه فى زوايا الأهمال، وشعب القسطنطينية الذى اقتصر عمله على حضور الحفلات، لم يعد غير القانون، ورغم أن الإمبراطور كان مصدر كل القوانين إلا أن هذا القانون ظل أعلى من الإمبراطور نفسه. ولا عجب فى ذلك فإن مجلس الشعب فى مصر هو المشرع لكل القوانين ورغم ذلك فإن سلطة القانون تعلو سلطة رئيس مجلس الشعب أو أى عضو آخر. ومن هنا كان حرص الأباطرة على مراعاة تنفيذ القانون. كما أن الإمبراطور ليو الأيسورى وضع أمام عينه ثلاثة أمور هامة، هى الكتب المقدسة أى التوراه والانجيل، وقرارات المجامع الدينية، مثل مجمع نيقيه وغيره، وأخير القانون.

أما فيما يتعلق بتعديل القوانين أو الإضافة إليها، أود أن أقول أن القانون البيزنطى هو القانون الرومانى نفسه ثم أدخلت عليه إضافات وتعديلات حتى يسير بروح الديانة المسيحية لا بروح الديانية الوثنيه كما كان الحال فى القانون الرومانى. وفيما يتعلق بالتعديل فأنه مع إرهاصات الاعتراف بالديانة المسيحية، وفى حوالى عام ٣٠٠م قام المشرع جريجوريان Gregorian بتجميع التشريعات الرومانية منذ بداية عهد الإمبراطور Hadrian (١١٧ - ١٣٨م) حتى عام ٣٠٠م، وجاء بعده المشرع هرموجونيان Hermogonian وجمع التشريعات الصادرة من عام ٢٩٦ إلى ٣٢٤م. ويلاحظ هنا أن التوراه

والانجيل لم يكن لهما دخل فى هذا التشريع لأن المسيحية لم يعترف بها دينا رسمياً للإمبراطورية إلا فى مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م.

وفى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠م)، وبالتحديد فى عام ٤٢٩م أعطى الإمبراطور تعليماته بإعداد قانون يسير على نهج المشرعين السابقين، وقد عُهد إلىٰ تسعة شخصيات قانونية للقيام بهذا العمل من بينهم أبلس Apells الاستاذ فى الجامعة التى انشأها ثيودوسيوس الثانى وتم افتتاحها فى السابع والعشرين من فبراير عام ٤٢٥م لمنافسة جامعة الإسكندرية وجامعة أثينا. وقد تم الانتهاء من هذا العمل القانونى وطبعه بعد تسع سنوات مات خلالها بعض أعضاء اللجنه، ولم يشر عند طبعه إلا إلى اثنين فقط هما أنتيوخس Antiochus وثيودورس Theodorus. وقد تضمن هذا التشريع حوالى ستين مادة قانونية. ورغم هذا الجهد الكبير إلا أن هذه التشريعات لم تُدخل الجديدِ بدرجة ملحوظة على القانون الرومانى القديم.

ويأتى الإمبراطور جستنيان الأول بعد ثيودوسيوس، ويدخل بكثير من القوانين التى أصبح بعضها جديداً على القانون الرومانى، فقد وجد أنه من الصواب إعادة تنظيم مجموعة القوانين كلها. ولجأ الإمبراطور إلى أحد كبار رجال القانون - وكان يتولى منصب الكويستر فى العاصمة فيما بعد - يدعى تريبونيان Tribonian وكان وثنيا، ووضعه على رأس لجنة من عشرة من رجال القانون ليساعده فى هذا العمل كان من بينهم ثيوفيلوس Theophilus الاستاذ الشهير للقانون بجامعة القسطنطينية. وقد تم إنجاز هذا القانون فى مدة وجيزة وصدر فى السابع من إبريل عام ٥٢٩م. وبعد ذلك عين الإمبراطور ستة عشر من رجال القانون ليجمعوا من كل مؤلفات القانون الرومانى ما يتمشى مع روح عصره وتكون ذات نفع للمواطنين. وبذلك يمكن جمع آراء كافة رجال القانون الثقاة الذين قامت عليهم الإمبراطورية الرومانية. وقد صدر

هذا المؤلف المسمى بالموجز Digest فى عام ٥٣٣م وقد ظل هذا الأخير المرجع الأول فى جميع المسائل القانونية داخل الإمبراطورية كما عملت به معظم الدول الأوربية، وكان هو القاعدة الأولى لكل القوانين فى أوربا بعد ذلك. وفى العام الثانى ٥٣٤م طبعت نسخه جديدة ومنقحة من أعمال الإمبراطور القانونية. ومنذ عام ٥٣٤م حتى نهاية حكمه فى عام ٥٦٥م نشرت سلسلة كبيرة من القوانين التكميلية عرفت باسم القوانين المستجدة أو المتجددات Novellae. وعلى ذلك يمكن القول أن الكثير من التعديلات أدخلت على القانونى الرومانى حتى أصبح فى نهاية حكم جسيتنيان منقحاً ومسايراً لتلك المرحلة.

وواقع الحال أن القوانين التى صدرت فى عهد الإمبراطور جسيتنيان سواء أكانت قانوناً مدنياً أم جنائياً، لم تتعد القانون الرومانى نفسه، وكان الأمل أن يكون قد تمشى مع الروح الدينية التى سادت الإمبراطورية، ولكننا نجد أن العبودية أى الرق والطلاق ظلا يعمل بهما فى قوانين جسيتنيان رغم تحريم الكنيسة لهما. والحقيقة أن الإمبراطور جسيتنيان وضع نصب عينيه فى تعديل القوانين أو إصدارها ثلاثة مبادئ هامة، وهى ١- الإنسانية، ٢- سداد البديهة، ٣- المنفعة العامة. وقد أعطى الإمبراطور جانباً كبيراً من الإنسانية إلى مجموعة قوانينه، لذلك ألغى حق تسليم الأبن أو الأبنة نظير ما يلحق من ضرر بالآخرين. وكان هذا القانون يبيح للوالدين تسليم أطفالهم لمواطن آخر مقابل ما ألحقوه به من ضرر. كما أنه زاد من حقوق المرأة مثل الحصول من زوجها على أملاك تعادل صداقها فى حالة وفاته، وشرع للأرملة الوصاية على أطفالها. وقد عمل الإمبراطور على زيادة الثقافة القانونية للمواطنين، فعمل على إصلاح مدارس الحقوق وأعاد فتح هذا النوع من المدارس الذى

كان قد أغلق، واهتم بتعليم القانون فى جامعات القسطنطينية وبيروت، وبعد الفتوحات الإسلامية اقتصر ذلك على جامعات العاصمة.

ورغم أى نقد يوجه لقوانين جسيتنيان، فإنه كان يهدف أن يصل بالقوانين إلى مرحلة الكمال وأن تكون سهلة وميسرة للجميع لا غموض فيها بحيث لا تحتاج إلى أى تفسير أو تعقيب. وهناك مؤلفات أخرى صدرت بعد جستينيان لقصور فى بعض قوانين جستينيان، ولكن القانون المدنى ظل باقياً طوال قرنين من الزمان ثم تعرض لبعض التعديلات فى عهد الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ - ٧٤١م).

وقد تمثلت السياسة الداخلية للإمبراطور ليو في موضوعين رئيسيين؛ أولهما الإصلاحات الداخلية التى تمثلت في إصدار القوانين التشريعية، وثانيهما الصراع اللاأيقوني. وما يهمنا في هذا الموضع ما يتعلق بالمجال الأول. لقد إرتبط إسم ليو بمجموعة التشريعات المعروفة باسم إيكلوجا Ecloga أي المختارات القانونية، وهذه المختارات مستوحاة من قوانين جستينيان، وإن كانت قد إختلفت عنها بعض الشئ، فنجد تشريعات ليو إستبدلت عقوبة الإعدام إلى الإقتصاص العضوي، مثل: قطع اللسان وبتر الذراع وسمل الأعين وصلم الأذن وما إلى ذلك. والإيكلوجا مقسمة إلى ثمانية عشر فصلاً، فمنها القوانين الجزئية والمدنية، وكانت تعتبر أفضل مرجع للقضاء يمكن الرجوع إليه. ومن العوامل التي سهلت إستخدامها وتطبيقها بسهولة، فهمها من ناحية اللغة والصياغة، كما أنها في مجموعها لم تكن جديدة عليهم، فهي تعتمد على قوانين جستينيان. وقوانين جستينيان مرتكزة على قوانين ثيودوسيوس، أي أن فحوى هذه القوانين كان معروفاً منذ أكثر من قرنين. ولم تشذ قوانين ليو عن ما هو مألوف لدى البيزنطيين فيما يختص بالأسرة والزواج والميراث والوصاية على الأطفال. ورغم هذا كله فقد لقيت

قوانين ليو معارضة وكراهية من الشعب البيزنطي لأنها صادرة من إمبراطور اعتبروه مهرطقا، لمعارضته عبادة الأيقونات.

وإذا ألقينا نظرة سريعة على الإيكلوجا، نجد أنها تمثل نظرة متقدمة عن المألوف في مجتمع العصور الوسطى المبكر. فلم يكن الزواج فيها مجرد خضوع الزوجة لسلطان الزوج بل كانت الحقوق والممتلكات شركة بين الزوجين، كما وضعت الأم فيما يتعلق بالأطفال في موضع مساو للرجل، وأصبح لها حق الوصاية على أطفالها بعد وفاة زوجها، وفي حالة وفاة الوالدين تكون الوصاية للدولة ويخسر الطفل ميراث والديه لو ساء السلوك. وإذا كان هذا ما يتعلق بالأسرة فإن القوانين أيضا تناولت المجتمع ككل، وتضمنت النص في مستهل نصوصها القضاء على الرشوة والفساد وضرورة دفع المرتبات للموظفين من أكبرهم حتى أصغرهم.

وصدرت بقية القوانين في ثلاث مجموعات الأولى وتعرف بالقانون الزراعي Rural Code والثانية تختص بالقانون البحري Nautical Code والثالثة تتعلق بالقانون العسكري Military Code. والقوانين الزراعية خاصة بالأرض الزراعية والماشية وملكيات الأراضي الصغيرة لصغار الفلاحين. وكان الهدف من إصدار هذا القانون حماية صغار الملاك والحد من استعمال السخرة، والحد أيضاً من التوسع في الأراضي على حساب صغار الفلاحين. كما تضمن هذا القانون العقوبات المتعلقة بسرقة الماشية والحاصلات الزراعية والإعتداء على المراعي ومشارب المياه وسرقة الغابات. وعلى ذلك يمكن القول أن أحوال صغار الفلاحين قد تحسنت على عهد ليو. أما عن القانون البحري فقد تضمنت نصوصه بعض المواد التي شجعت على إنشاء الأساطيل التجارية لإنعاش التجارة البحرية. أما القانون العسكري فكان مرجعه إلى أن ليو عندما تولى حكم البلاد وجد جيشه اعتاد على الثورة والتمرد، فنص في

هذا القانون على الطاعة واستقرار الجيوش حتى يضمن قوة عسكرية ثابتة تدين للعرش بالولاء والطاعة.

ولعل في مجموع هذه القوانين ما عمل على استقرار الدولة عن ذي قبل، وإلى انتعاش خزانتها ودعم أركانها داخليا وخارجيا، وازدهار المصنوعات الداخلية مثل العاج والطرز والحرير، وتمكنت الإمبراطورية البيزنطية من السيطرة على التجارة الآتية من الشمال إلى الجنوب عبر منافذها، الأمر الذي عاد عليها بالربح الوفير. وأصبحت مدينة طرابيزون Trebizond والبحر الأسود منفذين رئيسيين للتجارة الآتية من الشرق الأقصى ومن ناحية الغرب، ولم تعد التجارة حكرا على تجار الشام أم المصريين أو اليونانيين أو غيرهم من سكان حوض البحر المتوسط كالبندقية Venice وأمالفي Amalfi. ويأتى بعد ذلك التشريعات التى وضعها الإمبراطور بازيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦م).

وبالرغم من أن الأمبراطور بازيل الأول، كان في الأصل فقيرا وضيع النسب، فقد كان يحمل في نفسه إعجابا شديدا بالحضارة اليونانية وفكرة الإمبراطورية الرومانية والقانون الروماني. وفي أثناء عهده إستمرت الموجه الثقافية الكبيرة التي بدأت في عهد ثيوكتيستوس Theoctistus وظهر نشاطه بشكل قوي كرجل دولة مؤمنا بفكرة الإمبراطورية الرومانية، فهو أول حاكم بيزنطي منذ زوال أسرة هرقل، ينتهج سياسية نشطة في إيطاليا. ولكن شهرته العظيمة تكمن في إنجازاته التشريعية وفي مراجعة القانون الروماني. فهو الذي خطط لوضع مجموعة شاملة. ومراجعة لكتب جستينيان في القانون التي نشرت باليونانية، وكانت تحتوي بالإضافة إلى ذلك ملاحق من القانون الجديد.

وهذا العمل العظيم، وصفه الإمبراطور بعنوان "تصحيح وتنقية القانون القديم" يبدو أنه لم يكتمل، ولكنه شكل القاعدة التي اعتمد عليها ليو السادس بعد ذلك، واعتبر الحجر الأساس للباسيلكا Basilica. وقد وصلنا كتابان صغيران للقانون اللذين اعتبرهما بازيل الأول مقدمة للعمل الكبير الذي أراد إنجازه. والأول هو القانون الميّسر Procheiron Momos، وقد نشر بإسم الأباطرة بازيل وقسطنطين وليو، وعلى هذا فهو يرجع إلى الفترة ما بين ٨٧٠ - ٨٧٩م. وهو يحتوي على مختارات مأخوذة من المجموعة الكبيرة للقوانين السائدة، والأكثر استعمالاً سواء في القانون المدني أو القانون العام، مرتبة تحت أربعين عنوان حتى يكون في أيدي الناس كتاباً عاماً في القانون. والغرض من القانون الميّسر كان مماثلاً للغرض من إيكلوجا ليو الثالث، التي كانت أيضاً كتاباً عملياً فى القانون للاستخدام العام، يلبي حاجة القضايا التي تقابلهم كل يوم.

والواقع أن الإمبراطور بازيل الأول، الذي حاول إحياء القانون الروماني، عمل على تبرئة نفسه من الإمبراطور ليو الثالث اللاأيقوني، الذي وصفه بأنه "محطم القوانين الجيدة". وبالرغم من الهجوم القاسي على الايكلوجا، فقد أخذ عنها القانون الميّسر خاصة في الجزء الثاني منها الذي يختص بقوانين المواريث والقانون العام. وانتشر القانون الميّسر إنتشاراً واسعاً في بيزنطة وظل محتفظاً بقيمته حتى انهيار الإمبراطورية. علاوة على ذلك فقد ترجم - مثل الايكلوجا - إلى اللغة السلافية في وقت مبكر، وكان له قيمة عظيمة في أعين البلغار والصرب والروس. وبالإضافة إلى هذا يوجد الإباناجوجه Epanagoge، وهو كتاب مختصر تم جمعه باسم الأباطرة بازيل وليو والسكندر، وقد وضع كمقدمة لمشروع مجموعة القوانين الكبيرة وهو ينتمي إلى الفترة ما بعد ٨٧٩م.

وتعد الإباناجوجه إلى حد كبير إعادة للقانون الميّسر ولكن بتنظيم جديد وبعض التغييرات الهامة. وتعتمد الإباناجوجة بشكل أكبر على الأيكلوجا، حيث إنها تأخذ منها قانون الزواج، بينما القانون الميّسر يعتمد على قوانين جستينيان في هذه الناحية، ولم تعتمد على الايكلوجا إلا في فصولها الأخيرة. ولكن الإباناجوجة علاوة على ذلك تحتوي على فصول مبتكرة تستحق الاهتمام، وذلك فيما يختص بحقوق وواجبات الإمبراطور، والبطريرك وغيرهما من المناصب العلمانية والدينية الكبيرة. وفُسر نظام الحكم في الإمبراطورية والكنيسة على أنه وحدة تتكون من وحدات وأعضاء كثيرين، يرأسها الإمبراطور والبطريرك كأعلى سلطتين في العالم، وواجبهما أن يعملا معاً في التحام تام وانسجام من أجل خير الإنسانية. ووضعت وظيفة السلطتين بمساواة تامة: فالعاهل المدني عليه أن يعمل على رخاء رعاياه ورفع مستواهم المادي، والعاهل الديني مهمته تحقيق سعادتهم الروحية. ومما لا شك فيه أن صاحب هذه النظرية في الحكم الثنائي هو البطريرك فوتيوس، الذي عاد إلى منصبه. وهذا يفسر حقيقة أن الإباناجوجة تنتهج علاقة مثالية بين السلطتين الدينية والدنيوية متمشية مع الأفكار السائدة في دوائر الكنيسة الأرثوذكسية. ويأتي بعد ذلك التشريعات التى وضعها الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م).

والعمل الذي له أهمية تاريخية كبيرة فى عهد ليو السادس، فهو التشريعات العظيمة، وهي التي أظهرته من أعظم واضعي القوانين وأغزرهم إنتاجاً منذ عهد جستينيان. ومع ذلك فمن الخطأ المبالغة في تقدير مشاركة ليو بنفسه في هذا العمل، رغم أنه مما لا شك فيه أن ثقافته واجتهاده كمؤلف كانت من عوامل إتمامه. وكما ذكرنا آنفاً، فإن الإعداد لهذا العمل يرجع إلى عهد والده، كذلك يجب أيضاً ملاحظة أن أعظم فترة من النشاط التشريعي تقع في

العشر سنوات الأولى من عهده، أي من الفترة التي كان فيها ستليانوس Stylianus بجانبه كمستشار له. وبمقارنة هذه الفترة من حكمه، فإن الجزء الثاني كان أقل في إنجازاته. وبالرغم من النفور العميق الذي ساد بين الأب وأبنه - بازيل وليو - وبالرغم من التفاوت الكبير في طبيعة كل منهما، فإن أهداف ليو السادس كانت مماثلة تماما لأهداف بازيل. ومراجعة بازيل لقوانين جستينيان أكملها ليو السادس في الأوامر الإمبراطورية Basilica

والقوانين الإمبراطورية للإمبراطور ليو الحكيم - والمقسّمة إلى ستين فصلا- تمثل ستة أجزاء، تشكل أكبر مجموعة للقوانين في الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى. وقد عهد بإعدادها إلى مجموعة من المحامين برئاسة سيمباتيوس Symbatius ونشرت في السنوات الأولى من حكم ليو السادس، وهي نفسها برهان على أنها تنقية للعمل الأول الذي قام به ليو السادس؛ ووضع في صورته النهائية في العمل الذي قام به ليو السادس.

والأوامر الإمبراطورية للإمبراطور، عبارة عن مجموعة لقوانين الكنيسة كما هي للقانون المدني والعام. وتعتمد الباسيليكا على قوانين جستينيان والمختارات. وهي أقل اعتمادا على متجددات Novels جستينيان، وأخيرا تعتمد على الأوامر الإمبراطورية بشكل ملحوظ وعلى القانون الميّسر. ولم يشر علماء القانون في عهد ليو السادس - كما في عهد بازيل، إلى المصادر اللاتينية، إلا بالقدر اليسير، مستعملين بدلا منها الترجمات اليونانية والتعليقات التي ترجع إلى القرنين السادس والسابع.

وبالمقارنة بمجموعة القوانين المدنية لجستينيان Corpus Juris، بالباسيليكا، نجد ميزة كبيرة لصالح البيزنطيين حيث إنها مكتوبة باليونانية، كما أنها كانت عملية وسهلة التطبيق. ذلك أن كل مواد القانون جمعت في عمل

واحد ونظمت تنظيماً دقيقاً منهجياً. بينما تناولت مجموعة جستنيان الموضوع الواحد في أكثر من موضع، وأوضحت الباسيليكا في تعليقها أن ذلك هو أكبر أخطاء مجموعة جستينيان. ولهذا فإننا لا نعجب إذا كانت الباسيليكا قد أبعدت مجموعة جستينيان عن الاستعمال وأصبحت منذ ذلك الحين المرجع في دراسة القانون في الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطى. وسرعان ما أضيف إلى النص العديد من الشروح، أهمها ما يسمى الشروح القديمة (Old Commentaries) التي ترجع إلى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. وقيمتها الأساسية ترجع إلى أنها تعطينا معلومات عن محتويات الأجزاء كلها التي لم تصل إلى أيدينا.

وبالإضافة إلى الباسيليكا هناك مجموعة (لائحة) من ١١٣ مادة تنسب إلى ليو السادس تسمى المتجددات Novels. وفي الواقع أن متجددات ليو السادس تعتمد اعتماداً تاماً على متجددات جستينيان، حتي في الشكل والتنظيم. ومهما كان الأمر، فإن الترجمة الحرفية لعنوان المجموعة هي: تنقيح وتنقية القوانين القديمة، وهو ما يلفت النظر مرة أخرى إلى الارتباط القوي بين العمل التشريعي لليو السادس والعمل التشريعي لأبيه بازيل الأول. وتتناول متجددات ليو السادس عدداً كبيراً ومختلفاً من الموضوعات، والتي يبدو أنها تأتي متتابعة دون منهج معين، وتلغي لأسباب مقنعة، القوانين القديمة مع التأكيد على قوة القانون الملزمة.

ومما يستحق الذكر بشكل خاص في متجددات ليو السادس أنها ألغت الحقوق القديمة لمجلس البلاط ومجلس الشيوخ. وعلى أية حال فقد سقطت حقوق مجلس البلاط منذ وقت طويل وصارت لا توجد إلاّ على الورق فقط. على أن إلغاءها نهائياً بقانون يشكل أهمية كبيرة خاصة بعد أن تقرر أمرها في المتجددات الثلاثة، على أساس أن السلطة المطلقة أصبحت في يد الحاكم.

وتشير تشريعات ليو السادس إلى مسألة تاريخية هامة بلغت ذروتها في هذه المرحلة، فقد وُضعت السلطة المطلقة في الإمبراطورية في أيدي الحاكم والبيروقراطية الإمبراطورية. إن سلطة الإمبراطور المطلقة ونقل حكم الإمبراطورية إلى البيروقراطية بلغ أوج اكتماله تحت حكم الأسرة المقدونية، أما السناتو الذي كان يتكوّن من كبار موظفي الإمبراطورية أصبح وجوده الآن صوريا، فهو لم يفقد وظائفه التشريعية والإدارية فقط، بل فقط أيضاً الأهمية التي اكتسبها في القرنين السابع والثامن الميلاديين.

ووضعت السلطة العليا في الدولة في يد الإمبراطور وجهازه الحربي والإداري. والإمبراطور مختار من الرب وهو في حماية العناية الإلهية المقدسة. فهو السيد الأعلى لحكومة الإمبراطورية، وهو القائد الأعلى للجيش، وهو القاضي الأعلى والمشرع الوحيد، وهو حامي الكنيسة وحارس العقيدة المسيحية، وهو صاحب قرار الحرب والسلام، وكلمته هي الأولى والأخيرة التي لا يمكن إلغاؤها، وتشريعاته تعتبر وحياً من الرب. والواقع، كان على الإمبراطور مراعاة القوانين الموجودة فعلاً، ولكن كان من سلطته إلغاء القوانين القديمة وإصدار قوانين جديدة، وهو لا يراعي في ذلك، إلاّ مطالب العدالة. وكرئيس أعلى للإمبراطورية كانت له سلطة مطلقة ولا يحدها سوى مبادئ الأخلاق والتقاليد. ولم تُحد سلطته المطلقة إلاّ في الشؤون الدينية فقط. ومهما كان نفوذه قوياً في الهيئات الكنسية، فهو ليس إلاّ رجل علماني، وعلى هذا فهو ليس إلاّ حام للكنيسة وليس رئيساً لها.

وكان للكنيسة رئيسها الخاص، وهو بطريرك القسطنطينية، وكانت سلطته ونفوذه مستمدة من السلف. وعلى كل حال، فقد كان الإمبراطور في الواقع هو الذي كان يعيّن البطريرك، وبسبب سلطته كمشرّع للقوانين كان

شريكاً في حكم الكنيسة. وله حق تعيين وعزل أصحاب المناصب العلمانية، ولكن عزل رؤساء الكنيسة، كان يتطلب موافقة رجال الدين.

وبرغم أنه كان من حق الإمبراطور تغيير القوانين التي وضعها سلفه، فإن الإمبراطور لم يكن يستطيع إلغاء أو تغيير قرارات المجامع الدينية. ومجلس الكنيسة هو أكبر محكمة للاستئناف في الكنيسة، وهو فقط المختص بحق إصدار القرارات المتصلة بالعقيدة. وكل ما يستطيع الإمبراطور عمله هو حماية العَقيدة الموجودة فعلاً. وبينما فقدت السلطات العلمانية - التي كانت في يوم ما رقيباً على سلطة الإمبراطور المطلقة - أهميتها السابقة، فإن سلطة الكنيسة كانت تتقدم وتقوى جنباً إلى جنب مع سلطة الإمبراطور.

ويلي بعد هذه التشريعات ما قدمه رومانوس الأول وقسطنطين السابع. وإذا كان الإمبراطور رومانس قد خطط على مستوى القصر والكنيسة ليكوّن أسرة حاكمة، فإنه قد خطط أيضاً على المستوى الاجتماعي لدعم نفوذه ونفوذ أولاده من بعده، وبدأ يعمل على حماية الإمبراطورية من خلال القوانين التي سنها لحماية صغار ملاك الأراضي الزراعية وضرب الأرستقراطية الزراعية التي تشكل قوة بالغة الخطورة على مركزه وعلى مركز أولاده من بعده، ومن جانب آخر فقد كان رومانوس ابن فلاح بسيط، ولعل ما تعرضت له أسرته وأمثالها من جور الإقطاعيين الزراعيين هو الذي جعله يقاوم نفوذ هذه الطبقة، ويعمل على إضعافها. هذا بالإضافة إلى أن الإمبراطورية كانت تواجه في هذه المرحلة مشكلة بالغة الخطورة أمتد أثرها إلى مركز الإمبراطور فيما بعد، وهي مشكلة شراء الأغنياء لأراضي الفقراء الذين ينزلون إلى مرتبة الاتباع للأرستقراطية الاقطاعية. ولم يقتصر أثر هذه المشكلة على زيادة نفوذ الاقطاعيين فحسب بل إلى موارد الإمبراطورية وقوتها العسكرية، لأن الإمبراطورية كانت تعتمد اقتصاديا وعسكرياً على الملاك الصغار وعلى

الأراضي التي تمنح للجنود، فالملاك الصغار يؤدون الضريبة للدولة، كما تمنح الأراضي للجنود في مقابل الخدمة العسكرية، ومعنى ذلك أن امتصاص الأغنياء للملكيات الصغيرة يؤدي بالتالي إلى ضعف الإمبراطورية اقتصاديا وعسكريا وسيطرة الأرستقراطية الزراعية.

والتفت رومانس إلى هذا الخطر الذي يهدد مركزه ومركز أولاده من بعده، وكانت خطوته في هذا السبيل إصداره لمجموعة قوانين جديدة Novels في عام ٩٢٢م، ونصت هذه المجموعة على إعادة حق الجيران في التملك بالشفعة، وهي قوانين كان ليو السادس قد أرسى قواعدها. وحول موضوع انتقال أراضي صغار الملاك سواء بالبيع أو الإيجار فإن القانون الجديد جعلها خمس طبقات يكون لها الحق بالترتيب في التملك أو الإيجار ليصعب انتقالها إلى أيدي كبار الملاك. فالطبقة الأولى هي الأقارب الذين يمتلكون أراض مجاورة للأرض المراد بيعها أو تأجيرها، والثانية هي الملاك المجاورون من غير الأقارب، والثالثة هي أصحاب الأراضي التي تتداخل مع الأراضي المراد بيعها أو إيجارها. أما الرابعة فهي ملاك الأراضي الذين يدفعون ضرائب مماثلة. أما الخامسة والأخيرة فهي طبقة الملاك الآخرين من أصحاب الأراضي المجاورة، واشترط القانون عدم انتقال الأرض بالبيع أو الإيجار إلا بعد عرضها على الطبقات الخمس أولا حسب ترتيبها.

والواضح أن الغرض من هذا القانون هو حماية صغار الملاك ومنع استمرار ذوبان الملكيات الصغيرة، لذلك كان الخارج على هذا القانون يرغم على إعادة الأراضي غير التابعة للجند إلى أصحابها دون تعويض، فضلاً عن تقديم غرامة مالية إلى خزانة الإمبراطورية. أما الملكيات التابعة للجند فكان على من اشتراها إعادتها إلى أصحابها دون تعويض ولا يدفع غرامة مالية.

ورغم وجاهة هذا القانون من الناحية النظرية، إلا أنه لم ينفذ كما ينبغي لعدة عوامل، منها أن شتاء عام ٩٢٧ - ٩٢٨م كان قاسي البرودة وطويلاً على غير العادة، وتسبب ذلك في انتشار المجاعة والوباء لقلة الحصول، وترتب على ذلك أن قدم الفلاحون الجائعون أراضيهم بثمن بخس لكبار الملاك، يضاف إلى ذلك أن الطبقات الخمس التي أصبح لها الحق في الشراء قبل طبقة الاقطاعيين، كانت طبقات فقيرة وليس بوسعها الإيجار أو الشراء، ومعنى ذلك أن القانون كان تجميداً للبيع أو الإيجار، ولكنه اهتز أمام أول أزمة اقتصادية حلت بالبلاد.

ويبدو أن كل هذه الأسباب لم تكن خافية على الإمبراطور رومانوس، لذلك اكتفى بتوجيه اللوم إلى الأغنياء لأنانيتهم وإن كان في اللوم قسوة ومرارة، وأصدر متجددات أخرى في عام ٩٣٤م، أي بعد المجاعة بست سنوات وزال أثرها. وأعلن في المتجددات الأخيرة عدم شرعية كل ما أخذه الأغنياء من صغار الملاك، وخفف من صرامة قانون عام ٩٢٢م وأمر برد جميع الأراضي التي دُفع في شرائها مبلغاً يقل عن نصف ثمنها الحقيقي إلى أصحابها دون تعويض، أما إذا كان ما دفع للأرض ثمناً عادلاً، فتعاد الأرض إلى صاحبها الذي عليه رد ما دفع فيها خلال ثلاث سنوات. وورد في المتجددات عدم جواز امتلاك الأغنياء لأراضي صغار الفلاحين مستقبلاً وإلا ألزموا بإعادتها مع دفع غرامة لخزانة الدولة.

ورغم هذا كله، فإن الفلاحين الصغار لم يتجاوبوا مع حكومة الإمبراطورية لوقوعهم تحت وطأة الضرائب الباهظة، واختاروا التبعية لكبار الملاك بمحض إرادتهم ليهربوا من تعسف جامعي الضرائب ويكونوا في أمن وحماية الملاك الكبار. وقد سبب ذلك إزعاجاً شديداً للإمبراطور رومانوس وعمل بكل قوة على تنفيذ القانون، حتى لا تتأثر إيرادات الإمبراطورية التي

كانت فى أشد الحاجة إليها لمواجهة الأخطار الخارجية التي أحاطت بالجبهات الغربية والشرقية والشمالية.

وإن كانت هذه هي السياسة التي سار عليها الإمبراطور رومانوس، فإن الإمبراطور قسطنطين السابع عندما سيطر على مقاليد السلطة وعاد إليه حقه الشرعي عام ٩٤٥م، سار على نفس سياسة رومانوس، وأصدر في عام ٩٤٧م قانوناً يقضي بعودة الأراضي التي انتقلت إلى كبار الملاك منذ توليته دون تعويض. ويبدو أن الأمر لم ينفذ كما ينبغي، لذلك أصدر سلسلة من القوانين تلى بعضها البعض، وكلها تعمل على الحد من نفوذ كبار الملاك والاحتفاظ بالملكيات الصغيرة لأصحابها سواء من الفلاحين أم الجند، حتى لا تتأثر خزانة الإمبراطورية وتتمكن من تعبئة الجند لمواجهة مشاكلها الخارجية.

وبعد هذا العرض الموجز لبعض القوانين التى صدرت تباعاً بالإمبراطورية، كان على كل موظف من موظفى الإمبراطورية أن يكون على معرفة بالقانون، وهذا أمر هام لتيسير أمور الدولة، ولكن واقع الحال أن الحصول على هذه القوانين لم يكن متوفراً بصورة دائمة، وليس لدينا معلومات إلى أى مدى ظلت مدارس الحقوق التى راعاها الإمبراطور جستنيان. وفى عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث ٨٤٢ - ٨٦٧م أقام القيصر بارداس Bardas جامعة فى العاصمة البيزنطية، وليس لدينا معلومات عن المواد القانونية التى كانت تدرس فى هذه الجامعة. ويرى البعض أن العلوم البيزنطية بلغت زروتها فى القرن الحادى عشر، وأن الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس Constantin XI Monomachus (١٠٤٢ - ١٠٥٥م) لاحظ قلة العارفين بالقانون فأنشأ فى عام ١٠٤٥مدرسة خاصة للقانون، أما بعد سقوط القسطنطينية فى عام ١٢٠٤م فليس لدينا معلومات عن الدراسات القانونية بعد هذه الفترة.

وكان القانون الرومانى الذى أصبح القانون البيزنطى فى تغير مستمر، وقد ظل هذا القانون جزء جوهرياً فى الدستور البيزنطى، وهو السلطة الوحيدة التى لا يمكن تجاهلها، حتى الإمبراطور نفسه. وقد زاد القانون رفعة من درجة القضاة، فكان أعضاء المحاكم القانونية العادية لهم الأولوية على رجال البلاط الإمبراطورى.

ويتضح من العرض السابق أن الإمبراطورية البيزنطية اهتمت كثيرا بالتشريع وعلى وضع القوانين فى حالة أقرب إلى الكمال. ومن هنا كان العمل المستمر من قبل السلطة البيزنطية لسد ثغرات القوانين والعمل على تنقيحها، ثم إصدارها فى صورة مكتملة نوعاً ما أو قريبة من الكمال. والحقيقة أن هذه القوانين كثيرة ومتشعبة ويتعذر تقديمها فى هذا الفصل من الكتاب لذلك سوف يكتفى الباحث بعرض نماذج منها للتعرف عليها.

ومن قوانين الإمبراطور ثيودوسيوس هذا القانون: Theodosian Code XV1.1.2 وقد جاء فى هذا القانون أن المسيحية أصبح معترفاً بها منذ أيام الإمبراطور قسطنطين، ولكنها لم تصبح الديانة الرسمية للدولة إلا فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس، واعتبار الديانات الأخرى ديانات غير رسمية - وتوجد قوانين أخرى للإمبراطور نفسه: تتحدث عن بعض الأمور الدينية مثل الارتداد عن المسيحية، وتعظيم القديس بطرس، واحترام أيام الآحاد ويوم عيد الميلاد المجيد، وأعياد القديسيين.

وإذا انتقلنا إلى عهد الإمبراطور جستنيان نجد مجموعة من القوانين، نعرض منها القانون الذى صدر فى عام ٥٣٠م تحت رقم (VII.24.1) وهو يتعلق بحماية السيدات الأحرار إذا تزوجن من العبيد.

وفى عهد الإمبراطور جسيتنيان أيضا صدر القانون (XI. 48 - XII) الذى صدر فى عام ٥٣٠م، وهو يتعلق بإعادة العبيد الآبقين إلى أسيادهم. وكذلك القانون (XI. 48 - XXIV) فى العالم نفسه، وهو يتعلق بالوضع الاجتماعى للأطفال الذين يولدون من زواج مختلط أى بين الاحرار من الرجال أو النساء من العبيد رجالاً أم نساء. وفى العام نفسه صدر القانون رقم (XI. 51.1) الذى يجعل المواطن مرتبطا بالأرض التى ولد عليها.

وفى عهد الإمبراطور ليو الثالث صدرت مجموعة الإيكلوجا، ومنها القانون الذى صدر فى عام ٧٢٦م وهو صيغة عقد زواج. ويتضح من القانون أنه عقد اجتماعى شرعى ويجب احترامه والعمل به داخل الإمبراطورية، وجاء في بنود هذا القانون أن الزواج بين المسيحين والمسيحيات للذين يصل سن الرجل فيها خمسة عشر عاماً، وثلاثة عشر عاماً للفتاة. ويجب أن يتم الزواج كتابة وبشهادة الشهود. وعلى الزوج أن يحمى ممتلكات زوجته وبائنتها، وإذا توفيت الزوجة قبل زوجها وليس لهما أولاد من هذا الزواج، فإن الزوج يرث الربع من حصة زوجته، والباقى يوزع على من يرد ذكر أسمائهم فى الوصية، والحال نفسه مع الزوج.

ويوجد أيضاً فى الإمبراطورية قانون الجندية: The Mililary Law. وهو يتضمن مجموعة من العقوبات التى تطبق على الجنود إذا ارتكبوا بعض الجرائم، ومن ذلك عصيان الأوامر، أو الهروب من الخدمة، أو التمرد، أو ارتكاب الفاحشة. ويتضح منها مدى صرامة هذه العقوبات. والحقيقة أن هذا القانون بالنصوص الموجودة أمامنا هو خلاصة من القوانين التى وضعها الإمبراطور جسيتنيان وكذلك الإيكلوجا وعدة مصادر أخرى، والأرجح أنها صدرت فى عصر الأسرة الأيسورية.

ويوجد أيضاً القانون الزراعى The Farmer's Law، ويرجع تاريخه من القرن السابع إلى الثامن الميلادى. وسبب وضع هذا القانون يرجع إلى الهجمات التى تعرضت لها الإمبراطورية من الفرس والعرب والسلاف، وهى التى أحدثت تغييرات فى الاقطاعيات الزراعية التى وقعت فى آسيا الصغرى بخاصة، والحدود الأخرى للإمبراطورية بعامة، وأصبح لزاما عن هؤلاء المزارعيين الجدد أن يدفعوا الضرائب للحكومة، وأن يمولوا الجيش الإقليمى، ومن هنا كان من الضرورى وضع نظم وقواعد لتحكم تصرفات هذه الطبقة من المزارعين الأحرار.

وبداية التعرف على هذا القانون يرجع إلى أنه تم العثور على نص قانونى يرجع تاريخه إلى القرن التاسع الميلادى، وقد وجد هذا النص فى عدة مخطوطات، ويتضح من هذا القانون أنه ينظم العلاقة داخل القرية أو البليده أو بين القرية الواحدة وما يجاورها.

وهناك جدل كبير حول تحديد تاريخ صدور هذا القانون وظروف إصداره، ويرى البعض أنه يرجع إلى القرن السابع، وآخرون إلى القرن الثامن، أى أنه معاصراً للمجموعة التى تعرف بإسم الايكلوجا. وأيا كانت ظروف وضع هذا القانون، فإنه يعكس ظروف المناطق الريفية فيما بين القرون السابع إلى التاسع الميلادى، كما أن سياق هذا القانون يختص بالنطاق الذى يتولى المزارعون الأحرار القيام بالعمل فيه. وهو لا يختص بأصحاب الاقطاعيات الكبيرة، أما العبيد فقد ورد ذكرهم فى هذا القانون، وهم يمثلون طبقة الرعاة.

والقانون الزراعى يقع فى خمسة وثمانين مادة، تتعلق أربعون منها بتربية الماشية والأضرار التى تصيب المزروعات من جراء الرعى الخاطئ،

وفيه سته عشر بنداً تتعلق بنظام الزراعة وما يتصل بها، كما ورد به تسعة بنود تتعلق بالبساتين، ومادتان بالأدوات الزراعية، وأربعة للمساكن والأجران. وقد ظهر المزارعون فى هذا القانون كملاك لحصص زراعية أو نصيب فيها، كما ورد به من النصوص ما يفيد بوجود أراضى فى القرية تعقير ملكية عامة للقرية كلها، وهى مخصصة للرعى.

ويهدف القانون فى مجمله إلى تنظيم العلاقة بين المزارعين بعضهم البعض، وضمان ظروف أفضل لمعيشة هؤلاء المزارعين لضمان بناء هذه الملكيات الصغيرة، والحيلولة دون عودة نظام الملكيات الكبيرة وما ينتج عنها من طبقة إقطاعية متسلطة يخشى منها على الامبراطورية. وأقدم هنا بعض البنود التى تضمنها هذا القانون.

- يجب على المزارع الذى يعمل فى حقله الخاص ألا يتعدى على أراضى الأخرين، واذا قام أحدهم بالتعدى، والقى ببعض بذوره وقت إلقاء البذور فسوف يفقد الحبوب التى وضعها فى حقل الآخر، أما اذا تم ذلك وقت الحرث فسوف يفقد حرثه.

- اذا اتفق مزارعان على مبادلة أرضهما بصفة دائمة. فيجب أن يتم هذا الاتفاق أمام شاهدين أو ثلاثة، ويجب احترام هذا الاتفاق والعمل به وضمان مفعوله.

- اذا اتفق مزارعان على تبادل أرضهما لموسم زراعى واحد، وأراد أحدهما التراجع، فلا يمكن التراجع عن هذا الاتفاق اذا تم بذر البذور.

- أما اذا كانت البذور لم تلق بعد فيمكن التراجع، أما اذا قام أحدهما بعملية الحرث والأخر لم يقم بعملية الحرث، فيجب أن يتاح للأخر الفرصة لأن يحرث حرثه.

- اذا تنازع مزارعان حول حدود أرضهما، فليحتكما إلى القضاة الذين عليهم أن يحكموا لصالح من له حدود أثبت ملكيتها قبل الآخر. أما اذا كانت هناك حدود قديمة ومعروفة فيجب مراعاة ذلك.

- اذا أضر تقسيم الأرض بأرض الغير، فيجب إبطال هذه القسمة.

- اذا قام أحد الرعاة بأخذ ماشية المزارعين للرعى بها وهربت منه احداهما وسببت ضررا لأراضى الغير، فلا يجب أن يفقد أجره، بل يلزم فقط بدفع تعويض عما أحدث من ضرر.

- اذا ما ضبط حارس بستان متلبسا بسرقة ما يقوم بحراسته من ثمار، فسوف يفقد أجره ويجلد.

- اذا أقدم راع أجير على حلب شاة بدون علم صاحبها، وقام ببيع لبنها فسوف يفقد جره ويجلد.

- اذا قام مزارع بسرقة قش أو تبن من أرض غيره، فيلزم باعادته أو سداد قيمته مضاعفة.

وإلى جانب ذلك يوجد القانون البحرى المعروف باسم قانون رودس البحرى Rodian Sea Law. وهو قانون مؤلف من ثلاث مجموعات، تناولت المجموعة الأولى إقرار الاباطرة البيزنطيين على مر العصور بما جاء فيه من بنود، وهو الأمر الذى يضفى المصداقية والفاعلية لهذا القانون. وفى

المجموعة الثانية البنود الخاصة بقواعد توزيع الأرباح وأنصبة طاقم السفينة. أما المجموعة الثالثة، وهى أهم المجموعات وأطولها، وتتكون من سبع وأربعين مادة. وهى تختص بالقواعد التى تحدد المسئولية القانونية والعقوبات والجزاءات والتعويضات الناتجة عن التقصير فى وقوع الحوادث أثناء عملية الإبحار.

وتحديد تاريخ لهذا القانون من المسائل الصعبة، لأن من القراءة الأولى لهذه البنود يتضح إن بعضها كان معروفا من قبل، وعمل بها فى جميع مجالات الملاحة من قديم. ويرى البعض أن عملية جمع هذه المواد ووضعها فى قانون واحد إنما تم فى القرنين السابع والثامن الميلاديين، وأنها ترتبط فى المضمون واللغة بمجموعة الإيكلوجا، ويرى البعض الآخر أن هناك تعديلات أدخلت على هذا القانون فى مراحل لاحقة.

وواقع الحال أن ما يميز هذا القانون البحرى عما سبقه من قوانين بحرية أو أعراف أنه اهتم بكثير من التفاسير والتفصلات، ووضعت فى قالب قانونى ملزم. ومن الواضح فيها ما يتحمله صاحب السفينة أو صاحب البضاعة من الخسارة فى حالة تعرض السفينة لعاصفة أو هجوم من قبل قراصنة البحر. كما تعرض القانون لأنواع السفن سواء كانت من سفن نقل البضائع أو الركاب، والأخطار المحتملة التى تتعرض لها السفن، وهل هى ناتجة عن جهل بالنظام لمن هم على متن السفينة، وإذا كانت السفينة فى أحدى الموانى أو فى عرض البحر، أم هى أخطار بسبب الحرائق أم نقص فى الإمدادات والتموين، أم بسبب تلف عارض، ومن هذه البنود الخاصة بقانون ردوس البحر ما يلى:

- يتعلق البند الأول حتى الرابع بالاجراءات التى يجب اتباعها فى حالة تعرض الحمولة للسرقة.

- ومن البند الخامس إلى السابع، تكلم عن العقوبات والاجراءات الواجب اتباعها بسبب قيام نزاع بين البحارة.

- أما البند الثامن فاختص بالمسئولية الجنائية التى تقع على قائد السفينة والبحارة فى حالة استيلائهم على حمولة السفينة وفرارهم.

- وفيما يتعلق بالبند التاسع فقد تضمن الإقرار من قبل كل من قائد السفينة والركاب بضرورة التشاور فى حالة اتخاذ قرار بتوقف السفينة عن الإبحار.

- وفى البند العاشر ورد ما قد يصيب السفينة من ضرر أو ارتطام مع سفينة أخرى الذى ربما يصل إلى درجة التدمير الجزئى أو الكلى، وحالة السفينة وقت وقوع الحدث من حيث حجم الحمولة ونوعيتها، وحجم الضرر سواء فى جسم السفينة أو الحمولة أو فى الأرواح، وقد تم تفصيل هذه الحالات فى البنود من السادسة والعشرين حتى الأربعة والأربعين.

- واختصت البنود من الحادى عشر إلى الثانى والعشرين بحالة السفينة وقت استجارها، ومبلغ التأمين المدفوع، والقروض المتعلقة باستئجار السفينة وقيام الرحلة.

- وفيما يتعلق بالبند الثالث والعشرين، فهو ينص على أن كل الإجراءات التى يتم أتخاذها والتعهدات والاتفاقيات، يجب أن توثق بعقد مكتوب من قبل موثق عدل قبل بداية الرحلة. وعلى ذلك يكون تنفيذ بنود العقد ملزم لكل أطراف المهمة البحرية.

- ويتناول البند الرابع والعشرون الاتفاق المبرم بين قائد السفينة والتاجر أو التجار أصحاب الحمولة والإجراءات المتفق عليها للرجوع إليها فى حالة تراجع أحد الأطراف عن تنفيذ هذا الاتفاق.

- وحدد البند الخامس والأربعون ما يجب عمله في حالة عثور أى فرد على شئ تم انتشاله من سفينة غارقة فى عرض البحر والوصول إلى البر.

- واختص البند السادس والأربعون بما يجب اتخاذه من إجراءات فى حالة العثور على زورق مفقود من سفينة أخرى، وكذلك العثور على شئ تم انتشاله من بين حطام سفينة غارقة.

ونستنتج مما سبق أن القانون الرومانى هو الذى أصبح القانون البيزنطى، وأن مجلس السناتو ظل كما هو، ولكن سلطته ضعفت على مر الزمن، وأصبح وجوده وجوداً شرفيا، أما شعب روما قد أصبح شعب القسطنطينية، ويلاحظ أنه ظل موجودا وله تأثيره الكبير فى مراحل مختلفة على مدى تاريخ الامبراطورية البيزنطية. أما القانون فقد ظل كما هو وإن اعتراه بعض التغير من وقت لآخر، ولم يتأثر بوضوح بالعقيدة المسيحية إلا بداية من عهد الامبراطور ليو الايسورى.

الفصل السابع

الجيـش والأسـطول

تداخل النظام العسكرى مع النظام الإدارى تداخلا كبيرا فى الامبراطورية البيزنطية، ويرجع ذلك إلى أن الأعداء كانوا يحيطون بالأراضى الامبراطورية من كل جانب، فقد كانت الامبراطورية تشعر دائما أنها معرضة للاخطار أوالغزوات أو لقيام ثورة داخلية ربما تهدد العاصمة نفسها. لذلك أصبح بقاء الامبراطورية فى موقف أمن يتوقف على لجم الشعوب المحيطة بها، الأمر الذى يتطلب وجود جيش وأسطول قوى حتى تستطيع أن تواجه بهما واجبات الدفاع الملقاه على عاتقها.

وعلى ذلك يمكن القول أن الضرورة هى التى ألزمت الامبراطورية بأن تكون نفسها على أسس عسكرية، وأن تعطى الأمور العسكرية الخاصة بالجيش والاسطول كل عناية ممكنة. ونظر لذلك كله فإن الامبراطورية البيزنطية ظلت طوال العصور الوسطى هى الحكومة الوحيدة التى كانت تُدرس فيها فنون الحرب والقتال وأدوات الجيش وتنظيمه بكل عناية وأهتمام. لذلك قدمت الامبراطورية سلسلة متصلة من الكتاب العسكريين الكبار، حتى أن معظم مؤرخيها كانوا يهتمون بجانب فى الشئون العسكرية سواء أكانت برية أم بحرية. ومن هؤلاء الكتاب والمؤرخين نستطيع أن نتتبع تاريخ العسكرية البيزنطية.

ومن أشهر الكتاب العسكرين فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى فلافيوس فيجيتوس ريناتوس Flavius Vegetius Renatus الذى أعد كتابا عن العلوم العسكرية واسماه De Re Militari، وقد ترجمه يوحنا كلارك John Clarke، لأن هذا الكتاب وضع أصلا باللغة اللاتينية فى عام ٣٩٠م، وهناك جدل حول هذا التاريخ، ولكن المهم أن هذه الترجمة وضعت فى عام ١٧٦٧م ثم أعيد طبعها مرة أخرى فى عام ٢٠٠١م.

وقد اهتمت المعاهد العسكية والقادة العسكريون على مر العصور بهذا الكتاب، وقالوا عنه أنه أعظم كتاب صدر فى الامبراطورية الرومانية الشرقية يهتم بالشئون العسكرية، وانه ظل ذا تأثير بالغ على العلوم العسكرية حتى القرن التاسع عشر الميلادى. كما قال عنه الفيلد مارشال الاسترالى أمير ليجن Prince de Ligne فى عام ١٧٧٠م انه الكتاب الذهبي فى العلوم العسكرية. كما أن ريتشارد قلب الأسد Richard Coeur de Lion ملك إنجلترا (١١٨٩-١١٩٩م) كان يحمل هذا الكتاب معه أينما ذهب، وكذلك فعل والده هنرى الثانى Henry II (١١٥٤- ١١٨٩م). وكل قادة أوربا فى العصور الوسطى، وأن هذا الكتاب كان متداولاً فى عصر الامبراطور شارلمان Charlemagne (ت ٨١٤م). حتى أن البعض قد وصفه بأنه الإنجيل العسكرى الذى تناوله القادة العسكريون في العصور الوسطى وما بعدها.

والكتاب يقع فى ثلاثة فصول مطوله، ومقدمة. أما الفصل الأول فله مقدمة ومجموعة من العناصر بلغ عددها ثلاثة وعشرين عنصرا، وعنوان هذا الفصل جاء تحت مسمى "اختيار وتدريب الجنود الجدد"، ومن عناصر هذا الفصل اختيار الجنود، والسن المناسب للجندي المستجد، وتدريب هؤلاء الجند، والعلامات العسكرية، وتعلم السباحة، واستخدام السيوف والدروع والرماح والأقواس، والمقاليع، والمسيرات الشهرية.

أما الفصل الثانى فجاء تحت عنوان "تنظيم الجيش"، ومن عناصره، استقرار الشئون العسكرية، والفرق بين الجنود الجدد والجند والمحترفين، وأسباب ضعف الجيش، وإدارات الجيش، وأعمال المشاه والفرسان، ووضع الجيش واستعداده للمعركة، ووضع أسماء الجنود على دروعهم وودائع الجنود، والموسيقات العسكرية، وأدوات الحرب والقتال.

وفيما يختص بالفصل الثالث فقد ورد عنوانه "إعداد الجيش للقتال". ومن عناصره؛ الأعداد التى يتكون منها الجيش، والوضع الصحى للقوات، والامدادات والتموين، والتقدم فى أراضى العدو، والممرات والأنهار، وقواعد إقامة المعسكرات للجنود، ووضع الخطط العسكرية، وإعداد الصفوف، والاستعداد للقتال، واختيار ميدان القتال، وصدور الأوامر بالقتال، والتصرف فى حالات الانتصار وفى حالات الانسحاب، وعربات القتال والأفيال. وعناصر أخرى.

وإلى جانب فلافيوس نجد مصدراً آخر عن العلوم العسكرية كتبه أوربيكيوس Uribicius الذى ظهر فى أواخر القرن الخامس الميلادى، وبالتحديد فى عهد الامبراطور أنستاس Anastasius (٤٩١-٥١٨م). كما أن المؤرخ بروكوبيوس القيصرى Procopius of Caesarea (توفى ٥٦٢م) وهو مؤرخ عصر الامبراطور جستنيان Justinion (٥٢٧-٥٦٥م)، فقد أرخ لعهد هذا الامبراطور وكتب فى الحروب الفارسيه، والحروب القوطيه، والحروب مع الوندال. فبذلك يكون مؤرخا عسكريا كذلك، وفى كتبه الكثير من العمليات العسكرية وخططها. كما أن الامبراطور موريس Marcian (٥٨٢-٦٠٢م) له كتابات فى فن الحرب والقتال، وقد جاء هذا المؤلف تحت عنوان "الخطط العسكرية" Strategicon، وهو دراسة طيبة لأحوال جيش الامبراطورية فى عصره. كما قام الامبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦-٩١٢م) بوضع كتاب فى الشئون العسكرية جاء تحت عنوان "فنون الحرب والقتال" Tactica وقد وضع فيه كل ما يتعلق بشئون الحرب والقتال. وفى عهد الامبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣-٩٦٩م) قدم له أحد قواده كتيبا يعالج شئون الحرب والقتال مع المسلمين فى الجانب الشرقى للامبراطورية. وفى القرن الحادى عشر قدم أحد الجنود المحترفين ويدعى كيكومينوس

Kekoumenos خبرته في الفنون العسكرية فى مدونه باسلوب استطرارى. كما أن المؤرخة البيزنطية أنا كومنينا Anna Comnena (توفيت ١١٥٠م) التى أرخت لوالدها الامبراطور الكسيوس كومنين Alexeus Comnene (١٠٨١-١١١٨م)، قدمت جانبا كبيراً من أعمال والدها العسكرية على الجبهة الغربية والشرقية والشمالية وكذلك مع الصليبيين، ويستدل من كتاباتها أنها فهمت جانبا طيبا عن الشئون العسكرية. ومن كل هذه المؤلفات تكونت خبرات طويلة فى الشئون العسكرية لرجال الامبراطورية البيزنطية، لا نجد لها مثيلا فى الدول الأخرى فى العصور الوسطى.

وواقع الحال أن الجيش البيزنطى كان فى حاجة إلى إعادة التنظيم منذ إنشاء مدينة القسطنطينية، فقد كان القرن الثالث الميلادى حافلاً بالاحداث التى كشفت عن سوء أحوال الجيش وطموح قادته، كما كان الحرس الامبراطورى ينصب الأباطرة ويخلعهم من عروشهم، يضاف إلى ذلك، أن قادة المقاطعات كانوا يسيطرون على قوات كبيرة، وكثيرا ما كانوا يتمردون دون رادع. وقد حاول كل من الامبراطور دقلديانوس ومن بعده الامبراطور قسطنطين إدخال بعض الإصلاحات التى تؤدى إلى إستقرار الأحوال داخل القوات المسلحه، فقد أقاما جيوشا من الجند الوراثيين، يتناولون هم وأولادهم الجند من بعدهم أجورهم عن طريق منح الأراضى التى يعيشون عليها، واعتبرت هذه القوات قوات الحدود Limitanei ، ثم أقاما جيشا فى العاصمة سريع الحركة يمكن دفعه إلى أى مكان فى الامبراطورية بصوره عاجله، وكان يتولى أمر هذه القوات الاحتياطية Comitatenses الامبراطور بنفسه. وبذلك يصبح تحت يد الامبراطور القوات الكافية للسيطرة على أى تمرد داخل القوات المسلحة أو تعزيز القوات المسلحة ضد أى خطر يواجه الامبراطورية.

وهناك نقطه هامة جداً فى التاريخ العسكى البيزنطى، وهو أن القوات العسكرية البيزنطية كانت تعتمد على جندى المشاه المحمل بالدروع الثقيلة البطيئة الحركة. وقد اتضح من حروب الامبراطورية مع العناصر الجرمانية أن هذا الأمر لم يعد مناسبا أمام العناصر الجرمانية التى تعتمد على الفرسان سريعة الحركة، ولعل آخر انتصارات للمشاه على القبائل الجرمانية الونداليه كان عند مدينة ستراسبورج Strassburg فى عام ٣٥٧م بفضل القائد جوليان Julian، الذى تولى عرش الامبراطورية تحت إسم جوليان المرتد (٣٦١-٣٦٣م). ولعل ما أظهر عدم قدرة قوات المشاه العسكرية على ملاقاة الفرسان القوط ما حدث فى معركة أدرنه Adrianople عام ٣٧٨م، عندما هُزمت القوات للامبراطورية وقُتل الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤-٣٧٨م). وهنا ظهرت الحاجة إلى إعداد جيش يقوم على قوة الفرسان أكثر ما يقوم على قوة المشاه.

وعندما تولى الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩- ٣٩٥م) عرش الامبراطورية خلفا للامبراطورية فالنز أدرك أهمية الفرسان للقوات المسلحة البيزنطية. ولما كان إعداد مثل هذه القوات يحتاج إلى بعض الوقت الذى ليس فى صالح الامبراطورية، لذلك لجأ الامبراطور ثيودوسيوس إلى إدخال نظام عرف باسم جند المحالفين Feoderati، وهذا النظام يقضى باستخدام فرسان من القبائل الجرمانية للعمل داخل صفوف قوات الامبراطورية نظير مبالغ مالية.

والحقيقة أن مثل هذا النظام أو المبدأ خطير للغاية، لأن اعتماد الامبراطورية على قوات أجنبية، إنما يوضح عجز المواطن البيزنطى عن الدفاع عن أرضه ونفسه. ولعل ما دفع الامبراطور البيزنطى إلى هذا الأسلوب. ربما يرجع إلى عدم امكان إعداد قوات الفرسان فى وقت قصير.

وعلى أية حال لقد صدت هذه القوات المحالفة قوات الهون Huns بزعامة قائدهم أتيلا Allila (توفى ٤٥٣م)، وانتصرت القوات البيزنطية بقيادة القائد الجرمانى فلافيوس أيتيوس Flavius Aetius فى معركة شالون Chalons عام ٤٥١م. والحقيقة أن اعتماد الامبراطورية على قادة من العناصر الجرمانية قد استمر لفترة من الزمن، وقد قدّم هؤلاء القادة خدمات عسكرية جليلة للامبراطورية وحملوا القابا عسكرية كبيرة في الجيش البيزنطي، ومع مرور الزمن تضخم أمر هؤلاء القادة، ولم تعد الامبراطورية تستطيع معارضتهم، ومن هؤلاء القائد ريكيمر Ricimer الجرمانى الأصل الذى كانت له الكلمة العليا فى غرب أوروبا فى عهد الامبراطور الغربى هونوريوس Honorius (٣٩٥-٤٢٣م)، وأودواكر Odoacer ملك قبائل الهيرول الذى سيطر على ايطاليا ودخل روما عام ٤٧٦م وأسقط الامبراطورية الرومانية فى غرب أوربا. ولكن الامبراطورية البيزنطية نجحت فى إيقاف مثل هؤلاء القادة عند حدهم فى مرحلة تالية. وعندما نجح الأباطرة البيزنطيون فى تجنيد العناصر الأرمينية والايسورية من آسيا الصغرى وتدريبهم بمستوى عال كفرسان فى الجيش الامبراطورى، توقف خطر مثل هؤلاء القادة وما تحت ايديهم من قوات.

ومع بدايات القرن السادس الميلادى كان لدى الامبراطور فرسان الخيالة الثقيلة وهم الكاتفراكته Cataphracti، وبذلك التزمت جنود المحالفين بالتعليمات الامبراطورية ولم يعودوا خطرا عليهما. والحقيقة أن قوات الكاتفراكته لعبت دورا كبيرا فى حروب جستنيان ضد أعداء الامبراطورية فى الشرق والغرب، وسجل المؤرخ بروكوبيوس إعجابه الشديد لما أبلوه فى المعارك.

ورغم تخلص الامبراطورية من نفوذ جند المحالفين، إلا أن فكرة تنظيم هذه القوات قد ورثته الامبراطورية البيزنطية. وهذا الفكر والتنظيم يتلخص فى أن القائد هو الذى كان يجمع جنوده ويتولى إعاشتهم وليس الحكومة المركزيه، وعندما لجأت الامبراطورية إلى إعداد ما يعادل القوات المتحالفة، كان كل جيش يسمى بإسم قائده وأطلق عليهم جميعاً إسم مرتزقه أو الجرايات أو التموين Bucellarii وعرف باسم البوكلارية. ومن مشاكل هذه القوات أن الامبراطور جستنيان لم يهتم كثيرا سواء ماليا أو السيطرة عليهم، وكثيراً ما واجه هذا الامبراطور تمرد قوات البوكلارية، وإن كان الامبراطورية قد حققت جانبا كبيراً من الانتصارات العسكرية فى غرب أوربا على القوط وفى شمال افريقيا على الوندال، إنما يرجع إلى عبقرية القادة العسكرين الذى خدموا تحت إمرته.

ولما كانت حروب جستنيان قد كلفت خزانة الامبراطورية الكثير، فان خلفاءه من بعده اضطروا إلى إنقاص عدد الجنود المحالفين، أما خلفاء جستنيان وبعد أن تركوا الجانب الأوربى من الامبراطورية خلف ظهورهم، وجنوحهم إلى الجانب الشرقى، اختفى نظام قوات البوكلارية: ولكن هذا الإسم ظل باقيا لوصف فرق الجيش البيزنطى.

ومن المصادر البيزنطية يمكن وضع نظام للجيش البيزنطى:

١- السرية، وهى تتكون من حوالى ثلاثمائة إلى أربعمائه من الجنود يتولى قيادتهم رائد Comes، أو تريبيون Tribune، وكانت كل سرية تنقسم إلى فصائل.

٢- الكتيبة، وهى تتكون من حوالى ست إلى ثمان سرايا، وكان يتولى قيادتها قائد كتيبة Moerarch أو دوق Dox .

وكان تجمع هذه الكتائب من اختصاص القائد العام إذا وقعت طبول الحرب. ولم يكن داخل القوات العسكرية البيزنطيه إلا بعض الجند المحالفين وفرق البوكلارى، وبعض الجنود المختارين Optimati وهم بقايا الجند المرتزقه الأجانب الذين شكلوا جانبا من الحرس الامبراطورى.

وأضاف الامبراطورية موريس (٥٨٢-٦٠٢م) بعض القوات المحلية للدفاع عن الأرض التى يسكنونها فى الإقاليم التى ليس بها قوات ثابته، للدفاع عن انفسهم وقت اللزوم. وقد طلب الامبراطور من كل مواطن حر المولد أن يتعلم الرماية وأن يكون لديه رمحا وقوسا، وكثيراً ما كان هؤلاء يستدعون لينضموا إلى جانب القوات المرابطة فى الثغور ليقوموا بواجب الدفاع عن الإقليم.

والحقيقة أن هذا الجيش الذى أعاد تنظيمه الامبراطور موريس هو الذى قاده الامبراطور هرقل ضد القوات الفارسية وأحرز به النصر فى نهاية الأمر، ولكن هذا الجيش لم يصمد أمام القوات الأسلامية، كما أدت هزيمة هرقل إلى حرمان الامبراطورية من مصر والشام وشمال أفريقيا. وظلت قوات الامبراطورية فى حالة من الاضطراب والفوضى حتى أعاد تنظيمها ليو الأيسورى بإنشاء ألوية الثغور المعروفة باسم الثيمات Themes.

وترجع فكرة إنشاء ألوية الثغور إلى وجود تجمعات ثابته من الجنود فى أقاليم محددة، ويتولى أمر هذه القوات قائد باسم Strategus، ثم تولى هذا القائد رئاسة الحكومة المدنية فى هذا الإقليم. وفى بداية الأمر كان الإقليم يسمى باسم الفرقة التى تتولى الدفاع عنه، فيقال لواء المختارين أو لواء المرتزقة. وبعد أن هدأت الحدود إلى حد ما، أضيفت ألوية جديدة اشتملت على الأراضى التى استعادتها الامبراطورية، وأطلق عليها أسماء جغرافية فيقال

لواء الخرسون، أو لواء سلوقيه، أو لواء كبادوكيا، وكان من أهم هذه الألوية هو لواء الممرات مثل ممرات قيليقية بين الشام وآسيا الصغرى، ويسمى قائدها قائد لواء الثغور. وكانت الجنود البيزنطية ترابط فى لواء الثغر بصفة دائمة. وكان لواء الأناضول أهم هذه الأولوية على الاطلاق ويعتبر قائده هو القائد العام لقوات آسيا الصغرى بأكملها وظل كذلك حتى القرن التاسع الميلادى.

وفى القرن التاسع دخل على جيش الامبراطورية نوعا جديدا من الجيش هو التاجماتا Tagmata، وهي الفرق الأربع للحرس الامبراطورى. وكان هذا الجيش بأكمله يتكون من الفرسان ولهم قدرة عسكرية عالية، وكانت هذه القوات تعسكر بالقرب من العاصمة البيزنطية، إما فى إقليم بثينا Bithynia فى آسيا الصغرى، أو فى إقليم تراقيا غرب القسطنطينية، وكانت هذه القوات ترافق الامبراطور إذا خرج للحرب، وإذ لم يخرج الامبراطور لقيادتها تولى أمرها ضابط القصر وهو برتبة دومستق Domestic. ومن الطبيعى أن تقسم هذه الجيوش إلى كتائب ثم إلى سرايا وأخير إلى فصائل.

وكانت مهمة القوات العسكرية فى الامبراطوية يخطط لها بعناية ومهماتها محددة بكل دقة. فكانت جيوش الألوية عليها حراسة المناطق المنوطة بهم والدفاع عنها. أما الغزوات الخارجية، فإذا حدث اعتداء من جانب الأعداء على منطقة من المناطق أبلغ القائد المحلى فى الحال قائد اللواء، وعلى قائد اللواء إبلاغ الألوية المجاورة، وعلي قائد اللواء إرسال الفرسان للتصدى للمعتدين وملاحقتهم، وفى الوقت نفسه يعطى تعليماته إلى قوات المشاه للسيطرة على الممرات التى يحتمل أن تعود منها القوات المغيرة. وفى ذات الوقت تكون الألوية الأخرى قد استعدت للتوجه إلى الأماكن التى يحتمل أن يتجه إليها العدو. فاذا أحسنت القوات مجتمعه تنفيذ ما عهد إليها بكل دقة، تمكنت من السيطرة على الموقف وإنزال الخسائر بالعدو. ومن ذلك ما رواه

المؤرخ الطبرى فى أحداث عام ٢٤٩هـ، وقال فما كان فيها من ذلك غزو جعفر بن دينار الصائفة فافتتح حصنا ومطامير واستأذنه عمر بن عبد الله الاقطع (أمير ملطية) فى المصير إلى ناحية من بلاد الروم. فأذن له فسار ومعه خلق كثير من أهل ملطية فلقيه الملك (يقصد به الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) فى جمع من الروم عظيم بموضع يقال له إرز من مرج الأسقف فحاربه بمن معه محاربة شديدة قتل فيها خلق عظيم من الفريقين. ثم أحاطت به الروم وهم خمسون الفا فقتل عمر وألفا رجل من المسلمين. وذلك فى يوم الجمعة للنصف من رجب (٢٤٩هـ/ الثالث من نوفمبر ٨٦٤م).

وفى بعض الأحيان كان الأمر يتطلب مهاجمة بعض الموانى الاسلامية لاستعراض القوة البيزنطية، ومن ذلك ما قام به البيزنطيون من الهجوم على مدينة دمياط فجأه، فقد روى الطبرى أنه فى عام ٣٢٨هـ "جاءت للروم ثلثمائة مركب ... وكانوا هم رؤساء البحر، مع كل واحد منهم مائة مركب فأتاح ابن قطونا (قائد بحرى بيزنطى) بدمياط، وبينهما وبين الشط شبيه بالبحيرة يكون فيها الماء إلى صدر الرجل فمن جازها إلى الأرض أمن من مراكب البحر فجازها قوم فسلموا وغرق قوم كثير من نساء وصبيان واحتمل من كانت له قوة السفن فنجوا..."

ومن النادر أن تقوم القوات العسكرية البيزنطية بالهجوم داخل أراضى العدو، وفى هذه الحالة يكون هناك استعداد مسبق ومعد إعداداً جيداً. ثم يتولى الامبراطور أو الدمستق قيادة قوات الحرس الوطنى التى لم يتعد جنودها سته آلاف مقاتل، وفى الطريق العسكرى الذى كان يخترق آسيا الصغرى يلحق به فى نقاط محددة فصائل من جند الألوية المختلفة ومعظمها كان من المشاه مع بعض الفرسان. وليس فى المصادر البيزنطية إلا القليل من المعلومات بعد ذلك حتى الفترة الى منتصف القرن العاشر الميلادى. وفى أيام الامبراطورين

نقفور فوكاس ٩٦٣-٩٦٩، ويوحنا الأول تزيمسكيس John I Tzimisces (٩٦٩-٩٧٦م) حيث قاد الأخير حملات على أعالى الشام وفلسطين، وإن الخطط العسكرية ليست واضحة فى المصادر البيزنطيه، وكل ما ذكرته بصفه أساسية هو حصار المدن التى هاجمها يوحنا تزيمسكيس.

والحقيقة الواضحة أمامنا أن الحذر كان أساسا فى الخطط الحربية البيزنطية، وكان دفع الجزية أنسب كثيرا للامبراطورية البيزنطية وكانت تطلق عليها الإستثمار الحكيم لرأس المال، بمعنى أن تكلفة الحرب أكثر بكثير من دفع بعض الأموال للأعداء. ورغم هذا كله كانت غزوات البرابرة الجرمان فى غرب أوربا أو المسلمين فى الشرق كانت كثيرة ومفاجئة بحيث لم يجد معها فى معظم الأوقات أي استعداد مهما كان الحذر. ويلاحظ أن الجيش الإسلامى وجيش البرابرة كان خفيف الحركة وكثير العدد، على العكس من القوات البيزنطية كثيرة النفقة. ومن هنا كان الجميع يحذّر من التسرع والتهور وتفادى الكمائن والهجمات المضادة، وعلى القاده البيزنطيين استخدام الطلائع لتكون بمثابة كشافه لهم لتقديم المعلومات عن العدو.

أما عن الجانب الاخلاقى فى سلوك القوات البيزنطية خلال المعارك العسكرية فقد كانت هناك تعليمات محددة يجب على الجميع من القادة والجنود الالتزام بها ومن ذلك:

- يجب على القادة والجنود المحافظة على العهود التى يقطعونها على أنفسهم.

- الإبقاء على حياة الأسرى.

- عدم إيقاع الضرر بالنساء.

- يجب الا تكون شروط الصلح قاسية حتى اذا قاتل العدو بشجاعة.

- الدخول فى مفاوضات بقدر الامكان لفوائدها المتعددة ومنها كسب الوقت لاعداد القوات أو للتجسس على الأعداء.

- إبلاغ الأعداء ببعض الرسائل التى تثير الشبهات وتوقع بين القادة والجنود.

- المحافظة على الروح المعنوية للجنود حتى ولو تم إبلاغهم بانتصارات وهمية.

وربما كان لكل هذه التعليمات وجاهتها، ولكن كانت توجد بعض المشاكل ومنها؛ إلى أى مدى سيتم التزام الجنود البيزنطيين بهذه التعليمات، فكثيرا لا يلتزم الجنود بالتعليمات ويتجاوزونها، ولا نعرف إلى أى مدى تكون هذه التجاوزات التى تمليها عليهم ظروف القتال. والمشكلة الثانية أن أعداء الامبراطورية كانوا يحيطون بها من كل جانب، فكان يوجد عناصر مختلفة مثل المسلمين والأرمن والكرج والمغول والروس، والبجناكيه والبلغار والسلاف والعناصر الجرمانية والصليبيين، ولكل من هذه العناصر طرقها الخاصة بالقتال والمناخ الذى اعتادوا القتال فيه وكذلك الأرض وتضاريسها، وهنا كان على البيزنطيين أن يدرسوا طرق الحرب التى يختص بها كل عدو من أعدائهم، وهذا يتطلب قدا كبيرا من الدراية والفطنة واستنباط خير الوسائل للتعامل بها حسب كل ظرف من الظروف، والحقيقة أن ذلك لم يكن بالأمر السهل لا على القادة البيزنطيين أو الجنود. والدارس للتاريخ العسكرى البيزنطى يلاحظ أن قدرة الجيش البيزنطى على الامدادات والتموين كانت سيئة. كما أن الجوع الذى واجه الجنود جعلهم كثيرا ما يتخلون عن مواقعهم لدرجة ربما تصل إلى حد الخيانة. ولما كان هناك جانب من الفساد داخل

القوات المسلحة فقد كان بعض الجنود يخرجون على طاعة قائدهم وينضمون إلى قائد آخر فى حالة الثورة على الامبراطور.

وكانت أهم المشاكل التى تواجه القوات البيزنطية مكر أعدائهم وخفة حركتهم، لذلك كان الواجب على القادة البيزنطيين تجنب الوقوع فى الكمائن، ولتجنب هذه المشكلة كان عليهم أن يلتحموا مع العدو فى أسرع وقت ممكن حيث تنجح الخيالة البيزنطية الثقيلة فى إنزال أكبر الخسائر بالعدو فى أقل وقت ممكن.

واذا قدمنا مثالا عن الحرب مع الصقاليه أى السلاف نقول أن جيشهم كان يتكون من جند المشاه خفيفى الحركة خاصة فى التلال الوعرة دون غيرها، ولذلك كانوا يفضلون أن يسحبوا القوات البيزنطية اليها على العكس من الأماكن المنبسطة حيث لا يستطيعون مواجهة القوات البيزنطية.

أما المسلمون فقد ظلوا فى مواجهة مباشره مع الامبراطورية، منذ أيام عصر الخلفاء ثم مع الدولة الأموية ويليها العباسية، أو مع جانب من الإمارات الإسلامية مثل الحمدانية ومن بعدهم سلاجقة الروم خاصة فى آسيا الصغرى وأخيرا الدولة العثمانية. ومن الملاحظ أن المسلمين لم يك بوسعهم حشد قوات كثيرة على مر الحروب، ولكنهم كانوا يتحركون بسرعة مع نقص بقدر معين بفنون الحرب والقتال القائمة على الدراسة. أما المشكلة الكبرى لدى القوات الاسلامية فان روحهم المعنوية فى القتال كان يقابلها انخفاض فى هذه الروح عند الهزيمة. كما أنهم كثيرا ما كانوا يشغلون أنفسهم بالغنائم، وهذا يؤدى إلى ثقل حركتهم، وهنا يمكن مباغتتهم ليلا والنيل منهم. ويضاف إلى ذلك العوامل الجوية وانخفاض درجة الحرارة فى آسيا الصغرى التى كانت دائما مسرحا للعمليات العسكرية بين الطرفين.

وكان لدى البيزنطيين قدراً مناسباً في فن الحصار في الأرض المكشوفة، وهو أمر يختلف عن فن حصار المدن. وكانت الامبراطورية البيزنطية تطور عملياتها العسكرية لتناسب كل موقفٍ، ولعل خبرتها في حروبها مع عناصر مختلفة في الشرق والغرب والشمال جعلها في موقع أفضل لمواجهة الأعداء. كما اهتمت الامبراطورية البيزنطية كثيراً بتحصينات مدنها لمواجهة الأعداء. ومن أهم نقاط الضعف في الجيش الامبراطوري أن ضرورة الاقتصاد في النفقات كانت تقضي بحله في الشتاء. وهذا يترك الإمبراطورية عارية من قواتها المسلحة ويسهل اختراقها في هذا الوقت.

وفيما يتعلق بتكوين الجيش البيزنطي في القرن الحادي عشر فكان يتكون من الخيالة الثقيلة Caballari. وكانت هذه القوات تلبس بيضه من الصلب (خوذة) ودروعا من الزد، والزد هو سلاسل متدخله مع بعضها بحيث تشكل شبكة مرنه، وكان الضباط والجنود يضعون علامات من الصلب توضح رتبهم، واللواء الذي ينتمون إليه وكان لكل لواء يميزه، وهذا ما تعرف في العلوم العسكرية باسم الرنوك. وكانوا يستخدمون عباءات من التيل أو الصوف تبعا لحرارة الجو. أما السلاح الذي استخدمته هذه الخياله فكان السيف والخنجر، والرماح والنبال.

أما المشاة فكانوا من حملة النبال في بعض الألوية، والأخرى كانت تستعمل الرماح. وكان هناك أيضا مشاة من لابسي الدروع ويحملون الأطبار أي البلط والرماح والسيوف والتروس، والأخيرة هي دروع يحملها الجندي على يده اليسرى ليصد بها سلاح العدد. وهؤلاء المشاة كانوا يتواجدون في الممرات الجبلية الوعرة التي لا تصلح للفرسان. كما استخدم البيزنطيون النار الأغريقية، وهي تستخدم في ضرب السفن أو لدفع المحاصرين عن المدن.

وفيما يتعلق بمرتبات الجنود فكانت تختلف من رتبة إلى أخرى، فقد كان قواد ألوية الثغور يتقاضون ما بين عشرين إلى أربعين رطلا من الذهب فى العام، أما قائد الكتيبة فكان يتقاضى ثلاثة أرطال من الذهب فى العام، وكان بقية الضباط يحصلون على رطل أو رطلين من الذهب فى العام. وفيما يتعلق بالجنود فكان الواحد منهم يتقاضى نوميسما Nomisma ذهبية وهى تعادل ١/٧٢ من الرطل ذهبا فى السنة الأولى للتجنيد، ثم تصبح إثنان فى العام الثانى، وثلاثة فى العام الثالث حتى تصل إلى إثنى عشره أو ثمانى عشرة فى بعض الحالات. وكانت من النصائح التى تقدم للاباطره هو عدم قطع هذه الرواتب على مدار العام.

ويرى البعض أن عدد الجيش البيزنطى لم يك يزيد عن مائة وعشرين ألف مقاتل، منها حوالى سبعين الفا من ألوية الثغور الشرقية والباقى من الألوية الغربية والجيش المركزى. يضاف إلى هؤلاء ما يعرف بجنود الخدمة أو المتعقبة، وهم الذين يرافقون الجيش، فقد كان من الممكن اصطحاب الخدم والعبيد حتى يقوموا بأعمال نصب الخيام وحفر الخنادق، يضاف إلى هؤلاء من يقومون باعداد الإمدات والتموين، وهيئة المهندسين والهيئة الطبية والاسعافات الأولية، وعمال إقامة الحمامات وكل هذا ما كان يميز الجيش البيزنطى عن غيره من الجيوش المعاصرة.

ورغم هذه التنظيمات والتعليمات الدقيقة، فقد كان الخروج عليها يسبب كارثة للجيش البيزنطى كله أو جانب منه. ومن ذلك ما حدث فى معركة ملاذكرد أو مانزكرت التى وقعت أحداثها فى عام ١٠٧١م بين الجيش البيزنطى بقيادة الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogene (١٠٦٨-١٠٧١م) ضد القوات السلجوقية بقيادة السلطان ألب ارسلان (٤٥٥-٤٦٥هـ/ ١٠٦٣-١٠٧٢م)، ففى هذه المعركة تغاضى

الامبراطور البيزنطى عن كل القوانين العسكرية، فلقى هزيمة ضخمة لم يسترد بعدها الجيش عافيته، وتسببت هذه الهزيمة فى عزل الامبراطور وسمل عينيه. كما ترتب عليها وقوع جانب كبير من آسيا الصغرى تحت سيطرة سلاجقة الروم.

وقد حاول الاباطرة الذين خلفوه أن يعيدوا ترتيب هذا الجيش ولكنهم لم يوفقوا إلى حد كبير، حتى اذا تولى الامبراطور مانويل كومنين عرش الامبراطورية أخطأ مرة أخرى فى مواجهة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى حيث لقى هزيمة ثقيلة في معركة ميريوكفالون Myriocephalon عام ١١٧٦م حيث مزق الجيش البيزنطى ولم تقم له قائمة بعد ذلك. وكان ضعف هذا الجيش سببا فى نجاح قوات الحملة الصليبية الرابعة فى إسقاط الامبراطورية فى عام ١٢٠٤م، وإن عادت هزيلة مرة أخرى فى عام ١٢٦١م.

ومن قوات الجيش البيزنطى أن الاباطرة كانوا يتخذون من الاجانب حرسا خاصا لهم، وفى الوقت نفسه كان بعض الثائرين مثل برداس فوكاس Bardas Phocas الذى مات فى معركة أبيدوس Abydus فى الثالث عشر من أبريل عام ٩٨٩م، كان له حرسه الخاص من أبناء الكرج (جورجيا حاليا). وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر كان لدى الاباطرة ما يعرف باسم الحرس الفارانجي Varangion ، وهذا الاسم هو الذى أطلقه البيزنطيون على المرتزقة من أهل الشمال. وكان هذا الحرس يتكون من عناصر روسيا وتركية وآلانية وانجليزية وفرنجية والمانية وبلغارية، وكانت هذه العناصر تشترك فى بعض المعارك، ولكنها كثيراً ما كانت تهزم باعتبارها عناصر مدربة على الحراسة أكثر من القتال فى ميدان المعارك.

وواقع الحال أنه بعد هزيمة القوات البيزنطية فى معركة منزكرت وتمزق الجيش البيزنطى لم يعد أمام الأباطرة إلا أن يجمعوا بعض القوات من الجنود المرتزقة وبقايا القوات المهزومة حيث لم يعد بالإمبراطورية ألوية للثغور، بالإضافة إلى الحرس الفارانجي. ومن هذه القوات أصبح يوجد بالإمبراطورية قوات للشرق وقوات للغرب يعين على كل منهما قائد أعلى عرف باسم الدوسستيق Domostic وبهذه القوات واجه الإمبراطور الكسيوس الأول كومنيين الغزو الفروماني من جنوب أيطاليا الذى قاده روبرت جويسكارد Robert Guiscard عندما تقدمت القوات النورمانيه فى عمق الساحل الارتياتيكى في شبه جزيرة البلقان، حيث انتصر النورمان فى معركة دراخيوم Dyrrachiam فى عام ١٠٨٥م. وكان فى ذلك كارثة على الإمبراطورية لأن أهداف روبرت جويسكارد كانت الوصول إلى العرش البيزنطى، وأن سقوط دراخيوم يفتح الطريق أمامه إلى القسطنطينية. ومن ثم هذه الهزيمة أن الإمبراطور الكسيوس طلب مساعدة البابا جريجورى السابع Gregory III (١٠٧٣ – ١٠٨٥م)، وهنرى الرابع إمبراطور ألمانيا (١٠٥٦ – ١١٠٥م، والبنادقة، ولم ينقذ الإمبراطورية البيزنطية من هذا الخطر الكبير سوى موت روبرت جويسكارد فى العام نفسه.

ومن الواضح أن الإمبراطورية كانت تتعامل مع الشخصيات الأجنبية التى تعين داخل الإمبراطور بمنتهى الحذر. ومن ذلك أن القاعدة التى رسخت فى القرن الحادى عشر الميلادى عدم تعيين هؤلاء الأجانب فى أية مراكز عسكرية، ولكن هذا المبدأ قد تغير مع مر الزمن، ففى عهد الإمبراطور الكسيوس كومنيين كان قائد الرفاق الأعظم يدعى أرجيروس كاراتزس Argyrus Karatzes وهو من عناصر السكيثيون Scyths وهى عناصر غير بيزنطية، ولعل ذلك مرجعه إلى أن هذا القائد كان مخلصا وحكيما ومحبا

للفضيلة وصادقا. أما في عهد الإمبراطور مانويل كومنيين (١١٤٣ - ١١٨٠م) فقد أصبح للاتين دورا كبيرا داخل الإمبراطورية، ومرجع ذلك أنه تزوج من ماريا الأنطاكية الصليبية، وسيكون لذلك كله أثرا وخيما على الإمبراطورية في مراحل لاحقه.

وواقع الحال أن الإمبراطورية قد أصبحت تعتمد على الجنود المرتزقة، وهذا يتطلب وجود مبالغ كبيرة في خزانة الدولة، ولكن هذا المال بدأ يقل بصورة كبيرة في الربع الأخير من القرن الثاني عشر، وعندها هاجم الصليبيون الإمبراطورية في عام ١٢٠٤م لم تتمكن الإمبراطورية من دفع رواتب الجنود المرتزقة فلم يدافعوا عن العاصمة، فسقطت في يد الدوج هنري داندلو Henry Dandolo قائد الحمله.

ومع قيام الإمبراطورية البيزنطية في المنفى واتخاذ مدينة نيقية على الجانب الأسيوي عاصمة لهم، لم يعد بوسع الأباطرة تدبير المال اللازم لجيش كبير، فاعتمدوا على جيش صغير، وعلى وجود بعض قوات الحرس الوطني على الحدود، ومنحهم بعض قطع الأراضي الزراعية الصغيرة للعيش عليها.

وبعد عودة الإمبراطورية البيزنطية من المنفى في عام ١٢٦١م، كانت مشكلة تشكيل جيش قوي من المشاكل الرئيسية التي واجهت أباطرة أسرة آل باليولوجس. فقد كانت هناك مشاكل داخلية ومشاكل خارجية من جنوه والبندقية، والصرب والاتراك العثمانيين. ورأى الإمبراطور أندرونيقوس الثاني Andronicus II (١٢٨٢- ١٣٢٨م) أن يستعين بالعناصر الآلانية القوقازيه لوقف الحظر التركي، فكون جيشان من هذه العناصر وولى عليهما أبنه ميخائيل ودفع به في عام ١٣٠٢م لمواجهة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى، ولكنه لم يوفق وهزم هزيمة ثقيلة - وخشى الإمبراطور من تطور

الموقف لغير صالحه، فاتجه إلى غازان خان المغول فى إيران (١٢٩٥ - ١٣٠٤) وزوجة أحدى بناته غير الشرعيات، ولكن غازان مات بعد أشهر قليلة، واضطر أندرونيقوس إلى اللجوء إلى المرتزقة.

ولجأ هذه المرة إلى فرقة المغاوير الأسبانية، وهى فرقة قد سرحت بعد الحروب الأسبانية وتولى أمرها القائد روجر دى فلور Roger de Flor، وقد تم الاتفاق مع هذه الفرقة على أن تتقاضى ضعف ما يتقاضاه الجنود المرتزقة، وبعض شروط أخرى. وقد نجح الإمبراطور بمساعدتهم فى إنزال هزيمة بالاتراك فى آسيا الصغرى عند جبال طوروس فى عام ١٣٠٥م، ولكنهم تمردوا بعد ذلك وسببوا متاعب كثيرة للإمبراطورية. وبدأ اضمحلال الجيش البيزنطى حتى إذا كان عام ١٤٥٣ لم تجد الإمبراطورية من يدافع عنها إلا القليل، فسقطت فى يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣م.

وفيما يتعلق بالأسطول فالحقيقة أنه لم ينل الاهتمام الذى ناله الجيش، فقد كان الجيش هو سلاح الخدمة الممتازة داخل الإمبراطورية البيزنطية. وإذا كنا استعرضا جانباً من الكتب التى ألفت فى فن الحرب والقتال للجيوش البريه، فعلى الرغم من ذلك لا نجد اهتماماً بوضع كتب عن فنون الحرب البحرية. والمطلع على كتاب الإمبراطور ليو السادس. فنون الحرب، الذى سبقت الإشارة إليه، لا تجد سوى القليل عن الحروب البحرية. كما أن كبير الأمناء بازيل Basil الذى عاش فى النصف الثانى من العاشر قد وضع كتاباً فى الشئون البحرية عنوانه Naumazhia ولكنه لم يتداول. أما الإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٤ - ٩٥٩م) فقد وردت له بعض المعلومات العرضية فى كتابه "إدارة الإمبراطورية" مثل النار الأغريقية التى اعتبرها من أسرار الإمبراطورية ولا يجوز تقديم معلومات عنها لأحد. وحتى المؤرخه أنا كومنينا فقد وضعت أمر الجيوش البرية فى مرتبه أعلى بكثير عن القوات

البحرية. ولذلك فأن معلوماتنا عن البحرية البيزنطية هى أقل من معلوماتنا حول القوات البرية.

ولعل عدم اهتمام الإمبراطورية بالبحرية فى بداية الأمر، أن البحر المتوسط كان بحيرة رومانيه ثم بيزنطية، ومعنى ذلك أن الحكومة البيزنطية التى ورثت الإمبراطورية الرومانية كانت تسيطر على البحر المتوسط والأراضى التى تقع على شواطئه وكانت كلها ولايات بيزنطية، فمن هنا لم يك هناك ضرورة إلى وجود أسطول عسكرى، واكتفت الإمبراطورية بالأسطول التجارى. ولم يك معرضا للأخطار الخارجية البحريه سوى مدينة القسطنطينية واكتفت الإمبراطورية بوضع قوات صغيرة لحراستها، خاصة أن العناصر الشمالية لم يك فى وسعها أن تقوم بأى عمل بحرى فى بدايات عصر الإمبراطورية.

ومع ظهور بعض الأساطيل فى البحر المتوسط مثلما فعل الوندال فى شمال إفريقيا أصبحت الحالة ملحة على الإمبراطورية لإعداد أسطول لمواجهة خطر الوندال الذين هاجموا روما عام ٤٥٥م. وإذا كان الإمبراطور جسيتنيان قد نجح فى هزيمة الوندال فى شمال إفريقيا فأن ذلك يرجع إلى الخطط العسكرية التى أعدها القائد بلزاريوس Belesarius، وهى الخطة التى تجنب فيها مواجهة الأسطول الوندالى، كما أن الأسطول الوندالى قد أصابه الضعف فى تلك المرحلة.

والحقيقة أن الفتوحات الإسلامية هى التى دعت الإمبراطورية البيزنطية إلى الاهتمام بالأسطول، فإن قوة المسلمين البحرية التى بدأت تنمو مع فتوحاتها الإسلامية فى الشام ومصر وشمال إفريقيا هل التى دفعت الإمبراطور هرقل إلى أعداد أسطول بيزنطي، يضاف إلى الخطر الإسلامى

أن السفر برا داخل الإمبراطورية قد أصبح صعبا إلى حد ما، فكان اللجوء إلى الطرق البحرية يجعل المواطنين البيزنطيين أكثر أمنا فى تحركاتهم ونقل تجارتهم. ولذلك كله أنشأت الإمبراطورية ألوية الثغور، وفى بداية الأمر أنشأ لواء كيبرأياتون Kibyraioton نسبه إلى مدينة كيبرا Kibyra الواقعة فى منتصف الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى، وقد تكفل هذا اللواء الذى تولى أمره قائد برتبه أمير بحر، بحماية الساحل الجنوبى لاسيا الصغرى وكافة جزر بحر إيجه التى تشكل المدخل الطبيعى إلى بحر مرمرة. وقد نجح الأسطول البيزنطى فى صد الأخطار التى واجهت القسطنطينية عندما هاجمها المسلمون فى عام ٧١٨م.

ولكن المشكلة جاءت عندما أصبح للقوات البحرية شأنا كبيرا فتدخلت فى شئون العرش البيزنطى وخلعت الإمبراطور ليونتوس Leontius ٦٩٥ - ٦٩٨م وعينت مكانه أبيسمار Apismaros المعروف باسم طيبريوس الثانى (٦٩٨ - ٧٠٥م). كما أن القوات البحرية تدخلت مرة أخرى وعزلت الإمبراطور جسيتنيان الثانى فى عام ٧١١م. وتصادف زيادة خطورة القوات البحرية مع أضمحلال قوة البحرية الإسلامية بعد نقل العاصمة من دمشق إلى بغداد، فرأى خلفاء الأسرة الأيسورية إلغاء القيادة العليا للأسطول، وإنقاص عدد السفن البحرية لدرجة لم تعد له خطورة على عرش الإمبراطورية.

ومما لا شك فيه أن إنقاص قدر القوات البحرية كان عملاً لا يصب فى مصلحة الإمبراطورية، فإذا كانت البحرية الإسلامية قد ضعفت فى الشرق فقد نمت كثيرا فى شمال أفريقيا والأندلس، وترتب على ذلك سقوط كريت فى أيدى المسلمين عام ٨٢٥م، وبدأ المسلمون من كريت يهددون سواحل بحر إيجه، أضف إلى ذلك سقوط صقليه فى عام ٩٠٥م ومن هنا فكرت الإمبراطورية فى إعادة الأسطول إلى سابق عهده وزادت فى قدراته البحرية.

وفى أواخر عصر الأسرة العمورية نجد الإمبراطور ميخائيل الثالث وزوجته ثيودورا، ومن بعدهم مؤسس الأسرة المقدونية بازيل الأول ٨٦٧ - ٨٨٦م) يعملون على إعادة تنظيم القوات البحرية وإعادة نظم الألوية البحرية وإضافة لواءات أخرى مثل لواء ساموس Samos نسبه إلى جزيرة تحمل الأسم نفسه تقع بالقرب من الشاطئ الأسيوى قرب الجزء الجنوبى الغربى وشمال جزيرة كريت. وأهم من ذلك كله تقرر وضع أسطول بحرى كبير على مقربة من العاصمة البيزنطية، وتولى أمر الأسطول الأخير أمير البحر Grand Drungarius، وكان يقف على أعلى درجة من سلم الدرجات الوظيفية فى الدولة.

وأثبتت البحرية البيزنطية قدرتها على مواجهة البحرية الإسلامية، ولكنها لم تستطع استرداد جزيرة صقلية من يد المسلمين، وإنما نجحت فى استرداد جنوب ايطاليا من أيديهم، وجاء فى كتاب إدارة الإمبراطورية أنه فى عهد الإمبراطور بازيل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦م) جاء المسلمون من إفريقيا فى ست وثلاثين سفينة ووصلوا إلى ساحل دالماشيا واستولوا على مدينة بوتوفا Butova ومدينة روسا Rossa ومدينة ديكاترا Decatera، ثم وصلوا إلى مدينة راجوزه Ragusa وحاصروها طيله خمسة عشر شهرا، وتحت وطأة هذا الحصار أرسل إليهم الإمبراطور البيزنطى أمير البحر العظيم نيقتاس أوريفاس Nicetas Oryphas على رأس مائة سفينة حربية. وقد نجح هذا الأسطول فى فك الحصار عن مدينة راجوزه واستعادة مدينة بارى Bari فى جنوب ايطاليا بعد قتال استمر من ٨٦٦ - ٨٦٨م.

أما فى بحر إيجه فإن البحرية الإسلامية بقيادة ليو الطرابلس أغارت على مدينة سالونيك عام ٩٠٤م، ولم تتمكن البحرية البيزنطية من مواجهته. وظلت الحرب البحرية سجالا بين القوات البحرية الإسلامية بقيادة ليو

الطرابلسى، والقائد البحرى البيزنطى هيمريوس Himerius حتى تمكن الأسطول البيزنطى من هزيمة ليو الطرابلسى فى عام ٩٢٤م، واستمر القتال البحرى مرة أخرى حول جزيرة كريت من عام ٩٦٠م حيث استعادتها بيزنطه، واستمرت حتى عام ٩٦٨ حتى استعادت البحرية البيزنطية جزيرة قبرص. وفى هذه المرحلة يمكن القول أن البحرية البيزنطية أصبح لها اليد الطولى على الأسطول الإسلامى لفترة طويلة من الزمن، وحق للإمبراطور نقفور فوكاس أن يقول للسفير الايطالى ليوتبراند أف كرمونا Liutprand of' Cremona، "أنا وحدى الذى يملك السيادة على البحر". وقال أو إدعى الإمبراطور قسطنطين السابع حق السيادة على جبل طارق رغم مخالفة ذلك للواقع.

ويمكن القول أن البحرية البيزنطية بلغت ذروتها فى تلك المرحلة، وأصبح لأمراء البحر قوة كبيرة داخل الإمبراطورية، فقد نجح أمير البحر رومانوس لسيكابنيوس فى الوصول إلى عرش الإمبراطورية عندما تزوج من الإمبراطورة زوى Zoe أرملة الإمبراطور ليو السادس فى عام ٩١٩م. ومن هنا تجدد الخوف من السلطة الكبيرة التى يتمتع بها أمراء البحر، وبدأ العمل على تخفيض قدرة القوات البحرية بحجة الاقتصاد فى النفقات، وأنه لم يعد فى البحر المتوسط أعداء يخشى بأسهم. والباحث فى تاريخ البحرية البيزنطية يجد أن الإمبراطور بازيل الثانى قد كلف فى عام ٩٩٢م جمهورية البنادقة بحراسة البحر الادرياتيكى ونقل القوات البيزنطية إذا دعت الحاجة.

وفى محاولة من جانب الإمبراطورية التوفيق بين الخوف على العرش والحاجة إلى القوات البرية والبحرية، قد تدخلت فتوحات سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى واستولت على أراضى واسعة من أراضى الإمبراطور تكاد تصل إلى نصف مساحة آسيا الصغرى، فأفسد هذا التوسع كل نظم الألوية

البرية والبحرية. وحاول الكسيوس كومنيين أعادة تكوين البحرية البيزنطية، وقد نجح فى ذلك إلى حد ما مكنه من مقاومة الأسطول الجنيوى والبيزى، ولكن حفيده الإمبراطور مانويل كومنيين أفسد كل ما تركه له أسلافه عندما انهزم أسطوله ومن حالفوه من الصليبيين أمام مدينة دمياط فى عام ١١٦٩م، وتلا ذلك بعد سبع سنوات فقط أن الجيش البرى البيزنطى قد لقى هزيمه ثقيلة فى عام ١١٧٦م فى معركة ميريوكيفالون أمام سلاجقة الروم، وبذلك تمزق الجيش البيزنطى كما سبق وأن دُمرت البحرية البيزنطية، حتى إذا كانت سنه ١٢٠٤م لم تجد العاصمة البيزنطية من يدافع عنها أمام قوات الحملة الصليبية الرابعة.

وبعد ما قامت الإمبراطورية البيزنطية فى المنفى واتخذت مدينة نيقية ـ صمة لها، أهتم الأباطرة بالعمارة البحرية. وعندما عادت الإمبراطورية إلى القسطنطينية مرة أخرى فى عام ١٢٦١م لم يكن لديهم غير أسطول صغير يكفى للدفاع عن أراضى الإمبراطورية فى وضعها الجديد وهى التى كانت تتكون من مدينة القسطنطينية وما حولها، وإمارة سالونيك وإمارة المورة، ورغم الصورة المصغرة للأسطول البيزنطى والقوات المسلحة إلا أن حال البحرية كان أفضل من الجيش، ولكنه كان أضعف من أن يصمد فى وجه الجمهوريات أو القومونات الإيطالية مثل جنوه وبيزه والبندقيه. ومن تبقى من القوات البرية والسفن البيزنطية لم تصمد فى القتال الذى قام به الاتراك العثمانيين فى الحصار النهائى للقسطنطينية عام ١٤٥٣م.

أما عن أنواع السفن التى استخدمتها البحرية البيزنطية، فمن المعروف لدينا أهم أربعة أنواع رئيسة هى:

١- **الدرمونه**: Dromond، أو العداءة، وهى سفينة ثنائية أى أنها تعمل بصفين من المجاديف، ويعمل عليها من مائتين إلى ثلاثمائة رجل، ويبدوا أنها كانت من السفن سريعة الحركة. وقد قدم لنا ليو السادس فى كتابه فن الحرب والقتال Tactica جانبا طيبا عن وصف هذه السفينة وكيفية القتال عليها.

٢- **البامفلية**: Biremes وهى من طراز يختلف عن الدمونه، وهى ثنائية أيضاً، وأسرع حركة كذلك. وكان أمير البحر البيزنطى يتولى أمر قيادة الأسطول من على مثل هذه السفينية، وبذلك عرفت بإسم سفينة العلم.

٣- **الشانيه**: Galley، وتعرف أيضا بأسم الغليون، وهى سفينة حربية كبيرة ومن أهم قطع الأسطول، وكان عليها صفوف من المجاديف، وتقام عليها الابراج للدفاع والهجوم.

٤- **الأشكيف**: Skiff وهى نوع من الزوارق الصغيرة، ويبدو أنها كانت تعمل بين السفن وبعضها البعض لنقل المواد فى الموانى، أو حالة رسو السفن البحرية فى ميناء الأعداء.

وبالإضافة إلى هذه الأنواع من السفن فكثيراً ما لجأت الإمبراطورية إلى استخدام السفن التجارية كما حدث فى عام ٩٤١م عندما أغار الروس على الإمبراطورية، وربما يرجع ذلك إلى عدم وجود السفن الحربية الكافية، أو أن الأسطول كان مشغولاً بالقتال فى مكان آخر.

وكانت السفن تسلح بوسائل عدة، ولعل اهمها النار الأغريقية، ولعل خير ما قدم معلومات عنها الإمبراطور قسطنطين السابع ٩٤٤ - ٩٠٩م، فى كتابه إدارة الإمبراطورية الذى قدم فيه وصاياه لابنه، ومن ضمن هذه الوصايا

ما ذكره عن النار الأغريقية، وجاء فيها "ويجب عليك أيضاً يا بنى أن توجه اهتمامك وتفكيرك إلى موضوع النار السائله [النار الإغريقية] التى توضع داخل القوارير. وإذا ما طلبها أحد كما تُطلب منا كثيراً الآن فما عليك إلا الرفض والرد عليه ببعض العبارات منها: أن النار السائله تعلمها واكتشفها الإمبراطور قسطنطين الكبير من الرب عن طريق الملاك، وقد أخذ الله منه هذا العهد عن طريق هذا الملاك، كما أكد لنا آباؤنا وأجدادنا اللذين نثق بهم. وأن هذه النار لا تصنع إلا بمعرفة المسيحيين وفى المدينة التى يحكمونها، ويجب ألا ترسل أو تعرف طريقها إلى أى بلد آخر أياً كان. ولكى يتأكد الإمبراطور قسطنطين أن خلفاءه سيحترمون هذا العهد، فقد أعلن بأن اللعنات ستحل بمن يتجزأ ويعطى هذه النار إلى دولة أخرى، ويطرد من رحمة الكنيسة ولا يسمى مسيحيا، ولا يقبل فى أى وظيفة أو عمل، وإذا كان يشغل وظيفة ما يجب طرده منها، ويوصم باللعنه..." والحقيقة أن الذى اخترع النار الإغريقية شاب من مدينة بعلبك فى لبنان الآن يدعى كالينيكوس Callinicus حوالى عام ٦٧٣م، وكان الإمبراطور قسطنطين السابع يعلم ذلك جيداً ولكن ما ذكره لابنه هو وضع الأمور فى موضع الأسطورة التى تخيف الناس.

وواقع الحال أن المدن البحرية الكبرى فى الإمبراطورية كانت مخازنها تحتوى على هذه المادة. ويذكر لنا المؤرخ ثيوفانيس فى أحداث عام ٨١٢ – ٨١٣م أى فى عهد الإمبراطور ميخائيل الأول (٨١١ – ٨١٣م) أن خان البلغار كروم Krum استولى على مدينه مسمبريا Mesembria الواقعة على البحر الأسود، وأن القوات البلغارية استولت على سته وثلاثين قاذف لهب، وكمية غير قليلة من النار السائله (النار الإغريقية)، وكمية كبيرة من الذهب والفضه. وكان فى ذلك كارثة عظيمة على بيزنطه ليس بسبب الذهب والفضه، ولكن خشية اكتشاف سر النار الإغريقية.

أما فيما يتعلق بفنون الحروب البحرية فيقول ليو السادس فى كتابه فن الحرب، يجب على القيادة البحرية تجنب المعارك الفاصلة إلا إذا كان أسطول العدو فى وضع سئ، وأن عليها اتخاذ الحذر فى كافة العمليات الحربية، مع استخدام المناوشات كلما أمكن. وكان يفضل أن تقاتل القوات البحرية فى تشكيلة هلاليه أى وضع السفن البيزنطية فى شكل قوس. ويجب تدريب البحارة على إعطاء الإشارات التى كانت تتم بالأعلام أو استخدام النار ليلا. وعلى القيادة البحرية أن تكون على معرفة تامة بالرياح واتجاهها والنوات البحرية ومواعيدها، وكذلك التيارات المائية. وعلى القيادة أن تتجنب السواحل الوعرة. وليس لدينا بعد ما ذكره ليو السادس، أى بحث أو عمل أو كتاب فنى يدرس بدقة العمليات البحرية. وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد ورثت مجد روما، فأنهم ورثوه ليتغنوا به وقرأوه دون تحمس، وأنهم فضلوا أساليب الحرب البرية عن الحروب البحرية.

والحقيقة أن الحديث والبحث فى العمليات البريه والبحرية البيزنطية يحتاج إلى مجلدات، ولكن الباحث سوف يكتفى أن يقدم على هذه الصفحات إحدى المعارك البحريه، وهى الحملة على دمياط فى عام ١١٦٩م، التى تولى أمرها ضد القوات البيزنطية والصليبية صلاح الدين الأيوبى، ومعركة أخرى هى معركة ميريوكيفالون فى عام ١١٧٦م التى تولى أمرها سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى بقيادة السلطان قلج أرسلان الثانى (١١٥٦- ١١٨٨م). ويلاحظ أن الفرق بين المعركتين حوالى تسع سنوات، ويستطيع المطلع بعد ذلك أن يرى بنفسه إلى أى مدى أصبحت القوة البيزنطية البحرية والبرية فى تلك المرحلة. وسوف أتناول المعركتين مباشرة دون الدخول فى مقدمات.

وفيما يتعلق بالحملة البيزنطية الصليبية على دمياط. فقد كان الملك الصليبى عمورى الأول Amalic I (١١٦٢ - ١١٧٣م) يفكر فى غزو

مصر، وحاول البحث عن حلفاء في أوربا ولكنه فشل فاتجه إلى الإمبراطورية البيزنطية التى وافقت على الفكرة وذكر مؤرخوها أن مصر كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية ويجب أن تعود إليها مرة أخرى واستعدت الحملة البيزنطية. وتولى قيادة الأسطول البيزنطى أندرونيكوس كونتوستفانوس Andronicus Contostephanus. ويعاونه فى هذه المهمة مايورك Maurice الذى كان يتمتع بالثقة الكبيرة لدى الإمبراطور، والكسندر أف كونفرسانا Alexandre of Gonversana أحد نبلاء أبوليا – نظراً لإخلاصه وولائه للإمبراطورية. وخرج الأسطول فى الخامس عشر من يوليو عام ١١٦٩م/ الثامن عشر من ذى القعدة عام ٥٦٤هـ من مياه الدردنيل واتجه إلى قبرص فوجد في طريقه سفينتين مصريتين فأسرهما. ولعل ما قام الأسطول البيزنطي كان انتقاماً من مهاجمة بعض السفن المصرية لجزيرة قبرص عام ١١٥٨م. وعندما وصل الأسطول البيزنطى إلى جزيرة قبرص أرسل قائده حوالى عشرة سفن إلى عكا تحمل الأموال المتفق عليها اللازمة للصرف على القوات الصليبية، ولتحمل أيضاً إلى الملك عمورى خبر تجمع الأسطول فى قبرص وأنها على استعداد للاقلاع إلى مصر عندما يكون عمورى وقواته مستعدين للرحيل. وظل الأسطول البيزنطى فى قبرص حتى شهر سبتمبر دون أن يصل ما يفيد باستكمال استعداد القوات الصليبية للرحيل.

وعلى ما يبدو أن الملك عمورى كان يحتاج لبعض الوقت لإعداد القوات وتنظيم شئون دولته أثناء غيابه فى مصر، وكان عليه أن يعد بعض القوات لحماية المملكة فترة تواجده خارج البلاد، وهذا يدل على أن الإمبراطور كان أكثر استعداداً وتحمسا لغزو مصر. ففى إعداد الأسطول فى وقت مبكر ويمثل هذه الأعداد التى تفوق الأعداد المتفق عليها لخير دليل على ذلك. ولعل الملك عمورى عندما شاهد ذلك خشى من التفوق الحربى البيزنطى

فى غزو مصر والإنفراد بها مما دفعه إلى التردد بعض الوقت فى الانضمام إلى الحملة، وعلى أية حال فإن سقوط مصر فى أيدى البيزنطيين لا يهدد أمن الإمارات الصليبية بالقدر الذى تهدد به القوات الإسلامية التى أصبحت تسيطر على مصر والشام فى ذلك الوقت. والواضح أن الملك عمورى رأى الانضمام للحملة البحرية البيزنطية حتى لا تبقى مصر فى أيدى حكام الشام المسلمين، أو تقع فى أيدى القوات البيزنطية إذا رأت الانفراد بالحملة ومهاجمة مصر.

استعدت القوات الصليبية وأرسل عمورى فى طلب الأسطول البيزنطى من قبرص، وأعطى أوامره لجميع القوات بالتجمع فى عسقلان فى الخامس عشر من أكتوبر عام ١١٦٩م/ آخر المحرم ٥٦٦هـ، ثم ما لبث أن وصل الأسطول البيزنطى إلى مدينة صور ثم تقدم إلى مدينة عكا ومنها إلى عسقلان. وكانت وجهة الحملة مدينة دمياط "ليتمكن القاصد لها من البر والبحر"، فإن ملكوها "يتخذونها ظهيراً يملكون به الديار المصرية". إذا كانت أطماع الصليبيين فى مصر باتت واضحة، فلعل الإمبراطورية البيزنطية كانت ترمى أيضاً من وراء السيطرة على مصر فى هذا الوقت بالذات هو ضرب تجارة البنادقة نظراً للصراع الدائر بينهما فى ذلك الحين.

سار الجيش الصليبى من عسقلان فى السادس عشر من أكتوبر/ أول صفر أى فى اليوم التالى لتجمع القوات فى عسقلان واتخذت طريقها إلى مصر، وقد وصلت إلى مدينة الفرما - التى كانت خربة فى ذلك الوقت - بعد تسعة أيام، وحاولوا السير بمحازاة الشاطئ ولكنهم اضطروا للابتعاد عن الطريق الساحلى لكثرة المياه التى تغمر هذه المنطقة واضطروا إلى الدوران حول المستنقعات ثم عادوا إلى الطريق الساحلى حتى وصلوا إلى بوغاز بحيرة تنيس (المنزلة حاليا). وقد ساعدت بعض قطع الأسطول البيزنطي التى كانت تسير بحذاء الشاطئ على نقلهم إلى الجهة المقابلة ثم واصلوا مسيرتهم

حتى وصلوا إلى شمالى دمياط فى السابع والعشرين من أكتوبر/ الثالث من صفر وعسكرت فى المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة. وظلت فى انتظار تجمع الأسطول البيزنطى التى تباعدت معظم قطعه بسبب شدة الرياح وهياج البحر. ولكن هذا الانتظار لم يدم طويلاً فقد تجمعت السفن بعد ثلاثة أيام بعد هدوء الأمواج ودخلت فم النيل، ورست مقابل القوات الصليبية ولم تتمكن من السير فى النيل بعد ذلك بسبب وجود السلسلة التى تمتد من دمياط إلى برج السلسلة.

وكان صلاح الدين الأيوبى قد خلف شيركوه فى حكم مصر، ولما علم بأخبار هذه الحملة فقام بتحصين بلبيس والإسكندرية والقاهرة ظنا منه أن الحملة ستسلك احدى الطرق التى سلكتها فى الحملات السابقة، وبقى صلاح الدين بالقاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده. ولما علم بوصول القوات المتحالفة عند دمياط أرسل إليها الرجال والسلاح بقيادة أخيه تقى الدين عمر وخاله شهاب الدين. كام أرسل عدداً كبيراً من السفن اتخذت طريقها إلى الشمال فى فرع دمياط لنجدة المدينة، وفى الوقت نفسه أرسل إلى نور الدين فى دمشق يخبره بما حدث "ويشكو المخافة من تواجد الفرنج فى دمياط "ويقول "أنى أن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وأن سرت إليها خلفنى المصريون فى أهلها وأموالها بالشر، وخرجوا عن طاعتى وساروا فى إثرى، والفرنج من أمامى. فلا يبقى لنا بقية" فسير إليه نور الدين العساكر تباعاً كما قام بالاغارة على ممتلكات الصليبيين فى الشام كعادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبي.

وفى الوقت نفسه تشجعت القوات الصليبية بعدما وصل الأسطول البيزنطى وبدأت فى اقامة معسكرها فى الحدائق المنتشرة بين البحر والمدينة، وكان لهذا التأخير نتائج سيئة على الحملة ستظهر آثارها فيما بعد، لأن المدينة

قد امتلأت بالرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات الحرب، وبذلك ضاع أمل الصليبيين والبيزنطيين فى الاستيلاء على دمياط بسهولة، وكان عليهم بذل جهداً كبيراً حتى يتمكنوا من اقتحام المدينة. لذلك قاموا باعداد برج خشبى ضخم مكون من سبعة طوابق حتى يتمكنوا من رؤية ما يجرى داخل المدينة من أعلاه. وأثناء العمل فى تشييد هذا البرج كانت المنجانيقات تضرب المدينة لتحمى العمال الذين يقومون بصنع البرج. ورغم ذلك كله فقد صبر أهل دمياط رغم كثرة القوات المتحالفة وشدة القتال. وعلى ما يبدو أن الصليبيين لم يتمكنوا من إنزال الضرر بالمدينة تمهيداً لاقتحامها. لذلك فكروا فى حيلة أخرى ليصلوا إلى قلب دمياط، وحاولوا إقامة بعض السراديب ليصلوا إلى المدينة من تحت الأسوار والواضح أن فكرة حفر السراديب قد باءت بالفشل نظراً لوجود المياه فى الخنادق التى تفصل بين الأسوار وتحيط بالمدينة، أو أن قذائف المدافعين عن المدينة قد حالت دون ذلك.

عاد الصليبيون إلى استعمال البرج الخشبى مرة أخرى وضرب المدينة بالمنجانيقات، وقد تسبب ذلك فى هدم جزء من سور المدينة والمنازل المجاورة له، ورغم اشتداد هجمات القوات المتحالفة على دمياط إلا أن أهل المدينة ظلوا ثابتين على قتال المهاجمين، وعلى ما يبدو أن ما تهدم من السور كان جزءاً بسيطاً، وفى مكان مرتفع لا يسمح بدخول الصليبيين إلى المدينة.

ويروى المؤرخ وليم الصورى أن القوات الإسلامية لم تقف مكتوفة الأيدى إزاء محاولات القوات المتحالفة اقتحام المدينة، فقاموا بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبى وشحنوه بالمقاتلة لمقاومة الجهود الصليبية البيزنطية بالفكرة نفسها، وقد ردوا على اعتداءات المهاجمين بالعنف نفسه. ويضيف نفس المؤرخ مشيداً بالجهود الضخمة والمهارة الفائقة التى أبداها المسلمون فى الدفاع عن مدينتهم وأنهم تفوقوا على القوات المتحالفة التى

شعرت بهذا التفوق فى الوقت الذى انهارت فيه الروح المعنوية للمتحالفين وأصبحوا لا يلتزمون بجدية القتال. وليس ذلك فحسب فقد أصيبت القيادة المتحالفة بالارتباك؛ والدليل على ذلك أن القوات المتحالفة أعدت بعض الأبراج الخشبية المتحركة ليقاتلوا بها القوات الإسلامية التى تتمركز فى أبراج المدينة، ولكن القوات المتحالفة قامت بمهاجمة النقط الحصينة فى المدينة رغم وجود بعض الأماكن الضعيفة التى لم تكن محمية بما فيه الكفاية بالقوات الإسلامية وكان يمكن السيطرة عليها بسهولة، وبذلك لم تتمكن القوات المتحالفة من إنزال أى ضرر سوى هدم كنيسة السيدة العذراء التى كانت ملاصقة للسور.

وإذا كان ذلك هو الحال مع القوات البرية فإن الأسطول البيزنطى لم يتمكن من الدخول فى فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدنية، وبذلك أصبح عاجزاً عن تقديم المساعدة العسكرية التى كانت متوقعة، وليس ذلك فحسب فإن القوات البحرية البيزنطية كانت تحمل معها المؤن التى تكفيها لمدة ثلاثة أشهر منذ إبحارها من مياه الدردنيل فى منتصف يوليو عام ١١٦٩م ولم يكن بوسع جزيرة قبرص أن تمد القوات البيزنطية بالأقوات اللازمة بعد التخريب الذى لحق بها من جراء غارات رينو أف شاتيون Renault of Chatillion (أرناط) وما لحق بها من زلزال بعد ذلك فى عام ١١٥٨م. كما أنها لم تستطع الحصول على المؤن اللازمة من مدينة عكا وبذلك كانت المؤن البيزنطية قد أوشكت على الانتهاء فور إبحارها من عسقلان فى منتصف أكتوبر عام ١١٦٩م، لذلك بدأت القوات البيزنطية تعانى من نقص الأقوات فور وصولها إلى دمياط ثم ما لبثت أن نفذت الأقوات تماما، ولم تجد القوات البيزنطية ما تقتات به سوى ثمار النخيل التى حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة، ولكن هذه الثمار قد نفذت هى الأخرى بعد ثلاثة أيام،

وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعا واضطرت لأكل الأعشاب. وهكذا انشغل البيزنطيون بأمر الطعام لا بأمر الحرب. وفى الوقت الذى كانت فيه القوات البيزنطية تموت جوعاً، كانت القوات الصليبية تحتفظ بكمية وفيرة من الطعام ولكنها ضنت بها على القوات البيزنطية، لأن الصليبيين كانوا يخشون من طول فترة القتال فيتعرضون للمجاعة بعد ذلك.

بدأ شبح الهزيمة يحوم حول القوات المتحالفة بعد هذه المجاعة ولا شك أن تصرف الصليبيين ازاء حلفائهم البيزنطيين وعدم إمدادهم بالأقوات قد بذر بذور الشقاق بين القوات المتحالفة. كما بدأت ملامح النصر تبشر القوات الإسلامية وذلك بفضل الإمدادات التى كان يرسلها صلاح الدين بصورة متلاحقة إلى دمياط. وزاد اقتراب المسلمين من النصر كارثة أخرى تعرضت لها القوات المتحالفة التى تعسكر بين المدينة والساحل، فقد هبت عاصفة شديدة مصحوبة بسقوط كمية كبيرة من الأمطار أدت إلى إغراق خيام القوات المتحالفة وسببت لهم خسائر جسيمة فى المعدات واضطروا لحفر الخنادق حول خيامهم لتجنب المياه، ومن الواضح أن حفر الخنادق حول الخيام قد أدى إلى انعزال القوات عن بعضها. كما أن حفر الخنادق حول الخيام يؤثر إلى حد كبير فى كفاءة القوات القتالية ويعوق من حركتها مما يسهل مهمة القوات الإسلامية فى إنزال الهزيمة بالمعتدين.

وفى وسط هذه الكوارث التى لاحقت القوات المتحالفة لاحت للمسلمين فكرة استغلال الرياح الجنوبية التى هبت على منطقة دمياط فى ذلك الوقت. فأحضر المسلمون قاربا وشحنوه بالأخشاب والقطران وبعض المواد الأخرى القابلة للاشتعال وأضرموا فيها النار وساعدت الرياح الجنوبية على دفع القارب المشتعل فى أتجاه السفن البيزنطية المكدسة فى النيل شمالى دمياط، وبينما كان القارب يسير ملتهبا على ظهر النيل فى طريقة إلى السفن البيزنطية

دب الذعر فى القوات المتحالفة بعامة وفى البحارة البيزنطيين بخاصة لا سيما أن البحارة كانوا داخل معسكراتهم شمالى دمياط، وعلى ما يبدو أن الوقت كان ليلا بدليل ما قام به الملك عمورى عندما علم بأمر القارب بدور ملحوظ فى ايقاظ البحارة الذين حاولوا بكل الطرق الحد من الكارثة المقبلة، ولكنهم لم يتمكنوا من الوصول إلى سفنهم الا بعد ما اصطدم القارب بالسفن البيزنطية وأحرقت منها ست شوانى وأتت عليها تماما. وأخيرا نجح البحارة البيزنطيون فى فصل السفن عن بعضها لانقاذ البقية الباقية.

وبعدما لاحظ المسلمون الحالة السيئة التى تعانى منها القوات المتحالفة بسبب المجاعة والأضرار التى لحقت بهم بعد ما اجتاحت السيول معسكراتهم يضاف إلى ذلك إحراق المسلمين لبعض السفن البيزنطية تشجعت القوات الإسلامية وشعرت بالثقة، وتحولت للهجوم على معسكرات القوات المتحالفة ونقلوا ميدان المعركة خارج مدينة دمياط، وتمكنوا من شن الهجوم على المعسكر البيزنطى. فقد نجح المسلمون فى التسلل عبر بعض الفتحات السرية فى سور المدينة وقاموا بهجوم مفاجئ على القوات البيزنطية التى انهارت قواها بسبب المجاعة ولم يعد لديها القدرة على الحرب، وحاول القائد البيزنطى أندرونيكوس كونتوستفانوس الدفاع عن المعسكر وأبدى شجاعة ملحوظة فى دفع القوات الإسلامية. ولكن الواضح لنا أن القوات الإسلامية قد نجحت فى إنزال الخسائر بالقوات البيزنطية، وفى الوقت نفسه صمتت المصادر التى تحت أيدينا عن موقف القوات الصليبية من الهجوم على إخوانهم البيزنطيين مما يدفعنا إلى القول أن القوات الصليبية تراخت فى الدفاع عن المعسكر البيزنطى.

وبعد هذه المعركة بدأت الشائعات تتردد داخل خيام القوات المتحالفة، ولعل هذه الشائعات كانت بسبب سوء نية القوات المتحالفة وخوف كل فريق

من الآخر من أن يستأثر بمدينة دمياط لنفسه عند سقوطها، كما بدأت القوات المتحالفة تشعر بضرورة العودة إلى أوطانها حتى لا يهلكون جوعا أو بحد السيف فى أرض مصر، لذلك بدأ التفكير فى عقد الهدنة مع المسلمين للانسحاب إلى بلادهم، خاصة وأن نور الدين قد ألهب بلاد الصليبيين بالغارات. ويفهم من رواية وليم الصورى أن القادة الصليبيين والبيزنطيين اشتركوا فى وضع شروط الهدنة وتنفيذ بنودها. فقد روى أن بعض القادة الصليبيين هم الذين تولوا عقد الهدنة مع بعض القادة المسلمين وأن أحد القادة البيزنطيين يدعى جيفيلينو Jevelino هو الذى تولى تنفيذ شروط الاتفاق بكل دقة. ويتضح من ذلك أن الصليبيين هم الذين شرعوا أولا قبل البيزنطيين فى عقد الهدنة مع المسلمين. ولا يعنى ذلك أن البيزنطيين لم يكونوا راغبين فى الاتفاق على الانسحاب من مصر بدليل قيام أحد القادة البيزنطيين بتنفيذ شروط الهدنة، كما وأن حالة القوات البيزنطية عند دمياط كانت تشير إلى سوء حالتهم وأن الأفضل لهم العودة إلى أوطانهم بأسرع وقت.

وإذا قمنا بتحليل العوامل التى أدت إلى هزيمة الحملة الصليبية البيزنطية على دمياط نرى أن بعضها يرجع إلى الجانب البيزنطى وبعضها الآخر إلى الجانب الصليبى وأخيرا كانت هناك أسباب ترجع إلى الجانب الإسلامى. وفيما يتعلق بالجانب البيزنطى نرى أن القائد البيزنطى أندرونيكوس قائدا بريا، وليس قائدا بحريا لذلك لم يستخدم الأسطول البيزنطى استخداما عسكريا فى الهجوم على مدينة دمياط، وأن الدور الذى قام به الأسطول اقتصر على نقل القوات حتى ساحل دمياط، ومما يدل على ضعف بصيرة القائد البيزنطى هو ترك السفن البيزنطية متلاصقة فى النيل مما سهل مهمة القوات الإسلامية فى إحراق عدد منها. كما أن القيادة البيزنطية كانت متراخية ومتساهلة فى إصدار التعليمات العسكرية التى تكفل أمن سفنها حتى

تترك البحارة البيزنطيين يبيتون خارج سفنهم أثناء العمليات العسكرية. ومن الأسباب التى تتعلق بالجانب البيزنطى أيضاً انتشار المجاعة بين القوات البيزنطية، ويروى وليم الصورى فى هذا الصدد أن الإمبراطور وعد بارسال الأموال اللازمة ولكنه لم ينفذ وعده، ولذلك قاسى الجيش البيزنطى من المجاعة، وفى تصورى أن عدم ارسال الإمبراطور مانويل للأموال ليس بالسبب الذى يؤدى إلى المجاعة، لأنه لو جاءت الأموال للحملة وهى عند سواحل مصر فإن هذه الأموال ستصبح عديمة الفائدة لأن أهل مصر ربما لا يبيعون الأقوات للحملة، والسبب الرئيسى فى هذه المجاعة يرجع إلى قائد الأسطول البيزنطى لأنه أبحر إلى دمياط ومؤنه على وشك النفاذ. وربما يرد على ذلك بأن الملك عمورى لم يكن مستعد اللابحار فور استعداد الأسطول البيزنطى وأنه السبب فى تأخير رحيل الحملة حتى نفذت الأقوات، وهنا يمكن القول أن قائد كل قطاع مسئول عن قطاعه وأعلم بشئونه، وأن القائد البيزنطى كان عليه تدارك الأمر قبل فوات الأوان إلا إذا كان القائد البيزنطى كان يرى أنه سيستولى على دمياط بين يوم وليلة وفى هذا خطأ آخر يرجع إلى غروره وقلة بصيرته.

أما عن الأسباب الخاصة بالجانب الصليبى فيمكن ارجاعها إلى الملك عمورى، لأن القوات الصليبية أخرت الهجوم على المدينة لمدة ثلاثة أيام حتى يصل الأسطول البيزنطى. وربما يكون للقيادة الصليبية عذرها إذا كانت قواتها قليلة العدد، ولكنه إذا كان حجم القوات البيزنطية قد وصل إلى حوالى خمسة وعشرين ألف فالأرجح أن تكون القوات الصليبية بالعدد نفسه استنادا إلى الأتفاق الخاص بغزو مصر الذى يقضى باقتسام مصر بين البيزنطيين والصليبيين. والمهم أن تأخير الهجوم على المدينة قد أعطى الفرصة للمسلمين لتحصين المدينة وإمدادها بالرجال والسلاح لمقاومة القوات المتحالفة. وعامل

ثان تقع مسئوليته على الجانب الصليبى، وهو أنانية القوات الصليبية التى ضنت على القوات البيزنطية بالأقوات وهى تراها تهلك جوعا، وإن كان عذر الصليبيين فى ذلك هو الخوف من مجاعة تلحق بقواتهم فيما بعد فانهم بهذا العمل قد منعوا القوات البيزنطية من التعامل عسكريا مع المسلمين وأصبحت القوى البيزنطية عديمة الفائدة بعدما خارت قواها. وعامل ثالث يعزى إلى القيادة الصليبية وهو أنه عندما نقل المسلمون ميدان المعركة خارج مدينة دمياط وانقضوا على المعسكر البيزنطى المنهار من جراء المجاعة نرى القوات الصليبية تقف موقف المتفرج ولا تدافع عن القوات البيزنطية.

وبعدما قمنا بتحليل مسئولية الجانب البيزنطى والجانب الصليبى كل على حده، نرى أن بعض جوانب فشل الحملة يرجع إلى الجانبين معا. وأول هذه الأسباب يرجع إلى اختيار الوقت الذى قدمت فيه الحملة إلى مصر وهو فصل الشتاء وكان من نتيجة ذلك تعرض الحملة للعواصف والسيول التى أغرقت معسكرات القوات المتحالفة وأثرت على كفاءتها القتالية. والسبب الثانى يرجع إلى اختيار المكان الذى عسكرت فيه القوات المتحالفة وهى المنطقة التى تمتد من دمياط شمالاً حتى البحر وقد قدرها المؤرخ وليم الصورى بحوالى ميل واحد، وتمتد بطول الساحل، فإن هذه المنطقة لا تكفي لاستيعاب قوات الحملة التى بلغ عددها ما يقرب من خمسين ألفا إلا إذا حشرت فيها وبذلك تصبح صيدا سهلا لقذائف المسلمين، وإذا انتشرت شرقا على طول الساحل فإن الجزء المواجه للمدينة من القوات المتحالفة لا يكفى لاسقاط المدينة. وإذا كان السبب الأول يتعلق بالزمان والسبب الثانى يتعلق بالمكان فإن السبب الثالث يختص بعدم وجود قيادة موحدة للحملة، ومثال ذلك ما نراه من الخلل الذى أصاب عمليات الهجوم على المدينة ومن وجود بعض الأقوات عند الصليبيين ولا نراها عند البيزنطيين وعدم مساندة الصليبيين

للبيزنطيين عندما شن المسلمون الهجوم على المعسكر البيزنطي. ولا شك أن عدم وجود قيادة موحدة تتولى قيادة الحملة قد أدى إلى سوء التفاهم بين الجانبين وعمل على نشر الشائعات داخل معسكراتهم واتهام كل جانب منهم الجانب الآخر بأنه السبب في فشل الحملة، ويروى ميخائيل السرياني أن البيزنطيين حاولوا خداع الصليبيين للاستيلاء على دمياط لصالحهم.

أما عن الأسباب التي أدت إلى فشل الحملة وتتعلق بالجانب الإسلامي، فأول ما يطالعنا منها هو صمود شعب مدينة دمياط في وجه المعتدين، خاصة وأن المدينة لم تكن محصنة بما فيه الكفاية لمواجهة مثل هذه الاعتداءات. والسبب الثاني يرجع إلى سرعة ارسال صلاح الدين للقوات والمؤن والسلاح للدفاع عن المدينة وفي مقدمتهم ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين بالإضافة إلى مجموعة من الأعيان، ولا شك أن وصول مثل هذه الشخصيات إلى دمياط قد رفع من الروح المعنوية لأهل المدينة. ثالثاً، اتحاد القوات الإسلامية في مصر والشام -بهدف دفع المعتدين - بصورة خالصة النية لم تكمن مألوفة بين مصر والشام في هذا الوقت، وهي نقطة في غاية الأهمية وسيكون لها أثرها البعيد في منطقة الشرق الأدنى بأكملها. رابعاً، القدرة العسكرية للقوات الإسلامية وحسن بصيرتها ومن ذلك أن القوات الإسلامية عندما فكرت في مهاجمة معسكرات القوات المتحالفة لم تقم بمهاجمة معسكرات الصليبيين بل قامت بمهاجمة المعسكرات البيزنطية حيث تهلك القوات البيزنطية جوعاً، لذلك كانت غارات المسلمين مؤثرة وفعالة. وأخيراً فقد كان لموقف نور الدين الذي قام بارسال القوات تباعاً إلى مصر وقيامه كعادته بالضغط على الصليبيين بالشام، ومهاجمة أملاكهم الأمر الذي ساعد على إنهاء العمليات العسكرية في مصر والعودة إلى بلادهم. وفي ختام هذا التحليل نوضح سرعة وحسن تصرف القوات الإسلامية وابتكار أساليب جديدة

فى فنون الحرب، وذلك عندما استغل المسلمون ظاهرة هبوب الرياح الجنوبية ليشعلوا قارباً إسلامياً لتدفعه هذه الرياح إلى السفن البيزنطية فتنزل بها أفدح الخسائر.

وبكل هذه الأسباب مجتمعة فشلت الحملة وعقدت الهدنة بين الطرفين، وبعد ما عقدت الهدنة سمح المسلمون للقوات البيزنطية والصليبية بالانتقال بين المعسكر ومدينة دمياط وكان المسلمون فى غاية الكرم فاقاموا الأسواق لأعدائهم ليحصلوا على ما يحتاجون إليه من الأقوات، وقد ظلت الأسواق لمدة ثلاثة أيام استعدت خلالها القوات المتحالفة للرحيل، بعدما أحرقت ما ثقل عليها حمله من المنجانيقات وغيرها، واتخذت طريقها إلى بلادها فى الخامس والعشرين من ربيع الأول عام ٥٦٥هـ/ السابع عشر من ديسمبر عام ١١٦٩م أى بعد حوالى خمسون يوماً من القتال. واتخذت القوات الصليبية طريقها براً إلى الأراضى المقدسة، أما السفن البيزنطية فقد أبحرت من دمياط ولكنها تعرضت لعاصفة عنيفة أغرقت معظمها وقذفت الأمواج بجثث البيزنطيين إلى الساحل الشامي وظلت البقية الباقية تحت رحمة الأمواج التى دفعت بعضها إلى سواحل قيليقية ومنها سفينة القائد البيزنطى أندرونيكوس الذى اتخذ طريقه براً من قيليقية حتى القسطنطينية.

أما فيما يتعلق بمعركة ميريوكيفالون وهي من المعارك البرية الهامة في التاريخ البيزنطي فقد كان الصراع بين سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ضد الإمبراطورية لم يتوقف إلا قليلاً، فكان سلاجقة الروم يرون دفع البيزنطيين عن آسيا الصغرى بأكملها وأن يكون البحر فاصلاً بينهما. وكان هناك معارك كثيرة أذكر منها معركة ميريوكيفالون التى دارت أحداثها فى عام ١١٧٦م عند قلعة خربه تحمل هذا الأسم فى وسط ممرات وعرة كان لها أثرها الكبير على هذه المعركة.

والمهم هنا أنه في صيف عام ١١٧٦م/ أواخر عام ٥٧١هـ بدأت القوات البيزنطية تستعد لمهاجمة السلاجقة وقام الإمبراطور مانويل بتقسيم قواته إلى قسمين، القسم الأول منها لمهاجمة السلاجقة من الشمال وتولى قيادته أندرونيكوس فاتازس Andronicus Vatazes ابن عم الإمبراطور ومعه ذو النون حاكم سيواس الذى طرده قلج أرسلان، وبلغ تعداد ما تحت أيديهما من قوات ما يقرب من خمسين ألفا حسب رواية ميخائيل السريانى. وكانت وجهتها مدينة نيكسار التى كانت داخلة تحت حكم ذى النون من قبل وذلك لوجود بعض الموالين لآل دانشمند فى هذه المدينة. اتجه فاتازس وذو النون والقوات البيزنطية – التى كانت معظمها قد جمع من إقليم بفلاجونيا – إلى الشمال وتمكنت القوات البيزنطية من حصار مدينة نيكسار. وعلى ما يبدو أن الحصار كان شديداً على المدينة لضخامة القوات البيزنطية وقربها من إقليم بفلاجونيا البيزنطى الذى أمدها بالرجال والسلاح، لذلك لجأ السلاجقة إلى الحيل لضرب القوات البيزنطية. وتنفيذاً لذلك قام حاكم المدينة الذى أطلق عليه ميخائيل السريانى "التركى الماكر" بالقاء خطابات إلى داخل المعسكر البيزنطى موجهة إلى القائد البيزنطى ويعنى ما ورد بها أن الدانشمنديين الذين سلمت لهم القيادة يريدون أن يوقعوا بالقائد فى أيدى السلاجقة الذين أعدوا له الكمائن وهم ينتظرون الفرصة المناسبة. فلما أطلع القائد البيزنطى على هذه الخطابات صدق ما ورد بها وبدأ يتوقع خيانة ذى النون. وبعدما انتشر خبر هذه الخطابات داخل المعسكر البيزنطى وبدأ التوتر ينتشر بين القوات البيزنطية لجأ السلاجقة إلى حيلة أخرى وأشاعوا خبر موت الإمبراطور مانويل فانتشر الذعر داخل المعسكر البيزنطى واضطروا إلى رفع الحصار والانسحاب فى حالة من الفوضى الأمر الذى سهل مهمة السلاجقة فى تعقب القوات البيزنطية وأنزلوا بها هزيمة ساحقة. وقتل فى هذه المعركة القائد البيزنطى وحملت رأسه إلى السلطان قلج أرسلان.

هرعت القوات البيزنطية التى نجت من الكارثة إلى الإمبراطور مانويل الذى كان يتولى قيادة القسم الثانى من القوات البيزنطية وهو القسم الرئيسى متخذا طريقه إلى قونية لقتال السلاجقة لتبلغه بالكارثة التى حلت بالقوات البيزنطية عند نيكسار ومقتل فاتازس. وقد انزعج الإمبراطور لهذه الأخبار أشد الانزعاج. وعلى ما يبدو أن الإمبراطور مانويل قد ظن أن القوات السلجوقية لازالت عند نيكسار وأن العاصمة السلجوقية قونية أصبحت خالية من القوات. لذلك نجده يحاول الوصول إلى قونية فى أقرب وقت ممكن لكى يفاجىء السلاجقة. ولم يسلك طريق ضروليوم وهو الطريق المعتاد بل اتجه ومن معه إلى القوات إلى مدينة لاودكيا الواقعة على نهر المياندر فى السابع عشر من سبتمبر عام ١١٧٦م/ الحادى عشر من ربيع أول عام ٥٧٢هـ، واخترق وادى النهر حتى وصل إلى مدينة سوبلايون ثم سار شمالى بحيرة إجردير Egerdir واتجه إلى الجبال الضخمة المعروفة باسم سلطان داغ التى تقع إلى القرب من قونية، وحاول عبور الممر الواقع فى هذه الجبال المعروف باسم ممر تزيبرتز Tzibritze الذى يقع فى نهايته قلعة ميريوكيفالون الخربة ليكون فى مواجهة مدينة قونية مباشرة.

بدأت المتاعب تحيق بالقوات البيزنطية عندما بدأت تعبر هذا الممر الجبلى ويصف الإمبراطور مانويل نفسه حالة الجيش البيزنطى، فروى أن العربات التى كانت تجرها الثيران كانت كثيرة العدد كبيرة الحجم يضاف إلى ذلك معدات الحصار التى كانت ترافق الجيش، ونظرا لضيق الممر اضطرت القوات البيزنطية أن تسير إلى جانب العربات والمعدات والدواب متلاصقة إلى جوار بعضها، وليس ذلك فحسب بل أن القوات البيزنطية أصيبت بمرض أدى إلى انتشار الاسهال فخارت قواها لدرجة أن الإمبراطور مانويل قد وصف أجساد قواته فى هذه المرحلة بأنها كانت لينة كالشمع.

لم يكن تقدم القوات البيزنطية إلى قونية مفاجأة للسلاجقة، ولعل السلطان قلج أرسلان قد علم بتقدم الإمبراطور ومكان تجمع القوات البيزنطية من بعض الأسرى البيزنطيين الذين وقعوا في أيدى القوات السلجوقية عند نيكسار، وعن طريق القبائل السلجوقية الرحل التى تجوب المنطقة. وتروى المصادر البيزنطية أن قلج أرسلان كان قد أرسل فى طلب النجدات من أمراء الشرق الإسلامى حتى أصبحت القوات التى كانت تحت قيادة السلطان السلجوقى أكبر من حجم القوات البيزنطية أو على الأقل مساوية لها. والواقع أن المصادر العربية لم تشر إلى مثل هذه النجدات ولعل الإمبراطور حاول أن يصور للملك الانجليزى في الخطاب الذي أرسله إليه كبر حجم القوات التى هاجمته، وأنه كان يحارب القوات الإسلامية كلها بمفرده. والواضح أن القوات السلجوقية كانت متمرسة على قتال البيزنطيين وتجيد فنون القتال فى الممرات، ومن خير الأدلة على ذلك قتال السلاجقة لجيش كونراد ولويس السابع.

ومن فنون القتال التى مارسها السلاجقة فى هذه المرحلة أنهم لم يدخلوا في صراع مباشر مع القوات البيزنطية فى أول الأمر بل قاموا بحرق المحاصيل التى تقع في الأراضى المارة بها القوات البيزنطية. كما قاموا أيضاً بتسميم الآبار حتى تحرم الجيش البيزنطى من المأكل والمشرب، واكتفت القوات السلجوقية فى هذا الوقت بمناوشة الجيش البيزنطى فى بعض المواقع ثم ما لبثت أن تراجعت. ولعل القوات السلجوقية كانت تقصد من وراء هذا الانسحاب دفع القوات البيزنطية إلى التقدم داخل الممر فى أسرع وقت ممكن. وعند هذه المرحلة من القتال يروى المؤرخ البيزنطى نيكتاس أن السلطان قلج أرسلان عرض الصلح على الإمبراطور مانويل، ولهذا السبب قام الإمبراطور بدعوة مستشارية وقواده للتداول فى أمر الصلح مع السلاجقة ولكن العناصر

الشابه التى حضرت الاجتماع رفضت عرض السلطان وأصرت على مواصلة الحرب. ولعل انسحاب السلاجقة بعد المناوشات التى قاموا بها قد فسرت لدى القادة الشبان بأن القوات السلجوقية غير قادرة على الحرب.

والواقع أن الإمبراطور نفسه كان متحمسا للقتال خاصة بعد كل هذه الاستعدادات الضخمة التى أعدها للمعركة، لذلك انساق وراء قواده الشبان الرافضين للصلح لخوض المعركة، وعلى أية حال فعندما علمت القوات السلجوقية برفض الإمبراطور للصلح، كانت قد اكتسبت بعض الوقت فى إعداد نفسها، ولجأت كعادتها إلى حرب الكمائن والمناوشات، وهم يرصدون تحركات القوات البيزنطية عبر ممر تريبرتز الجبلى وهى فى طريقها إلى قونية. وكان على الجيش البيزنطى أن يعبر هذا الممر الجبلى الذى يبلغ طوله عشر أميال فى أسرع وقت حتى تتمكن من الخروج من هذا المضيق الوعر إلى السهل المبسط أمام مدينة قونية، لذلك اندفع البيزنطيون وما يصاحبهم من العربات والمعدات حتى تكدست بداخله وتعذرت مسيرة الجيش البيزنطى - بعدما حشرت داخل الممر حشراً - فى أى اتجاه وقد تسببت المقدمة التى كانت تحت قيادة الأخوان يوحنا وأندرونيكوس أنجيلوس والمؤخرة بقيادة أندرونيكوس كونتوستفانوس في غلق الممر من الأمام ومن الخلف على القوات الرئيسية للجيش التى كانت تحت قيادة قسطنطين ماكرودكاس Cohnstantine Macroducas وأندرونيكوس لامبارداس Lambardas وموروزوميس Morozomis وبلدوين شقيق ماريا زوجة الإمبراطور.

كانت القوات السلجوقية تراقب وترصد تحركات القوات البيزنطية بكل دقة وتأخذ أمكانها على قمم الجبال وفى بعض الأماكن المختفية عن أعين القوات البيزنطية عبر الوديان، وفى الوقت الذى حشرت فيه القوات البيزنطية تماما داخل الممر كانت القوات السلجوقية تحيط بها من كل جانب مركزة

تواجدها على جانبى الممر فى الأماكن المرتفعة. وفى اللحظة المناسبة قام السلاجقة بضرب المقدمة لايقاف محاولة الجيش البيزنطى التقدم وشل حركته، وقد نجحت المقدمة إلى حد ما في الصمود أمام القوات السلجوقية وتمكنت من الاحتماء ببعض التلال المجاورة. ومن الواضح أن القوات هى التى لجأت إلى التلال أما المعدات فقد ظلت بالممر وأدت إلى وقف مسيرة بقية الجيش البيزنطى تماماً حتى يمكن القول أن القوات البيزنطية أصبحت أسيرة فى أيدى السلاجقة.

وبعدما تَمكن السلاجقة من إيقاف مسيرة الجيش البيزنطى انتقلوا لمهاجمة الجيش الرئيسى بغرض شطر القوات إلى شطرين وقد نجح السلاجقة فى هذه المهمة وأنزلوا أفدح الخسائر بالقوات التى كانت تحت قيادة بلدوين الأنطاكى الذى لقى حتفه فى المعركة، وسرعان ما دبت الفوضى فى صفوف القوات البيزنطية، وتمكن السلاجقة من محاصرة النصف الخلفى للجيش البيزنطى وأنزلت فيه القتل، كما اقتربت من القوات البيزنطية وظلت تهاجمها بالطريقة التى تحلو لها حتى يمكن القول أن القوات السلجوقية كانت تستعرض نفسها أمام الجيش البيزنطى.

ولما كانت قوات السلاجقة تمتاز بخفة الحركة انتقلت مرة أخرى إلى المقدمة وركزت سهامها على الثيران التى تجر العربات وقتلت عدداً كبيراً منها، ثم بدأت فى دفع كتل الأحجار من أعلى قمم الجبال لتزيد من خسائر العدو. وهكذا نجح السلاجقة فى اصطياد القوات البيزنطية بعدما حشرت تماماً داخل الممر. وبهذه الصورة أصبح الجيش البيزنطى تحت رحمة القوات السلجوقية التى ظلت تمطره وابلا من النبال. وحاولت القوات البيزنطية الخروج من هذا المأزق بأى طريقة وفشلت جميع المحاولات التى قامت بها – بعدما سد عليها السلاجقة كافة السبل – للخروج من هذه المقبرة إذا جاز لنا

هذا التعبير. ودب اليأس فى نفوس البيزنطيين بعدما انهارت قواهم وفقدوا شجاعتهم على القتال. وحاول بعضهم اللجوء إلى بعض التلال المجاورة. ولكن تحرك هذه القوات إلى أعلى قد أثار التراب الموجود فى المنطقة مما استحال معه رؤية القوات لبعضها فاصطدمت ببعضها وسقط الفرسان وخيولهم على الأرض ووقعوا تحت سنابك الخيل، وقتل البيزنطيون أنفسهم فى هذه المحاولة، وزادت خسائر الجيش البيزنطى فى الأرواح والمعدات.

ولكى يفت السلطان قلج أرسلان فى عضد القوات البيزنطية الباقية أحضر رأس فاتازس وحملها أحد السلاجقة على عصا طويلة وطاف بها أمام القوات البيزنطية، وبعد ما رأى البيزنطيون هذا المشهد حاول بعضهم النجاة بأنفسهم رغل صعوبة هذه المحاولة، وكان من أول ضرب المثل على الهرب الإمبراطور نفسه بعدما أصبحت حياته معرضة للخطر لأول مرة فى حياته، ونجح الإمبراطور فى التسلل إلى أحد شعاب الوديان المتفرعة من الممر الجبلى، كما استطاعت بعض قواته اللحاق به، ولكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد وانقضوا على الإمبراطور والفارين معه وأنزلوا فيهم القتل، ومن نجا من القتل وقع فى الأسر، وتمكن الإمبراطور مانويل من الأفلات باعجوبة عندما لجأ إلى أحد الوديان المتطرفة البعيدة عن أعين السلاجقة.

خرج مانويل من هذه المحنة وقد امتلأت خوذته بالثقوب وعلامات سهام السلاجقة ظاهرة على درعه، وظل يتنقل بين الوديان فى محاولة منه للاتصال بالمقدمة المحتمية بالتلال بعدما لحق به أندرونيكوس كونتوستفانوس قائد المؤخرة وبعض القوات، وأخيراً نجح مانويل فى الانضمام لجنود المقدمة بعدما تعرف على مكانهم بصعوبة واحتمى مانويل ومن معه بهم. فقد كان السلاجقة يطاردونهم ويسيرون فى أثرهم، ثم ما لبث الإمبراطور والقوات البيزنطية الهاربة معه وجنود المقدمة أن وجدوا أنفسهم محاصرين من كل

جانب. وبدأت هذه القوات تشكل صيدا سهلا للقوات السلجوقية خاصة وأن المؤن قد نفذت تماما بعدما استمر القتال لمدة سبعة أيام متتالية فى ظروف غير عادية.

كان حال الجيش البيزنطى يدعو للرثاء فقد قتل وأسر منه العديد، والبقية الباقية إما تهيم على وجهها فى شعاب الوديان أو جريحة فى أرض المعركة، أو محتمية بالتلال ومحاصرة من كل جانب. وعلى أية حال لم ينقذ القوات البيزنطية المحاصرة من الهلاك بعدما لجأ إليها الإمبراطور سوى حلول الظلام. ورغم ذلك لم تدع القوات السلجوقية القوات البيزنطية المحاصرة تهنأ بالراحة، فكان السلاجقة يرددون نداءات طول الليل تشير إلى أنهم أعدوا العدة لابادة القوات البيزنطية مع بزوغ الفجر، وكان لهذه النداءات أسوأ الأثر فى نفوس القوات المحاصرة وباتوا يتوقعون نهايتهم مع نهاية هذه الليلة وظلوا يودعون بعضهم البعض الوداع الأخير.

كانت ليلة عصيبة على البيزنطيين فلم تعد لديهم الفرصة على الفرار بعد ما أحكم عليهم السلاجقة الحصار، كما لم يكن لديهم القدرة على الحرب بعدما انهاروا جسدياً ومعنوياً. وفى وسط هذه الظروف العصيبة عزم الإمبراطور مانويل على الفرار، وقد سبب إعلان مانويل لهذا النبأ الفزع فى القيادة البيزنطية، وهب أندرونيكوس كونتوستفانوس محتجا على هذه الفكرة ووجه اللوم إلى الإمبراطور الذى تسبب فى إبادة جزء كبير من القوات البيزنطية المحتشدة هناك وإضاعة أموال الإمبراطورية بسبب حماقته وقلة بصيرته. وعلى ما يبدو أن أندرونيكوس هذا قام بدور ملحوظ فى إعادة تنظيم القوات البيزنطية. ومع بزوغ فجر اليوم التالى كان البيزنطيون قد جمعوا قواتهم استعداداً للدفاع عن أنفسهم ضد ما يدبره السلاجقة من هجوم، ثم ما لبثت القوات السلجوقية أن بدأت فى مناوشة القوات البيزنطية استعدادا

للمعركة. وعند هذه المرحلة يروى المؤرخ ميخائيل السريانى أن الإمبراطور مانويل أرسل إلى السلطان قلج أرسلان يعرض عليه الصلح وتسليم المدن التى قام الإمبراطور بتحصينها - ضروليوم وسوبلايوم - مقابل إنقاذ القوات البيزنطية والسماح لها بالانسحاب.

أما المؤرخ البيزنطى نيكتاس فيروى أن السلاجقة اندفعوا تجاه البيزنطيين وتولى اثنان من القادة البيزنطيين وهما يوحنا وماكرودكاس أمر تنظيم الدفاع عن القوات البيزنطية، وفى هذه اللحظة ظهر أحد القادة السلجوقيين ويدعى جابراس Gabras أو جابر وأصدر أوامر للقوات السلجوقية بالكف عنه القتال ثم تقدم إلى الإمبراطور مانويل وقدم له جوادا مسرجا كهدية من السلطان وطلب منه عقد الهدنة مقابل تدمير تحصينات ضروليوم وسوبلايون. ويلاحظ أن معركة دمياط البحرية ومعركة ميريوكيفالون البحرية أن لهما أثرا كبير على القدرات العسكرية للإمبراطورية وعجلا بالنهاية بعد وقت قصير في عام ١٢٠٤م.

الفصـل الثامـن

التعليم والعلوم والفنون

التعليم والعلوم:

إن الكتابة عن التعليم والحياة العلمية فى الإمبراطورية البيزنطية التى امتد عمرها منذ الأنتهاء من بناء القسطنطينية فى عام ٣٣٠م حتى سقوطها فى عام ١٤٥٣، أى حوالى ألف ومائة وثلاثة وعشرين عاماً أمر غير سهل. يضاف إلى ذلك مساحة هذه الإمبراطورية التى بدأت وهى تحكم ما حول البحر المتوسط من أراضى شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. ومما لا شك فيه أن المتعلمين الذى عاشوا فى عهد قسطنطين الكبير، أى فى أوائل القرن الرابع الميلادى. قد تعلموا فى مدارس الإسكندرية وأثينا وأنطاكية وبيروت وغيرهما من المدن الشهيرة فى تلك المرحلة.

ومن الأقوال الشهيرة فى بداية عصر الإمبراطورية أن القديس بازيل الكبير قال، علينا إذ نبذل كل ما فى طاقتنا للنزول إلى معترك الحياة المسيحية، وينبغى علينا أن نعاشر الخطباء والشعراء والمؤرخين وغيرهم من الذين يمدوننا بالمساعدة لتثقيف أنفسنا، كما أن القديس جريجوزى النازانيازى، إعتقد أن كل هؤلاء الذين لديهم الاحساس بالمعرفة يدركون أن التعليم هو أثمن ما نملكه. ومن هنا كان الحصول على قسط مناسب من التعليم يعتبر هدفاً لكل مواطن بيزنطى.

لقد أصبحت المسيحية ديناً فى عهد الإمبراطور قسطنطين، ثم ديناً رسمياً للإمبراطورية فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، ولكن ذلك لم يحدث تغييراً كبيراً عما كان عليه الحال قبل ذلك. وربما وجد رجال الدين قليلو المعرفة أن العلوم والمعارف الوثنية القديمة نوعاً الردة إلى الوثنية. ولكن كبار رجال الدين المسيحى من الرهبان والقساوسة والبطاركه لم يبعدوا عن الثقافة الوثنية ولم يجدوا ما يدعو إلى الابتعاد عنها، حتى الاباطرة البيزنطيين

أنفسهم كان لدى الكثير منهم رغبة قوية فى الإهتمام بالجامعات ورفعة شأنها، وزيادة عدد الاساتذة، والعمل على جمع المخطوطات الأدبية اليونانية وغيرها. ولم تسر الأمور التعليمية على نحو طيب داخل الإمبراطورية، فقد وجه الإمبراطور جوليان المرتد عن المسيحية ضربه إلى كل ما هو مسيحى داخل الإمبراطورية خاصة الكنيسة، حتى أنه منع المسيحيين من التدريس فى المدارس. ولكن ذلك لم يمنع الآباء الأوائل للكنيسة المسيحية ومنهم من عاصروا جوليان وتلقوا معه تعليما جامعيا وثنيا فى مدارس أثينا. كما أن القديس بازيل الكبير كان من أنجب تلاميذ الفليسوف اللبنانى الوثنى ليبانوس، واعتبره معاصروه أنه خليفه استاذه.

وإذا أردنا أن نتتبع خطوات التعليم التى كان يتدرج فيها شباب الإمبراطورية البيزنطية بعامة، فيكون ذلك من الأمر الصعب لقلة المادة التاريخية فى المصادر، ولكننا سوف نتتبع خطوات التعليم التى كان يتدرج فيها صبى من الطبقة العليا فى القرن الرابع الميلادى لوجود مادة تاريخية معقولة فى المصادر التاريخية وغيرها.

كان الصبى فى الإمبراطورية البيزنطية يبدأ فى تعلم القراءة والكتابة منذ حوالى الخامسة أو السادسة من عمره، وهذا يرجع إلى أن جميع الوعاظ فى الكنائس كانوا يحثون الآباء على تعليم أولادهم. ولم يك الأباء يبذلون جهوداً فى تعليم الأولاد بل كان العبء كله يقع على كاهل المدرس الذى غالبا ما يكون غير كفء لهذه العملية التعليمية. وكان البعض يرى أن يتولى هذه المهمه الرهبان. وكانت المادة الرئيسة التى يتعلمها الصبى هى مادة النحو. وكان النحو فى تلك الأيام لا يقتصر على تصريف الأسماء والأفعال وقواعد تركيب الجمله، بل كان يضم أيضا دراسة الآداب القديمة.

وحقيقة الأمر أن الصبى كان يبدأ يتعلم قراءة الجملة، ثم تفسير الكلمات الصعبة، والإشتقاقات الصرفية فى الجملة، والمعنى العام الذى يقصده الكاتب فى العبارة وقيمتها الأدبية، وكان ذلك كله لا يُعرف إلا باستخدام المعاجم وبعض الشروح. وكان هذا الصبى يبدأ بدراسة أشعار هيمروس Homer، وهو الشاعر اليونانى الوثنى صاحب ملحمتى الإلياذا Iliad والأوديسة Odyssey، قبل أن يقرأ للشعراء الآخرين. ويخبرنا سينيسيوس Synesius الذى عاش فى القرن الخامس، فى أحدى رسائله وهو يفتخر بذلك، أن ابن اخته كان يحفظ فى اليوم الواحد خمسين بيتاً من أشعار هيمروس، وأنه يكررها دون تخبط.

والحال نفسه فى مصر فقد ورد فى إحدى البرديات وهى رسالة من أم لإبنها تنصحه بأن يبحث عن مدرس جيد حتى يتلقى العلم، وتطلب منه ألا يتخلى عن دراسة أشعار هيمروس إلا بعد أن يبلغ الكتاب السادس. يتضح من ذلك أن الأم نفسها لم تك أمرأه عادية بل مثقفة إلى درجة طيبة. وفى بردية أخرى توضح لنا كيف كان المدرسون يشرحون للتلاميذ أشعار هيمروس، وفى متن البردية، وقد وردت النصوص الأصلية، وترى شرحاً للكلمات الصعبة باللغة اليونانية الدراجة فى مصر.

وفى القرن الحادى عشر الميلادى نرى المؤرخ البيزنطى ميخائيل بسللوس وهو من الطبقة الوسطى وقد حفظ الإلياذة كلها فى سن مبكره جداً. كما أن المؤرخة البيزنطية أنا كومنينا أيضاً كانت تقتبس من أشعار هيمورس فى كتابها الألكسياد The Alexiad دون إشارة لذلك، وكأن الأمر أصبح مألوفا لدى القراء. وهذا يدل على أن المواطن البيزنطى كان يقرأ القصائد لشعراء آخرين. كما كان إمتحان التلاميذ فى هذه السن المبكرة لا يخلو من أسئلة تتعلق بما جاء فى الإلياذة والأوديسة، وبعض المشاهير الأخرين. ويبدو

أن مشكلة حمل التلميذ للكتب كانت ظاهرة قديمة، فكان يصاحبه عبد يحمل له حقيبته الثقيلة، كما أن البعض كان يشتكى أيضاً من غلاء أسعار الكتب. وإلى جانب ذلك كان على الأطفال دراسة الجانب الدينى، وكان يتولى أمره رجال الدين، وقد يتطلب الأمر أن يقوم التلاميذ بحفظ الانجيل تماما، وبذلك سار التعليم الديني إلى جانب التعليم الدينوى. ويلاحظ أن التعليم فى هذه المرحلة وما بعدها كان يتم باللغة اليونانية، واعتبرت اللاتينية لغة البرابرة.

وبعد دراسة النحو بالقدر المناسب يكون التلميذ قد وصل إلى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، فينتقل إلى علم البلاغة، وعندئذ يدرس كتب عدة مؤلفين من كتاب النثر مثل ديموستين Demosthenes وهيرودت Herodotus وثوكديدس Thucydides وسقراط Socrates وليسياس Lysias، وكان بعض هذه الكتب يحفظ عن ظهر قلب، وكان التعليم فى هذه المرحلة يتم قراءة جانب من هذه المؤلفات بصوت عالى لتظهر بذلك مقدرة الصبى على فهم ما يقرأ، وعندما يعود الطالب إلى بيته عليه أن يتدرب على القراءة بصوت مرتفع، وله أن ينغم ما يقرأ حتى يردده على أسماع أستاذه وزملائه فى فصل الدراسة.

وبعد هذه المرحلة تأتى المرحلة التى يقوم فيها التلميذ بكتابة موضوعات بسيطة، أو يتناول شخصية من الشخصيات البارزة فى التاريخ إما بالمقارنة مع بعضها البعض أو المدح أو الهجاء، أو يكتب فى موضوعات عامة. ثم تأتى مرحلة أخرى وهى مرحلة كتابة الرسائل، وهى فن على التلاميذ أن يتعلموه. ويجب أن يتجلى فى هذه الرسالة شخصية كابتها، وأن تكون قصيرة، سهلة اللغة مع وضع الأمثلة المناسبة التى يقتبسها الكاتب من البلغاء. وكان المدرس يختار من هذه الرسائل أفضلها ويتولى كاتبها قراءتها بصوت مرتفع فى المدرسة تشجيعاً لزملائه على أن ينهجوا نهجه.

وكان التلاميذ يتنقلون من مدينة إلى أخرى، فمن الإسكندرية إلى غزه، وإلى صيدا، وإلى بيروت وإلى أثينا. ويلاحظ أن الأستاذ كان يجلس فى مكان مرتفع نسبياً، أما التلاميذ فكانت مقاعدهم واطئة. كما كانت السنة الدراسية تبدأ فى الخريف وتستمر حتى بداية فصل الصيف كما هو الحال فى أيامنا هذه. وكانت الدروس تلقى فى الصباح. وفى المساء كانت هناك بعض المحاضرات العامة كجانب ثقافى للمواطنين. أما فى الاعياد الرسمية سواء الدينية أو غيرها مثل ميلاد الأباطرة أو تتويجهم، فكانت الدراسة تعطل فيها. وكانت بعض الأيام تخصص أثناء الدراسة لإبراز مواهب الطلاب فى الخطابة، كما كان الأساتذة يقدمون نماذج للتلاميذ، وفى هذه الحالة يسمح لأولياء الأمور والأصدقاء بالحضور.

وبعد هذه المرحلة تأتى مرحلة دراسة الفلسفة والفنون الأربعة، وهى الحساب والهندسة والموسيقى والفلك، وبعد ذلك تكون دراسة القانون والطب وعلم الطبيعة.

والحقيقة أن المرحلة التعليمية فى هذه الآونة لا تكاد تقدم لنا المصادر معلومات كثيرة عنها، وقد نرى أن التعليم كان يتم عن طريق المدارس التى تتولى أمرها الحكومة أو عن طريق مدرسين خصوصيين. ومن المدارس التى ذكرتها المصادر المدرسة التى انشأها الإمبراطور قسطنطين فى الرواق ثم نقلها ابنه قنسطنطينوس إلى الكابيتول Capitolium الذى بنى على التل الثانى من تلال القسطنطينية. ومع تولى الإمبراطور جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣م) أوقف أو ألغى التعليم المسيحى فى هذه المدرسة، وأعاد المدرسين الوثنيين للتدريس فى المدارس.

وفى عهد الإمبرطور ثيودوسوس الثانى (٤٠٨ - ٤٥٠م) وهو فترة طويلة، نرى أن هذا الإمبراطور كان تحت وصاية أخته بلاخريا Pulchera في بداية الأمر، ثم تزوج من يودكيا الأثينية وهى ابنة استاذ البيان الوثنى فى جامعة أثينا، وكان لها تأثيرا على الإمبراطور، فطلبت منه إنشاء مدرسة لتدريس العلوم الدينية والكلاسيكية، وهذه المدرسة ستتحول إلى جامعة فى مرحلة قادمة. وقد قام بالتدريس فيها مدرسون من اليونانيين لتدريس النحو اليونانى ومن اللاتين لتدريس النحو اللاتينى، وخمسة من أستاذة الفلسفة اليونانية وثلاثة من أستاذة الفلسفة اللاتينية، وإثنان من رجال التشريع. وإلى جانب ذلك وجدت مكتبة عامة يقال أن كان بها مائة وعشرون ألف مجلد، وهى المكتبة التى أسسها الإمبراطور جوليان المرتد، ووضع فيها ما أمكنه من الكتب الكلاسيكية. ولكن هذه المكتبة أحرقت بعد ذلك بما فيها من كتب لها فكر وثنى.

ويلاحظ أن التعليم فى المرحلة التالية من الزمن أصبح مسئولية الكنائس والأديرة، لأننا لا نرى ذكر للمدرسة بعد عهد جستنيان، فقد أغلق مدرسة أثينا وصادر أموالها، وأنه لم يسمح بتعليم القانون إلا فى القسطنطينية وروما وبيروت واشترط ألا يقوم بالتدريس فى هذه المدارس إلا أساتذة من المسيحيين.

لقد قل التعليم كثيرا فى القرن السابع الميلادى، ومن هنا كان من يريد التعلم أن يدرس على أيدى مدرسين خصوصيين، بالإضافة إلى ما تقوم به الكنائس والأديرة. وحتى المدرسة التى شيدها الإمبراطور هرقل كانت تحت إشراف الكنيسة، وبدأنا نقرأ من مدارس ملحقة بدير الاستوديوم وكنيسة الأربعين شهيدا، وكنيسة الرسل، وهى مدارس كان التعليم فيها علمانيا. ويلاحظ أن الكنيسة بدأت تضيق على التعليم العلمانى، لما له من ماضى يرتبط بالوثنية. وقد زادت شكوك الكنيسة فى التعليم العلمانى أثناء فترة تحطيم

الصور، ونلاحظ أنه بعد هذه المرحلة كانت الكنيسة أقل خوفا على الديانة المسيحية، ومع تحسن العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي بدأت الإمبراطورية تهتم بالعلوم الإسلامية الدنيوية.

وبعد هذه المرحلة حدث انتعاش في العملية التعليمية، وظهر رواد أوائل مثل فوتيوس Photius، وهو العالم والفليسوف المثقف الذى درس فى دير ستوديوم على يد كبار رجال التعليم فى الإمبراطورية، والرجل العسكرى الذى رافق العديد من العمليات العسكرية، والذى أصبح سكرتير الإمبراطورية البيزنطية، وهو السفير الذى أرسل إلى بغداد حوالى عام ٨٣٨م فى عهد الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢م)، ومن الواضح أن ذلك كان فى المرحلة الحرجة التى قام بها الخليفة المعتصم بغاراته على آسيا الصغرى، وهو بطريريك القسطنطينية مرتين ٨٥٨ - ٨٧٦م، ٨٧٧ - ٨٨٦م، وهو صاحب القطيعة الصغرى بين كنيسة روما والقسطنطينية فى عام ٨٦٧م، والذى كانت له صولات وجولات فى المجامع الدينية، وإلى جانبه كان يوحنا النحوى John Grammatius بطريريك الإمبراطورية (٨٣٧ - ٨٤٣م).

وفيما يتعلق بالجامعة فيمكن القول أن الفضل لإعادتها أو إنشائها فى صورة جديدة يرجع إلى القيصر بارداس Bardas، وهو أخو الإمبراطورة ثيودورا أم الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧م) وبالتالى فهو خال الإمبراطور نفسه الذى كان قاصراً عند وفاة أبيه الإمبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢م). ورغم أن بارداس كان له تطلعات سياسية، إلا أنه كان مفكراً محباً للعلوم والآداب وحامياً للعلم والعلماء، ومن هنا جاء اهتمامه بإعادة إحياء جامعة القسطنطينية، وتدريس العلوم الدينية المسيحية والعلوم الكلاسيكية،

واستعد بارداس لذلك واستدعى علماء زمانه إلى القصر، وجمعهم فى مدرسة عالية فى العاصمة البيزنطية أطلق عليها اسم الماجناورا (Magnaura).

والحقيقة أن جامعة القسطنطينية التى قامت فى قصر الماجناورا، أصبحت أهم مركزاً للتعليم البيزنطى، وقد درست بها العلوم التى كانت معروفة فى تلك المرحلة، وقد درس فى هذه الجامعة نخبة من كبار العلماء مثل ليو الرياضى، وهو رجل موسوعى، وكان يدرس فى المدرسة الملحقة بكنيسة الأربعين شهيداء كما درس بها العالم فوتيوس الذى أشرنا اليه. والحقيقة أن قيام هذه الجامعة بتدريس العلوم الكلاسيكية الوثنية قد أثار معارضة البعض، ولكنها لم تؤثر على مسيرة الجامعة.

وبعد هذه المرحلة زاد العلم والعلماء إنتشارا، حتى أننا نجد أن البلاط البيزنطى قد اصبح فى عهد الامبراطور قسطنطين التاسع مزاراً للعماء، ولعل ذلك مرجعه أن فترة إقصاء أو إبعاد هذا الامبراطور عن العرش وهى فترة طويلة، دفعت هذا الامبراطور إلى وضع عدة مؤلفات منها إدارة الامبراطورية، وكتاب المراسم، وكتاب الثيمات. ومما لا شك فيه أنه جمع حوله فى البلاط عدداً من العلماء المساعدين، ولذلك كاد البلاد البيزنطى أن يصبح أكاديمية لدراسة التاريخ.

وللأسف أن الدراسة بعد هذه المرحلة قد توقفت، ويقال أن الامبراطور بازيل الثانى هو المسئول عن ذلك، ولعل ذلك يرجع إلى ما ورد فى أحد المصادر من مقولة ترى أن الإفراط فى التعليم كثير النفقة، ولم يعد على الإمبراطورية بشئ، ومع بدايات القرن الحادى عشر كان من يريد العلم أن يتولى أمره بنفسه، أو أن يعتمد على بعض المدرسين الخصوصيين أو فى مدارس الكنسية أو الأديرة.

وإذا وصلنا إلى عهد الامبراطور رومانوس الثالث (أرجيروس) (١٠٢٨ - ١٠٣٤م) نرى أن هذا الامبراطور الذى كان متقفا ويفتخر بذلك لم يقدم شيئاً إلى العملية التعليمية، ولكن هذا الأمر لم يدم طويلا، ففى عهد الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس Monomachus (١٠٤٢ - ١٠٥٥م) نجد أن الحال قد تغير كثيرا، فقد أستاء هذا الأمبراطور عندما علم أن جميع رجال القانون الذين يعملون في سلك المحاماه، قد علموا أنفسهم بأنفسهم، وأدرك أن مثل التعليم لا يصل إلى الدرجة المطلوبة مع أهمية الدراسات القانونية، فأسس مدرسة للحقوق فى عام ١٠٤٥م، واشترط حصول المحامين على إجازة هذه المدرسة حتى يتمكنوا من مزاولة أعمالهم.

كما أعاد الدراسات الكلاسيكية إلى جانب الدراسات الدينية. وفي هذه المدرسة أصبح المؤرخ ميخائيل بسلوس استاذاً للفلسفة، والقاضى يوحنا كزيفيلين Xiphilinus أستاذاً للقانون، وقد ظلت هذه الجامعة حتى سقطت الامبراطورية فى أيدى قوات الحملة الصليبية الرابعة عام ١٢٠٤م.

والمتتبع للحركة العلمية منذ إنشاء هذه الجامعة أن الأباطرة عملوا على تسهيل العملية التعليمية، ويرى أن الامبراطور ألكسيوس كومنين قد أنشأ مدرسة للأيتام. كما أن الجامعة والمدارس كانت تحت اشراف الدولة ويرأسها الامبراطور. فكان هو الذين يعين المدرسين ويتولى دفع أجورهم، ويعزلهم إذا تقاعسوا عن أداء مهامهم. وتذكر المصادر أن الامبراطور كان يقوم بالتفتيش على الجامعات والمدارس بنفسه ويختبر التلاميذ والطلاب وقد يستمع إلى بعض المحاضرات. ولا زالت المصادر تذكر أن الامبراطور ميخائيل السابع دوكاس Michael VII Docas (١٠٧١ - ١٠٧٨م)، كان فى الجامعة وتتلمذ على يدى المؤرخ ميخائيل بسلوس واستمع اليه. ومن هنا كان بسلوس هو المستشار للإمبراطور بعد ذلك.

وفى عصر أسرة آل كومنين كان الأباطرة ينصحون بدراسة الكتاب المقدس قبل أى دراسة أخرى، ورغم ذلك فإن الطلاب فى عصرهم كانوا يقبلون على الدراسات الكلاسيكية، ولعل ذلك مرجعه إلى زواج الامبراطور مانويل كومنيين من ماريا الانطاكية الصليبية، ومن العلماء الذين فى هذه المرحلة الشاعر ثيودور برودروموس Theodore Prodromos.

وفيما يتعلق بالكتب والمكتبات فقد كان وجودها من الصعوبة بمكان، فمنذ عام ٤٧٦م لم يكن فى الامبراطور مكتبة عامة، ولكن الأديرة وما كان بها من مخطوطات قد عوض هذا النقص كثيراً، وكان يسمح للجميع بالدخول اليها واستخدامها. ولقد لعب الناسخون وكانوا كثرة، ومعظمهم من غير رجال الدين وأن إنضم إليهم بعض الرهبان، أن يلعبوا دوراً كبيراً فى زيادة عدد الكتب وقد زينوها بالصور. ورغم هذا كله فقد كانت الكتب غالية الثمن.

وقبل عام ١٢٠٤م كانت الحركة التعليمية والدراسات الكلاسيكية قد بلغت شأناً كبيراً، ولكن الصليبيين وما قاموا به من أعمال النهب داخل المدينة قد أضاعت الجهد الكبير الذى أقامه البيزنطيون من أجل النهضة العلمية، عندما أضرموا النار فى المدينة بما فيها المكتبات.

ورغم ما أصاب الامبراطورية البيزنطية من ضياع سياسى، إلا أن الحياة العلمية قد ظلت حية داخل الامبراطورية إلى حد ما، وسرعان ما تركزت هذه العملية حول بلاط الامبراطورية فى منفاها بمدينة نيقيه، عندما نقلت جامعة القسطنطينية إليها. ويؤكد ذلك أن الامبراطور اللاتينى فى القسطنطينية بلدوين الأول Baldwin I (١٠٤ - ١٢٠٥م) قد طلب من البابا إنوسنت الثالث Inncent III (١١٩٨ - ١٢١٦م) أن يصرح له بإقامة مدرسة

لاتينية أى على نمط الطراز الأوربى، ولكن جامعة باريس أفسدت هذا المسعى حتى لا تكون منافسة لها.

وفى جامعة نيقية نجد العالم بليميداس Balamedes الذى تعلم على يد مدرسن خصوصين بعد سقوط القسطنطينية، وقد نجح هذا العالم فى جمع عدداً كبيراً من المخطوطات من أنحاء البلاد، وقد نجح أيضا فى الارتقاء بمستوى التعليم فى جامعة نيقية غلى درجة عالية. وتحدثنا المصادر عن المرؤخ جورج أكروبوليتا George Acropolita (١٢١٧ - ١٢٨٢م)، وهو من أشهر الشخصيات العلمية والسياسية فى هذه الفترة، وقد درس فى جامعة نيقية إذا جاز لنا هذا المسمى ثم فى جامعة القسطنطينية بعد عام ١٢٦١م، ويذكرأن أكروبوليتا هذا كان يرى أن سبب الخسوف هو وقوع القمر بين الشمس والأرض، ولكن هذا الرأى لم يعجب ايرين Iren زوجة الامبراطور يوحنا فاتاتزيس John Vatatzes (١٢٢٢ - ١٢٥٣م)، ولكنها اعتذرت لهذا الرجل وهو العالم المؤرخ والسفير والمستشار الأعظم للامبراطورية فى المنفى، والذى عاد للتدريس فى جامعة القسطنطينية بعد عام ١٢٦١م، والذى مثل الامبراطورية فى مجمع ليون بفرنسا عام ١٢٧٤م.

أما عن تعلم البنات فإن المصادر البيزنطية لم تذكر إسم مدرسة واحدة للبنات، ولكن المتخصص فى التاريخ البيزنطى يجد أسماء نساء كثيرات بلغن من العلم مبلغاً كبيراً خاصة فى القرون المتقدمة من تاريخ الامبراطورية، ومن ذلك والدة المؤرخ ميخائيل بسلوس التى ساعدت ابنها وهو صغير، والمؤرخة أنا كومنينا وبنات كثيرات أو سيدات من الأسر الحاكمة، ويمكن القول أن بنات الطبقة العليا قد تلقين التعليم نفسه الذى تلقاه الرجال على يد مدرسين خصوصيين داخل المنزل أو القصر، أما التعليم فى الطبقات الوسطى للبنات فيبدو أنه اقتصر على معرفة القراءة والكتابة.

وعن اللغات التى كانت تدرس فى الامبراطورية البيزنطية، فنجد على رأسها اللغة اليونانية التى كانت تدرس بقدر كبير وعناية خاصة، وظهر بهذه اللغة أعمال شعرية ونثرية على رأسها أعمال سنيسوس Synesius الفيلسوف الذى درس الأفلاطونية الحديثة فى شمال أفريقيا، والشاعرة سابو أف لسبوس Sappo of Lesbos، وهى شاعرة يونانية من القرن السابع الميلادى حيث ولدت فى جزيرة لسبوس حوالى عام ٦٣٠م، ولها مجلدات كثيرة من الشعر العاطفى وغيره. ويلاحظ أن البيزنطيين كانوا يستمتعون بقراءة المؤلفات بأكملها، ولا يحبون الاختصار.

أما اللغة اللاتينية فقد ماتت في عهد الامبراطور جستنيان وإن تكلم هو اللاتينية، ومع بدايات القرن الثامن نجد أن اللغة اليونانية قد أصبحت هى اللغة التى استعملها البيزنطيون، وعلى العكس من ذلك فى روما. ومع ذلك فقد كانت الحروف اللاتينية لا زالت تستخدم على العملة البيزنطية حتى أوائل القرن العاشر. وعادت صحوة آخرى لدراسة اللاتينية بينما حدثت نهضة فى روما للدراسات اليونانية، وبذلك عادت اللغة اللاتينية وأصبحت مالوفة داخل الامبراطورية. وتحتم على رجال القانون أن يتعلموها أيام الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس. ومن رسائل الامبراطور الكسيوس كومنيين من كتب باللاتينية إلى دير مون كاسينو فى إيطاليا، وإن كانت غير دقيقة، ومع الغزو اللاتينى للامبراطورية شاعت اللغة اللاتينية داخل أراضى الامبراطورية.

وفيما يتعلق ببعض اللغات الأخرى مثل العربية والأرمينية ولغة الخزر والعبرية، فقد كان فى الامبراطورية من يعرفونها. كما كان فى البلاط بعض منهم لأغراض الترجمة فى الاتصالات الدبلوماسية، كما أن هذه اللغات وهى لغات الدول المجاورة كانت تستخدم فى بعض الأعمال التجارية أو

المعاهدات أو في عقود أعمال بحرية. ورغم هذا كله فقد كان البيزنطي محبا للغة اليونانية.

ومن العلوم التي درست بمدارس الامبراطورية وجامعاتها علم التاريخ، والحقيقة أن عدد مؤرخي الامبراطورية البيزنطي قد بلغ عددهم من الكثرة التي تفوق أي دولة في أوربا في العصور الوسطى. وقد كان البيزنطيون يحبون أن يقرءوا تاريخ أسلافهم وما سجل فيه من أعمال مجيدة، وتعمق كتاب التاريخ في الماضي البعيد حتى وصلوا إلى أيام سيدنا آدم، ولعل ذلك مرجعه إلى نزعة دينية، وهذه النزعة هي التي اتصف بها الشعب البيزنطي.، وكان البيزنطيون ينظرون إلى أمجاد الأباطرة السالفين نظرة تمجيد وفخار، وفي أشد المواقف تحريكا لعواطفهم، الأحداث المتعلقة بانتصار هؤلاء الأباطرة في معركة هنا أو هناك على المسلمين أو البلغار، ولعل أشد هذه المواقف هو استرداد مدينة القسطنطينية عام ١٢٦١م. وأن آخر الأباطرة البيزنطيين وهو قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨ - ١٤٥٣م)، لم يك أمامه في اللحظات الأخيرة للامبراطورية عندما هاجمها الأتراك العثمانيون سوى حث جنوده بكلمات عن جرأة وشجاعة أجدادهم.

وكان علم الفلسفة محببا لدى الشعب البيزنطي، وكان رجال الدين من رجال الكنيسة والرهبان يعرفون تماما الفلاسفة اليونانيين ويمجدون الأفلاطونية الحديثة. وفي القرن السابع وهو عصر الفتوحات الاسلامية، والقرن الثامن وهو الزمن الذي ظهرت فيه مشكلة الأيقونات قبل الإقبال على العلوم الفلسفية، ورغم هذا كان هناك بعض الاستثناء إذ نجد الراهب قوزماس Cosmas في عام ٧١٠م يقرأ فلسفة أرسطو وأفلاطون كما ذكر يوحنا الدمشقي. وأن بعض الفلاسفة مثل ليون كان يفضل أرسطو بخاصة، وان كان قد تعامل مع فلسفة أفلاطون وأبيقور وغيرهم من أصحاب الفلسفة الحديثة.

وتزعم المؤرخ ميخائيل بسلوس الفلسفة الحديثة فى القـرن الحـادى عـشر، ويرى أنه وحده هو الذى أعاد إحيائها وإن كان فى ذلك شيئا مـن المبالغـة، ولعل نفوذه فى البلاط الإمبراطور رومانوس الثالـث شـجعه علـى تعلـيم الامبراطور ورجال بلاطه أن يتفهموا الأفلاطونيـة الحديثـة: وكـان مـن المعاصرين لنموذج بسلوس الأسقف يوحنا موروبس John Mauropus، وقد اهتم هو أيضاً بالأفلاطونية الحديثة. والمهم هنا أن الفلسفة اليونانية أصـبحت جزءاً من المواد التـى تـستخدم فـى تربيـة المتعلمـين، وأعترفـت بهـا الامبراطورية. يضاف إلى ذلك أن بيزنطة لم يظهر بها فيسلوف أتى بجديـد فى هذا العلم، كما أن الكنيسة لم تعارض تدريس الفلسفة اليونانية فى مدارس الامبراطورية وجامعاتها، رغم علمها أن التمسك بالفلسفة اليونانيـة والعقيـدة المسيحية كان أمرا صعبا.

أما علم اللاهوت وهو العلم المتعلق بكافة جوانب الديانة المسيحة، فقد كان تحت الإشراف الدقيق للكنسية البيزنطية. وكانت كافة الـشعائر الدينيـة تدرس بكل دقة وعناية والوصول فيها إلى أدق التفاصيل. والحقيقة أنه كـان بالإمبراطورية بعض العلماء الممتازين الذين تعمقوا فى هذا العلم، ومن هؤلاء فوتيوس البطريرك والعالم، ومرقص الإفسوسى Mark of Ephessus الذى لعب دورا كبيرا فى مجمع فلونسا Florence بإيطاليا عام ١٤٣٨م وإن كان فى أواخر عصر الامبراطورية. وكان المتعلمون حتى العلمانيين منهم لابد لهم أن يلموا بجانب من شئون الدين، وكان يتحتم علـى الأبـاطرة، باعتبـارهم الرؤساء الأعلين للكنيسة، كان عليهم أن يدرسوا إلى حد كبير علم اللاهـوت وإن كان بعضهم كان غير ذلك. وتذكر لنا المصادر أن المؤرخة أنـا كونينـا كانت من أشد المعجبين بالكاتب الدينى القـديس ماكـسيموس المعتـرف St- Maximus the Comfessor (٥٨٠ - ٦١٢م).

وفى الرياضيات عاش البيزنطيون على أمجاد علماء اليونانيين الأقدمين، ولم يضيفوا اليها شيئا، وكان الحساب مشكلة المشاكل لديهم لأنهم استخدموا الحروف الأبجدية فى الأعمال الحسابية حتى تعلموا الأرقام عن طريق العرب، وكانت هندسة إقليدس هو المرجع الأول والأخير لديهم طوال عصر الامبراطورية، شأنهم في ذلك شأن العالم كله في العصور الوسطى.

وعاش البيزنطيون في علم الفلك على ماسجله العالم اليوناني بطليموس، وقد حاول قوزماس Cosmas الملاح وهو اليوناني الأصل الذي عاش بمصر في مدينة الاسكندرية فى القرن السادس الميلادي، أن يقدم نظرية حول شكل الأرض، وذكر أنها مسطحه ومستطيلة، وأنها مثل صندوق أو غرفة من طابقين، الطابق الأرضي هو الأرض، والثاني هو الجنة والثالث هو السماء. وذكر أن الشمس أصغر من الأرض ويحجبها فى الليل جبل مخروطي الشكل مرتفع في الطرف الغربي للحجرة، وحول هذه الأرض المحيط، ومن ورائه الأرض التي يعيش عليها الناس اللذين في مأمن من الطوفان، أما المؤرخة أناكومنينا فقد كانت تعتقد في نظرية الأفلاك الدوارة، وجعلت من الكرة الأرضية مركزا لمجموعة الكرات الأرضية، ويجمع الجميع مركز واحد. والحقيقة أن هذه الفكرة قديمة ظهرت في بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد.

وفي علم الجغرافيا كانّ لدى البيزنطيين معلومات طيبة عن مواقع ماسجل في مؤلفات البيزنطيين، أما عن رسم الخرائط فلايوجد لدينا سوى خريطة مرسومة بالفسيفساء ترجع إلى القرن السادس الميلادي وهى تمثل خريطة فلسطين، وقد عثر على هذه الخريطة فى منطقة مأدبا التى تقع بالمملكة الأردنية حالياً عند أقصى الطرف الشمالى من البحر الميت إلى اليمين. ومما هو مسجل فى كتاب الادارة الامبراطورية نجد الامبراطور

قسطنطين السابع الذى ينسب إليه هذا الكتاب يقدم معلومات طبية عن كافة الشعوب التى تحيط بالامبراطورية من جميع الجوانب بداية من الجزيرة العربية ومصر وشمال افريقيا والأندلس متجها فى أوربا من الغرب إلى الشرق، وإن كانت الأخطاء قليلة للغاية، ولكنه لم يقدم خريطة عن هذه الأقاليم.

وقدمت المؤرخة أناكونينا بعض المعلومات عن الرياح، وذكرت أن والدها أمر يوضح خريطة عن البحر الإدرياتيكى والمدن الواقعة عليه. ولعل ذلك يرجع إلى الخطر النورمانى الذى كان يهدده من هذا الجانب. وحاول البعض أن يقدم تفسيراً لحدوث البرق والرعد فى وقت واحد. والحقيقة أن المعارك التى وقعت بين الامبراطورية وأعدائها تشير إلى تفهم الامبراطورية لجغرافية الأرض المحيطة بها، كما أن استخدام الأسطول البحرى لابد وأن يتحرك طبقا لقواعد علمية جغرافية مدروسة.

واهتم البيزنطيون كثيراً بالعلوم الطبية، ورغم ذلك لم تتقدم النظرية الطبية عندهم كثيراً عن العلوم اليونانية منذ عصر أبوقراط، وهذه النظرية تعتمد على توافق الأمزجة الأربعة للجسم، وهى الدم والبلغم والصفراء والسوداء، والدرجات الأربع هى الحر والجفاف والبرد والرطوبة، والعملية الصحية للانسان تعتمد على التناسب الصحيح بين هؤلاء. وكان هناك الطب الشعبى المرتبط بالأغذية، وهى الفكرة التى تطالب الناس بما يأكلوه في كل موسم من مواسم العام، بمعنى أن لكل موسم أمراضه وفى الطعام والفاكهة والخضروات ما يكفى لوقاية الانسان المتوافق شر هذه الأمراض. وآمن البيزنطيون بالحجامة والكى رغم أنهما لم يوصلا إلى نتائج جيدة. كما استخدم البيزنطيون العقاقير وأثبت الواقع أنها تعود ببعض المنافع. كما أوصى البعض بأداء بعض التمارين الرياضية المنتظمة لوقاية الجسم من الأمراض.

وواقع الحال أن العملية الطبية كانت تصل إلى صورة طيبة داخل المستشفيات فقد كان هناك مستشفيات للقوات المسلحة، كما كان يوجد بالامبراطورية مؤسسات خيرية كبرى تملك المستشفيات حيث العنابر عالية الكفاءة بالمرضى، ومن هذه المستشفيات مستشفى دير الإله القاهر Pantocrator وهو الدير الذى أسسته ايرين زوجة الامبراطور يوحنا كومنين وأشار اليه المؤرخ يوحنا كيناموس John Kinnamos، لذلك أغدق الامبراطور نفسه الهبات عليه، ويذكر أنه في عهد الامبراطوروبالتحديد فى عام ١١١٢م. كان يوجد بهذه المستشفى عشرة أطباء من الرجال ومعهم طبيبة، بالإضافة غلى اثنا عشر مساعداً من رجال التمريض، وأربع مساعدات من النساء، وأثنان من أطباء الباثولوجى وهو علم يهتم بأسباب الأمراض وأعراضها.

وكان بالامبراطورية مستشفيات أصغر فى أماكن كثيرة داخل البلاد. ويلاحظ أن المستشفيات كانت تلحق بأديرة الرجال أو النساء أو بيوت الضيافة للفقراء، وكان على بعض الرهبان أو الراهبات أو الأصحاء من بيوت الفقراء تقديم الخدمة لهؤلاء المرضى. وتدلنا المصادر على أن كثيراً من الأباطرة والنبلاء كانوا يتبرعون بالأموال لمثل هذه المستشفيات التى لا نستطيع أن نقدر عددها داخل الامبراطورية، وأن كل ما لدينا من قدرة هو التقاط بعض المعلومات عنها من بطون المصادر البيزنطية، وخاصة مما كتبه رجال الدين. ومما لا شك فيه أنه كان يوجد الكثير من المرضى فى القرى النائية لا يعلم عنهم شيئاً ولم تمتد اليهم الأيدى لمعالجتهم. وفيما يتعلق بالطبيبات فالأرجح أن عملهن كان داخل المستشفيات فقط خاصة أديرة النساء. ويستدل من المصادر أن مرض النقرس Gout كان شائعاً فى الامبراطورية، وقد تم التعرف على

أسبابه، ولذلك وضعت محاولات طبية لازالة الأحماض من الجسم. ووجد الأطباء أن التدليك، والراحة والدفء يخفف من آلام هذا المرض.

والحقيقة أن مزاولة مهنة الطب لم تكن قاصرة على الأطباء فقط، فقط كان هناك البعض غير المؤهلين يزاولونها، وقد تركت لنا بعض المصادر أسماء بعض المشاهير الذين زاولوا هذه المهنة. ومن هؤلاء المؤرخ بسلوس والمؤرخة أنا كومنينا، فقد ورد عنهما أنهما ذكرا أن معلوماتهما لا تقل عن معلومات الأطباء. أما الامبراطور مانويل الثانى كومنيين فلم يتكلم عن نفسه ولم تذكر المصادر البيزنطية أنه اهتم بالعلوم الطبية. ولكن معلوماتنا عن ذلك جاءت من خطاب أرسله الامبراطور كونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا، إلى ويبالد Wibald رئيس دير كورفى Corvey فى عام ١١٤٨م خلال أحداث الحملة الصليبية الثانية يذكر فيه أنه وقع فريسة للمرض، وأن الامبراطور نقله على وجه السرعة إلى القسطنطينية ليعالجه بنفسه. كما ذكر المؤرخ الصليبى وليم الصورى أن الامبراطور مانويل قدم الرعايا الطبية وأنه وضع الضمادات والأربطة بنفسه على ذراع الملك الصليبى بلدوين الثالث Baldwin III ملك مملكة بيت المقدس (١١٤٤ - ١١٦٢م) عندما سقط الملك من على فرسه وكسرت ذراعه فى إحدى رحلات الصيد قرب مدينة أنطاكية.

وتوجد علوم أخرى اشتغل بها البيزنطيون، وعلى رأس هذه العلوم تأتى مادة الكيمياء، وأهم ما قدموه فى هذا العلم هو النار الأغريقية، وذلك باستعمال مادة قابلة للاشتعال عندما يُقذف بها على الأعداء، وقد أدركوا أهمية هذه العملية وجعلوها سراً من أسرارهم. أما علم الميكانيكا فقد تقدم فيه البيزنطيون كثيراً، ومن ذلك الساعات واللعب وتماثيل الأسود التى تزأر، وهى أمور جعلت كل زوار القصر الامبراطور من الدبلوماسيين خاصة يتعجبون

لمثل هذه الأعمال، وأن الانسان يندم كثيراً عندما يعلم أن كل هذه الابداعات قد نهبها الصليبيون مع الحملة الصليبية الرابعة.

وفيما يتعلق بالجانب العلمي بعد سقوط القسطنطينية، فيمكن القول أن الشاغل الأكبر لأباطرة نيقية في المنفى ١٢٠٤ - ١٢٦١م كان العمل على إعادة الامبراطورية إلى سابق عهدها واسترداد أراضيها، وكل ما عدا ذلك كان يقع في الاهتمامات الثانوية. وفيما يتعلق بالأحوال في تلك المرحلة، تقول؛ كان يوجد الأباطرة ورجال الدين والعلماء. أما الأباطرة فكان عليهم استرداد أراضي الامبراطورية وهذا لا يتأتى إلا بعمل عسكري والامبراطورية غير قادرة على ذلك، وكان الأمل في مساعدات أوربية وعلى رأسها البابوية خاصة أن الأتراك السلاجقة كانوا في الشرق يتطلعون إلى أراضي الأمبراطورية. وإذا قلنا الاعتماد على أوربا، فكيف يأتي ذلك وأوربا نفسها هي التي دفعت قواتها في الحملة الرابعة للاستيلاء على القسطنطينية. ومن هنا أصبح الاعتماد على البابوية، ولم يك يرض البابوية سوى اتحاد الكنيسة الشرقية والغربية، وهذا الأمر قد رضخ له الأباطرة نظرياً ولكنهم قاوموه عملياً يساندهم ويشد من أزرهم رجال الدين.

أما فيما يتعلق بالعلماء فإنهم عادوا بذاكرتهم إلى الخلف إلى علوم الأقدمين فضلاً عن جميع الدراسات الدينية، وظهر في هذه المرحلة بعض العلماء الذين اهتموا باللغة والأدب، كما تأثر البعض منهم بفلسفة توماس الأكويني Thomas Aquinas (١٢٢٥ - ١٢٧٤م) وهو الايطالي صاحب الفلسفة التي تنسب إلى إسمه وهي التومائية أو الكلامية وكانت شائعة في أوربا العصور الوسطى. كما أن مدينة سالونيك كانت تدار بها حلقات للدراسة تناقش أفضل المؤلفات الأدبية. أما إمارة طرابيزون (١٢٦١ - ١٤٦١م) فقد ظهرت بها بعض الأبحاث الفلكية، كما لمع أسماء بعض الفلكيين الذين درسوا في بلاد

قارس مثل جريجورى خونيادس Gregory Chioniads ، وتلميذه جـورج خريسوكوكيس George Chrysokokkes الذى اهتم بالطـب والجغرافيـا. ويلاحظ أن إمارة طرابيزون أصبحت فى هذه المرحلة تفتخر بجامعتها، كمـا أنها أصبحت مركزاً للباحثين، وجمعت الترجمات الخاصـة بـالعلوم الفلكيـة والرياضية من أعمال الفرس والعرب، وأن ما قام به جريجورى خونيادس قد أتمه الراهـب مانويـل الطرابيزونـى Manuel of Trebizond. وظلـت طرابيزون منارة للعلم فى البحر الأسود، وأصبحت حلقة وصل بـين العلـوم العربية والفارسية إلى العالم، وظلت هكذا حتى أخضعها الأسطول العثمـانى عام ١٤٦١م فى عهد السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١م) واستسلم آخر حكام الإمارة داود كومنين David Komnenos (١٤٥٨ – ١٤٦١م).

الفن البيزنطى

يعتبر الفن البيزنطى أصدق مرآة لكافة أنواع ومُركبـات الحـضارة البيزنطية، والحقيقة أن بيزنطة قدمت للعالم أعظم ما لديها من تراث دام على مر الزمن. ومع العناصر الفنية التى قدمتها بيزنطـة، تـداخلت حـضارات ومُركبات كل من اليونانيين والرومانيين والآراميين والايرانيين، وإن كانـت بنسب مختلفة، إلا أنها امتزجت امتزاجاً متناسقاً جعل من الفن البيزنطى فنـاً متكاملاً فريداً وأصيلاً فى نوعه رغم تنوع مصادره. وواقع الحـال أن الفـن البيزنطى هو فن العاصمة البيزنطية. ويرى البعض ولديهم الحق فيما يقولون أن الفن البيزنطى كان فناً دينيا، ولكنه لم يكن فناً مسيحياً، وهى عبارة تحتـاج إلى فهم دقيق لأن الصلة وثيقة بين الاثنين. وتفسير ذلك أن الفن البيزنطى كان ناتجاً عن انتصار المسيحية على الوثنية، وقد يكون ذلك واضـحاً فـى أيـام دقلديانوس الذى أراد أن يرفع من عظمة الامبراطورية، وفن تشييد الكنـائس

قبل عصر قسطنطين. ولكن قسطنطين مزج بين سمو الديانة المسيحية وعظمة الامبراطورين، وجعل من نفسه ظل الله ونائبه على أرض الامبراطورية. ومن هنا كان الفن الذى يمجد الديانة المسيحية كان أيضاً يمجد الامبراطورية. ومن هنا اختفت الرمزية التى مارسها المسيحيون عند بناء الكنائس، وحل محلها فن مبعثه الإلهام.

ومن المعروف أن الفن اليونانى اتجه نحو محاكاة الطبيعة بصورة مرتبة تنم غن الذوق الرفيع، وهذا الفن اليونانى قد إزداد تمنيقاً فى العصر الهلينستى، ثم زاد ذلك فى عصر الامبراطورية الرومانية مع مزيد من الاتقان والتفاصيل والحجم، وأصبح الفن على هذه الصورة يحتاج إلى مهارات وجهد خاص.

ومع بدايات القرن الرابع كان للفن الشرقى سواء أكان مصرياً أم سورياً أم آرامياً أو إيرانيا تأثيره على كل أنحاء العالم ومنه الامبراطورية البيزنطية، وكان للفن الشرقى طابعه الخاص الذى تطلب أن يتحدث إلى الناس مباشرة دون تدخل من الفنان، ومن هنا كانوا يستغنون عن رقة الرسم ونسب التراكيب. وقد تقبل المسيحيون هذه الفكرة بكل إرتياح، فاليونانيين كان يصورون الإله أبولو فى أجمل صورة، وكان لا يمكن للمسيحيين أن يصوروا السيد المسيح على هذه الصورة الجميلة، فهو الذى تحمل العذاب، وهو المخلص، وهو العظيم. وكان ينبغى لكل من يشتغل بالفن المسيحى أن يظهر السيد المسيح فى شكل من هذه الأشكال حتى يحس به على الفور كل مسيحى. ومن هنا كان ينبغى أن ترسم على وجهه خطوط الآلام التى تحملها، والجدية والصرامة والاحساس بالخير الإلهى، ولذلك كان الفن البيزنطى فنا إنطباعياً. وقد عرف هذا المذهب باسم المذهب الإنطباعى Impressionism، وقالت عنه المراجع أنه من الإنطباعية، وذكرت أنه حركة ثورية حديثة ترجع أصلا

إلى فرنسا، وهو ينطبق على الفن والأدب والموسيقى، وأنه يهدف إلـى قيـام الفنان بنقل إنطباعات بصره أو عقلـه للجمهـور ولـيس التـصوير الواقـع الموضوعى. وفى الفن البيزنطى، فقد اقتصر هذا الفن على الجانب الفنى فقط.

وقد أضاف الشرق إلى الفن البيزنطى عنصراً آخرا، وهذا العنصر هو السيادة التى جاءت من الساسانيين من بلاد فارس، وهذا الفكر الجديد كان فيـه قدراً من العظمة والوقار التى تتسم بالبساطة. ولعل ما مهد لذلك هـو ديانـة ميثرا Mithras ، وهو دين يتعلق بعبادة الشمس المكللة بهالات المجد، وكان لهذه الديانة فنها الخاص، وهو فن رمزى يؤثر على النماذج والتصميمات بعقل الفن الآرامى.

ومن هذه المكونات جميعاً ظهر هذا الفن بُعيـد عهـد الامبراطـور دقلديانوس، ويتضح ذلك من التماثيل التى عبرت عن الحكومة الرباعية، وقـد حل محلها تصوير الامبراطور فى مراحل لاحقة، وفيها الفن الرمـزى غيـر الشخصى، ولا يظهر فيها الامبراطور فى صورة بدنية رائعة، بل فى صورة رمزية توضح عظمة الامبراطورية فى مواجهة الغـزوات الجرمانيـة، ثـم تدخلت الفكرة الدينة بطريقة عاطفية مباشرة دون الالتزام بالإبداع الفنى.

ولقد كان الفن البيزنطى واضحاً ومباشراً، ولكنه لم يسلك سـهلاً، لأن العبادة وخاصة عبادة الامبراطور عليها أن تمتاز بالفخامة لدرجة كبيرة، وقد نجح الفنان البيزنطى فى إظهار هذه الفخامة بوسائله الخاص، وما توفر له من مواد فى البيئة التى يعيش فيها.

وبلغ الفنان البيزنطى مكانة كبيرة فى التصرف فـى كافـة منـاحى الفنون؛ ومن ذلك أنه تصرف فى استخدام الفسيفـساء واختيـار القطـع ذات الألوان المناسبة بدلاً من الألوان فى عمل لوحات التصوير أو الصور الجصية

على الجدران، واستعمل باقتدار خلفية من الذهب فى تصوير الصور الجصية، واستخدم الذهب أيضاً فى المخطوطات المحلاة بالصور، كما أضيف البرونز الملون بالذهب فى التماثيل، وأضاف الفنان خيوط الذهب فى الأقمشة خاصـــة الحرير. وإذا كان الذهب مكلفاً فى معظم الأوقات فإن الفنان البيزنطى استخدم معايير مصغرة فى هذه الحالات. وقد استعمل هذه المعايير الصغيرة القائمـــة على الاتزان المتكامل فى المنتجات الصغرى مثل النقش على العـــاج أو فـــى أشغال المينا.

وفيما يتعلق بفن العمارة فالحقيقة أن فن العمارة البيزنطى قد تفرد عن كل ما عداه من الفنون التى أخذت خطوة إلى الوراء من حيث الأصول الفنية، أما الفن المعمارى فقد واصل مهندسوه التقدم بإطراد فى منهج مهـــارى فـــى إطار أصول فنية.

ومن المعروف أن الامبراطورية لم تعترف بالديانة المسيحية إلا بعـــد ما يزيد عن ثلاثة قرون، وعلى ذلك لم يسمح الأباطرة الرومـــان للمـــسيحين ببناء دور خاصة بهم يؤدون بها شعائرهم الدينية، وظلوا يمارسون صـــلواتهم واجتماعاتهم فى الخفاء. والراجح أنهم كانوا يؤدونها فى بعض المعابد الوثنية النائية وفى دورهم الخاصة، ولم يقدموا على بناء كنائس خاصة بهم فى هـــذه المرحلة. وعلى ذلك لم يظهر للفن المسيحى أثر واضح إلا فى مقـــابرهم ذات القباب التى شيدت من الطوب اللبن، وبعض الصور التى سجلت على جدران المقبرة من الداخل

وبعد الإعتراف بالمسيحية أقام المسيحيون شعائرهم علانية، وبـــدأوا يتطلعون إلى إقامة مراكز دينية خاصة بهم، فحصلوا بإذن مـــن الامبراطـــور على بعض المعابد الوثنية سواء بمقابل أو بدون مقابل وحولوها إلى كنائس، ثم

بدأوا يشرعون فى إقامة كنائس جديدة. وفى هذا الوقت أيضاً لم يظهر لهم فن مسيحى قائم بذاته، لأن المعابد الوثنية ظلت باقية بفنها الرومانى القديم، ومـا أقاموه من كنائس جاء تقليداً لما كان سائداً من الطرز المعمارية التى ألفوهـا فى تلك المرحلة. وفى الفترة الممتدة من القرن الرابع حتى القـرن الـسادس الميلادى بدأ الفن المسيحى المعمارى يتخذ طرازاً خاصاً من ناحية التـصميم المعمارى. فنجد الطراز الدائرى الذى انتشر فى بلاد اليونان والشرق أى فى المناطق التى كانت خاصة بالامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية)، كما تشاهد الكنائس المستطيلة Basilica التى سادت أنحاء غرب أوربا. ومع هذا يلاحظ أنه لم يكن هناك خط جغرافى فاصل بين الكنائس الدائرية والكنـائس المستطيلة، فقد وجدت بعض الكنائس الدائرية فى الغرب وبعـض الكنـائس المستطيلة فى الشرق، ولكن ما نـود أن نوضـحه أن الكنـائس المـستطيلة أصبحت سمة مميزة لفن بناء الكاتدرئيات والكنائس فى الغـرب، فـى حـين أصبحت الكنائس الدائرية محور بناء الكنائس فى الشرق سواء أضيف إلـى هذه الكنائس الدائرية القباب أم لم تضف.

كانت الامبراطورية البيزنطية هى الجزء الشرقى فى الامبراطوريـة الرومانية، وعندما بنى الامبراطور قسطنطين القـسطنطينية لتكـون مركـزاً لحكمه، كان للفن الرومانى واليونانى أثره الواضح فى العمارة. وعندما بنيـت الكنائس الشرقية التى يمكن أن نطلق عليها الكنائس البيزنطية، والتى حملـت فيها سمة العمارة البيزنطية، كان أثر العمارة اليونانية والرومانية واضحاً فـى هذه الكنائس. ومع مرور الوقت تأثرت الكنائس الشرقية بالعمارة الشرقية التى وجدت فى فارس وآسيا الصغرى واكتسبت طابعاً مميزاً عن الغـرب. هـذا الطابع هو الفن المعمارى البيزنطى، أى أن فن العمارة البيزنطية هو مـزيج

بين فن العمارة اليونانى والرومانى والشرقى مع إضافة العامل الدينى والعامل الجغرافى.

ومن أهم ما تميزت به الكنائس البيزنطية شكلها المربع والقباب نصف الدائرية. ولكى تتخذ الكنيسة الشكل العام للصليب أضيف إلى ذلك المربع ذراعان جانبيان وهو أمر يتعلق بالجانب الدينى فى فن العمارة المسيحى بعامة. ومن الملاحظ أن الكنائس المسيحية فى هذه المرحلة قد بنيت من الأجر، ولعل ذلك يرجع إلى تعذر الحصول على الأحجار أو أن القائمين على أمر المسيحية فى هذه المرحلة كانوا يودون إقامة كنائسهم على وجه السرعة فلم ينتظروا حتى يحصلون على الأحجار، أو أن بناء الكنائس بالأجر فيه نوع من الزهد والبعد عن مباهج الحياة، وهو مبدأ حرصت المسيحية على تطبيقه خاصة فى عصورها الأولى.

وعلى أية حال فإذا كان ما يطالعنا عند مشاهدة الكنسية من الخارج، هو الآجر، فإن جدرانها من الداخل قد غطيت بالرخام المنقوش على هيئة صور رمزية للقديسين والسيدة مريم والسيد المسيح. والحقيقة أن زخارف الكنيسة فى الشرق بلغت درجة من الرقى فاقت ما كان عليه الغرب بكثير لفترة ليست بقصيرة، وهى الفترة التى امتدت حتى القرن الحادى عشر الميلادى حين ظهر الفن المعمارى الرومانسكى. أما فيما يتعلق بأعمدة الكنائس البيزنطية فكانت مثل الأعمدة الرومانية مع تجديد هيئة التيجان التى غلبت عليها صفة الاستدارة. كما تماسكت الأعمدة مع بعضها بعقود مقوسة أو على شكل حدوة الحصان. ونخلص من هذا كله إن الكنيسة البيزنطية فى هذه المرحلة بنيت من الأجر على شكل مربع ذو ذراعان تعلوه قبة، غطيت جدرانها فى الداخل بالنقوش الدينية.

وكانت كنيسة أيا صوفيا أعظم ما أعاد بناءه الامبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ – ٥٦٥م) وابقى على الدهر من فتوحه وقوانينه. ولم تكن أيا صوفيا هى الكنيسة الوحيدة التى أعاد بناءها جستنيان، بل كان فى العاصمة البيزنطية ما يقرب من أربع وعشرين كنيسة أخرى بناها جستنيان أو أعاد بناءها فى عاصمة ملكه، ويروى المؤرخ بروكبيوس Procopius ويقول: "إنك لو رأيت كنيسة منها بمفردها لحسبت أن الامبراطول لم يبن كنيسة سواها، بل قضى سنى حكمه جميعها فى بنائها وحدها". وانتشرت حمى البناء فى جميع أنحاء الامبراطورية طول حياة جستنيان، حتى كان القرن السادس الميلادى أكثر العصور ازدهاراً فى تاريخ العمارة البيزنطية. وأنتشرت الكنائس فى إفسوس بآسيا الصغرى وفى أنطاكية وغزة، وبيت المقدس والاسكندرية وسلانيك ورافنا وروما. وكافة البلاد الممتدة من جنوب البحر الأسود حتى شمال أفريقيا.

والواقع أن الفن اليونانى والرومانى والشرقى والمسيحى لم يكن قد امتزج قبل عهد جستنيان. ولكن ثورة نيقا Nika التى دارت أحداثها فى عام ٥٣٢م أتاحت الفرصة للامبراطور جستنيان لبناء عاصمته من جديد. ذلك لأن السوقة فى لحظة من لحظات نشوة الحرية أحرقوا العديد من المبانى، وكان بين ما أحرق كنيسة البطريرك الكبرى. وكان فى وسع جستنيان أن يعيد بناء ما أحرق حسب التخطيط القديم، فلا يتطلب هذا منه أكثر من عام أو أثنين، ولكنه لم يفعل ذلك وعقد العزم على أن ينفق فى بناء الكنيسة مزيداً من الوقت والمال، وأن يستخدم فى هذا البناء عدداً كبيراً من الرجال وأن يجعل عاصمة ملكه أجمل من روما. وأن يقيم بها كنيسة لا يدانيها صرح آخر فى العالم كله. وكانت بداية عمله أن وضع فى ذلك الوقت منهجاً للأبنية شمل الحصون والقصور والأديرة والكنائس.

وبدأ أول ما بدأ بكنيسة أيا صوفيا الجديدة فقد بدأ العمل بها بعد حوالى أربعين يوماً من أخماد نار ثورة نيقا، واستدعى لهذا الغرض المهندسين من أنحاء الامبراطورية وعلى رأسهم أنتيموس أف ترالس Anthemius of Tralles، وأبولودورس الدمشقي Appollodorus of Damascus، وأزدورس أن مليتسوس Isidorus of Miletus ليضعوا رسوم البناء ويشرفون على التنفيذ. واستخدم الإمبراطور فى العمل عشرة آلاف عامل، كما أمر حكام الولايات بأن يبعثوا إلى الكنيسة الجديدة بأجمل ما بقى من المخلفات القديمة، وجئ بعشرات الأنواع والألوان من الرخام من مختلف الأقطار، وصبت في النقوش والزينات مقادير هائلة من الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة، واشترك جستنيان نفسه اشتراكاً عملياً في تخطيط البناء وإقامته. فقد كان يتردد يومياً على العمال وعليه ثوب أبيض وفى يده عصا طويلة، وعلى رأسه منديل، يشجع العمال ويحثهم على أن يتقنوا العمل ويتموه في الموعد المقرر. وقد تم بناء الكنيسة فى حوالى ست سنوات.

وقد خط بناء الكنيسة على شكل صليب يونانى طوله ٢٥٠ قدماً وعرضه ٢٢٥، وغطى كل طرف من أطراف الصليب بقبة صغيرة، وقامت القبة الوسطى على المربع البالغ ١٠٠×١٠٠ قدم والمكوّن من الضلعين المتقاطعين. وكانت ذروة القبة تعلو عن الأرض مائة وثمانين قدماً وقطرها مائة قدم، وبنيت هذه القبة من الأجر. ويتخلل محيط هذه القبة أربعون نافذة مرتبة وفق نظام هندسي بديع، يكفل دخول قدر كاف من الضوء إلى داخل الكنيسة. وليست ميزة القبة فى حجمها بل فى دعائمها، فهى لا تقوم على بناء دائرى، بل على عقود بين حافتها المستديرة وقاعدتها المربعة.

أما الكنيسة نفسها فهى مبنية من الآجر. وكان الناظر اليها من الداخل يرى صورة من الزخرف البراق، فقد كانت أرضها وجدرانها من المرمر

المتعدد الألوان. أبيض وأخضر، وأحمر، وأصفر، وأرجوانى، وذهبى. وأقـيم من هذا المرمر صفوف من الأعمدة يخيل إلى الناظر إليها أنها حديقـة مـن الأزهار. وكانت تيجان الأعمدة والعقود وما بينهما والأفاريز مغطاة بالنقوش. أما الجدران والقباء فقد غطيت بالفسيفساء التى لا مثيل لها فى الروعـة. وإن ما يحس به الناظر إلى هذه الكنيسة من سعة تبعثها فى نفسه أجنحتها الطويلة وبناؤها الرئيسى، والفناء الخالى من الأعمدة تحت القبة الوسطى. وقد أعيـد بناء قبة الكنيسة بعد أن دمرها زلزال عام ٥٥٨م. وظلت هذه الكنيسة باقيـة على حالها حتى عام ١٢٠٤م حين سقطت القسطنطينية فى أيدى الـصليبيين فأتلفوا جانباً منها. وبقيت الكنيسة قائمة حتى الفتح العثمانى للقسطنطينية عـام ١٤٥٣م، فحولها الأتراك إلى مسجد وأضافوا إلى بنائها أربعة مآذن رشـيقة تتناسب أتم التناسب مع أشكال القباب، وبعض التعديلات الأخرى التى تناسب وضعها الجيد كمسجد، وما فعله الأتراك بالكنيسة أن غطوا الصور الداخليـة المصنوعة من الفسيفساء بالجص. ولكن الحكومة التركية أذنـت فـى عـام ١٩٢٤م إلى طائفة من الباحثين بالمعهد البيزنطى فـى مدينـة بوسـطون أن يكشفوا عن هذه النماذج الفنية من أعمال الفسيفساء التى لا تسمو عليها نماذج أخرى، فاصبحت متحفاً للفن المعمارى البيزنطى والتركى.

أما المبانى الدنيوية فيصبح من الصعب الحديث عنها كثيراً لقلـة مـا تبقى منها. وإذا بدأنا بالقصور نجد أن القصر كان به الكثير من القاعات مثـل قاعة الطعام الذهبية، وقاعة الاستقبال. وكان القصر الأكبر مشيداً من ناحيـة الشكل العام مثل الكنائس ذات القباب والحنيات وغرف القربان. وإلى جانـب القاعات فى القصر الكبير كانت توجد الأروقة والحمامات وغـرف الحـرس وغرفة السلاح ومكتبة وأجنحة بها غرف للمعيشة والنوم، ويقال أن كان بـه متحف ربما يجمع بعض المخلفات الدينية أو الدنيوية، ولكن كل هذا قد جمـع

فى مكان واحد هو القصر الكبير فى مجموعات رئيسية ثلاث دون أى وحـدة فى التصميم.

وكان بالريف أيضاً بعض القصور، ولعل أشـهرها القـصر الريفـى المثالى الذى عاش فيه الشاعر ديجنس أكريتـاس Digenis Acritas. وهـو الشاعر أو الأمير العربى الأصل الذى تزوج أبوه من فتاة مسيحية وعاش على الحدود العربية البيزنطية. والحقيقة أن إسم هذا الشاعر الأصلى هـو بـازل Basil، أما كلمة ديجينس فمعناها أنـه مولـود مـن عنـصرين مختلفـين، أما أكريتاس فتعنى المدافع عن الحدود. ولسنا لنا فـى هـذه الـصفحات أن نخوض فى الحديث عنه، والمهم هنا أن قصر هـذا الـشاعر كـان يحتـوى على ثلاث قباب، وأنه كان يتكون من أربع طوابـق، وهـو الأمـر النـادر الحدوث.

أما منازل الأحياء السكنية فعادة ما كانت تبنى من طـابقين، وكانـت غرف الطابق الأرضى تطل على صف من العقود، أما الدور الأول فكانت به غرفة المعيشة الرئيسية. وكانت هناك الأبراج التى تشكل الدفاعات العـسكرية التى تقع على أسوار المدينة، أو فى أماكن منعزلة، وجداول المياه التى تعلوها القناطر التى صممت على الشكل الرومانى بالعقود النصف دائريـة. كمـا أن السيرك قد بنى على الطراز الرومانى. يضاف إلى ذلك الصهاريج التى تتجمع فيها المياه لاستخدامها وقت جفـاف نهـر ليكـوس Lycus الـذى يغـذى القسطنطينية. وقد بنيت هذه الصهاريج تحت الأرض خاصـة فـى القـرون الأولى للامبراطورية، وكانت هذه الصهاريج ذات أعمدة كثيرة حتى تتحمـل ثقل السقف، ولا زال بعضها موجوداً حتى الآن كمزار سياحى مثل صـهريج Bin-birDirk، الموجودة فى العاصمة إسطنبول.

وفيما يتعلق بالأبواب فى المبانى كلها فقد كانت مربعة القمة. أما النوافذ فقد إختلفت فى المبانى الدينية عنها فى الدنيوية، فكانت ذات عقد مقوس وكانت كلها مستطيلة وضيقة، وكانت كل نافذة منها تتكون من ثلاث وحدات مستقلة مع وجود قواعد رخامية أو خشبية أسفل النافذة. وأحياناً نجد القمرات المستديرة المصنوعة من الزجاج فى أغلب الأحيان.

وفيما يتعلق بالمواد التى صنعت منها المبانى فكانت تختلف من منطقة إلى أخرى، فالأقاليم التى تكثير بها الحجارة تكسى الحوائط بالأحجار المشغولة. وفى مدينة القسطنطينية كانت المبانى تبنى من الطوب الأحمر، وكان يتم استخدام الأحجار أيضاً فى أشكال متداخلة مع الطوب من أجل زخرفة المبنى، كما كانت الجدران الداخلية ذات الأهمية تكسى بمواد زخرفية مثل بعض الرخام المتنوع الألوان ويعلوها فصوص من الفسيفساء، وفى بعض الأحيان كانت تزين بالصور الجصية (الفريسكو أو لوحات). وفى المبانى التى كانت بداخلها بعض الأعمدة كانت تيجان هذه الأعمدة تنحت بكل عناية.

أما فن النحت فقد أصبح فنا شرقيا بدلاً من النحت الكلاسيكى ذو الأبعاد الثلاثية، ويعتبر البعض أن ذلك يعد إنقلاباً لا تطوراً، وكان النحت الشرقى المأخوذ عن الآرامى يرى الأشياء مسطحة ولها بعدين إثنين ويحس بها من الناحية التصويرية لا الناحية النحتية، وقد ظهر النحت الآرامى فى بلاد فارس. لذلك كان النحت البيزنطى فى حد ذاته صورة أكثر منه نحتاً. وفيما يتعلق بالثياب التى تنحت على الثياب فقد كانت تسير وفق نماذج هندسية بدلاً من المنحنيات الواقعية التى سار عليها الفن الكلاسيكى. ويوجد تمثال يرجع إلى أواخر القرن الرابع الميلادى يمثل مرحلة الانتقال من الفن الكلاسيكى إلى الفن البيزنطى، ويكاد يكون التمثال صورة، وعلى المشاهد أن ينظر إليه من الأمام. ويظهر وجه التمثال فى صورة مبسطة مع المبالغة فى

الخطوط التى تعلو الشفاة إلى الأنف لتضفى على الشكل رمزا للجلال الصارم للتعبير عن الولاء لعقيدة الامبراطور.

وسرعان ما تحول فن النحت إلى فن حفر بارز حفيف البروز مع اتخاذ الظلال بدلاً من الألوان. والحقيقة أن أفضل أنواع الحفر البارز هى التى كانت تصنع فى أشكال صغيرة الحجم، سواء من المعادن أو الحجر، ولكن معظمها كان من العاج مثل علب المجوهرات أو علب الآثار المقدسة. ويتضح من هذا الحفر البارز التأثير الشرقى بصورة واضحة حتى نهاية القرن التاسع الميلادى. وبعد ذلك دخلت بعض عناصر الرشاقة على المشغولات النحتية دون القضاء على بساطة المدرسة الشرقية، ويرى البعض أن أفضل منحوتات بيزنطة هى التى صنعت فى تلك المرحلة مثل لوحة رومانوس الرابع وزوجته يودكيا. وبعد القرن الحادى أضمحل هذا النوع من الفن لغلو ثمنه. وإلى جانب ذلك كان هناك النحت الزخرفى وهو الشغل المثقب، وأشغال المشبكات، والنحت التطريزى، والنحت الشامبلقى، والأخير من نوع من أشغال المنيا الذى يتم بوضع مساحيق زجاجية فى شقوق معدنية.

ولعب التصوير دوراً كبيراً بمؤثراته الشرقية وتفوق على فن النحت، وأدخل الفنان الشرقى خاصة الآرامى عناصر جديدة على العناصر الكلاسيكية التى ظلت تسير جنباً إلى جنب مع الأفكار الجديدة التى ترى فيها عمق الإحساس.

وفى ميدان التصوير البيزنطى فاقت الفسيفساء أى تصوير آخر، ويلاحظ أن فنانى الفسيفساء جعلوا مصدر الهامهم صوراً مصغرة رقيقة وصغيرة حتى يسهل حملها من مكان إلى آخر، وإن ذلك لم يمنع من صنع فسيفساء على الأرض كبيرة الحجم. واستمرت المدرسة الكلاسيكية لفن

الفسيفساء مع المدرسة الجديدة، بعد أن كيفت نفسها إلـى حـد مـا لتـساير مطالب الزمن. ويلاحظ أن الفنان كان يملأ خلفية الصورة أيـضا. وتتجلـى المؤثرات الشرقية فى صور الطواويس التى زخفت من بـلاد فـارس إلـى الفن البيزنطى.

ومع بداية القرن السادس الميلادى بدأ التأثير الشرقى يتدخل بقوة فـى هذا المضمار، وبدأت صور الفسيفساء تأخذ نوعاً من الصلابة مع قوة التأثير، ومن ذلك لوحة الامبراطور جستنيان وزوجته ثيودورا وحاشية الـبلاط فـى كنيسة سان فيتالى St. Vilalis فى مدينة رافنا Ravenna بإيطاليـا، وهـى الكنشية التى أكملها الامبراطور بعد ما سـتعاد ايطاليـا مـن أيـدى القـوط الشرقيين. كما أن الفسيفساء التى رسمت فى كنيسة آيا صوفيا بالقـسطنطينية تسير فى نفس الاتجاه، ويمكن للزائر أن يراها الآن بعد إزالة الجـص الـذى وضعه الأتراك العثمانيون. أما كنيسة القديس ديمتريـوس Demetrius فـى مدينة سالونيك، فقد ظلت أعمال الفسيفساء تحـتفظ بـالكثير مـن العناصـر الكلاسيكية، ولعل ذلك مرجعه إلى وقوع المدينة فى بلاد اليونان أى فى غرب الامبراطورية لا فى شرقها.

كما أن فسيفساء الأرضيات تباعدت عن الروح الكلاسيكية، وتضمنت طراز من الزخرفة ذات حليات أكثر، وهو طراز شاع في سوريا وفلـسطين، والواضح أنها من صنع الأرمن وأهل الاسكندرية. وكـان هـؤلاء الـصناع يتمسكون فى بداية الأمر بالعناصر الكلاسيكية. أما الأرمن فقد كانوا يرسمون الفسيفساء على الأرض طبقاً للمؤثرات الايرانية التى جمعت بـين النمـوذج الأرمينى والتمشى مع الطبيعة. وبعد القرن السادس بـدت فسيفـساء الأرض نادرة للغاية، وحل محلها كسوات أرضية هندسية مصنوعة من الرخام الملون فى أشكال صارخة.

ومن الفنون البيزنطية تجميل المخطوطات بالصور التى تعود إلى أصول سكندرية، وكانت هذه النماذج تنتقل إلى جميع أنحاء العالم البيزنطى، وظلت بالطابع الكلاسيكى حتى القرن السادس الميلادى. وهناك مجلدات منسوخة استخدم فيها فن المنظور وإظهار الأشخاص فى جميع الأوضاع والاتجاهات، وكانت الصور تموه بألواه مجردة. كما أنها كانت مدرجة تدريجاً رشيقاً. وهناك صور ظهرت فى مخطوطات القرن السادس مثل مخطوط قوزماس الملاح وفيها وردت الصور العلمانية بطريقة كلاسيكية، أما الصور الدينية فقد اتضح فيها الطابع الشرقى القوى. وبذلك يكون فن التصوير البيزنطى قد دخل فى مرحلة جديدة فى تكوينه وتركيبه، وأصبح العنصر الشرقى هو العنصر الغالب فى الفن البيزنطى. ويرى البعض أن أهم ما صنع من الفسيفساء ما أقيم بقبة الصخرة فى بيت المقدس وفى فناء المسجد الأموى بدمشق، وقد يرى البعض أن الحكام المسلمين قد استخدموا الفنانين والمعماريين البيزنطيين بينما يرى البعض الآخر أن هذه الأعمال قد تمت بأيدى عمال وطنيين. وعبارة وطنيين، ربما تعود إلى أهل بلاد سوريا وليس العرب. وعلى أية حال فما هو موجود فى قبة الصخرة كان يتكون من أشكال أوراق الشجر المكدس فوق بعضه، ومن حليه هندسية ذات تأثير فارسى. أما المسجد الأموى فكان فيه سلسلة فاخرة من المناظر الشجرية والتلالية والمنازل، وهى موضوعة برشاقة وزاهية الألوان. وربما استخدم الفنان البيزنطى مع جانب من الفكر الاسلامى.

ولعبت فكرة عبادة الأيقونات دوراً كبيراً فى تحطيم الصور، وحقيقة الأمر أن الصور التى رسمت على الأيقونات جمعت بين الطابع الآرامى والايرانى والهلنيستى حتى انتصر الأخير. وعندما أصدر الامبراطور ليو الأيسورى مرسوماً يقضى بتحطيم الأيقونات، أصبحت هذه الصناعة صناعة

سرية يتولى أمرها الرهبان، وحل محلها فى العلن بتشجيع من الحكومة فناً قائماً على الأشكال الهندسية، أى أنه اصطبع بالطابع الدنيوى. وطورت صور الطيور والحيوانات والأشجار إلى عناصر أخرى رضى عنها الأباطرة من أنصار محطمى الصور. ولما كان المواطن البيزنطى أصبح شرقياً بدرجة كبيرة جعلته يعشق القصص، وقد وجد نفسه لا يستطيع أن يرسم الصور الدينية، ولا صور السيد المسيح أو القديسين، لذلك عاد إلى الأساطير الأغريقية التى قوبلت صورها بارتياح، وتدخل فى رسم الاشكال الكلاسيكية الجامدة وصورها فى أوضاع رشيقة، وبذلك عاد فن المنظور إلى الصورة مرة أخرى. وزاد هذه الأشكال رشاقة ما أضيف اليها من النماذج الشرقية مثل صور أوراق الشجر المجدول وبعض الطيور مثل الطواويس.

والحقيقة أن كل هذه النماذج إندثرت، وهذا ما أطلق عليه الفن الدنيوى. ولم يبن ما نعرفه عنها إلا ما هو مسجل فى المصادر البيزنطية. وعلى ذلك يمكن القول أن من نتائج تحطيم الصور إعادة الدين إلى حظيرة الفن، وأصبح على الفنانيين البيزنطيين أن يكيفوا أنفسهم مع هذا النوع الجديد الذى أطلق عليه الفن الهلينستى الحديث Neo-Hellenisn. وقد نجح هذا المزيج نجاحاً كبيراً. وظهر فى القرن العاشر والقرن الذى يليه أبدع مرحلة ظهر فيها فن التصوير البيزنطى، ويتجلى ذلك فى زخرفة كنيسة القديس لوقا فى ولاية فكس Veccos، وهى الكنيسة التى شيدت فى أواخر القرن العاشر. وهناك مخطوطات سارت على النظام نفسه؛ وهناك العديد من الأمثلة على ذلك تضيق بها هذه الصفحات.

وواصل التأثير الكلاسيكى على الفنون فى القرن الثانى عشر، ولكنه قام على حساب القوة والوحدة. ومن ذلك الفسيفساء التى أمر الامبراطور البيزنطى مانويل (١١٤٣ - ١١٨٠م) بانشائها فى كنيسة بيت لحم فى فلسطين

عام ١١٦٩م، وقد سجلت المصادر هذا الحدث، وذكرت أنـه يوجـد نـص مكتوب باللغة اليونانية واللاتينية فى كنيسة السيدة العذراء فى مدينة بيت لحم، ومضمون هذا النص أن زخرفة هذه الكنيسة قام بها الفنان إفـرم Ephrem، ويتضح من الاسم أنه أرميني، وأن ذلك تم فى عهد الملك الصليبى عمـورى ورالف أسقف الكنيسة، والامثلة على ذلك كثيرة. ويتضح من هذه الآثـار أن العمل كان ذات قيمة زخرفية، ولكن الحدة التى اتصف بها الفـن البيزنطـى غابت عن هذه الزخارف.

وبعد عام ١٢٠٤م وسقوط مدينة القسطنطينية تشتت السكان وتوقفـت الأعمال الفنية، ولم تعد السنوات التالية تسمح للفنون بالازدهار. وحتـى بعـد إسترداد القسطنطينية لم تعد موارد الدولة كافية لإعادة أعمال الفسيفساء غالية النفقة، ولذلك اتجه الفنان البيزنطى إلى الصور الجصية الجدارية (الفريسكو). وقد اتخذت هذه الصور أسلوب الفسيفساء المعاصـر لهـا، وبـدت الـصور الجصية أهم فروع التصوير مع إدخال عوامل جديدة وهى إظهار قـدر مـن الانفعال، كان يصعب وضعه فى أعمال الفسيفساء.

وفى عصر أسرة آل باليولوجس زادت الأعمال الكلاسيكية، فعاد إلى الظهور الرسم المنظور وتصوير الإنسان فى صـورة معقـدة مـع إضـافة الخلفيات. والحقيقة إن كانت الكلاسيكية قد عادت بأسلوبها المرح، فإن القـوة كانت موجودة وان كانت بصورة عشوائية، كما احتفظت الرسومات بالنزعـة الصوفية الأرثوذكسية مع قدر معين من المرونه. وبدا هذا الفن يقارب الفـن الإيطالى فى تلك المرحلة، وبدأ وكان الشرق البيزنطى والغـرب الأوروبـى على اتصال وثيق فى هذه الآونة، وإن كانت النقوش المسجلة تفيد أن الفنـون البيزنطية على الصورة الجديدة هم أقدم من الإيطالية. ويمكن أن نجد هذا الفن المشترك للتصوير البيزنطى والإيطالى المتأخر فى المخطوطات الأرمينية فى

أقليم قيليقيه بجنوب شرق آسيا الصغرى، وفيها تظهر المخطوطات محلاة بالصور التى تجمع بين القوة والرشاقة التى لم تك موجودة فى الامبراطورية من قبل. كما عادت فكرة تجميل الصورة عند البيزنطين فاتجهت إلى النماذج الكلاسيكية، ومنها أسلوب مدرسة الاسكندرية مع قليل من الزخرفة.

ومع بدايات القرن الرابع عشر الميلادى انطبع هذا الأسلوب على قطع الفسيفساء النادرة التى ظهرت فى تلك المرحلة. ومن هذه التحف النادرة ما قام به عام اللاهوت والفيلسوف والمستشار الأعظم ثيودور ميتوخيتس Theodor Metochites فى كنيسة خورا Chora وهى الآن Kahrieh Djami فى مدينة القسطنطينية. وهى مجموعة ضخمة من أعمال الفسيفساء تتجلى فيها العظمة والجلال مع ضعف للروح الكلاسيكية، وتعبر هذه الأعمال عن العواطف الانسانية أكثر مما تعبر عن القوة الروحية التى كانت سائدة فى القرون السابقة. وفى هذه المرحلة ذهب الفنانون البيزنطيون إلى بلاد الصرب وأقاموا أعمالاً فنية فى عدة كنائس فى الفترة الممتدة من (١٣١٤ - ١٣٤٩م)، وهى أعمال تعبر عن مستوى عالى مثل ما صورت به السيدة العذراء. كما امتدت أعمال الفنان البيزنطى فى عصر أسرة آل باليولوجس إلى بلاد البلغار مثل الأعمال التى وجدت فى كنيسة القديس نيقولاس Nicholas. وحتى بعد سقوط الإمبراطورية فى عام ١٤٥٣م نجد رسومات فى شمال مولدافيا Moldavia، وقد حملت بصمات الفنان البيزنطى. وفى بلاد روسيا ومنها مدينة نوفجورد Novgord وحولها نجد أعمالاً فنية من القرن الرابع عشر الميلادى، ومنها بعض أعمال الصور الجصية (الفريسكو) تنسب غلى الفنان البيزنطى ثيوفانيس اليونانى Theophanes The Greek.

وعلى مدى ثلاثة قرون، انقسم الفن البيزنطى إلـــى مدرســتين فـــى الجانب الشرقى من الامبراطورية، وكانت المدرسة الأولـــى هـــى المدرســة المقدونية، ونرى أعمالها فى القرن الرابع عشر فى كنائس مقدونيا والــصرب وهى من أثمن ما قدمه الفن البيزنطى، ومنها ما هو موجود فى كنائس إمــارة ميسترا Mistra ، وما هو موجود حول مدينة نوفجورد فى روســيا. وفـــى المرحلة ذاتها نجد المدرسة الكريتية Cretan ، ونجد مـــن أعمالهــا بعــض لوحات فى إمارة ميسترا فى نهاية القرن الرابع عشر.

ويلاحظ أن المدرسة المقدونية قد بدأت من الجبل المقدس حيث يقـع جبل أثوس Athos، قرب مدينة سالونيك وتأثرت بالفن الإيطالى من منطقــة سينيا Siena ويظهر على فن هذه المدرسة الاحساس بالمأساة البشرية. أمــا المدرسة الكريتية فقد كانت أكثر ارتباطاً بالفن الإيطالى وخاصة فنون البندقية، وقد اكتسبت لونا من العواطف. وقد تفوقت المدرسة الكريتية على المدرســة المقدونية حتى فى كنائس جبل أثوس.

وإلى جانب ذلك وجدت الفنون الصغرى، وقد تفوق البيزنطيون فـــى هذا المضمار تفوقاً فى جميع ما يتصل بهذا الفــن، والحقيقــة أن مثــل هــذه الأعمال ترتبط بالمواد الثمينة مثــل الــذهب أو أشــغال المينـــا أو صـــناعة الحرير. وقد اتسمت هذه الفنون بالتحرر مع البــساطة الذينــة بحيــث يبــدو العمل فاخراً.

ومن الواضح أن الحرير جاء إلى الامبراطورية من بلاد الصين عبر بلاد فارس، ومن الطبيعى أن تتأثر صناعة الحرير بالفن الفارسى. واتخــذت من هذا الفن التصميمات والرسوم، وأصبح يصور على الحرير أحداث الحياة اليومية برسوم زخرفية، وهذا النوع يطلق عليه Genre، وهكذا استعمل الفنان

البيزنطى الديباج الموشى المماثل للفن الإيرانى مادة له وأن تـأثر بالرشـاقة الكلاسيكية.

كما اهتمت الامبراطورية البيزنطية بفن صـناعة المينـا Enamel، وهذا الفن الشرقى الأصل يأت عن طريق حشو الفراغـات الموجـودة فـى الأجسام مثل الخواتم أو الأيقونات بمادة من السيراميك ذات ألـوان متناسـبة، وكان الفنان البيزنطى سباق فى هذا المضمار، والحقيقة أن هذا الفـن لـيس بجديد على الفنون، فقد وجدت أمثلة قليلة للغاية فى مصر ترجع إلى عـصر الامبراطورية الرومانية. ولكن الإضافة التى قدمها البيزنطيون هـى المنيـا المتجزئة Cloisonné ، وهو فن من أشغال المينا يفصل بين أجزائها شرائط متعددة، والحقيقة أن مثل هذا الفن كان من الصعب بمكان لأنه يحتـاج إلـى مهارة عالية للغالية، خاصة أنه يتدخل فى عملياتها صهر المعادن فى درجـة حرارة عالية. والواضح أن صناعة المينـا أصـبحت فـى أواخـر عـصر الامبراطورية من المواد الفنية الفاخرة غالية الثمن بحيث تعذر الإكثـار مـن صناعتها وبيعها.

ومن الفنون البيزنطية أشغال النلّ Niello. وهـى صـناعة تـرتبط باستخدام خليط معدنى فاحم اللون تملأ به الرسوم المنقوشة علـى الـصفائح المعدنية، وكذلك الأشغال الدمشقية، وهذا النلّ لا يختلف كثيراً عن تصميمات أشغال المينا المعاصرة لها.

وأخيراً فن صناعة الزجاج والخزف، والحقيقة أنه لم يبق من الأعمال الزجاجية أثر حتى الآن، فربما تـظهر الاكتشافات المزيد من هذه الأعمـال، أما الخزف البيزنطى فكانت أعماله متدنيـة للغايـة، وكـان مـصدر هـذه الأعمال يرجع إلى بلاد فارس. والواقع أنه حتى الآن لا توجد غيـر أيقونـة

واحدة خزفية موجودة فى كنيسة باتلينا Patlina فى دولة بلغاريا يرجع تاريخها إلى القرن العاشر وعليها صورة القديس ثيودور Theodore، وهى مصنوعة من القرميد Tile الملون.

وإذا توقف الانسان أمام هذه الأعمال الفنية، قد لا يشعر أنه أمام عمل فنى، وإنما أمام عاطفة متدفقة صورها الفن، لقد كان الراهب البيزنطى مدفوعا بحماسته الدينة إلى الزهد طلبا للراحة النفسية، وقد وجد الفنان فى هذه السكينة عاطفة ألهمت الفن البيزنطى.

الفصل التاسع

الإسلام والبيزنطيون. الحياة الاقتصادية. الدبلوماسية البيزنطية.

الإســلام والبيزنطيـون

مقدمــة:

بعد سنوات قليلة على ظهور الإسلام نجح المسلمون في فتح بلاد الشام والعراق ومصر، وتلى ذلك تقدم العرب إلى الغرب في شمال أفريقيا، وعند نهاية القرن السابع الميلادي تمكن المسلمون من فتح شمال أفريقيا كله، وأعقب ذلك فتح إسبانيا. وعلى هذه الصورة أصبح المسلمون يسيطرون على السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر المتوسط. ولم يكن للمسلمون أسطولاً ولا خبرة بحرية، لذلك استعانوا بأهل البلاد المفتوحة وتمكنوا من فتح جزيرة قبرص في منتصف القرن السابع واتخذوا من هذه الجزيرة محطة بحرية هامة، انطلقوا منها إلى جزيرة كريت وتقدموا حتى بحر إيجه وحاولوا فتح القسطنطينية ولكنهم لم يوفقوا.

وأصبح فتح العاصمة البيزنطية هدفاً كبيراً للسياسة الإسلامية لذلك كانت حملة عام ٧١٧م، ولكن الإمبراطورية البيزنطية تصدّت لهذه المحاولة بقيادة الإمبراطور ليو الأيسوري وارتد المسلمون عن العاصمة البيزنطية، وظلت فكرة الاستيلاء على القسطنطينية باقية في أذهان المسلمون. وعلى أية حال يمكن القول: إن الصراع بين الدولة الأموية والإمبراطورية كان صراع وجود بمعنى أن الدولة الأموية وضعت في أهدافها السياسية الأساسية إسقاط القسطنطينية.

وفي العصر العباسي وهو العصر الذي تلى فترة الحكم الأموي انتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد، وظل الصراع قائماً بين الدولة العباسية والإمبراطورية البيزنطية، ولكن أهداف هذا الصراع في هذه المرحلة اختلف

من المرحلة السابقة، فكثيراً ما نسمع عن تدخل الجيوش العباسية في عمق آسيا الصغرى مثلما تم في عهد هارون الرشيد والخليفة المعتصم، ولكن مثل هذه المعارك يمكن أن نطلق عليها غارات عسكرية القصد منها الحفاظ على هيبة الدولة العباسية أكثر من الاحتفاظ بالأراضي البيزنطية، وكثيرا ما عقدت الهدن بين الدولة العباسية والإمبراطورية وتم تبادل الأسرى وهو ما عرف في المصادر الإسلامية باسم الفداء. وعلى ذلك يمكن القول: إن الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة العباسية كان صراع حدود، بمعنى أن كل طرف من الطرفين حاول جاهداً الحافظ على حدوده كما هي رغم ما عرف باسم الصوائف والشواتي عند المسلمين.

وخلال الصراع الطويل الذي قام بين المسلمين والبيزنطيين، ظلت آسيا الصغرى على حالها مسيحية تابعة للإمبراطورية. ولكن الموقف السياسي تغير في آسيا الصغرى عندما بدأ السلاجقة يزحفون إلى آسيا الصغرى. ففي عام ١٧٠١م، هزم السلاجقة الجيش البيزنطي هزيمة قاسية أفقدت الإمبراطورية توازنها وأسروا الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع في معركة مانزكرت. وفي العام نفسه تقدّم السلاجقة واستولوا على بلاد الشام من أيدي الفاطميين واستولوا على مدينة القدس. ومنذ هذه المرحلة صار الإسلام خطراً كبيراً عاد يهدد الإمبراطورية البيزنطية، وأكملت الدولة العثمانية سياستها ضد بيزنطة بعد زوال دولة سلاجقة الروم.

وكانت معركة مانزكرت ونتائجها سبباً من أسباب الحروب الصليبية. والواقع أن موقف الإمبراطورية البيزنطية خلال الحروب الصليبية كان شديد التعقيد، ولم يك لدى بيزنطة أية فكرة عن الحروب الصليبية، ولم يك من سياسة بيزنطة العمل على استعادة القدس، ولم يكن داخل بيزنطة أيضاً من يحرضون البيزنطيين على قتال المسلمين. ولكن الإمبراطورية البيزنطية

دخلت رغماً عنها معترك الحروب الصليبية، فقد استفادت من قوات الحملة الصليبية الأولى واستعادت من سلاجقة الروم أراضي كبيرة في آسيا الصغري.

وإذا كانت الإمبراطورية البيزنطية قد سايرت الحروب الصليبية مضطرة واستفادت منها، إلاّ أن الصليبيين اعتبروا كل فشل صادف الحروب الصليبية تتحمل مسؤوليته الإمبراطورية البيزنطية، وإن كان في ذلك تجني عليها. ولقد دفعت بيزنطة ثمن ذلك غالياً عندما انحرفت الحملة الصليبية الرابعة في عام ١٢٠٤م واستولت على القسطنطينية وأسقطت الإمبراطورية حتى عام ١٢٦١م. وعندما قامت أسرة باليولوجوس في عام ١٢٦١م لتعيد إحياء الإمبراطورية كانت أضعف من أن تقوم بأي محاولة لاستعادة ما فقدته بيزنطة على أيدى السلاجقة في آسيا الصغرى ومن بعدهم العثمانيين فاستمر صراع الوجود، أي أن سلاجقة الروم قد وضعوا ضمن أهدافهم السيطرة على آسيا الصغرى، وزاد الأمر من ذلك أيام الأتراك العثمانيين.

السفـارات:

ولما كانت الحرب شبه دائمة بين المسلمين والبيزنطيين، فقد كانت العلاقات السياسية بين الطرفين أمراً أساسياً بينهما. ومن ذلك أن الطرفين اهتما إهتماماً كبيراً بأمر السفارات. وقد كانت مراسم استقبال السفراء المسلمين الذين وفدوا إلى العاصمة البيزنطية في فترات الهدن أو الصلح تجري في نظام دقيق. وكانت الإمبراطورية تستقبل السفراء وترحب بهم وتحيطهم بكل مظاهر الاحتفال والمجاملات الدبلوماسية وما يصاحب ذلك من عرض للقوات العسكرية البيزنطية استعراضاً للقوة. وفي كتاب المراسم الذي وضعه المؤرخ الإمبراطور قسطنطين السابع وصفاً للاستقبال الودي الذي

استقبلت به الإمبراطورية سفراء بغداد والقاهرة وغيرها من العواصم.

وأولت الإمبراطورية عناية خاصة بسفراء دمشق وبغداد، فقد كان سفراء المشرق يجلسون في أماكن أشرف من أماكن سفراء الغرب، كما كان سفراء المسلمين بعامة يجلسون على المائدة الإمبراطورية فى مقاعد أعلى من مقاعد سفراء الفرنجة. كما أن سفراء البيزنطيين عندما كانوا يفدون على بغداد أو عاصمة أخري، كان الحاكم الإسلامي يستقبلهم إستقبالاً رسمياً مع إقامة العروض العسكرية.

ومن مظاهر استقبال سفراء الإمبراطورية البيزنطية في الأندلس عام ٩٤٧م أن الإمبراطور قسطنطين السابع أرسل سفارة إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث استقبلها في قصر قرطبة. ويذكر ابن خلدون في صدد ذلك "ووفدت عليه سنة ست وثلاثين [وثلاثمائة] رسل صاحب القسطنطينية هديته، وهو يومئذ قسطنطين بن ليون بن شل، واحتفل الناصر للقائهم في يوم مشهود، وكتّب [جعلها كتائب] فيه العساكر بالسلاح في أكمل هيئة وزي وزين القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجعل السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والأخوة والأعمام والقرابة. ورتب الوزراء والخدمة في مواقفهم، ودخل الرسل، فهالهم ما رأوا وقربوا حتى أدوا رسالتهم. وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك المحفل، ويعظموا أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وأعزازه".

وحول هذه السفارة أيضاً يروي المقري "ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لدخول وفود الروم عليه، فقعد لهم... في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً، وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيه، الحكم. ثم عبد الله ثم عبد العزيز ثم الأصبغ ثم مروان، وقعد عن يساره المنذر، ثم

عبد الجبار، ثم سليمان، وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلاً لم يستطيع الحضور، وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالاً، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي الوكلاء وغيرهم، وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك [جمع درنك وهو بساط ذو خمل قصير]، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور، فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوا من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون، وهو في رق مصبوغ لونه سماويا مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مُدرجة مصبوغة أيضا مكتوبة بفضة بخط أغريقي أيضا فيها وصف هديته التي أرسله بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح، وعلى الوجه الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج".

ومن الملاحظ أنه كان في ترجمة عنوان هذا الكتاب في سطر منه: "قسطنطين ورومانوس [ابنه] المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم، وفي سطر آخر إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس، أطال الله بقاءه".

ويقدم لنا المؤرخ ابن شداد وصفا ممتعا عن السفارة التي قدمت إلى صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م من قبل الإمبراطور البيزنطي إسحاق الثاني أنجيلوس ١١٨٥ - ١١٩٥م. ويقول ابن شداد "وكان بين السلطان رحمة الله عليه - وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى الباب السلطاني بمرج عيون في رجب سنة خمس

وثمانين وخمسمائة فى جواب رسول كان أنفذه السلطان - رحمة الله عليه - إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسول، وأقام الخطبة، ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد، وكان قد أخذ معه في المراكز الخطيب والمنبر وجمعا من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوما عظيما من أيام الإسلام شاهده جمع كثير من التجار، ورقي الخطيب المنبر، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية ثم عاد، فعاد معه هذا الرسول يخبرنا بانتظام الحال في ذلك، فأقام مدة. ولقد شاهدته يبلغ الرسالة، ومعه ترجمان يترجم عنه، وهو شيخ أحسن ما يفرض أن يكون من صدر المشايخ، وعليه زيهم الذي يختص بهم، ومعه كتاب وتذكرة، والكتاب مختوم بذهب، ولما مات وصل إلى ملك القسطنطينية خبر وفاته، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك، ووصل معه الكتاب في جواب ذلك وصوره ما فسر من الكتاب الواصل منه ووصفه، إنه كتاب مدروج عرضا، وهو دون عرض كتاب بغداد، مترجما في ظاهره وباطنه بسطرين، بينهما فرجة، وضع فيها الختم والختم من ذهب مطبوع كما يطبع الخاتم في الشمع على ختمه صورة ملك، وزن الذهب خمسة عشر دينارا، مضمون السطرين المكتوبين، ما هذا صورته: من ايساكيوس [إسحاق] الملك المؤمن بالمسيح...، المتوج من الله المنصور العالي أبدا... المدبر من الله القادر الذي لا يغلب، ضابط الروم بذاته أنكليوس [أنجليوس] إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين"..... وأما ما فسر من الكتاب فهذا: المحبة المودة، وقد وصل خط نسبتك الذي أنفذت إلى ملكي، وقرأناه وعلمناه منه أن رسولنا توفي وحزنا أنه توفي في بلد غريب، وما قدر أن يتم كلما رسم له مُلكي، وأمره أن يتحدث مع نسبتك، ويقول في حضرتك، ولابد لنسبتك أن تهتم بانفاذ رسول إلى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفي. وأما القماش الذي خلفه بعد موته ينفذ إلى ملكي لنعطيه أولاده وأقاربه، وما أظن

أنه سمَّع نسبتك أخبارا رديئة، وأنه قد سار في بلاد الألمان، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحي بلادي، وقد خسروا كثيرا من المال والدواب والرحل والرجال، ومات منهم كثير، وقتلوا، وتلفوا، وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة، ولا يقدرون ينفعون جنسهم، ولا يضرون نسبتك، وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذي بيني وبينك، وكيف ما عرفت لملكي شيئاً من المقاصد والمهمات، ما ربح ملكي محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم.................................

وقد علم صلاح الدين بترجمة هذا الخطاب، وأكرم الرسول وأحسن مسواه، وكان شيخاً حسن الخلق، مهيباً، عارفاً بالعربية واللاتينية واليونانية.

والمهم أن هذه الرسالة قد حملت معلومات في غاية الأهمية، فهي توضّح لنا العلاقات الطيبة التي كانت بين الإمبراطورية البيزنطية وبين صلاح الدين وما كان من أمر جامع القسطنطينية والمنبر والخطيب والقراء. ويوضح لنا الخطاب الحركة التجارية أيضاً بإشارته إلى حضور جمع كثير من التّجار هذا الاحتفال، ويشير أيضاً أن جماعة من المسلمين كانوا يعيشون في القسطنطينية وإلى جانب ذلك إشارة إلى أن الخطبة في المسجد التى كانت الدعوة فيها للخلافة العباسية.

ويتضح من النص الذى أورده ابن شداد أيضاً أنه كان هناك زيا خاصاً للسفراء وأنه كان يحمل معه "تذكرة" وهي أشبه بخطاب الاعتماد في أيامنا هذه. وتشير النصوص أيضاً إلى أن الخطاب الذي أرسل إلى صلاح الدين كان أقل عرضاً من الخطابات التي ترسل إلى الخليفة العباسي في بغداد. كما يتضح أيضاً طريقة وضع الأختام الذهبية المطبوعة في الخطاب.

ويفسر الخطاب أيضا طريقة توريث المتوفي عندما أشار إلى النعش الذي سوف يعطي لأولاده وأقاربه. وفوق هذا كله، فالخطاب يقدّم تحذيراً لصلاح الدين عن أخبار قدوم الحملة التي قادها فريدريك باباروسا امبراطور ألمانيا الذي تولى قيادة قواته ضمن قوات الحملة الصليبية الثالثة التي قدمت من أوروبا لمحاولة استعادة مدينة القدس بعد ما استردها صلاح الدين عام ١١٨٧م. وفي النهاية يوضح الإمبراطور مدى العداوة التي لحقت به من جانب الصليبيين لأنه على علاقة طيبة مع المسلمين.

الرحالة المسلمون:

وخلال فترة الحروب الصليبية وما بعدها زار القسطنطينية مجموعة من العرب وتركوا لنا معلومات قيمة عن المدينة، ونذكر من هؤلاء الرحالة أبو الحسن علي بن أبي بكر الهروي المتوفي بحلب عام ٦١١هـ، وقد سجل الهروي مشاهداته في كتابه كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات. وكانت زيارة الهروي للعاصمة البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل كونيين. وما يعنينا في هذا الموضع ما ذكره الهروي عن الآثار الإسلامية والتسامح الديني داخل الإمبراطورية البيزنطية. فقد ذكر أنه في جانب من مدينة القسطنطينية قبر أبي أيوب الأنصاري رضى الله عنه صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، واسمه خالد بن زيد. ولما قتل دفنه المسلمون وقالوا للروم "هذا من كبار أصحاب نبينا، فوالله أن نبش لادق بناقوس في أرض العرب أبدا" وهذا القبر موجود حتى أيامنا هذه. ويضيف الهروي أن بها الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك والتابعون، وبه قبر رجل من ولد الحسين. وفي نهاية حديث الهروي عن القسطنطينية يشير إلى التسامح الديني وحسن معاملة الإمبراطور مانويل له، واختتم الحديث بقوله: "وهذه المدينة هي أكبر من إسمها فالله تعالى

يجعلها دار الإسلام بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى".

وعندما تحدّث الهروي عن مدينة عمورية ذكر أن بها قبور جماعة استشهدوا مع الخليفة المعتصم رضي الله عنهم، وعندما تحدث عن مدينة قيصرية كبادوكيا أورد أن بهذه المدينة حبس محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، وبها جامع محمد البطال. وتحدث الهروي أيضا عن جزيرة قبرص وقال ورأيت بجزيرة قبرص مكتوبا على حجر ما هذه صورته بعد البسملة وسورة الاخلاص: "هذا قبر عروة بن ثابت توفي في شهر رمضان سنة تسع وعشرين للهجرة".

ومن الذين زاروا القسطنطينية الرحالة ابن بطوطة، وقد ترك لنا وصفا في عدة صفحات عن المدينة والإمبراطور وكنيسة آيا صوفيا وبعض الأديرة وقاضي القسطنطينية المسلم. وسوف نسجل بعض لمحات من هذه الزيارة، فقد ذكر: "وكان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية، وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الأفاق لاختلاط أصواتها. ولما وصلنا بابا من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق مكانه، وسمعتهم يقولون: سراكنو، ومعناه "المسلمون".

ويذكر ابن بطوطة عندما سمح له بمقابلة الإمبراطور أنه وصل إلى قبة والسلطان على سريره وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح، فأشار إليّ قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنية ليسكن من روعي، ففعلت ذلك، ثم وصلت إليه، فسلمت عليه وأشار إليّ: أن أجلس، فلم أفعل، وسألني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن كنيسة القيامة وعن مهد عيسى عليه السلام، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم، فأجبته عن ذلك كله واليهودي يترجم بيني وبينه، فأعجبه كلامي، وقال

لأولاده: أكرموا هذا الرجل وأمنوه، ثم خلع عليّ. وأمر لي بفرس مسرج ملجَّم، ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه، وهي علامة الأمان، وطلبت منه أن يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها، وأذكرها في بلادي، فعين لي ذلك. ويضيف ابن بطوطة أن من عوائد البيزنطيين "أن الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس".

ويضيف ابن بطوطة أنه كان يوماً مع الرومي المعين للركوب معه، فرأى والد الملك وكان هذا الوالد قد سلك الرهبانية فلما رآه الرومي نزل وقال لي: إنزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومي سأله عني، ثم وقف وبعث لي فجئت إليه فأخذ بيدي وقال لذلك الرومي، وكان يعرف اللسان العربي: قل لهذا السراكنو، يعني المسلم، أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس، والرجل التي مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى وبيت لحم، وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه، فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم.

العلاقات الثقافية:

ويبدو لغير المتخصصين في التاريخ البيزنطي أن مصالح الإمبراطورية والدول الإسلامية لا يمكن لها أن تلتقي، لأنهما العدوين قد فرّقت بينهما السياسة والعقيدة، إلا أن الواقع كان غير ذلك، فإن الأعمال العسكرية بين الطرفين لم تمنع قيام علاقات ثقافية بين الطرفين. والحقيقة أنه خلال العصور الوسطى كانت هناك مجموعة من المراكز الثقافية العالمية. فقد كانت القسطنطينية وهي المدينة الغنية وأبرز مدن أوروبا في العصور

الوسطى. وهي أيضاً المدينة التي زارها الجغرافي والمؤرخ المشهور المسعودي. وقد ترك لنا وصفاً ممتعاً وقال: "ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين، وبرهة من مملكة الروم، تعظم العلماء، وتشرّف الحكماء، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس، والتعاليم الأربعة، وهي الإرتماطيقي، وهو علم الأعداد، والجومطريقي وهو علم المساحة والهندسة، والأسترنوميا وهو علم النجوم، والموسيقى وهو علم تأليف اللحون، ولم تزل العلوم قائمة السوق، مُشرقة الأقطار قوية المعالم، شديدة المقاومة، سامية البناء، إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم، فعفوا معالم الحكمة، وأزالوا رسمها ومحوا سبلها، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته، وغيّروا ما كانت القدماء منهم أوضحته. والحقيقة أن ما ذكره المسعودي سليماً إلى حد كبير ولكن علينا أن نقرأه بحذر خاصة فيما يتعلق بزوال المعرفة في الإمبراطورية البيزنطية ولكن ما حدث أن الإمبراطورية تطرقت إلى علوم اليونان من خلال نظرة مسيحية وليست وثنية كما كانت عند اليونان.

وبالإضافة إلى القسطنطينية كانت هناك مراكز إسلامية عديدة في العصور الوسطى، فقد كانت دمشق في بداية الأمر حيث كانت عاصمة الأمويين، وتلى ذلك مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية وما كان لها من أمجاد حتى اجتاحها المغول في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. وقد كانت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ثم الأيوبيين ثم المماليك، وما كان لهؤلاء من أمجاد شهد لها التاريخ الأوروبي قبل الإسلامي. ومن العواصم الإسلامية أيضاً قرطبة حاضرة الأندلس وما كان لها من دور حضاري رائع قريب من أوروبا، يضاف إلى ذلك جزيرة صقلية أثناء الحكم الإسلامي وحتى بعد أن استولى عليها النورمان. والحقيقة التي أود أن أركز عليها أن صقلية، كانت مركزاً علمياً إسلامياً كبيراً لأن أوروبا أفاقت من غياهب العصور

الوسطى لتجد نفسها أمام حضارة إسلامية شامخة البناء، فأخذ أهل أوروبا يقبلون على الحضارة الإسلامية. ومن علماء المسلمين في صقلية الأدريسي الجغرافي الذي ولد في مدينة سبته حوالي عام ١١٠٠م وتلقى علومه في قرطبة وكتب في مدينة بالرمو عاصمة صقلية استجابة لطلب روجر الثاني ملك صقلية (١١٢٩ - ١١٥٤م) كتابه المسمى "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق". ولست في حاجة إلى الحديث عن بغداد ولكنني أكتفي بأن أقول أن بغداد كانت حديقة حقيقية للمعرفة والعلم والفنون. أما مدينة قرطبة التي كانت أكثر المدن الأوروبية حضارة فقد أثارت دهشة العالم وإعجابه، وكان بها حوالي سبعين مكتبة وتسعمائة حمام.

ولقد كانت الولايات البيزنطية والفارسية التي فتحها العرب على اتصال وثيق بالثقافة الهلينستية، وبذلك انضم إلى المسلمين عديد من المراكز الثقافية الكبيرة مثل الإسكندرية وأنطاكية وبيروت وقيصرية وغزة، وأصبحت مدارس هذه المراكز ومتاحفها وسكانها المشبعين بالحياة الفكرية الهلينستية جزءاً من العالم الإسلامي. وعن طريق هذه المراكز عرفوا آثار القدماء ومعارفهم في ميدان العلوم والفنون وقد أضافوا إليها الكثير حتى خرجت الحضارة الإسلامية بالصورة التي نعرفها، حيث ألفوا علوماً خضعت للمنهج التجريبي بعد أن كانت نقلاً وتعريباً.

ولقد شاهدت العلاقات البيزنطية الإسلامية سلسلة من أعمال الحرب والسلم والعداوة والصداقة وغير ذلك، إلا أن ما نلاحظه في هذا الصدد عدم وجود حقد عنصري أو عقائدي، فقد كان الإمبراطور نقفور الأول كما تقول المصادر العربية من أصل عربي، فقد ذكر ابن الأثير "وكان يملك الروم أنه من إمرأة اسمها ريني [إيرين] فخلعها الروم وملك نقفور، وتزعم الروم أنه من أولاد جفنة بن غسان".

وفي عهد الإمبراطور ليو الأيسوري، وهو الإمبراطور الذي دافع عن القسطنطينية وهزم القوات الإسلامية والحملة البحرية التى أرسلها سليمان بن عبد الملك، تم بناء جامع القسطنطينية، حتّى أن المصادر البيزنطية وصفت الإمبراطور ليو بأنه كان ذا عقلية عربية، ولعل هذه التسميّة راجعة أيضاً إلى موقفه من عبادة الأيقونات.

كما كتب البطريرك نيقولا مستيقوس في عام ٩١٣ أو ٩١٤ رسائل إلى الخليفة العباسي وليس إلى أمير كريت كما يرى البعض. وقد ورد في هذه الرسائل عبارات طيبة منها "وعلى الذين توحّد بينهم القوة الإلهية أن يتصلوا ببعضهم عن طريق الرسائل والمبعوثين، وهذا ينطبق بخاصة على القوتين العظيمتين وهما الرومان (يقصد البيزنطيون) والمسلمون. ومن هذه الرسائل أيضاً عبارة يا أشهر رؤوساء المسلمين، ويا صاحب الجلالة، وفيها أيضاً عبارة إلى صديقنا الأسمى والأمجد الذي نصبه الله حاكماً لأمة المسلمين. ورغم أن هذه الرسائل كانت تتعلق بأمور سياسية إلاّ أن العبارات التي وردت بها تنم عن العلاقات الطيبة بين الدولتين.

ولقد كانت الثقافة الهلينستية هي التي قرّبت بين الدول الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، فبعد ما فتح المسلمون الشام ومصر عاش الرهبان في أديرتهم وقد انكبوا على دراسة وترجمة المؤلفات العلمية والدينية، وكان أرسطو على سبيل المثال يحتل مكانة عالية بين الفلاسفة، كما كان أبقراط وجالينوس يحتلان مكانة سامية بين أصحاب المؤلفات الطبية.

وقد ساعد على ذلك النساطرة الذين اضطهدتهم الإمبراطورية بعد إدانتهم في مجمع أفسوس عام ٤٣١م، وقد لجأوا إلى دولة فارس حاملين معهم العلوم اليونانية، وقد قام عدد كبير منهم زمن الخلفاء العباسيين بأعمال

الترجمة من اليونانية إلى العربية.

ومن العلاقات الثقافية، ما قام به الخليفة العباسي الواثق بالله الذي أرسل ما يمكن أن نطلق عليه البعثات العلمية. فقد أرسل الخليفة في أيامه محمد بن موسى المنجم وهو عالم عربي له شهرته وذلك بإذن من الإمبراطور ميخائيل الثالث إلى مدينة أفسوس لزيارة الكهف الذي حنط فيه رفات أهل الكهف. وحول هذا الحديث يروي ابن خرداذبة في كتابه "المسلك والممالك"، وأما أصحاب الرقيم فبخرمة رستاق بين عمورية ونيقية، وكان الواثق بالله وجّه محمد بن موسى المنجم إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم وكتب إلى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليهم، فحدثني محمد بن موسى أن عظيم الروم وجّه معه من صار به إلى قرة ثم سار أربع مراحل وإذا جبل قطر أسفله أقل من ألف ذراع وله سرب من وجه الأرض ينفذ إلى الوضع الذي فيه أصحاب الرقيم قال فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته فإذا بئر محفورة لها سعة تبين الماء في قعرها ثم نزلنا إلى باب السرب فمشينا فيه مقدار ثلثمائة خطوة، فصرنا إلى الموضع الذي أشرفنا عليه، فإذا رواق في الجبل على أساطين معقودة وفيه عدة أبيات منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة عليه باب حجر منقورة فيه الموتى ورجل موكل بحفظهم ومعه خصيان روقة وإذا هو يحيد من أن نراهم أو نفتشهم ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس بذلك آفة التمويه ليدوم كسبه بهم، فقلت له دعني أنظر إليهم وأنت برئ فصعدت بشمعة غليظة مع غلامي فنظرت إليهم في مسوح تتفرك في اليد وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم غير أني مررت يدي على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعر وقوة نباته، وأحضر الموكل بهم طعاماً وسألنا الغذاء عنده فلما ذقنا طعامه أنكرنا أنفسنا فتهوعنا، وإنما أراد أن يقتلنا أو يغصنا فيصبح له ما كان يدعيه عند

ملك الروم من أنهم أصحاب الرقيم، فقلنا له إنما ظننا أنك ترينا موتى يشبهون الأحياء، وليس هؤلاء كذلك. ويلاحظ أن المقدسي تحدَّث في كتابه أحسن التقاسيم عن الرقيم ذكر أنها قرية تقع على بعد فرسخ من عمان تخوم البادية.

وقد يكون السبب الرئيسي في حدوث هذه البعثة العلمية ذلك الميل الاعتزالي الذي شمل الدين منذ عهد المأمون. ومن البعثات العلمية أيضاً ما أعدها الخليفة الواثق أيضاً عندما أرسل بعثة كبيرة على رأسها المترجم سلام الذي كان يجيد العديد من اللغات، وقد توجه سلام إلى آسيا الصغرى للبحث عن السور الذي بناه الإسكندر المقدوني، هذا السور الذي يقول فيه بعض الآثاريين أنه بنى أيام يأجوج ومأجوج، وقد دامت أعمال هذه البعثة طويلاً وبعدها كافأ الخليفة رجال البعثة على ما قاموا به من أعمال بعد ما قدموا له تقريراً عن أعمالهم.

وكانت هناك مفاوضات كثيرة دخل فيها الإمبراطور ثيوفيل مع الخليفة المأمون حول العالم البيزنطي والمهندس الفلكي "ليو" فقد كان الخليفة يوّد رؤية هذا العالم ليستفيد من علمه الواسع في الرياضيات. ولكن هذا العصر الذي بدأ بالمأمون وعاصره الواثق لم يدم طويلا ولم يلبث أكثر من قرنين، هما القرن التاسع والعاشر.

ونختم هذه الصفحات بالحديث عن سماحة الإسلام. ومن ذلك على سبيل المثال أن يوحنا الدمشقي كان يعيش في ظل الخلافة الأموية، وكان من المدافعين عن عبادة الأيقونات، وذلك عندما أصدر الإمبراطور ليو الأيسوري منشوراً في عام ٧٢٦م يقضي بتحريم عبادة الأيقونات. وقد مارس يوحنا الدمشقي من أرض الخلافة الدفاع عن عبادة الأيقونات وواصل عمله دون

إزعاج من السلطات الإسلامية أو من كتاباته المتعددة حول العقيدة المسيحية والجدل الديني عدة مقالات تضمن الرد على الذين يحطون من شأن عبادة الصور، حتى أن المجمع اللاأيقوني الذي عقد في عام ٧٥٤م هاجم يوحنا الدمشقي واتهمه بالميل إلى الإسلام.

وقد عكّر صفو هذا التسامح ما قام به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله عندما أمر بهدم كنيسة القيامة في القدس، ولكن الحال عاد إلى ما كان عليه بعد وفاته عام ١٠٢٠م، فقد عادت العلاقات الطيبة مع خلفه الخليفة الظاهر والامبراطور قسطنطين الثامن، عندما اتفقا عام ١٠٢٧م على أن يدعى للخليفة الفاطمي في جميع مساجد الإمبراطورية البيزنطية، وإعادة بناء جامع القسطنطينية الذي هدم رداً على هدم كنيسة القيامة، كما وافق الخليفة الظاهر على السماح بإعادة بناء كنيسة القيامة.

الحياة الاقتصادية

لقد ترتب على الهجرات الجرمانية إلى أوروبا تقويض دعائم اقتصاد الإمبراطورية في غرب أوروبا، وحاول الإمبراطور جستينيان إحياء التجارة في الجانب الشرقي، وقد نجح في ذلك إلى حد ما. كما ترتب على الفتوحات الإسلامية وسيطرة المسلمين على بلاد الشام ومصر والساحل الأفريقي تغيير هام في الاقتصاد البيزنطي، ذلك لأن المسلمين اقتطعوا أغنى ولايات الإمبراطورية وأكثرها انتعاشا ورقيا، وبعد سيطرة المسلمين على قبرص وكريت وصقلية أصبح البحر المتوسط بحراً إسلامياً.

وقد يظن المرء أن كيان الإمبراطورية الاقتصادي قد انهار تماما، وأن العلاقات التجارية البيزنطية مع الشرق قد انتهت، ولكن واقع الحال كان

غير ذلك، فقبل ظهور الإسلام كانت القوافل تخرج من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام ومصر، وكانت الطرق التجارية آمنة من اليمن جنوباً إلى بلاد الشام ومصر. وكانت أغنى المدن الواقعة في هذا الطريق مدينة مكة المكرمة. وبعد ظهور الإسلام لم يختلف الأمر عن ذي قبل ولكنه زاد تماسكاً وترابطاً حتى أصبحت الجزيرة العربية والشام والعراق ومصر مرتبطة برباط اقتصادي قوي تحت سلطان دولة واحدة. ولما لم يك للمسلمين عملة في بداية أمرهم، فقد استعملوا العملة البيزنطية في تعاملهم حتى عهد عبد الملك بن مروان الذي عرّب الدواوين والعملة، وربما استاء البيزنطيون في بداية الأمر عند تغيير عملتهم ولكنهم استوعبوا الموقف وسارت الأحوال الاقتصادية سيراً طبيعياً بعد ذلك مثلما كانت من قبل.

والواقع أن الحياة الاقتصادية في الولايات التي فتحها المسلمون كانت قائمة على أساس متين قبل أن يستولي عليها المسلمون، وأصبحت كذلك بعد الفتح الإسلامي، والدليل على ذلك أن أهالي البلاد المفتوحة في مصر والشام واصلوا عملهم في ظل الحكم الإسلامي ولم يهجروا أراضيهم. ومما لا شك فيه أن الاقتصاد البيزنطي قد تـأثر كثيراً عندما فقدت الإمبراطورية الضرائب التي كانت تجنيها من سكان ولاياتها الشرقية والجنوبية أي الشام ومصر وشمال أفريقيا.

وبعد انتهاء فترة الحروب وثبات الحدود البيزنطية الإسلامية إلى حد ما عاد الاقتصاد البيزنطي إلى الإفادة بطريقة غير مباشرة عندما استطاعت الإمبراطورية تجديد علاقاتها التجارية مع مصر والشام. والحقيقة أن المسلمين والبيزنطيين قد تبينوا أهمية قيام العلاقات التجارية بينهما، وبذلك ظهر التجار البيزنطيون في كثير من المدن الإسلامية، كما أن التجار العرب تقدموا في الأراضي البيزنطية وحتى العاصمة القسطنطينية لانجاز أعمالهم

وتصريف بضائعهم.

ويصف ابن رسته في كتاب الأعلاق النفسية مدينة القسطنطينية كمدينة تجارية ويقول "وفيها أسواق عظام وفي كل سوق قناتان عظيمتان من ماء، وأسواقها كلها مبلطة برخام أبيض وفيها أربعون ألف حمام، وفيها مجامع أسواق يقام فيها التجارات خمسة وتسعون موضعاً. ويذكر ابن بطوطة أيضاً أن أسواقها وشوارعها مفروشة بالصفاح، متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم، وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها من النساء"، ثم يضيف في حديثه عن أهل القسطنطينية ويقول وجميعهم أهل تجارة، ومرساهم من أعظم المراسي، رأيت به نحو مائة من السفن الكبيرة وعدد لا يحصى من السفن الصغيرة.

ولقد أصبحت مدينة طرابيزون الواقعة في شمال الأسود في القرن العاشر من أهم المراكز التجارية للمسلمين وغيرهم، ويقول المسعودي عن هذه المدينة، وهي مدينة على شاطئ هذا البحر لها أسواق في السنة يأتى إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن.

وعندما نجح الإمبراطور نقفور فوقاس في استعادة جزيرة كريت عام ٩٦١م وجزيرة قبرص عام ٩٦٥م، استعادت الإمبراطورية معها بعض المراكز التجارية الهامة، وتفاخر الإمبراطور نقفور بأن أسطوله أصبح قوياً وأن سفنه أصبحت تسير بحرية فى البحر المتوسط. والحقيقة أن العلاقات التجارية مع البيزنطيين كانت في غاية الأهمية، لأن الإمبراطورية نجحت في تعزيز مكانتها الدولية التجارية من خلال التجارة العربية، لأن أكثر التجارة العربية كانت تنقل إلى بلاد أوروبا من خلال التجار البيزنطيين، وكانت الامبراطورية تحقق أرباحاً كثيرة بفضل قيامها بدور الوسيط في التجارة بين

الشرق والغرب، ولكن الحروب الصليبية أضاعت هذه الوساطة وتلاشى إزدهار الإمبراطور منذ عام ١٢٠٤م عندما استولى الصليبيون على القسطنطينية وانتقلت السيادة الاقتصادية إلى المدن الإيطالية وعلى رأسها البندقية وجنوه وبيزا وأمالفي وغيرها.

لقد كان لموقع القسطنطينية عند ملتقى الطرق العالمية التجارية بين الشمال والجنوب عند بحر مرمرة، نتائج هائلة على الحركة التجارية للإمبراطورية البيزنطية، والحقيقة أنه قل ما استمتع من المدن بهذا الموقع الفريد الذي استمعت به هذه المدينة في العصور الوسطى. يضاف إلى ذلك عامل هام أيضاً هو المهارة التجارية لدى البيزنطيين خاصة العناصر الأرمينية واليونانية، هذا إلى جانب عوامل أخرى جعلت من العاصمة البيزنطية لعدة قرون رمزاً للثراء ومطمع الدول.

ويوضّح هذه الفكرة أن خط سير التجارة في العصور الوسطى كان يبدأ من الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط. وكانت دول البحر المتوسط تستطيع أن تكتفي بما تنتجه من أغذية ومستلزمات. ولكن هذه الدول كانت ترغب في حياة أكثر رفاهية، فتطلعت إلى السلع الكمالية التي كان الشرق الأقصى يستطيع أن يصدرها إليها.

وكانت أوروبا تستورد الأعشاب وخشب الصندل من الهند، كما استوردت الحرير المصنع والخام من بلاد الصين، كما صدَّرت منطقة البحر المتوسط الزجاج. والمواد المشغولة بالمينا، ولكن أثمان هذه الصادرات لم تكن تغطي احتياجاتها من الواردات، لذلك ذهبت ثروات أوروبا إلى الشرق الاقصى ثمناً للواردات، الأمر الذي أدى إلى الكساد المالي الذي حاق بالأمبراطورية البيزنطية في نهاية عهدها. وإذا كانت أوروبا تستطيع أن

تستغني عن بعض السلع التي تستوردها من الشرق الأقصى، إلا أنه لم يكن بوسعها الاستغناء عن الحرير، وهو أمر شغل بال أوروبا لمدة طويلة.

وحقيقة الأمر فقد كانت التجارة تأتي من الشرق الأقصى إلى البحر الأبيض عبر طرق عديدة، ومن الطرق البحرية طريق المحيط الهندي حتى الخليج ثم إلى بلاد الشام أو إلى البحر الأحمر إلى مصر. أما الطرق البرية فمن الصين إلى تركستان ثم إلى بحر قزوين ثم إلى نهر الفولجا فالبحر الأسود عن طريق مدينة خرسون، أو عبر شمال إيران إلى مدينة نصيبين إلى مدينة طرابيزون أو عن طريق الهند وأفغانستان ووسط إيران إلى بلاد الشام.

ولما كانت الحرب تقع بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية ثم البيزنطية، كان على بيزنطة أن تتجنب مرور تجارتها عبر فارس. ولم يكن هناك سوى طريقين لا يمران بالأراضي الفارسية، الأول هو الذي يمر بالبحر الأحمر إلى مصر والثاني الذي يمر بالشمال الأقصى عبر روسيا. وبالإضافة إلى أخطار الحروب، فقد كانت الإمبراطورية الفارسية تفرض رسوماً جمركية عالية على البضائع التى تمر عبر أراضيها. ولهذين السببين بذلت الإمبراطورية البيزنطية كل جهد لضمان وصول تجارتها عبر الطرق الآمنة، وذلك بالتفاوض مع دولة الحبشة التي كانت تتحكم في البحر الأحمر أو مع قبائل الهون في الشمال الأقصى لقارة آسيا.

ويعتبر القرن السادس الميلادي، العصر الذهبي لتجارة الشرق خاصة تجارة الحرير التي كانت تصل إلى مدينة دارا أو نصيبين ومنها الى مصانع الشام في صور وبيروت أو إلى مصانع القسطنطينية أو يصل جزء منها عن طريق البحر الأحمر أو الخليج العربي.

وكانت البضائع التي تأتي من الشرق الأقصى أو من البحر الأحمر

وغير ذلك من الأماكن تتجمع في جزيرة سيلان حيث تتم عملية البيع والشراء، ومن البضائع الشرقية الحرير من بلاد الصين وخشب الصندل والقرنفل واللوز من الهند الصينية، والفلفل من ملبار والنحاس من نواحي مدينة بومباي والخروع والمسك من السند. ومن جزيرة سيلان اشترى التجار الفرس الحرير وحملوه إلى بلادهم عبر الخليج. أما بقية السلع الأخرى فقد كانت تأخذ طريقها بالبحر الأحمر. ولعل ما جعل لجزيرة سيلان هذه الأهمية ما ذكر في كتاب عجايب الهند عندما ذكرت هذه الجزيرة "ومن الجزائر الموصوفة التي ليس مثلها في البحر جزيرة سرنديب وتسمى سيلان، وفيها مغاص اللؤلؤ النقي وجبلها حصين وهو جبل الياقوت والألماس. وفيها تراب أحمر وهو هذا السنبادج الذي يخرط به البلور والزجاج وقشور أشجارها القرفة، وحشيش هذه الجزيرة أحمر يصبغ به الثياب والغزل وهو صباغ يفوق البقم والزعفران والعصفر وكل صبغ أحمر، وبها من غرايب النباتات مما يطول شرحه"، كما أن الرحالة ابن بطوطة تكلم أيضاً عن مغاص الجوهر والياقوت عندما زار جزيرة سيلان. ومن الملاحظ أن التجار في جزيرة سيلان كانوا يتعاملون بالعملة البيزنطية.

وقامت مملكة الحبشة بدور كبير في العملية التجارية، وقد ساعدها على ذلك موقعها المطل على البحار وعلى عمق قارة أفريقيا، وكان تجار الحبشة يقومون برحلة تجارية إلى قلب أفريقيا مرة كل عامين وقد يصل عددهم إلى حوالي خمسمائة حتى يتمكنوا من حماية أنفسهم من القبائل الأفريقية، وكان هؤلاء التجار يحملون معهم الماشية والملح وأسياخ الحديد حتى إذا وصلوا إلى ما يبغون أقاموا سورا من الحديد حولهم، ثم قاموا بذبح الماشية ليقتاتوا. وفي هذا المكان يعلق التجار الأحباش بضائعهم ويبتعدوا عنها، فيتقدم المواطنون الأفارقة ويضعون على كل سلعة عددا من القطع

الذهبية يتناسب مع قيمتها ويزجعون إلى أماكنهم، فيتقدم التجار الأحباش فإذا أعجبهم الثمن أخذوا قطع الذهب وتركوا البضائع وإذا لم يرق لهم الثمن تركوا الذهب مكانه وهنا يفهم المواطن الأفريقي أن الثمن لم يعجب الحبشي، فإما أن يأخذ الأفريقي ما وضعه من ذهب أو يضيف إليه. وقد يستمر هذا السوق حوالي أربعة أيام أو أكثر ثم يعود التجار الأحباش قبل موسم الأمطار بعد أن يكونوا قد أمضوا حوالي ستة أشهر في الذهاب والعودة.

وظلت التجارة تسير سيراً طبيعياً مع الإمبراطورية البيزنطية والفارسية طالما سادت العلاقات السلمية بين الطرفين، ولكن نشوب الحروب خاصة في عهد الإمبراطور جستينيان أوقفت تجارة الحرير عبر فارس، فارتفع سعره داخل الإمبراطورية. وحتى يقضي الإمبراطور على هذه الظاهرة، لجأ إلى شراء مصانع الحرير وبذلك تحولت صناعة الحرير إلى احتكار إمبراطوري وتحكم في أسعاره وأصدر منشوراً يقضي بعدم بيع رطل الحرير بأكثر من خمسة عشر صلدي ذهباً. ولكن هذا المنشور لم يؤد إلى النتيجة المطلوبة، بل جاء بالعكس، فقد رفض تجار الحرير الفرس بيع الحرير إلى الإمبراطورية، فأفلست تجارة الحرير وتوقفت تجارته.

وحدث في هذه المرحلة أن بعض الرهبان النساطرة قد ساعدوا على حل هذه المشكلة بطريقة عملية، وحول ذلك الموضوع يروي المؤرخ بروكوبيوس في معرض حديثه عن حرب الإمبراطورية مع القوط في إيطاليا أنه في حوالي ذلك الوقت يقصد ٥٥٢ - ٥٥٤م، فإن بعض الرهبان قد قدموا من الهند وعلموا أن الإمبراطور جستينيان لديه رغبة شديدة في عدم قيام البيزنطيين بشراء الحرير من أهل فارس. وقد ذهب هؤلاء الرهبان إلى الإمبراطور ووعدوه بالعمل على عدم شراء الحرير من الفرس أو أية دولة أخرى. وقال الرهبان للإمبراطور لقد قضينا وقتاً طويلاً في الدول العديدة

التي تقع شمال الهند وخاصة في الدولة التي تدعى سرنيدا Sernida وأنهم تعلموا في هذا المكان كيف يمكن إنتاج خام الحرير في الأراضي البيزنطية.

ويضيف المؤرخ بروكوبيوس أنه عند هذه المرحلة أبدى الإمبراطور جستينيان عناية فائقة عندما عرف بهذه المعلومات، وسأل الرهبان عدة أسئلة ليتأكد من سلامة المعلومات. وقد شرح له الرهبان أن هناك دودة معينة تضع الحرير بطريقة طبيعية. ولما كان من الصعب نقل هذه الديدان حية، فإنه من السهل نقل الشرانق. وقد وعد الإمبراطور بتقديم هدايا قيمة لهم إذا نفذوا ما وعدوا به. وقد عاد الرهبان مرة أخرى إلى سرنيدا ثم عادوا بالشرانق إلى بيزنطة، ومنذ هذه المرحلة قد أصبح بالإمكان إنتاج الحرير في أراضي الإمبراطورية داخل عيدان شجر البامبو (البوص). وبعد مرحلة أصبحت تربية دودة القز واسعة الانتشار في أراضي الإمبراطورية، وبدأ استيراد الحرير من الشرق في الاضمحلال.

ولقد كان فتح العرب للشام ومصر والعراق أثرا كبيرا على تجارة الإمبراطورية البيزنطية، وقد عانت القسطنطينية في بداية الأمر الكثير ولكن وجود العرب كان أخف ضررا بكثير من الحروب الفارسية. وبعد فترة انتعشت التجارة رويداً رويداً عبر آسيا الصغرى وإلى البحر الأسود عند مدينة طرابيزون ومنها إلى العاصمة البيزنطية. ونمت صناعة الحرير وازدهرت وصار لمصانع الإمبراطورية شأناً كبيراً في صناعة الحرير، وجنت الإمبراطورية من وراء ذلك أرباحاً طائلة، فقد كان العرب في الشرق وأوروبا في الغرب وأهل الخزر وغيرهم في الشمال يسارعون لشراء الحرير البيزنطي.

والحقيقة التي صاحبت دخول العرب للشام والعراق ومصر أن تجارة

البحر المتوسط على الجانب الشرقي أي في بلاد الشام ومصر قد قلت كثيرا، فقد توقف استيراد الإمبراطورية البيزنطية للقمح من مصر، كما أن العمليات العسكرية البحرية في شرق البحر المتوسط قد أوقفت جانباً كبيراً من التجارة في هذه المنطقة، يضاف إلى ذلك أن العرب سيطروا تماماً على تجارة المحيط الهندي.

وقد فكر الخليفة هارون الرشيد في حفر قناة تربط بين البحر الأحمر عند مدينة القلزم - وهي السويس حالياً - وبين البحر المتوسط عند مدينة دمياط الحالية تقريباً. ويروي المسعودي أنه قد رام للخليفة هارون الرشيد أن يوصل بين هذين البحرين مما يلي النيل من أعالي مصبه من نحو بلاد الحبش وأقاصي صعيد مصر، فلم تتأت له قسمة ماء النيل، فرام ذلك مما يلي بلاد الفرما نحو بلاد تنيس، على أن يكون مصب بحر القلزم إلى البحر الرومي أي البحر المتوسط. ولكن هذه الفكرة لم تنفذ، فقد خاف المسلمون من قيام البيزنطيين بالإبحار بنفسهم عبر هذه القناة والدخول إلى البحر الأحمر والوصول إلى الأماكن المقدسة وإلحاق الأذى بالحجاج المسلمين. وفى ذلك يضيف المسعودي "أن يخطف الناس من المسجد الحرام والطواف ذلك أن مراكبهم تنتهي من بحر الروم إلى بحر الحجاز، فتطرح سراياها مما يلي جدة، فيخطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة.... فامتنع عن ذلك الخليفة.

وقد أدى عدم حفر القناة إلى أن مدينة طرابيزون على البحر الأسود قد أصبحت الميناء الشرقي الهام. وعندما استعاد الإمبراطور يوحنا تزيميسكس عام ٩٧١م مدينة أنطاكية تقدمت التجارة من مدينة حلب إلى أنطاكية وإلى مدينة سلوقية في الجنوب الشرقي في آسيا الصغرى. وهذا لا يعني أن كل التجارة البيزنطية قد اتخذت هذا الطريق بل جانبا منها فقط.

وظل الطريق الشمالي الآمن في تقدم محلوظ، حيث كانت تجارة الفراء والأسماك المجففة، ومن مدينة القسطنطينية أو مدينة سالونيك تحمل هذه التجارة إلى غرب أوروبا.

وفي إيطاليا كانت مدينة باري عاصمة الإقليم البيزنطي في إيطاليا، وقد ازدهرت هذه المدينة بفضل أسطولها الخاص وإن كان محليا، ولكنه استطاع أن يبعد العناصر اليونانية عن التجارة مع أوروبا شيئا فشيئا، ومعنى ذلك ازدهار بعض المدن الإيطالية الأخرى مثل أمالفي، ثم اعقب ذلك مدينتا بيزا وجنوة، وهكذا بلغت التجارة رويدا رويدا ذروتها فى القرن العاشر الميلادي.

وأعطت بيزنطة بعض الامتيازات للمدن التجارية الإيطالية في العاصمة البيزنطية فقد صار لمدينة أمالفي مندوبا يقيم في القسطنطينية فزادت جاليتها، وانتقلت التجارة من القسطنطينية إلى باري أو أمالفي إلى مدينة البندقية التي كانت تعتبر ميناء أوروبا الرئيسي، وقد ساعدها موقعها على أن تتولى عبء التجارة في شمال إيطاليا وألمانيا. ومن الامتيازات التجارية ما منحه الإمبراطور بازيل الثاني للبنادقة، فقد سمح لهم بدفع ضريبة مخفضة على بضائعهم التي تصدر من القسطنطينية مقابل حمايتهم لشواطئ البحر الأدرياتيكي ونقل قوات الإمبراطورية إذا لزم الأمر. وتعددت أنواع السلع التي نقلها البنادقة إلى العاصمة البيزنطية، وكان أهم أنواع هذه السلع هي الأسلحة والخشب والقماش الخشن، كما اشتهر سوق البندقية بالرقيق وذاع صيتها في هذا المضمار.

ومع ظهور السلاجقة في العراق وسيطرتهم على الخلافة العباسية ثم تقدمهم إلى آسيا عقب معركة ما نزكرت عام ١٠٧١م بدأ اضمحلال التجارة

البيزنطية فى هذا الجانب، فلم تعد البضائع تنقل إلى طرابيزون أو عبر آسيا الصغرى لأن السلاجقة سيطروا على هذه المناطق. يضاف إلى ذلك أن مملكة النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية بقيادة روجر الثاني قد أغارت في عام ١١٤٧م على أملاك الإمبراطورية الغربية واستولت على جزيرة كورفر، ومن هذه الجزيرة حُمل العمال المهرة في صناعة الحرير ومعهم معداتهم إلى بالرمو في صقلية، وبذلك خسرت الإمبراطورية جانباً كبير من جراء احتكارها لصناعة الحرير منذ عهد الإمبراطور جستينيان.

ومع بداية الحروب الصليبية عام ١٠٩٥م تغيّرت طرق المواصلات في الشرق والغرب على السواء. فبعد أن سيطر الصليبيون على المدن الساحلية الشامية نقلت التجارة رأساً من هذه الموانئ عن طريق السفن الإيطالية إلى غرب أوروبا مباشرة، ولم يبق للإمبراطورية البيزنطية سوى التجارة الشمالية فقط.

وضاعت التجارة الشمالية من الإمبراطورية البيزنطية عندما توسع آل كومنين في منح الامتيازات التجارية للمدن الإيطالية التجارية، وذلك مقابل تقديم هذه المدن العون العسكري للإمبراطورية ضد أعدائها. وقد منحت الإمبراطورية الامتيازات للبنادقة في بداية الأمر ثم إلى جنوه وبيزا. وقد سمحت الإمبراطورية لتجار هذه المدن بدفع الرسوم الجمركية بقيمة لا تتجاوز الأربعة في المائة بعد أن كانت عشرة في المائة. وليس هذا فحسب فقد منحت الإمبراطورية أيضاً مناطق كاملة في العاصمة وبعض المدن الأخرى لهؤلاء التجار الإيطاليين حتى بلغ عدد تجار المدن الايطالية فى المدن البيزنطية حوالي ستين ألفاً في نهاية عهد الإمبراطورية مانويل الأول عام ١١٨٠م. ولعل ذلك راجع إلى أن زوجة الإمبراطور مانويل كانت لاتينية الأصل وهي أميرة صليبية تدعى ماريا ابنة حاكمة أنطاكية. وقد أدى التوسع

في هذه المنح وتفضيل العناصر اللاتينية في البلاط البيزنطي إلى نتائج سيئة عقب نهاية حكم الإمبراطور مانويل. وعندما تولى الإمبراطور أندرونيقوس الأول، كان كره العناصر البيزنطية للعناصر اللاتينية قد نما، فأنزل البيزنطيون أعمال الذبح في العناصر اللاتينية خاصة الإيطاليين منهم على نطاق كبير في أنحاء الإمبراطورية. كما ألغى الإمبراطور الامتيازات التي منحت لهم، وقد نتج عن هذا كله عداء مرير بين الغرب الأوروبي والبيزنطيين، مما أدى إلى مهاجمة الحملة الصليبية الرابعة للعاصمة البيزنطية وانهيار الإمبراطور عام ١٠٢٤م حتى عام ١٢٦١م عندما استعادتها أسرة آل باليولوجوس.

وعندما نجحت أسرة باليولوجوس في استعادة الإمبراطورية لم تستعد كافة أراضيها، ولم تعد الإمبراطورية كسابق عهدها. كما أن أهل جنوه قد ساعدوا آل باليولوجوس على استعادة الإمبراطورية وطالبوا بالثمن، وكانت مكافآتهم هو ما تبقى للتجارة البيزنطية وهي تجارة الشمال حيث البحر الأسود. وقد جنى أهل جنوة أرباحاً طائلة من هذا الطريق التجاري كرد فعل لرخاء الإمبراطورية المغولية في الشرق، هذا بالإضافة إلى منح جنوة ضاحية بيرا أو جالاتا الواقعة على الضفة الشمالية للقرن الذهبي في مقابل القسطنطينية. والواقع أنه مع بداية حكم آل باليولوجوس أضمحلت القسطنطينية وازدهرت ضاحية جالاتا حيث حُملت كل أنواع التجارة إلى هذه الضاحية، في حين بقيت مدينة سالونيكا كسابق عهدها لبعض الوقت.

وحددت الإمبراطورية البيزنطية رسوما تعادل عشرة في المائة على البضائع المصدرة منها والمستوردة إليها. وحددت مدينة أبيروس في الجنوب لجمع رسوم البضائع الآتية عن طريق بحر إيجه، ومدينة هيريا Hieria المقابلة لمدينة القسطنطينية على الضفة الآسيوية للبضائع الآتية من البحر

الأسود، أما ضريبة البضائع الصادرة، فكانت تدفع في القسطنطينية، ولم يكن بوسع أية سفينة أن تعبر البوسفور أو الدردنيل إلا بعد دفع الضرائب المستحقة عليها. والحقيقة أن مثل هذا الضرائب قد أمدت خزانة الإمبراطورية بثروة هائلة، كانت الدول المحيطة بالإمبراطورية في حالة من الرخاء تمكنها من استخدام المواد التي تستوردها من الإمبراطورية، أو تصدرها إليها. وهناك نقطة يجب أخذها في الاعتبار وهي ضرورة وضع خاتم الدولة على البضائع التي كانت تصدر إلى الخارج.

وفيما يتعلق بالسلع التي صدرتها الإمبراطورية، فقد كان معظمها من المصنوعات المحلية، وهي من أدوات الترف حيث أنتجتها مصانع القسطنطينية خاصة مصانع الحرير الإمبراطوري والديباج الموشى. والأقمشة المقصّبة التي أثارت بهجة العظماء والأمراء والملوك. يضاف إلى ذلك مشغولات الفضة والذهب والأحجار الكريمة. وفوق ذلك كله ما أنتجه الصناع البيزنطيون من أكواب الذهب أو الفضة أو علب المخلفات وحواملها المكسوة بالمينا، ومنتجات من العاج، وصنعت الخمور في العديد من مدن الإمبراطورية. ومن الملاحظ أن تصدير مثل هذه السلع كانت تحت رقابة مشددة من قبل الإمبراطورية لأنها لم تسمح بشيوع تصدير سلع الترف أكثر مما ينبغي خارج الإمبراطورية حتى تحتفظ بندرتها وارتفاع أثمانها. يضاف إلى ذلك أن الإمبراطورية لم تسمح بإنزال بعض أنواع الأقمشة إلى السوق، وتم تصنيعها بكميات محدودة واقتصر أمرها على إرسالها كهدايا إلى بلاط الدول الأجنبية.

أما أهم الواردات من الشرق إلى الإمبراطورية، فقد كان خام الحرير حتى نهاية القرن السادس الميلادي، هذا بالإضافة إلى الواردات التي تأتي من الهند كالتوابل وغيرها، بالإضافة إلى السجاجيد الفارسية. ومن الشمال كانت

الأخشاب والفراء. أما من الغرب فقد كان تجار البندقية يجلبون الأسلحة والرقيق. وكانت هذه الواردات تخضع للرسوم الجمركية بما يوازي عشرة في المائة في أبيدوس إذا كانت قادمة من الجنوب أو في مدينة هيريا إذا كانت قادمة من الشمال. وكانت الإمبراطورية تلجأ في بعض الأوقات إلى تقديم إعفاءات جمركية على بعض البضائع الواردة مثلما حدث في عهد الإمبراطور قسطنطين السادس وأمه ايرين. وفي أحياناً أخرى لجأت الإمبراطورية إلى فرض خطر تام على الواردات الأجنبية مثلما حدث في عهد يوحنا الثالث فاتزيس امبراطور امبراطورية نيقية في المنفي. وتولى ديوان المالية عن طريق رجال الجمارك التابعين له تحصيل الرسوم الواجبة على البضائع الواردة والصادرة.

وكان ولاة المدن البيزنطية التجارية يتولون الإشراف على التجار والتجارة الأجنبية الواردة، وكان على التجار الأجانب أن يقدموا أنفسهم إلى مقر والي المدينة عند وصولهم، وكان لا يصرح لأي تاجر أجنبي أن يبقى في المدينة أكثر من ثلاثة أشهر، فإذا فرغ من بيع بضائعه قبل هذه المدة عليه الرحيل، وإذا لم يتيسر له التصرف في بضائعه فعليه أن يترك ما تبقى منها للوالي الذي يتولى أمر بيعها ثم يحتفظ بقيمتها المالية طرفه حتى قدوم التاجر في العام التالي. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان التجار الأجانب يوضعون تحت رقابة مشددة للتأكد أنهم لم يخرقوا قوانين الإمبراطورية.

ورغم الشدة البالغة التي فرضتها الإمبراطورية على صادراتها والبضائع الواردة إليها، فإنها لجأت في بعض الأوقات ولظروف سياسية أو عسكرية إلى منح بعض الإمتيازات، فقد منحت الأمبراطورية روسيا في عام ٩١١م، ٩٤٤ بعض الإمتيازات التجارية لأسباب سياسية، فقد كان أمير كييف يتولى تنظيم البعثة التجارية المتوجهة إلى القسطنطينية، وكان ينضم إلى هذه

البعثة بعض تجار المناطق المجاورة ليكونوا في حماية القوات الروسية من هجمات قبائل الخزر. وكانت هذه القافلة التجارية تأخذ طريقها جنوباً في نهر الدنيبر، ولما كانت الشلالات تعترض هذا النهر في أماكن متفرقة، فقد كان على التجار أن ينزلوا من سفنهم ومعهم بضائعهم لينقلوها براً حتى يتفادوا مخاطر الشلالات. ويقدم لنا كتاب إدارة الإمبراطورية وصفاً دقيقاً لهذه الرحلات التجارية وما كانت تلاقيه من مخاطر غارات القبائل القريبة من النهر، حتى إذا وصلت السفن إلى مياه البحر الأسود أصبحت في حماية الإمبراطورية البيزنطية بفضل المعاهدة المعقودة بين الروس والإمبراطورية.

ومنحت الإمبراطورية للروس مساكن وإقامة ووجبات مجانية خارج أسوار العاصمة في حي القديس ماماس Mamas، وكان يسمح للتجار الروس بدخول المدينة من البوابة القريبة من إقامتهم في حدود خمسين فرداً في المرة الواحدة دون سلاحهم، كما كانت البضائع الروسية لا تخضع للضرائب. وفي مقابل ذلك كله تحالف الروس مع الإمبراطورية لمواجهة أخطر القبائل القاطنة في شمال البحر الأسود خاصة بلغار شبه جزيرة القرم. وكان التجار الروس يجلبون معهم الفراء الروسي والشمع والرقيق، وكانت هذه البضائع تستبدل بالأقمشة الحريرية والخمور وبعض الفواكه. وعند عودة هذه القافلة الروسية إلى بلادها كانت الإمبراطورية تمدها ببعض الأدوات اللازمة للملاحة مثل الحبال والأشرعة والخطاطيف.

ومن الامتيازات التي قدمتها الإمبراطورية كانت المنح والتسهيلات التجارية التي قدمتها للبندقية، عندما عقد الإمبراطور بازيل الثاني في عام ٩٩١م معاهدة تجارية مع البندقية، وقد أصبح ذلك دليلاً قوياً على أن البندقية لم تعد مدينة بل دولة تجارية لها شأنها في شمال البحر الأدرياتيكي. وعندما سيطر النورمان على صقلية وجنوب إيطاليا واحتدم الصراع بينها وبين

الإمبراطور، لجأ الإمبراطور الكسيوس الأول في عام ١٠٨٢م أي بعد توليه بعام واحد إلى عقد معاهدة مع البندقية منح بموجبها التجار البنادقة حرية التجارة في أنحاء الإمبراطورية مع إعفائهم من الرسوم الجمركية مقابل مساعدة البنادقية للإمبراطورية في حروبها مع النورمان. وخاف الإمبراطور يوحنا بن الكسيوس من زيادة النفوذ التجاري للبنادقة، فقرر إلغاء هذه الامتيازات ومنح أقل منها لمنافستها جنوة، ومنح الإمبراطور مانويل امتيازات تجارية لمدينة بيزا Pisa في عام ١١٧٠، وهكذا تسابقت المدن الإيطالية التجارية للحصول على الامتيازات التجارية البيزنطية. وقد كسبت البندقية المعركة في النهاية فقد كان الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية والبندقية هو صراع بين الأرستقراطية الزراعية في القسطنطينية وبين الأرستقراطية التجارية في البندقية حتى انتهى الأمر بالحملة الصليبية الرابعة التي استغلها البنادقة في مهاجمة القسطنطينية وسقوط الإمبراطورية البيزنطية في عام ١٢٠٤ حتى عام ١٢٦١.

وخضعت التجارة البيزنطية للعديد من النظم والقوانين، وعملت الدولة على حماية منتجاتها واحتكرت بعضها خاصة صناعة الحرير والأسلحة والخبز، والتزم الجميع بمراعاة كافة القواعد والنظم التجارية وقلما خالفها أحد، وعندما منح الإمبراطور ليو السادس بعض الإمتيازات التجارية لبعض المقربين له، اعتبر هذا العمل فضيحة كبرى.

وكان الوالي هو موظف الدولة المسؤول عن الرقابة التي تقوم بها الدولة على الأعمال التجارية والصناعية، وقد تم ذلك كله عن طريق النقابات، فقد كان لكل صناعة أو تجارة نقابتها، ولا يحق للفرد أن يلتحق بنقابتين في وقت واحد، وتولى أمر النقابة رئيس يختاره أعضاؤها ويوافق عليه الوالي. وكان العمل الرئيسي للنقابة شراء المواد الخام التى تلزم

صناعتها، ثم تقوم بتوزيع هذه المواد على أعضائها الذين يصنعونها، ثم يحدد الوالي سعرها ويتم بيعها في مكان عام محدد لها، وبذلك لم يعد لتجار الجملة مكاناً. وإذ استعان أحد أعضاء النقابة ببعض العمال في تصنيع المواد الخام فإن ساعات العمل وأجور هذه العمال كانت محددة وواضحة للجميع ولا يجوز الخروج عليها.

وعاقبت النقابات من يخرج على قواعدها، وكانت هذه العقوبة تصل إلى الطرد من عضوية النقابة، وربما أضيف إليها بتر أحد أعضاء الجسم إذا كان الجرم كبيراً. وقد تكلف الدولة النقابة بأداء بعض الأشغال العامة إذا لزم الأمر، فقد كان أصحاب السفن يطالبون بتقديم المساعدة في حالة الكوارث البحرية. وقد كان فصل العمال من الأمور باللغة التعقيد، وإذا فصل أحد العمال وكان صحيح الجسم ألزمت الدولة بتشغيله في الأعمال العامة أو ألزمت الدولة بصرف إعانة له حتى يعمل، وبذلك لم تعرف الإمبراطورية البطالة، فقد كان مبدأها أن الكسل يورث الجريمة.

الدبلوماسية البيزنطية

لم يكن بالإمبراطورية البيزنطية جهازاً دبلوماسياً بالمعنى المفهوم في العصر الحديث، فلم يكن هناك سفارات دائمه الإقامة في الدول الأجنبية شأنها في ذلك شأن جميع الدول الأخرى المعاصرة لها. فقد كانت السفارات تعدّ بطريقة مركزية في العاصمة أو بطريقة غير مركزية عندما تبدو في الأفق مشكلة يتطلب حلها الإتصال بدولة أخرى، فإذا ما انتهت السفارة من مهمتها عادت أدراجها مرة أخرى. ومن هنا سميت بالسفارة لتعدد سفراتها.

والحقيقة أنه لا يوجد لدينا إلا قدر ضئيل من المعلومات المتناثرة في

المصادر البيزنطية وغيرها نستطيع أن نتلمس منها جانباً عن كيفية تنظيم الجهاز الدبلوماسي البيزنطي. ومن هذه المعلومات نستطيع أن نقول أنه كان بالإمبراطورية البيزنطية رئيساً لوزارة الخارجية، وهو منصب من أهم المناصب يتولى صاحبه أمر الخيل والبريد والمراسلات المتبادلة بين الإمبراطور وكافة الإدارات داخل الإمبراطورية، وقد يطلق على صاحب هذا المنصب لقب المستشار. ولشدة خطورة متولي هذا المنصب كان عليه مقابلة الإمبراطور يومياً لتصريف شؤون الدولة. وكان من واجبات هذا الرئيس إعداد الترتيبات اللازمة داخل القصر الإمبراطوري وخارجه لاستقبال سفراء الدول الذين قدموا إلى العاصمة، وكان عليه أيضاً إعداد البعثات الدبلوماسية إذا تطلب الأمر لإرسالها إلى الدول الأخرى. ورغم هذا كله فقد كان الإمبراطور هو الموجه الرئيسي للسياسة الخارجية.

ومن السفارات التي أعدت مركزياً في العاصمة السفارة التي تولى أمرها المندوب الإمبراطور بولس Pauls ليتولى أمر المعاهدة التي عقدها جستينيان الثاني مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ومنها أيضاً السفارة التي أرسلها الإمبراطور بازيل الأول إلى إقليم دالماشيا، وسبب ذلك أن أهالي دالماشيا أرسلوا مبعوثين دبلوماسيين من طرفهم يرجون الإمبراطور أن يسمح لهم بتعميد من لم يعمد منهم، كما أعلنوا خضوعهم وتبعيتهم للإمبراطور كما كانوا من قبل. وقد استجاب الإمبرطور بازيل لطلبهم وأرسل إليهم مبعوثاً إمبراطورياً يرافقه عدد من رجال الدين.

وقد أولت الإمبراطورية إلى عناصر الروس والبجناكية والأتراك والخزر وغيرها من عناصر السهوب الشمالية أهمية دبلوماسية خاصة، لذلك أوجدت قاعدة دبلوماسية خاصة في مدينة خرسون. وكان المندوب الإمبراطوري المكلف بمهمة مع أحد هذه العناصر، أن يصل أولاً إلى مدينة

خرسون حيث يتخذها قاعدة له، ومن هناك يتولى الاتصال بالعناصر التي يراد التعامل معها.

وقد ورد في كتاب الإدارة الإمبراطورية للمؤرخ قسطنطين السابع أهمية عناصر البجناكية للإمبراطورية، فقد ذكر أن البجناكية يقطنون بجوار إقليم خرسون ويتبادلون التجارة معه، ويؤدون خدمات لأهل الإقليم، وللإمبراطورية في المناطق الروسية والخزرية وكل المناطق المجاورة. ويوضح المؤلف أنه عندما يذهب المندوب الإمبراطوري في مهمة إلى البجناكية، فيجب عليه أن يصل أولا إلى مدينة خرسون، ومن هناك يرسل إلى البجناكية ويطلب منهم الرهائن ومرافقين لحمايته. أما إذا اتجه المندوب الإمبراطوري من القسطنطينية على سفن حربية، فلا يتجه إلى مدينة خرسون بل يتجه إليهم مباشرة، ولكنه لا يغادر سفينته بل يبعث إليهم بالرسائل وعندما يأتي مندوبو البنجاكية يقدمون إليه الرهائن ثم يبدأ بتقديم الهدايا، ثم يعقد معهم الاتفاق على ما يشاء سواء أكان عمل عسكري أم اقتصادي.

أما في الجانب الغربي من الإمبراطورية، فقد كان البلقان حيث العناصر البلغارية والصرب والكروات. وفي أوروبا كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا والملكية في فرنسا، والبابوية في روما، ومدن إيطاليا وأخيراً المسلمون في صقلية لبعض الوقت وشمال أفريقيا والمسلمون في الأندلس. وقد أولت الإمبراطورية إلى هذا الجانب أهمية خاصة. ففي الأمور البسيطة كان يتولى القائد البيزنطي المحلي معالجة الشؤون التي تطرأ من وقت لآخر، أما إذا كان الأمر من الأهمية فقد تقوم الإمبراطورية بإعداد البعثات المناسبة للقيامة بالمهام التي توكل إليها.

ومن الواضح أنه كان بالإمبراطورية طبقة خاصة معينة من

الموظفين المدربين والمعدين لهذا الغرض، هي التي كانت ترسل دائماً كسفراء عند الحاجة، ومن ذلك لسفير ليو Leo الذي أرسل في عدة سفارات إلى البلغار وإلى المسلمين في بغداد. وجرت العادة على إيفاد السفراء نفسهم إلى البلاد التي تولوا مهام رسمية فيها إذا نجحوا في مهمتهم، يضاف إلى ذلك أنه كان من الأفضل إرسال سفراء ممن يجدون لغة الدولة الموفدين إليها. وكان السفراء الذين يفدون إلى البلاد الإسلامية خاصة في الشرق يبحثون أمر الهدنة مع المسلمين أو تبادل الأسرى على الحدود، وهو المعروف في المصادر العربية باسم الفداء. ويحدثنا كتاب إدارة الإمبراطورية عن السفير قسطنطين لبس Lips المشرف على مائدة الإمبرطور الذي تولى أمر عدة سفارات في بلاد القوقاز خاصة مع أمير بلاد طارون.

وكان سفراء الإمبراطورية إلى بلاد أخرى يسافرون في حاشية فاخرة محملة بالهدايا الرائعة فيها من الذهب والجواهر والحلل الموشية، كما كانوا يعودون أيضاً محملين بالهدايا المناسبة لهداياهم، ويتوقف ذلك على نجاح المهمة الموفدين إليها.

وجرت العادة في العاصمة البيزنطية أن يتم استقبال سفراء الدول الأجنبية في رسميات جامدة، وكان يراد من وراء ذلك رفع مكانة الإمبراطورية إلى درجة كبيرة. ومن ذلك أنه إذا وصل سفير أجنبي إلى العاصمة عومل بكل أنواع آداب السلوك الرفيعة، وكانت هناك تعليمات مشددة تقضي بعدم مقابلة السفير القادم لأي شخص غير مسؤول، فإذا حان موعد استقبال السفير للإمبراطور استقبل بالدور إذا تعدد السفراء حسب ترتيب أهمية دولته لدى الإمبراطورية.

وعرفت الإمبراطورية نظام الدول الأولى بالرعاية في المعنى

الحديث. ومن ذلك أن الإمبراطورية عقدت معاهدة مع بطرس البلغاري ٩٢٧ - ٩٦٩ في العام الأول من حكمه، وبموجب هذه المعاهدة حصل بطرس على لقب قيصر، مع الاعتراف بالبطريركية التى أقامها البلغار في عاصمتهم، وتم زواج بطرس من الأميرة ماريا ليكابينا Maria Lecapena حفيدة الإمبراطور رومانوس ليكابينوس. وعلى ذلك فإنه منذ عام ٩٢٧م أصبح سفراء البلغار وهم الذين يمثلون ملكاً مصاهراً للإمبراطور، يمنحون أسبقية خاصة على جميع السفراء. وقد ظل هذا الإمتياز قائماً حتى قضىَ الإمبراطور يوحنا تزيميسكس على استقلال بلغاريا وعزل حاكمها بوريس ٩٧٦م.

وكان سفراء الدول الأجنبية يوضعون تحت رقابة مشددة، فلا يجوز لهم أن يعلموا أو يطلعوا على شئ لا ترغب فيه الإمبراطورية. وكان عليهم أيضاً توخي الحذر في كل تصرفاتهم وأحاديثم وإشاراتهم حتى لا يحدث منهم تصرف يستدل منه عدم احترام نظم الامبراطورية أو عاداتها أو ديانتها أو تقاليدها.

ولم تعرف الإمبراطورية الحصانة الدبلوماسية، فإذا خرج أحد السفراء عن العادات المألوفة في الإمبراطورية، أو كانت أوراق اعتماده مكتوبة بطريقة غير لائقة كان جزاؤه السجن، ومن ذلك أو أوراق مندوب البابا حنا الثالث عشر ٩٦٥ - ٩٧٢م التي قدمت إلى الامبراطور نقفور فوقاس في عام ٩٦٨م قد ألقي في السجن، لأن أوراق اعتماده كانت تحمل عبارة إمبراطور اليونان وليس أمبراطور الرومان.

والتزمت الإمبراطورية بتنفيذ المعاهدات لدرجة كبيرة، ولكن علاقاتها بالشعوب في غير ذلك كانت لا تكترث كثيراً بالقيم الأخلاقية، فقد كان من القواعد الأساسية في السياسة الخارجية البيزنطية دفع بعض الدول لضرب

أعداء بيزنطة، وقد ظل البيزنطيون يجيدون فن تحريض الدول أو القبائل على بعضها البعض.

والأمثلة عن القبائل متعددة، نذكر منها: أن الإمبراطور ليو السادس - أثناء صراعه مع الملك سيمون البلغاري المسيحي الديانة - تحالف مع عناصر الماجيار غير المسيحية لضرب سيمون في عام ٨٩٤م. كما أن الإمبراطور نقفور فوقاس قد استعان بالعناصر الروسية لضرب البلغار لأنه كان مشغولاً في ذلك الوقت بالصراع مع المسلمين في المشرق. وقد استجاب الروس لطلب نقفور واجتاحوا أراضي بلغاريا.

أما الأمثلة عن استخدام الإمبراطورية للدول لضرب أعوانها فهي كثيرة أيضاً، نذكر فيها أن المسلمين استولوا على مدينة باري في إيطاليا عام ٨٤٦م. وحتى تستعيد بيزنطة هذه المدينة التجارية الهامة التي تقع في البحر الأدرياتيكي إلى الجنوب، أرسل الإمبراطور بازيل الأول إلى لويس الثاني إمبراطور ألمانيا يطلب منه المساعدة على استرداد المدينة، وقد نجحت قوات لويس في الاستيلاء على المدينة عام ٨٧١م، وفي نهاية عام ٨٧٦م فتحت مدينة باري أبوابها أمام الحاكم العسكري البيزنطي، فعادت المدينة إلى الإمبراطورية البيزنطية.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أيضاً أن الإمبراطورية البيزنطية استعانت بالقوات الصليبية في الحملة الصليبية الأولى لضرب سلاجقة الروم في آسيا الصغرى. وقد استغلت الإمبراطورية الصليبيين أثناء عبورهم آسيا الصغرى في عام ١٠٩٧م لضرب سلاجقة الروم واستولت عدد من المدن السلجوقية مثل العاصمة نيقية ومدينة ضروروليوم وغير ذلك من الأراضي حتى تراجعت القوات السلجوقية إلى مدينة قونية التي أصبحت عاصمة

لهد، وبذلك استعادت الإمبراطورية حوالي نصف أراضي آسيا الصغرى فى عام واحد.

ووجدت الإمبراطورية البيزنطية مدخلاً آخر في الدبلوماسية البيزنطية، فقد لعبت المصاهرة دوراً كبيراً في هذا المضمار. فقد تزوج الأباطرة أنفسهم من أجنبيات كما زوّج الأباطرة البيزنطيون بناتهم أو أميرات بيزنطيات من حكام أجانب. ومما لا شك فيه أن هذا الزواج السياسي كانت له دوافعه وأسبابه. والحقيقة أن فكرة الزواج من أجنبيات أو العكس كانت من الأمور المحرمة في رأي المؤرخ الإمبراطور قسطنطين السابع، فقد ورد في كتابه إدارة الإمبراطورية في شكل نصائح ابنه ثلاث محرمات؛ الأولى منح التاج الإمبراطوري أو الملابس الإمبراطورية لغير بيزنطي من الأسرات الحاكمة، والثانية سر النار الأغريقية، والثالثة هو زواج الأجانب.

وقد سجّل قسطنطين السابع في كتابه حول زواج الأجانب وقال "لكل دولة عادات وتقاليد مختلفة تتميز بها عن غيرها ولها نظام خاص بها، وعلى الدولة اتباع الأعراف السائدة فيها واحترامها والمحافظة عليها". واعتبر أيضاً أن الزواج بأجنبيات مخالف لتعاليم الكنيسة ووصاياها ويلحق العار بالإمبراطورية.

وعلى أية حال فقد تمت مصاهرات بيزنطية في جوانب متعددة، يمكن تقسيمها على النحو التالي؛ زواج الأباطرة البيزنطيين من أجنبيات، وزواج حكام أجانب من أميرات بيزنطيات، وزواج بنات من عائلات كبيرة للحكام الأجانب.

ومن الأمثلة على النوع الأول وهو زواج الأباطرة من أجنبيات، فقد كانت له أسبابه السياسية. ومن ذلك أن الإمبراطور جستنيان الثاني لجأ إلى

خان الخزر بعدما خلع عن عرش الإمبراطورية واستعان به لاستعادة عرشه وتزوج من ابنة الخان ودخلت في الديانة المسيحية وحملت إسم ثيودورا. وللغرض السياسي أيضاً فإن ليو الأيسوري تحالف مع الخزر لإمكان دفع العرب عن بلاده وتزوج أبنه قسطنطين الخامس من ابنة خان الخزر في عام ٧٣٣م. كما تزوج الإمبراطور رومانوس الثاني من ابنة هيو أف بروفنس Hugh of Provense.

ومن النوع الأول أيضا وهو زواج الأباطرة من أجنبيات، فالأمثلة على ذلك كثيرة، فقد نرى الإمبراطور مانويل الأول وقد تزوج مرتين: الأولى كانت من برتا أف سالزباخ الألمانية والثانية هي: الأميرة الصليبية ماريا أميرة إنطاكية، كما أن الإمبراطور ألكسيوس الثاني قد تزوّج من أجنس التي عرفت باسم أنا Anna وهي أبنة الملك الفرنسي لويس السابع، ثم أصبحت أنا هذه زوجة للإمبراطور أندرونيقوس الأول. وكانت مارجريت الهنغارية هي الزوجة الثانية للإمبراطور إسحاق الثاني أنجيلوس.

وبعد سقوط القسطنطينية في عام ١٢٠٤م وقيام الإمبراطورية في المنفى إزدادت الحاجة إلى مثل هذا الزواج السياسي. فنجد الإمبراطور ثيودور الأول لاسكارس إمبراطور نيقية ١٢٠٤ - ١٢٢٢ وقد تزوج من ماري أف كورتناري الفرنسية لتكون زوجته الثالثة. كما أن تيودور الثاني لاسكاريس تزوج من هيلينا ابنة آسن الثاني قيصر بلغاريا (١٢١٨ - ١٢٤١م). وتزوج الأمبراطور يوحنا الثالث دوكاس فاتازس (١٢٢٢ - ١٢٥٤م) من كونستاس ابنة الإمبراطور فريدريك الثاني وعرفت باسم أنا Anna.

وحتى بعد أنْ استعاد البيزنطيون الإمبراطورية، فإن الامبراطور

أندرونيقوس الثانى تزوج من أنا Anna البلغارية. وحذا حذوه خلفه الامبراطور أندرنقيوس الثالث وتزوج من آن أميرة سافوى.

أما عن زواج الأجانب من أميرات بيزنطيات، فالأمثلة عليه عديدة أيضاً، ومن ذلك زواج الأميرة ماريا ليكابينا من بطرس ملك البلغار ٩٢٧ - ٩٦٩م مكافأة له على الصلح الذى عقده مع الامبراطورية بعد الحروب الدامية التى شنها والده سيمون على الامبراطورية. كما نرى زواج الأميرة ثيوفانو من الامبراطور الألمانى أوتو الثانى فى عام ٩٧٢م. وتزوج فلاديمير أمير كييف الروسى من الأميرة أنا Anna ابنة الامبراطور رومانوس الثانى. وزوّج الامبراطور مانويل الأول ابنته إلى الأمير الهنغارى بيلا Bela الذى اتخذ اسم ألكسيوس. والأكثر من ذلك أن مانويل جعل من بيلا وريثاً لعرشه لكى يؤمن وحده عرش بيزنطة وهنغاريا، ولكنه أقلع غن هذه الفكرة بعد ما رزق بمولود ذكر. وتزوجت يودكيا ابنة ألكسيوس الثالث من ستيفن ملك الصرب (١١٩٦ - ١٢٢٨).

ومن الأمثلة على زواج الأميرات البيزنطيات من حكام أجانب، زواج الملك الصليبى بلدوين الثالث (١١٤٤ - ١١٦٢م) من الأميرة البيزنطية ثيودورا فى عام ١١٥٨م، وزواج الملك الصليبى عمورى الأول (١١٦٢ - ١١٧٣م) من الأميرة البيزنطية ماريا فى عام ١١٦٧م. وكان للسياسة الصليبية والبيزنطية دوافعها فى هذه المرحلة، فقد أراد الصليبيون التحالف مع البيزنطيين ضد المسلمين فى بلاد الشام ومصر، كما أراد البيزنطيون تغلل نفوذ الامبراطورية فى المنطقة نفسها.

ومن هذه الأمثلة ما حدث بعد سقوط الامبراطورية عام ١٢٠٤م. فقد تزوجت الأميرة تامار Thamar أبنة نقفور حاكم إيبروس ١٢٧١ - ١٢٩٦م

من فيليب أمير تارنتو Tarento. كما تزوجت الأميرة ثيودوا أخت الامبراطور أندريقوس الثالث (١٣٢٨ – ١٣٤١م) من القيصر البلغارى ميخائيل ششمان (١٣٢٣ – ١٣٣٠م). وآخر الأمثلة هى زواج ثيودورا كانتاكوزين ابنة يوحنا السادس (١٣٤٧ – ١٣٥٤م) من السلطان العثمان أورخان (١٣٢٦ – ١٣٦٢م).

والمثال الثالث الخاص بزواج بنات من عائلات بيزنطية للحكام والأمراء الأجانب، فيمكن القول أن الدول التى كانت تقع إلى الشرق من الامبراطورية خاصة القوقازية أو الأرمينية كانت ترى فى الامبراطورية البيزنطية قمة حضارة العالم فى ذات الوقت، ولذلك كان التماس الزواج من البيوت البيزنطية يعتبر شرفا كبيراً لهم. وكان المقصود من هذا الزواج بث روح التحضر فى الجهات الأخرى. وحول مثل هذا الزواج سجل الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه إدارة الامبراطورية أنه جاءَ إلى العاصمة البيزنطية بانكراتيوس Bankratios أكبر أبناء أمير طارون الراحل، وقد مثل بين يدى الامبراطورية فأنعم عليه بلقب الشريف وعينه حاكماً عسكريا فى طارون. كما طلب بانكراتيوس أن يتزوج إحدى سليلات البيت الامبراطورى، وقد زوجه الامبراطور من أخت الماجستير ثيوفيلاكت. وبعد زواجه كتب بانكراتيوس وصية قال فيها "إذا أنجبت أبناء من هذه السيدة فإنهم يرثون الحكم فى بلادى". وبناء على ذلك طلب من الامبراطور أن يمنحه ضاحية لتكون مقراً لزوجته على أن تعود الضاحية إلى الامبراطور فى حالة وفاتها، ووافق الامبراطور على ذلك، وسمح له بالعودة إلى بلاده بعد أن حمّله بهدايا كثيرة.

ومن الدبلوماسية البيزنطية ما يعرف حاليا باللجوء السياسى، فقد اهتمت الامبراطورية البيزنطية بجمع عدد كبير من الثائرين على الحكومات

الأجنبية أو المدعين لعروشها. ولم يخل البلاط البيزنطى من مطالبين بتاج دولة أخرى حيث عاشوا فى العاصمة البيزنطية وتزوجوا من بيزنطيات. ومن ذلك أن الأمير تورنيكيوس عندما تضايق من أبناء عمه أمراء طارون طلب من الامبراطور رومانوس ليكابينوس إرسال أحد رجاله لكى يصحبه إلى العاصمة البيزنطية. وعندما قام توماس الصقلى بثورته ضد الامبراطور ميخائيل العمورى، وسانده الخليفة المأمون، رد عليه الامبراطور ثيوفيلوس بمساندة بابك الخرمي الذى ثار على الخلافة العباسية. كما أن الامبراطور مانويل استضاف نصرة الدين أخ نور الدين زنكي لبعض البعض، وذلك عندما اختلف نصرة الدين مع أخيه. واستضاف الامبراطور مانويل أيضا، أمراء من آل دانشمند الذين خرجوا عن طاعة السلطان السلجوقى قلج أرسلان.

لقد كانت الدبلوماسية البيزنطية باهظة التكاليف، لأن الامبراطورية قدمت الكثير من الهبات والهدايا للشعوب العديدة المحيطة بها، وهى أمور كلفت خزانة الامبراطورية الكثير من المال. ومن فلسفة الدبلوماسية البيزنطية أيضا هى دفع الأموال للدول المجاورة حتى لا تجتاح أراضيها. وقد اعتبرت الامبراطورية هذاالمال بمثابة رشوة لأعدائها بينما اعتبر هؤلاء الأعداء أن هذه المبالغ هى جزية مفروضة على الامبراطورية. ورغم أن الامبراطورية كان لديها جيشا كبيراً وأسطولاً قوياً إلاّ أنها كانت تفضل عدم استخدام قواتها مقابل بعض المال، ولم تستخدمها إلاّ عند الضرورة، ولذلك فضلت الامبراطورية سياسة الإيقاع بين الدول الأجنبية المحيطة بها وبذلك يكون لديها نوع من التوازن الذى يمنع غزو أراضيها كلما أمكن. وعلى ذلك تكون الدبلوماسية مزدهرة إذا ما كثرت أموالها والعكس هو الصحيح، ولم تكن الامبراطورية ترى فيما يسميه البعض جزية إلاّ استثماراً حكيماً لنفقات الجيش والأسطول.

ثبت

للأباطرة البيزنطيين

أسرة قسطنطين

	ميلاديـــة
قسطنطين الأول (الكبير)	٣٠٦-٣٣٧
قسطنطين الثانى	٣٣٧-٣٦١
جوليان (يوليان)	٣٦١-٣٦٣
جوفيان	٣٦٣-٣٦٤
فالنز	٣٦٤-٣٧٨

أسرة ثيودوسيوس

ثيودوسيوس الأول (الكبير)	٣٧٩-٣٩٥
أركاديوس	٣٩٥-٤٠٨
ثيودوسيوس الثانى	٤٠٨-٤٥٠
مارسيان	٤٥٠-٤٥٧
ليو الأول	٤٥٧-٤٧٤
زينو	٤٧٤-٤٩١
أناستاس	٤٩١-٥١٨

أسرة جستينيان

	ميلاديـــــة
جستين الأول	٥١٨-٥٢٧
جستيان الأول	٥٢٧-٥٦٥
جستين الثانى	٥٦٥-٥٧٨
طيبريوس الأول	٥٧٨-٥٨٢
موريس	٥٨٢-٦٠٢
فوقاس (مغتصب)	٦٠٢-٦١٠

أسرة هرقل

هرقل	٦١٠-٦٤١
قسطنطين الثالث	٦٤١-٦٤٢
قسطانز الثانى	٦٤٢-٦٦٨
قسطنطين الرابع (بوجوناتوس	٦٦٨-٦٨٥
جستينيان الثانى	٦٨٥-٦٩٥
ليونتيوس (مغتصب)	٦٩٥-٦٩٨
طيبريوس الثانى	٦٩٨-٧٠٥
جستينيان الثانى (عودته)	٧٠٥-٧١١
فيليبكوس	٧١١-٧١٣
اناستاس الثانى	٧١٣-٧١٦
ثيودوسيوس الثالث	٧١٦-٧١٧

الأسرة الأيسورية

	ميلاديـــــة
ليو الثالث	٧٤١-٧١٧
قسطنطين الخامس	٧٧٥-٧٤١
ليو الرابع	٧٨٠-٧٧٥
قسطنطين السادس	٧٩٧-٧٨٠
إيرين	٨٠٢-٧٩٧

خلفاء الأيسوريين

نقفور الأول (مغتصب)	٨١١-٨٠٢
ستوراكيوس	٨١١-
ميخائيل الأول	٨١٣-٨١١
ليو الخامس الأرمينى	٨٢٠-٨١٣

الأسرة العمورية

ميخائيل الثانى	٨٢٩-٨٢٠
ثيوفيلوس	٨٤٢-٨٢٩
ميخائيل الثالث (السكير)	٨٦٧-٨٤٢

الأسرة المقدونية

	ميلاديـــة
باسيل الأول	٨٦٧-٨٨٦
ليو السادس (الحكيم)	٨٨٦-٩١٢
ألكسندر	٩١٢-٩١٣
قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس .	٩١٣-٩٥٩
(اشترك معه رومـــانوس الأول ليكابينوس المغتصب)	من ٩١٩-٩٤٤
رومانس الثانى	٩٥٩-٩٦٢
نقفور فوقاس	٩٦٣-٩٦٩
يوحنا الأول تزيميسكس	٩٦٩-٩٧٦
باسيل الثانى (سفاح البلغار)	٩٧٦-١٠٢٥
قسطنطين الثامن	١٠٢٥-١٠٢٨
رومانوس الثالث (أرجيروس)	١٠٢٨-١٠٣٤
ميخائيل الرابع (البلافلاجونى)	١٠٣٤-١٠٤١
ميخائيل الخامس (قلفات)	١٠٤١-١٠٤٢
زوى وثيودورا	١٠٤٢-
قسطنطين التاسع مونوماخوس	١٠٤٢-١٠٥٤
ثيودورا (مره أخرى)	١٠٥٥-١٠٥٦
ميخائيل السادس (ستراتيوتيكوس)	١٠٥٦-١٠٥٧

أسرة دوكاس وآل كومنين

	ميلاديـــة
إسحق الأول كومنين	١٠٥٩-١٠٥٧
قسطنطين العاشر (دوكاس)	١٠٦٧-١٠٥٩
رومانوس الرابع (ديوجينس)	١٠٧١-١٠٦٧
ميخائيل السابع (دوكاس)	١٠٧٨-١٠٧١
نقفور الثالث (بوتانياتس) مغتصب	١٠٨١-١٠٧٨
ألكسيوس الأول (كومنين)	١١١٨-١٠٨١
يوحنا الثانى (كومنين)	١١٤٣-١١١٨
مانويل الأول (كومنين)	١١٨٠-١١٤٣
ألكسيوس الثانى (كومنين)	١١٨٣-١١٨٠
أندرونيقوس الأول (كومنين)	١١٨٥-١١٨٣

أسرة أنجيلوس

إسحق الثانى	١١٩٥-١١٨٥
ألكسيوس الثالث	١٢٠٣-١١٩٥
اسحق الثانى (عودته واشتراكه مع ابنه الكسيوس الرابع)	١٢٠٤-١٢٠٣
ألكسيوس الرابع (مورتزفلوس)	-١٢٠٤

الأباطرة اللاتين فى القسطنطينية

	ميلاديـــــة
بولدوين أمير الفلاندر	١٢٠٥-١٢٠٤
هنرى أمير الفلاندر	١٢١٦-١٢٠٦
بطرس كورتناى	١٢١٧-
يولاند	١٢١٩-١٢١٧
روبرت الثاني (كورتناى)	١٢٢٨-١٢٢١
بولدوين الثانى	١٢٦١-١٢٢٨

(تحت وصاية يوحنا دى برين ١٢٣١-١٢٣٧، ممارســة بولــدوين للــسلطة بمفرده (١٢٤٠-١٢٦١).

أباطرة نيقية البيزنطيين

ثيودور الأول لاسكاريس	١٢٢٢-١٢٠٤
يوحنا الثالث فاتاتزيس	١٢٥٤-١٢٢٢
ثيودور الثانى لاسكاريس	١٢٥٨-١٢٥٤
يوحنا الرابع لاسكاريس	١٢٦١-١٢٥٨
ميخائيل الثامن باليولوجس (مغتصب)	١٢٦١-١٢٥٩

أسرة باليولوجس

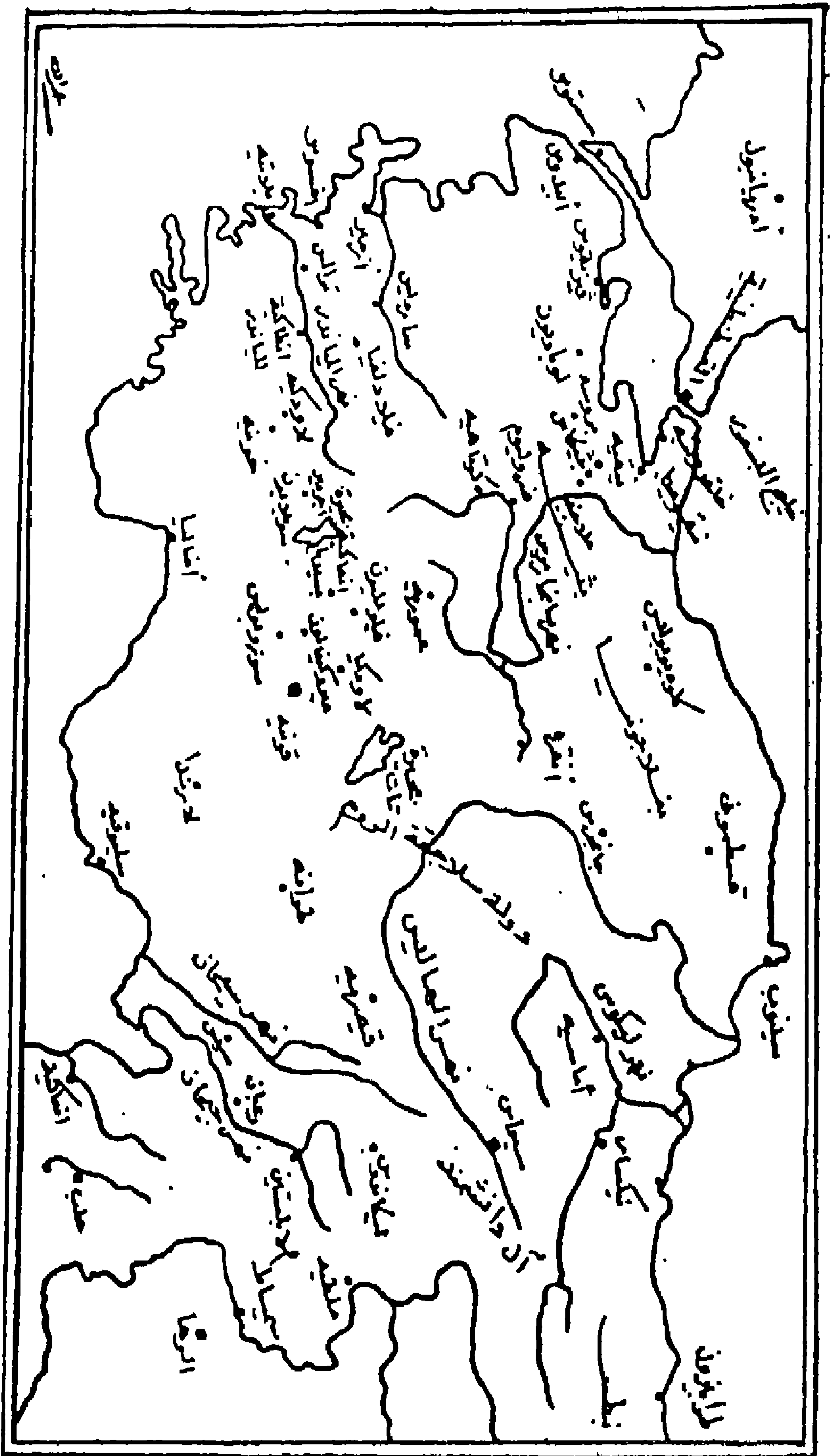
ميخائيل الثامن باليولوجس (امتداد)	١٢٨٢-١٢٦١
أندرونيقوس الثانى	١٣٢٨-١٢٨٢
(بالاشتراك مع ابنه ميخائيل التاسع ١٢٩٥-١١٢٢)	
أندرونيقوس الثالث	١٣٤١-١٣٢٨
يوحنا الخامس	١٣٩١-١٣٤١

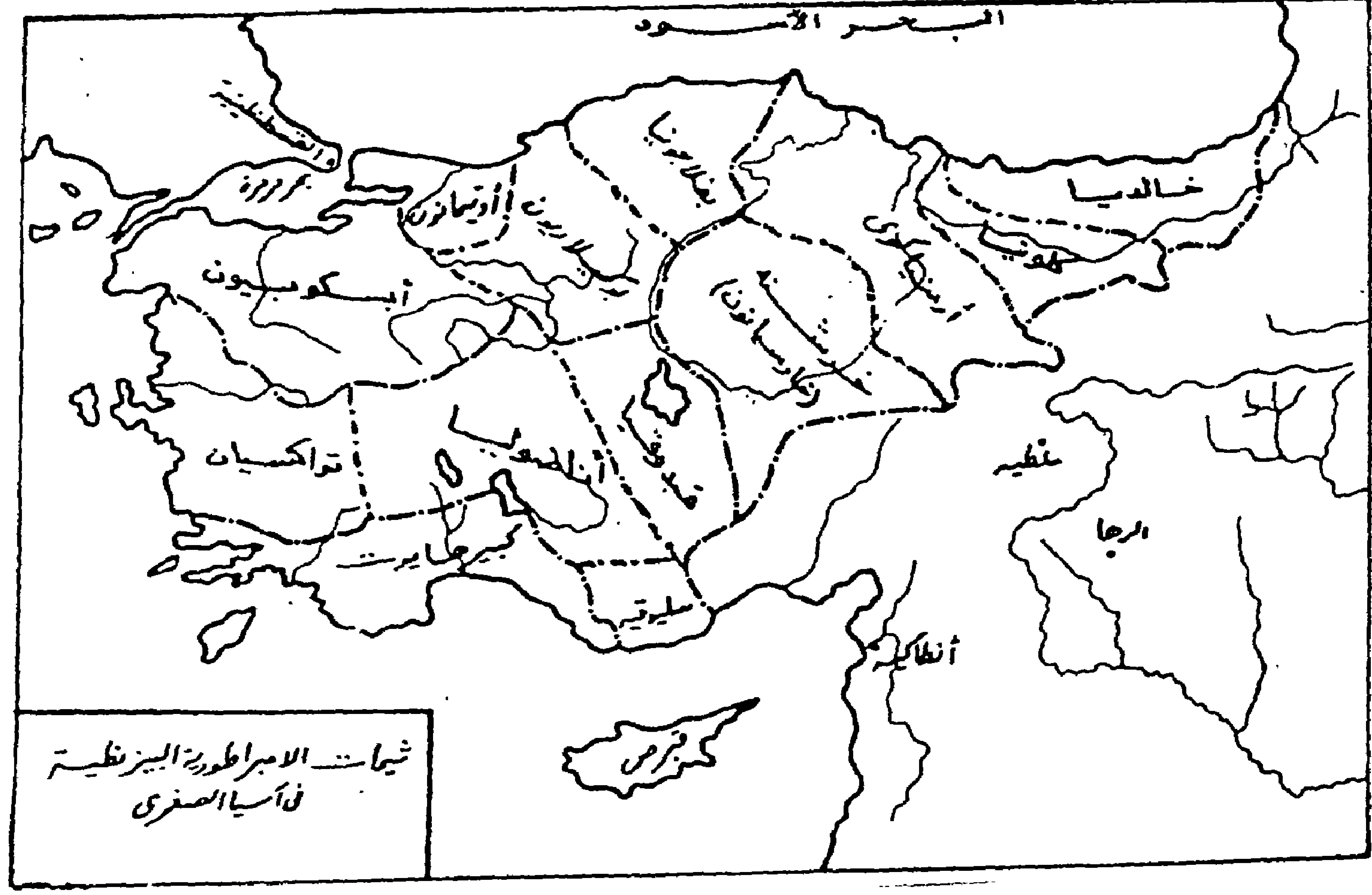
	ميلاديـــة
يوحنا السادس كانتاكوزين (مغتصب)	١٢٥٤-١٣٤٧
أندرونيقوس الرابع (ابن يوحنا الخامس)	١٢٧٩-١٣٧٦
يوحنا الخامس (عودته)	-١٣٩٠
يوحنا السابع (ابن أندرونيقوس الرابع، مغتصب)	-١٩٩٠
مانويل الثانى	١٤٢٥-١٣٩١
يوحنا الثامن	١٤٤٨-١٤٢٥
قسطنطين الحادى عشر	١٤٥٣-١٤٤٨

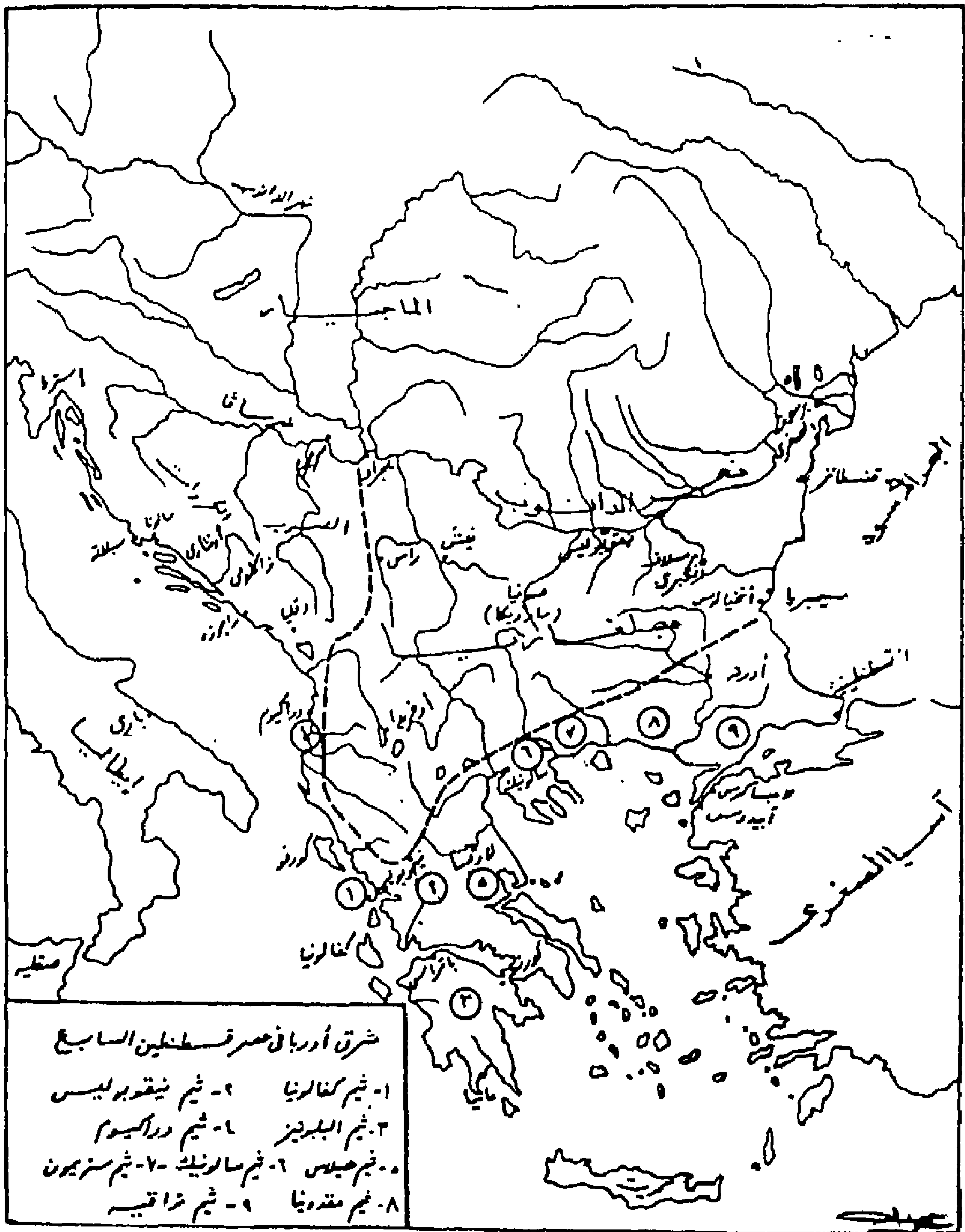
العناصر والدول المحيطة بالامبراطورية البيزنطية

نوفجورد
بلغاريا السوداء
نهر الدنيبر
كييف
نهر الدون
الخزر
ساركل
أتيل
مايوتيك
خرسون
بسبور
زيخيا
الآلان
البحر الأسود
الماجيار
نهر الدانوب
الصرب
البلغار
القسطنطينية
آسيا الصغرى

آسيا الصغرى




ثيمات الامبراطورية البيزنطية
في آسيا الصغرى
البحر الأسود
خالديا
أبسكوبيون
تراكسيان
بحر مرمرة
القسطنطينية
أوبتيماتون
بفلاجونيا
أناضوليك
ملطية
الرها
أنطاكية
قبرص
سلوقية


صقلية
كفالونيا
إيطاليا
آسيا الصغرى
شرق أوربا في عصر قسطنطين السابع
١- ثيم كفالونيا ٢- ثيم نيقوبوليس
٣- ثيم البلبونيز ٤- ثيم دراكيوم
٥- ثيم هيلاس ٦- ثيم سالونيك ٧- ثيم ستريمون
٨- ثيم مقدونيا ٩- ثيم تراقية

أهم المصادر البيزنطية مرتبة حسب القرون

Eusebios of Caesarea

Ecclesiastical History, As The History of the Church from Christ to Constantine, English trans. by G.A. Williamson, (New York: Penguin, 1965).

Ammianus Marcellinus

Res Gestae, English translation, J.C. Rolfe, Loeb Classical Library,3 Vols, (London and New York: 1933-39).

Zosimos

New History, English translation by Ronald D. Ridley, Byzantina Australiensa 2, Canberra: Australian Association For Byzantine Studies, 1982).

Sozomenos

Ekklesiastike Historia, Ecclesiastcal History, A history of the church in nine books, from A.D. 324 to A.D. 440, tran Edward Walford, (London: Bagster, 1846).

Priskos

The Age of Attila, fifth Century Byzantium and the Barnarians, (Ann Arbor: University of Michigan press, 1960).

Hohn Malalas

Chronographia, The Chronicle of john Malalas, trans Elizabeth Jeffreys, Michael Jeffireys, Roger Scott, Byzantine Australiensia 4, (Melbourne Australian Association for Byzantine Studies, 1986).

Theodoret of Cyrus

Ecclesiastical History, ed. L. parmentier, (Leipzig: 1911).

Procopios

History of the Wars, Secret History and Building, trans., ed And abridged Averil Cameron, Great Histories Series, (New York: 1967).

Evagrius

Ecclesiastical History, ed J. Bidez and L. Parmentier, (London: 1898, reprinted Amsterdam: 1964).

Theophanes of Byzantium

(fragments) in C. Muller, fragmenta Historicorum Greacorum IV, pp. 270-71 and in photios, Bibliotheca,ed R. Henry, Vol 2, (paris 1959), pp. 76-79

Nikephoros,

Short history, text, translation, and commentory, Corpus fontium Historiae Byzantinae; v 13 by Cyril Mango, (Washington, D C Dumbarton Oaks, 1990)

Theophanes the Confessor

Chronographia, trans Harry Turtledove, (Philadelphia, University of Pennsylvania press, 1982).

Theophanes Continuatus

Chronographia, (Book 5 Written by Constantine VII Porphygenitos) ed Immanuel Bekker, Corpus Scriptores Historiae Byzantinae, (Berlin: 1838).

George Monachos,

Chronicle, ed C. de Boor, (Leipzig: 1905).

Joseph Genesios

("Official" account of Michael III and Basil I)

ed. C. Lachmon, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn: 1828).

Nicholast I Mysticus

Letters of Nicholas I Patriarch of Constantinople, tran. R. J.H. Jenkins and L.G. Westering, Washington, 1973.

Symeon the Logothete

Chronicle, (ed. T. Tafel, "Munich 1859"); George Monachos Continuatos; and the Chronicle of Leo Grammatikos, (ed., Immanuel Bekker, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn: 1842); also Migne PG· 108. 1037-1164)

Constantine VII Porphyrogenitos

De Administrando Imperio, tran R J H Henkins, Washington, 1967

John Kaminatos

De Expugnatione Thessalonicae, ed Gertrude Bohlig, Corpus Fontium Historiae Byzantinae, Vol. IV, Series Berolinensis, (Berlin: De Gruyter, 1973).

Leo the Deacon

Historia, ed., V. B. Hase, Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae, (Bonn: 1828).

Michael Psellon

Chronographia, edired with critical notes and indices by Constantine Sathas 1 st AMS ed, (New York: AMS press, 1979).

Hohn Sktlitzes

Synopsis Historiarum, ed Hans Thurn, Corpus Fontium Historiae Byzantinae, Vol. V, Series Berolinensis, (Berlin. De Gruyter, 1978).

Skylitzes Continuatos

Loannis Scylizes Continuatus, ed E T Tsolakes, (Thessalonica 1968)

Michael Attaliates

Historia, ed. Immanuel Bekker, Corpus Scriptorium Historiae Byzantinae 34, (Bonn. 1853).

George Kedrenos

Historiarum Compendium, ed. Immanuel Bekker, Corpus Scriptores Historiae Vyzantinae 35-36, 2 Vols, (Berlin: 1838-39).

Constantine Manassas

Chronicle, ed as Breviarum Historiae Metricum, ed Immanuel Bekker, Corpus Scriptores Historiae Byzantinae, (Berlin: 1837).

John Zonaras

Epitome historiarum, ed. M. Pindar and Buttner-Wobst, 3 Vols, Corpus Scriptores Historiae Byzantinae, (Berlin: 1841-97).

Anna Komnena

The Alexiad, English trans E.A.Dawes, (London: 1928).

English trans. E.R.A. Sewter, (New York: Penguin, 1969).

Nicephoras Bryennios

Materials for a History, ed as Histoire with French trans. By paul Gautier, Corpus Fontium Historiae Byzantinae, Vol IX, (Brussels 1975).

John Kinnamos

Deeds of john and Manuel Comnenus, English trans Charles M Brand, (New York Columbia University press, 1976)

Niketas Choniates

O City of Byzantium, Annals of Niketas Choniates, trans Harry J Magoulias, (Detroit, Wayne State University press, 1984).

George Akropolites

Chonike Sungraphe, critical ed. As Opera, by A. Heisenberg (Leipzig: 1903).

Nikephoras Gregoras

Correspondance, ed. R. Guilland, Paris, 1927.

John Kantakuzenos

Historiarum, English partial trans by R. Trone History 1:119 (Ph. D Dissertation, Catholic University of America, 1979).

Nicolo Barbaro

Diary of the siega of Constantinople 1453 tran J.R. Jones, New York, 1969

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية انظر:

حاتم عبد الرحمن الطحاوى: الفتح الاسلامى للقسطنطينية يوميات الحـــصار العثمانى ١٤٥٣م القاهرة - عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعيـــة ٢٠٠٢م.

George Sphrantzes

Chronicon Maius, English trans as the Fall of the Byzantine Empire, by Marios Philippides, (Amherst MA: University of Massachusetts press, 1980) (This edition includes a short except on the fall of Constantinople by Michael Melissenos.).

Michael Kritovoulos

History of Mehmed the Conqueror, trans. Charles T. Rigg, (Princeton: Princeton UP, 1954).

مصادر اجنبية معربة

١ - قسطنطين بروفيروجنيتوس:

إدارة الامبراطورية البيزنطية - عرض وتحليل وتعليق الدكتور محمود سعيد عمران - بيروت - دار النهضة - ١٩٨٠.

٢ - كلاى (روبرت):

سقوط القسطنطينية - ترجمة الدكتور حسن حبش - القاهرة ١٩٦٤.

٣ - يوسابيوس القيصرى:

حياة قسطنطين العظيم - تعريف القمص مرقس داود - القاهرة ١٩٧٥.

قائمة المراجع الأجنبية

Baynes, N.H.

1- The Byzantine Empire. London 1926.

2- Byzantini Studies. London 1955.

- **Baynes and Moss (ED.):**

  - Byzantium. Oxford 1948.

- **Bury, J.B.**:

  1- A History of the Eastern Roman Empire. London 1912.

  2- The Imperial Administrative System in the Ninth Century. London 1911.

Canard, M.:

1- Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie, T.I. Paris. 1953.

2- "Les Expeditions des Arabes Contre Constantinople Journal Asiatique CCVIII (1926).

- **Coleman, C. B**:

  - Constantine the Great and Christinity New York 1914.

- **Collinet, P.:**

  - "Bysantine Legislation from the Death of Justinian (565 to 1543), Cambridge Medieval History IV. Etudes histories sue le droit de Justinien. Vol. 1. Paris 1912.

- **Diel, Charles**.:

  1- L'Afrique Byzantine. Paris 1896.

  2- Etudes Byzantines, Paris 1905.

  3- Figures Byzantines 2e series 1906 – 1908.

  4- Leo III and the Isaurian Dynasty. Cambridge Medieval Hisotry IV.

  5- Histoire de l'Empire Byzantin Paris 1930.

- **Every. G**
  - The Byzantine Patriarchate (451-1905). London1948

- **Finlay, G.:**
  - History of Greece VII Vols Oxford 1877

- **Goubert**
  - Byzance avant L'Islam. Paris 1954.

- **Grçgoire, H.:**
  1- Le people de Constantinople ou les Bleus et les Verts Comptes rendus de L'Academia des Inscriptions et Belles letters 1946.
  2- Un Edict de l'Empereur Justinien II date de Septembre 688 Byzantion 17 (1944, 1954).

- **Grousset, R.:**
  - Histoire de l' Armenie Paris 1947.

- **Heyd, W**
  - Histoire du Commerce du Levant au moyen agen 2 vols Leipzig 1885. Reprint 1923.

- **Hussey, J.:**
  1- "Michael Psellus". Sepeculum X (1935)
  2- Church and Larning in the Byzantine Empire. 867 – 1185 London 1937.

- **Laurent, J.:**
  - L'Armenie enter Byzance et L'Islam la conquête arabe Jusqu'en 886 Paris 1919

- **Lewis, A. R.**
  - Naval Power and Trade in the Mediterranean A D , 500-1100 Princetion 1954.

- **Lapez, R. S.**:

  - "Byzantine Law in the Eleventh Century and its reception by the Germans and the Arabs, Byzantion XVI (1944).

- **Oman, C.**:

  - A History of the Art of War in the Middle Ages. 2 Vols. London 1924.

- **Ostrogorosky, G.**:

  - History of the Byzantine State. Trans Joan Hussey. Oxford 1956.

- **Runciman S.**:

  1- Byzantine Civilisation. London 1933.

  2- The Emperor Romanus Lecapenus and Reign. Cambridge 1929.

- **Setton, K. M.**:

  - The Bulgars in the Balkans and the Occupation of Corinth in the Seventy Century. Speculum 25 (1950).

Vasiliev, A.:

  1- The Byzantine Empire 2 Vols. Madison 1952.

  2- Byzantium and the Arabs. 1900.

  3- "An Edict of the Emperor Justinian II. September 688", Speculum XVIII (1943).

  4- "The Second Russian Attack on Constantinople. In 860 – 61 Cambridge. Magg 1946.

المراجع العربية

ابراهيم أحمد العدوى (دكتور):

- الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية – القاهرة ١٩٥١.
- الأمويون والبيزنطيون – القاهرة ١٩٦٣.

أسد رستم:

الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب – ٢ جـ – بيروت – دار الكشوف ١٩٥٥.

السيد الباز العرينى (دكتور):

الدولة البيزنطية (٣٢٣-١٠٨١م) القاهرة ١٩٦٠.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور):

العرب والروم واللاتين فى الحملة الصليبية الأولى – دار المعارف بمصر – طبعة ثانية ١٩٦٧.

رانسمان (ستيفن):

الحضارة البيزنطية – ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة زكى على – القاهرة – مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١.

عبد القادر أحمد اليوسف:

الامبراطورية البيزنطية – بيروت ١٩٦٦.

عمر كمال توفيق (دكتور):

- الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضى المقدسة – الإسكندرية ١٩٥٩.
- مقدمات العدوان الصليبيى: الامبراطور يوحنا تزيميسكس وسياسته الشرقية – الإسكندرية ١٩٦٦.
- تاريخ الدولة البيزنطية – الهيئة المصرية العامة للكتاب – فرع الإسكندرية ١٩٧٧.

محمود سعيد عمران (دكتور):

نيقولا مستيقوس وعلاقة الامبراطورية البيزنيطة بالقوى الإسلامية من خـــلال مراسلاته – بيروت – دار النهضة ١٩٨٠.

نبيه عاقل (دكتور):

الامبراطورية البيزنطية (دراسة فى التاريخ السايسى والثقافى والحضارى) – دمشق ١٩٦٩.

الأستاذ الدكتور/ محمود سعيد عمران

أستاذ تاريخ العصور الوسطى - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

أولاً: الكتب:

١-الحملة الصليبية الخامسة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، إسكندرية، ١٩٧٨.

٢-إدارة الإمبراطورية البيزنطية ترجمة وتعليق – دار النهضة، بيروت، ١٩٨٠.

٣-معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار النهضة – بيروت، ١٩٨٠

٤-معالم تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٢.

٥-مملكة الوندال فى شمال أفريقيا، دار المعارف، إسكندرية، ١٩٨٥.

٦-السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، دار المعارف، إسكندرية، ١٩٨٥.

٧-القادة الصليبيون الأسرى فى أيدى المسلمين، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٦.

٨-تاريخ الحروب الصليبية، دار النهضة، بيروت، ١٩٩٠.

٩-حضارة أوروبا فى العصور الوسطى، دار النهضة، بيروت، ١٩٩١.

١٠-تاريخ مصر فى العصر البيزنطي، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٩٦.

١١-أوروبا والمغول، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ١٩٩٧.

١٢-الإمبراطورية البيزنطية وحضارتها، دار النهضة، بيروت، ٢٠٠١.

١٣-المغول والأوربيون والصليبيون وقضية القدس، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية، ٢٠٠٣:

١٤-تاريخ اوربا فى العصور الوسطى، دار النهضة،بيروت ٢٠٠٥

١٥- منهج البحث التاريخى ومصادر العصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٦

١٦- مصر فى العصر البيزنطى، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٦.

ثانياً: بحوث باللغة العربية:

١-نيقولا مستيقوس وعلاقة الإمبراطورية البيزنطية بالقوى الإسلامية،دار النهضة، بيروت، ١٩٨٠.

٢-المؤرخ جريجورى التورى، منشورات جامعة بيروت العربية، بيروت، ١٩٨٠.

٣-الإمبراطورية البيزنطى رومانوس الرابع ديوجينس ١٠٦٨ - ١٠٧١م فى ضوء حولية ميخائيل بسلوس، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية. ٨٢/ ١٩٨٣.

٤-أركولف ورحلته إلى الشرق، بحث منشور فى ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط - جامعة عين شمس، المجلد ١٣ دار المعارف، ١٩٨٥.

٥-كتابات الرحالة أركولف كمصدر لبلاد الشام في عصر الراشدين، بحث منشور فى أعمال المؤتمر الدولى الرابع لبلاد الشام - الأدرن عمان، ١٩٨٧.

٦-صلاح الدين من الإسكندرية إلى حطين، بحث فى المؤتمر الدولى لذكرى مرور ٨٠٠عام على معركة حطين، بغداد، ١٩٨٧.

٧-السفراء والقناصل فى عصر الحروب الصليبية، بحث ألقى فى الموسم الثقافى لجامعة بيروت العربية - بيروت، ٨٧/ ١٩٨٨.

٨-الهدن بين المسلمين والصليبيين فى عصر الدولة الأيوبية، بحث أُلقى فى ندوة العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، ٢٠ - ٢٢ أكتوبر ١٩٩٢ كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٢.

٩-رحلة الشهيد أنطونيوس إلى بلاد الشام ومصر ٥٦٠ - ٥٧٠م، بحث ألقى فى ندوة العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى الثانية، ٣٠ - ١٠ إلى ١ - ١١ - ١٩٩٣، كلية الآداب - جامعة المنيا، ١٩٩٣.

١٠-تحصينات مدينة القسطنطينية فى مواجهة الغزوات الخارجية، بحث ألقى فى ندوة الحضارة الإسلامية وعالم البحار - اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ٦ - ٨ نوفمبر ١٩٩٣.

١١-مصر فى كتب الرحالة الأجانب فى العصر البيزنطى، بحث ألقى فى مؤتمر الإسكندرية الدولى حول التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط عبر التاريخ ٢٢ - ٢٦ يناير ١٩٩٤.

١٢-دور الحركة الصليبية فى تكوين مملكة البرتغال، ندوة الأندلس: الدرس والتاريخ - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ١٣ - ٢٥ أبريل ١٩٩٤.

١٣-حولية سقوط لشبونة ١١٤٧م، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحى خلال القرون الوسطى كلية الآداب، الرباط ٢ - ٤، نوفمبر ١٩٩٤، نشر ١٩٩٥.

١٤-السلطان قلاوون بين أوروبا والمغول، بحث ألقى فى ندوة مدينة طرابلس لبنان بمناسبة مرور ٧٠٠عام على بناء الجامع المنصورى ١٧ - ٢٤ نوفمبر ١٩٩٤.

١٥-روسيا وسقوط الإمبراطورية البيزنطية، ندوة تاريخ وحضارة العصور الوسطى - كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ٢٤ - ٢٥ أبريل ١٩٩٤.

١٦-تحصينات مدينة دمياط فى عصر الحروب الصليبية، ندوة التاريخ العسكرى لشمال مصر عبر العصور، كلية الآداب، ٨ - ٩ اكتوبر ١٩٩٥.

١٧-وليم آدم واستعادة الأراضى المقدسة، ندوة الإطار التاريخى للحركة الصليبية - اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ٢٨ - ٢٩ نوفمبر ١٩٩٥.

١٨-القدس فى كتب الرحالة الأجانب فى العصر البيزنطى، ندوة القدس: التـاريخ والحضارة، كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ٢ - ٥ نوفمبر ١٩٩٦.

١٩-العلاقة بين مغول فارس ومغول القفجاق بعد معركة عين جـالوت ١٢٦٠ - ١٢٧٠م، بحث ألقى فى ندوة إقليم الخليج على مر عصور التاريخ - اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ٢٣ - ٢٥ نوفمبر ١٩٩٦.

٢٠-شارل كونت أنجو بين القسطنطينية وتونس والقدس، بحث ألقى فى ندوة بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق حتى أواخر القرن الخـامس عـشر المـيلادى "التاسع الهجرى"، القاهرة ٢٥ - ٢٦ نوفمبر، ١٩٩٧.

٢١-حصار الصليبيين والقوات الفاطمية لصلاح الدين فـى مدينـة الإسـكندرية ٥٦٢هـ، بحث القى فى ندوة سواحل مصر الشمالية عبر العصور - كليـة الآداب - جامعة الإسكندرية بالاشتراك مع المجلس الأعلـى للثقافـة ٢٢ - ٢٣ أبريل ١٩٩٨.

٢٢-الحركة الفكرية فى الإسكندرية فى القرون الأولى للمـسيحية، مـشاركة فـى الكتاب الذى أصدرته محافظة الإسكندرية (د.ت).

٢٣-المراكز الحضارية فى مصر والشام فى القرون المسيحية الأولى، بحث ألقى فـى المؤتمر الدولى الثالث (التبادل الثقافى بين شعوب البحر المتوسط) - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية بالاشتراك مع وزارة الثقافة ١٢ - ١٥ أغسطس ١٩٩٨.

٢٤-العرب فى مدونة المؤرخ السريانى زكريا الملتينى، بحث ألقى فى ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة تحت اسم "أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب" ٢٤ - ٢٦ نوفمبر ١٩٩٨.

٢٥-أفكار بيير دو بوا لاستعادة الأراضى المقدسة - مؤتمر بلاد الشام فى فترة الصراع الإسلامى الفرنجى ٤٩١ - ٦٩٠هـ - جامعة اليرموك - كلية الآداب إربد - الأردن من ٨ - ١٠ نوفمبر ١٩٩٩.

٢٦-فشل الحروب الصليبية وأثره علىالفكر الأوربى - مؤتمر التبادل الحضارى بين شعوب حوض البحر المتوسط- من ١١/٢٩ إلى ١/١٢/ ١٩٩٩ - جامعة بيروت العربية - كلية الآداب.

٢٧-دور إيمرى بطريرك أنطاكية فى دعم الحروب الصليبية - مؤتمر "الصليبيون والشرق" - الجمعية التاريخية اللبنانية - من ٢ - ٤ / ١٢ ١٩٩٩ - بيروت - لبنان.

٢٨- أفكار جديدة فى منهج البحث التاريخى، بحث ألقى فى المؤتمر السنوى الأول للنقد الأدبى بكلية الآداب/ جامعة الاسكندرية ٢٦-٢٨ نوفمبر ٢٠٠٥.

٢٩- دور المعظم عيسى حاكم دمشق فى مواجهة الحملة الصليبية الخامسة على مصر ١٢١٨ - ١٢٢١م ، الندوة الدولية دمشق فى التاريخ ٢٠ - ٢٤ /١١/٢٠٠٦.

٣٠- ثورة دمشق وآثارها على معركة عين جالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠م ، الندوة الدولية "دمشق فى التاريخ"، ٢٠- ٢٤ / ٢٠٠٦/١١.

ثالثاً: كتب باللغة الإنجليزية منشورة بالخارج:

Contributors,

Chronicles of the Crusades, Eye – Witness Accounts of the Wars Between Chrestianity and Islam – Edited by Elizabeth Hallam, London 1989.

رابعاً: بحوث باللغة الأجنبية منشورة بالخارج:

1-King Aamarlric and the Siege of Alexandria, in the First Conference of the Crusades and the Latin East, Cardiff 1 – 4 Sep. 1982, Cardiff 1985, UK.

2-Truces between Moslems and Crusaders (1174 – 1217) in Autour de la premiere Croisade. Actes du Colloque de la “society for the Study of the Crusades and the Latin East” (Clermont – Ferand 22 – 25 Juin 1995 France). Reunis par Nichel Balard, publication de la Sorbonne, Paris 1996.

3-John Kinnamos As a Historian of the Second Crusade. In the international. Symposium on Crusade 23- 25 June 1997. Istanbul. Turky.

4-Edward I King of England and the Holy Land (Jeruslem) In the 35 th Innternational Congress of Asian and North African studies, 2 – 21 July 1977. Budapest – Hungaria.

5-Grigor of Akanc as a Historian for the Moslem Nations. In The International Medieval Congress, 9 – 12 July 2001, University of Leeds. UK,.

6-Hohenstaufen and Their Arab Subjects and Moslems Against Excommunication. In The International Medieval Congress, 8 – 11 July 2002, University of Leeds, UK.

إضافات أخرى

عن الأستاذ الدكتور محمود سعيد عمران

١-جائزة جامعة الإسكندرية للتشجيع العلمى.

٢-جائزة جامعة الإسكندرية للتميز العلمى للعلوم الإنسانية.

٣-عميد كلية الآداب – جامعة بيروت العربية سابقاً.

٤-عضو جمعية الآثار بالإسكندرية.

٥-عضو الجمعية التاريخية المصرية.

٦-عضو اتحاد المؤرخين العرب.

٧-عضو الجمعية الدولية لدراسات الحروب الصليبية والشرق اللاتينى.

ociety for the Study of the Crusades and Latin East.

٨-عضو الجمعية الدولية لدراسات التاريخ العسكرى فى العصور الوسطى

The Society for Medieval Military History

٩-مستشار بهيئة تحرير مجلة من ١٩٩٦ – ٢٠٠٣م.

Al-Masaq, Islam and The Medieval Mediterranean, Leeds, U. K.

التى تصدر من قسم دراسات اللغة العربية والشرق الأوسط فى جامعة ليدز المملكة المتحدة (إنجلترا).

١٠-عضو بهيئة تحرير مجلة Journals التى تصدر من المملكـــة المتحـــدة، والولايات المتحدة الأمريكية.

١١-مُحكم على مستوى العالم العربى والدولى.

١٢-رئاسة جلسة فى مؤتمر دولى:

Autour de La Premiere Crosiade Actes du Colloque de la "Society for the Study of the Crusades and the Latin East" (Clermont - Ferand 22- 25 Juin 1995 France).

١٣-رئاسة جلسة فى مؤتمر دولى:

The 35 th International Congress of Asian and African studies, 2- 12 July 1997, Budapest, Hungaria.

١٤- **Round Table about The First Crusade and The Fall of Jerusalem, in the Second International Conference on the First Crusade. Faculty of Huesca, 7- 11 Sept., 1999 University of Zaragoza, Spain.**

المحتويات


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين